

سلسلة فضائل أهل البيت عند أهل السنة

أهل البيت في مصر

إعداد و تقديم

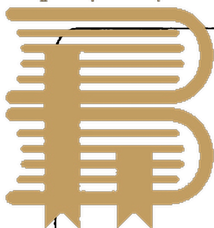
سيد هادي خسروشاهي

تحقيق

شوقي محمد

مركز التحقيقات و الدراسات العلمية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية



سلسلة فضائل أهل البيت عند أهل السنّة

أهل البيت في مصر

عدّة من الباحثين والمفكّرين المصريّين

إعداد وتقديم

سيد هادي خسروشاهي

تحقيق

شوقي محمد

اهل البيت في مصر/ اعداد وتقديم سيد هادي خسروشاهي؛ تحقيق شوقي محمد. - - تهران: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، المعاونية الثقافية، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، ١٤٢٧ق = ٢٠٠٦م = ١٣٨٥.
٥٢٠ ص. - - (سلسلة فضائل أهل البيت عند أهل السنة)

ISBN: ٩٦٤ - ٨٨٨٩ - ٢٦ - ٠

فهرستنويسي بر اساس اطلاعات فيپا.
١. امامزاده‌ها - - مصر. ٢. زيارتگاههاي اسلامي - - مصر. ٣. آرامگاهها - - مصر. الف. خسروشاهي، هادي، ١٣١٧ - ، گردآورنده و مقدمه‌نويس. ب. محمد، شوقي، محقق. ج. مجمع جهاني تقريب مذاهب اسلامي . معاونت فرهنگي. د. مجمع جهاني تقريب مذاهب اسلامي. مركز مطالعات وتحقيقات علمي. هـ عنوان .

٩ الف /BP ٢٦٣/٨ ٢٩٧/٧٦٦

كتابخانه ملي ايران ٥٨٠ - ٨٥م



المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

اسم الكتاب: أهل البيت في مصر
(سلسلة فضائل اهل البيت عند اهل السنّة)
اعداد و تقديم: سيد هادي خسروشاهي
تحقيق: شوقي محمد
تقويم النصّ: شوقي محمد
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - المعاونية الثقافية/مركز التحقيقات والدراسات العلمية
الطبعة: الاولى -١٤٢٧ هـ.ق / ٢٠٠٦ م
المطبعة: نگار
الكمية: ١٠٠٠ نسخة
السعر: ٣٥٠٠٠ ريال
ردمك: ٩٦٤ - ٨٨٨٩ - ٢٦ - ٠ ISBN: ٩٦٤ - ٨٨٨٩ - ٢٦ - ٠

العنوان: الجمهورية الاسلامية في ايران _ طهران _ ص. ب: ٦٩٩٥ _ ١٥٨٧٥
تلفكس: ١٤ - ٨٣٢١٤١١ - ٢١ - ٠٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾

الأحزاب: ٣٣

فهرس مواضيع الكتاب

مكانة آل البيت ومنزلتهم

أهل البيت في مصر

٣ ـ السيدة نفيسة عليها السلام

٤ ـ السيدة سكينة بنت الإمام الحسين عليها وعليه السلام

٥ - السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين عليها وعلى أبيها السلام

٦ ـ السيدة رقيّة بنت الإمام علي عليها وعلى أبيها السلام

٧ ـ إبراهيم ابن الإمام الحسن عليه السلام

٨ ـ الإمام حسن الأنور حفيد الإمام الحسن بن علي عليهما السلام

٩ ـ الإمام زيد ابن الإمام علي زين العابدين عليهما السلام

١٠ ـ محمد الجعفري ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام

١١ ـ السيدة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق عليه السلام

١٢ ـ السيدة كلثوم حفيدة الإمام جعفر الصادق عليه السلام

زيارة قبور أهل البيت عليهم السلام

ملاحق الكتاب

ملحق (١) كتاب أخبار الزينبات

ملحق (٢) مالك الأشتر

ملحق (٣) محمد بن أبي بكر رضي الله عنه

الفهارس الفنّيّة

مقدمة المركز

مع الزيادة المستمرّة في تأليف الكتب التي تصدح بمناقب وسيرة أهل بيت النبي الأكرم ﷺ، المستندة إلى المصادر والوثائق المختلفة والمحفوظة في خزانات متعددة، ومع النموّ الكمّي للعناوين والموضوعات والزوايا التي تتصل بالحديث عن تاريخ العترة الطاهرة وأبنائهم الطيّبين، المنتشرين في بقاع عدّة من بلاد الإسلام العريضة، إمّا خوفاً من ظالم، أو هجرةً لعيش أفضل، أو طلباً للعلم والحكمة، أو نشراً لتعاليم دين جدّهم الأكرم ﷺ، أو نفياً وإبعاداً من قبل السلطات....، فمهما تعدّدت الأسباب للسفر إلى تلك البقاع البعيدة عن مدينة جدّهم، وعن عشيرتهم وأهليهم، فالهدف يبقىٰ سامياً، ويتلخّص بنشر الأُصول الأخلاقية والمعنوية والدينية في الأمة من ناحية، والدفاع عن حياض الدين القويم ـ كتاباً وسنّةً ـ بقمع الشبهات والأوهام التي يحاول الأعداء نسجها في عقول العوام من ناحية ثانية، وحلّ المشاكل التي تهمّ الناس والهموم التي تعاني منها شعوب هذه الأمة وتقديم المعونة لهم من ناحية ثالثة.

نقول: إنّه مع الزيادة في هذه التراكمات الموضوعية على هذا الصعيد، بدأت الفكرة تلحّ في أذهان البعض من الوسط الثقافي الإسلامي إلى تصنيف معجم يضمّ كلّ ما أُلّف

وكتب في أهل البيت عليهم السلام، ويبدي اهتماماً كبيراً في الكشف عن أبرز العناوين التي تصدّت بالحديث عن سيرة وتاريخ وشخصيات هذا البيت العتيق.

ولعلّ كتاب «أهل البيت في المكتبة العربية» من آثار المحقّق المتتبع المرحوم السيد عبدالعزيز الطباطبائي، من أروع ما صنّف على هذا الصعيد، حيث عرض لعناوين الكتب والرسائل المؤلّفة في حبّ وسيرة وتاريخ أهل البيت عليهم السلام، والمنسوبة للمتقدّمين والمتأخّرين، وحسب الحروف الألفبائية، مع ذكر النسخ المتعدّدة لها، وأماكن وجودها في خزانات مكتبات العالم كلّه.

لكن الأستاذ حجة الإسلام والمسلمين السيد هادي خسروشاهي حفظه الله قد قام بمبادرة جديدة تجدر الثناء عليها وتقديرها، حيث أحضر كل ما كتب عن أهل البيت عليهم السلام المدفونين بمصر، من الأبناء والأحفاد الأشراف من ولد علي بن أبي طالب وبناته، والتي تشهد أضرحتهم أرض الكنانة، وتشمخ مآذنهم سماء القاهرة، واقتطف منها ما يراه مناسباً للحديث عن الشخصية الشريفة، وموضع دفنها، وأبرز ما قيل فيها، وبأقلام متعددة، بعيدة عن كل ما يمسّ المشاعر المذهبية، ويعكّر صفو النفوس النبيلة.

إنّنا نجد لزاماً علينا ـ من واقع خبرتنا في التقريب ـ أن نثمّن جهد السيد المعدّ، لأنّ من شأنها أن تسهم في توثيق الروابط المقدّسة بين الأمة وأبناء هذا البيت الشريف من جانب، وفي تمتين أواصر الوحدة بين شعوب الأمة الإسلامية عبر الارتكاز على محور أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة من جانب آخر. ويقيناً أنّ كلّ نجاح نحقّقه في هذا الميدان ـ من طبع الكتب بعد تحقيقها وتوثيقها ـ سوف يصبّ بالضرورة في تجاه تحقيق التقارب والترابط بين أطراف المسلمين كافة.

ومن هنا فحبذّا لو تلتقي جهود كلّ العاملين والمصلحين مع جهود المؤسّسات والمراكز والهيئات الثقافية الإسلامية التي تعنى بشأن التقريب والوحدة، وعلى رأسها المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الأغرّ، عبر مركزه العلمي المبارك، من

أجل إرساء أعمدة الأخوّة والمحبة والوداد بين أفراد المسلمين، ورفع راية التوحيد عالياً، والتكاتف ضد كلّ الهجمات الشرسة التي يشنّها الأعداء ضدّ هذا الدين، وهذه الأُمة المرحومة.

كما أنّنا نقدّم شكرنا وتقديرنا للمحقّق الكريم الأخ الفاضل شوقي شالباف (شوقي محمد) الذي بذل جهداً حثيثاً في سبيل توثيق وتصحيح الموارد المدرجة في طيّ هذا السفر الشريف، وما قام به من تعليقات رآها ضرورية لتدوينها، فشكر الله سعيه، ووفّقه للمزيد من الأعمال التي تخدم الدين والرسالة، إنّه وليّ التوفيق.

مركز التحقيقات والدراسات العلمية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

كلمة المحقّق

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبي الهدىٰ محمد ﷺ وعلى أهل بيته الطيّبين الطاهرين وعلى صحبه المنتجبين المخلصين.

وبعد، فإنّ الله قد تفضّل عليّ وأكرمني بأن أتاح لي الفرصة أن أقوم بتحقيق هذا الكتاب الذي أراه «موسوعة» منوّعة تحكي حياة وسيرة بعض أهل البيت عليهم السلام ممّن نزلوا مصر الكنانة وتوفّوا بين أهاليها.

والحديث عن أهل البيت عليهم السلام حديث طويل ومتفرّع، لأنّه يتصل بكلّ جانب من جوانب حياة الأُمة الإسلامية بكلّ تفاصيلها وتاريخها. ولذا فإنّني أعجز عن أن أروي جانباً واحداً فكيف بالباقي؟!

لكن استميح القارئ عذراً لو اقتطعت من وقته لأقول كلمة مختصرة وهادفة في مسألة سرّ تهافت الناس إلى صوب أهل بيت علي وأحفادهم: نسائهم ورجالهم، صغيرهم وكبيرهم رغم وجود البيوتات الأُخرىٰ من آل أبي طالب؟! ولِمَ هذا التقديس العظيم لأحفاد فاطمة دون غيرها من بنات رسول الله ﷺ؟

فهل اكتسبوا هذه الحفاوة والاحترام والتقديس لكونهم من أبناء النبي ﷺ فحسب، أم أنّهم رافقوا شرف نسبهم بمناقب أخرىٰ؟

فصحيح أنّ لأبناء علي عليه السلام شأوناً كبيراً، وصحيح أنّ أحداً غيرهم عجز أن يبلغ ما بلغوه من سموّ ورفعة، وجلالة وتقدير جماهيري واسع، ولكن الصحيح أيضاً أنّهم لم يدركوا هذا المقام السامي إلّا بتوافرهم على الورع والتقوىٰ، والعلم والشجاعة والخلق الحميد!

فهم لم يكتسبوا تقديس الناس وتجليلهم بسبب نسبهم الشريف فحسب، بل بـما بذلوه من جهود في ترويض نفوسهم، وتهذيبها من كلّ علائق الدنيا الدنية.

إذ هم يجالسون العلماء والحكّام، يقعدون مع الفقراء ويأكلون مع المساكين أيضاً. وإذ هم يهدون الناس إلى النور، ويمسحون عنهم غبار الجهل، تراهم يمدّون المحتاجين بما يقدرون عليه، ولم يحتفظوا لأنفسهم شيئاً سوىٰ القليل! وهكذا برزوا مصاديق حيّة للشريعة المعطاءة، ومشاعل نيّرة تضيء درب المحرومين.

والتاريخ خير شاهد على ذلك، حيث يؤكّد على الدور الكبير الذي لعبه أبناء علي في نشر مفاهيم الدين الصحيحة في ربوع الأرض الإسلامية، وترويج الثقافة السليمة حيثما حلّوا، وأينما نزلوا.

وليس هذا الكلام ينطبق على الأجداد العظام الذين ضمّوا جملة معانٍ رفيعة في أدقّ تفاصيل حياتهم، وجسّدوا أوامر الشريعة، بل ينسحب إلىٰ أبنائهم وأحفادهم، فضلاً عن حواريّهم وتلاميذهم، حتّىٰ صاروا يمثّلونهم في المحافل المختلفة.

وإذا ما تأمّلت الأمة مواقف الأحفاد ـ فضلاً عن الأبناء ـ تجده امتداداً حقيقياً لسلوك ومواقف جدّهم الأعلىٰ: علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يعدّ أحد أبرز وأعظم وأهمّ تلاميذ وحواريّي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبالتالي سوف تعود الأمة إلى وعيها الذي كادت تفقده، وترجع إلىٰ تراثها الذي أهملته، فتستمدّ منه أروع الدروس والعبر من أجل بناء حياة أفضل لأجيالها المتلاحقة.

مدرسة وثقافة تقريبية

إنّ من يطالع سيرة أيّ فرد من أفراد هذا البيت الشريف، وفي أيّ بقعة من بقاع الدنيا

عاش، يجده مدرسةً بحدّ ذاته، ونبع بركة يفور منه الخير والصلاح والخُلق الكريم، سواء كان في الجزيرة العربية أو في العراق أو مصر أو المغرب أو... فحاله هو هو، وسلوكه هو هو، لاتمنعه العقبات الجغرافية عن تقديم المعونة للآخرين، ولاتصدّه الحواجز النفسية: قطرية أو قومية وما شاكل عن المساهمة في مساعدة الناس.

أي أنّهم قد جسّدوا الثقافة التقريبية في سلوكهم اليومي، وبالتالي خطوا الخطوة الأولىٰ نحو الوحدة والتقريب بين أطراف المسلمين.

لقد ساهموا بأفعالهم وأقوالهم في إنشاء تيار من الوعي التقريبي الصحيح للأجيال المتعاقبة، من خلال تعريف الرسالة الإسلامية وصاحبها بالصورة الصحيحة، وتوجيه مشاعر المسلمين في غرب البلاد وشرقها باتجاه كتابهم الكريم، وتمتين العلاقات والوشائج فيما بينهم، ورفض كل الحواجز المصطنعة بينهم.

وهذا ما دعا إلى تهافت الناس: عالمهم وجاهلهم، كبيرهم وصغيرهم، أبيضهم وأسودهم، إلى الالتفات حول مشاهدهم المشرّفة، وتقبيل أضرحتهم، ولثم صفحات قبورهم، وتلاوة الأدعية والزيارات المأثورة لأرواحهم، ليترجموا وفاءهم وحبّهم لهم.

وليس هذا فحسب، بل تبارى العلماء والمفكّرون، والأدباء والمثقّفون في الكتابة عنهم، والثناء عليهم من خلال سرد سيرتهم الحسنة، وتحليل مواقفهم، بالتأليف تارة وبالتدريس أخرىٰ.

فقد أُلّفت عشرات الكتب التي تحكي فضائلهم، وتتحدّث عن مناقبهم الشريفة. فكما صنّف ابن خالويه (٣٧٠هـ) وهو إمام اللغة والنحو، وابن أبي حاتم الرازي (٣٢٧هـ) وهو إمام في الرجال، وهكذا ابن حجر (٩٧٣هـ)، وابن الفحام الفقيه المعروف (٤٥٨هـ)، وابن جرير الطبري (٣١٠هـ) وهو إمام في الحديث والتاريخ، وهكذا جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) والسخاوي الحافظ (٩٠٢هـ)، والفخر الرازي (٦٠٦هـ) وهو إمام في التفسير، كذلك صنّف القاضي الجعابي (٣٥٥هـ)، والسبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ)...، وابن الطيب المغربي الفاسي (١١٨٧هـ) في منظومته المسمّاة «الدرّة الفريدة في العترة المجيدة».

ولم ينقطع هذا الاهتمام عند الكتّاب المسلمين وأدبائهم الأوائل، بل امتد حتّىٰ عند المعاصرين، شعوراً منهم بمسؤولية المساهمة في هذا الاندفاع العارم باتجاه التعريف بأفراد وسيرة ومناقب هذا البيت الشريف، ممّا يدلّل على دوام تمسّك واعتزاز هذه الأمة بذرّية النبي الأكرم ﷺ.

هذا الكتاب

وهذا الكتاب يعدّ إحدىٰ المحاولات الجديرة بالتقدير في هذا السياق، إذ فضلاً عن كونها مبادرة هادفة ترمي إلى التعريف بمنازل أبناء علي في مصر الكنانة، فهو يمثّل مشروعاً ينهض بمستوىٰ الوعي الثقافي والتقريبي لدى المسلمين، ويدفعها إلى المزيد من التطوّر.

كما أنّه يقوم بتأسيس أشبه ما يكون بمنتدىً ثقافي وتاريخي في الوسط العربي الإسلامي، يحاول من خلاله الأستاذ الحجّة السيد هادي الخسروشاهي التعريف بشخصيات من آل علي عليه السلام قد نزلوا مصر الكنانة، وعاشوا وسط أهلها، ثم بيان منزلتهم وجلالتهم، ومحاولة تحديد تاريخ مدفنهم، ومواضع أضرحتهم، وغير ذلك... عبر جمع مقاطع من الكتب التي أُلّفت بهذا الصدد.

فإضافة إلى سعيه إلى نشر الثقافة الإسلامية عبر التعريف لرموزها الكريمة، وتأسيس مناخات ملائمة تزيد من تمسّك الناس بدينهم ورسالتهم المقدّسة، فهو يخطو خطوةً هامةً بما يمتلك من صبر وموهبة، وحكم موقعه وعلاقاته بدار التقريب الشريفة بالقاهرة، نحو تجذير الوعي التقريبي لدى المسلمين في الشمال الأفريقي، وتعزيز النظرة التجليلية إلى مكانة ودور أهل البيت عليهم السلام العلمي والأخلاقي والإصلاحي في ذلك الجزء من العالم الإسلامي.

إنّ هذا المشروع الموضوعي ـ على بساطته ـ خليق بأن ينال الحظوة من التقدير من قبل الآخرين، والاقتداء به لإنشاء مشاريع أخرىٰ على وتيرته، كأن يكون: أهل البيت

في المغرب أو تونس أو العراق أو ايران أو... فهذا الكتاب ربّما أضحىٰ أساساً لما بعده من تأليفات جامعة في هذا الموضوع.

إنّنا بحاجة إلى دراسة التاريخ من زاوية أخرىٰ، وحاجتنا أشدّ إلى التعرّف على شخصيات البيت النبوي، وعلمائهم الأشراف، والوجوه التي ساهمت في تثبيت الدين ونشر علومه في كافة بقاع العالم.

فأمر رائع حقّاً أن نساهم جميعاً في تعريف شخصيات البيت الشريف، أينما كانت مشاهدهم، والأروع منه أن نلغي كلّ الحواجز المصطنعة فيما بيننا، ونلتقي معاً، وبقلب واحد ينبض بحبّ أبناء وأحفاد بيت الرسالة لنشكّل منعطفاً إسلامياً واحداً، ونواجه أعدائنا بقوة، مستمدّين منهم أروع الدروس والعبر من أجل بناء حياة أفضل ووداد دائم.

فمن أجدر من مثقّفي هذه الأمة ومفكّريها لأن يكونوا أمثلة حقيقية لكلّ معاني السموّ الإسلامي، ومن أجدر منهم لأن يفهم رموز هذه المعاني؟

وباختصار شديد، فقد قام هذا السيد الجليل بإنجاز كبير على الصعيد الثقافي، أراد منه تجذير الوعي التاريخي والتقريبي للأمة، ولاسيّما بين محبّي وعشاق آل بيت محمد ﷺ، وجذب الاهتمام بمشاهدهم الشريفة، والقيام بمسؤولية الحفاظ على الإرث النبوي والعناية به، كما صرّح به في خاتمته، فجزاه الله جزاء المحسنين، وبلّغه شفاعة النبي ﷺ وأهل بيته المكرمين.

ولابدّ من الإشارة إلى قيمة هذا الكتاب في إطار تقريبي وتاريخي، إذ يمكن أن يعدّ مصدراً مهمّاً جامعاً يقدّم للباحثين ما يحتاجونه فيما يتعلّق بآل علي في مصر الكنانة، ودليلاً مختصراً لمشاهد الأشراف في القاهرة لمن أراد زيارة أضرحتهم المقدّسة. ولذا وقع الاختيار على هذا الكتاب لتحقيقه وتوثيقه، وطبعه بحلّة جديدة، بمعونة وإشراف مركز التحقيقات والدراسات العلمية التابع لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وختاماً لايسعني إلّا أن أتوجّه بالشكر والامتنان لمركز التحقيقات والدراسات هذا لتبنّيه نشر الكتب التي تعنى بـالفكر الوحـدوي المشـرق، وتـخدم أهـداف التـقريب المباركة، بغضّ النظر عن كون أصحاب هذه الكتب من الشيعة أو أهل السنّة.

نسأل الباري عزّ وجلّ أن يوفّق العاملين في هذا المركز، من مسؤول ومدراء أقسام علمية وفنية وإدارية، ويزيد من ألطافه لخدمة الدين، وتوحيد صفوف أتباعه، وغرس المحبّة والإخاء بينهم، إنّه سميع عليم.

والحمد لله ربّ العالمين.

شوقي محمد

٢٥ ذو القعدة ١٤٢٦هـ/ ٢٨ كانون الأول ٢٠٠٥م

المقدّمة

...لطالما راودني حبّ الاطّلاع أن أقف بنفسي علىٰ معالم الحبّ والودّ الذي يكنّه شعب مصر لأهل البيت عليهم السلام، خصوصاً وأنّ وشائج تاريخية عريقة ربطت بين الشعبين المسلمين في إيران ومصر ألقت بظلالها على المشاعر والعلاقات بينهما، ممّا جعلهما ـ وفي مقدّمتهم العلماء والمثقّفون منهما ـ يستشرفون التطلّعات الثقافية في كلا البلدين، ويتبادلون الرؤىٰ والأفكار المتجدّدة في حركتيهما العلمية والثقافية رغم الحواجز والموانع التي حاول أعداء الإسلام والمسلمين وضعها لعرقلة هذا التواصل والتناصر.

وهكذا تحقّقت الأُمنية، فحططت رحالي في مصر، وكانت أُولىٰ محطّاتي هي القاهرة عاصمة مصر الكنانة، ورحت أجول بقلب شَغُوف، وعقلية ثقافية تاريخية يقظة واعية، أجواء القاهرة وغيرها من الحواضر المصرية العريقة، فأدهشني ما رأيت من ظواهر فاقت تصوّري الأوّلي عن مدىٰ وعمق الحبّ والودّ الذي يحمله مسلمو مصر لأهل البيت عليهم السلام، حتّىٰ شعرت وأنا في وسط تلك الظواهر الولائية كأنّني في إيران أو العراق، حيث ألفنا المراسم والشعائر المتعارفة في إحياء ذكرىٰ أهل البيت عليهم السلام ومدحهم أو رثائهم، فكان ممّا وقع نظري عليه وأدهشني هو الأفواج الضخمة من المسلمين المصريّين الذين يتوافدون ـ ليل نهار ـ لزيارة مساجد ومقامات أهل البيت عليهم السلام في القاهرة؛ للدعاء والصلاة والذكر فيها.

وقد كرّس هذا الودّ والحبّ لأهل البيت عليهم السلام في مصر وجود مقامات مشرّفة متعدّدة منها: مسجد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ومقام رأسه الشريف الذي قد دُفن فيه، ومسجد ومرقد السيدة زينب ابنة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث يعتقد المؤرّخون بأنّها دُفنت فيه، ومسجد ومرقد السيدة نفيسة ابنة زيد بن الحسن بن علي ابن الإمام الحسن المجتبىٰ عليهما السلام، وزوجة السيد إسحاق ابن الإمام الصادق عليه السلام التي رافقته إلىٰ مصر وماتت ودُفنت فيها.

ومن الآثار المتميّزة فيها: وجود لوحة جميلة تزيّن أحد أبواب حرم السيدة نفيسة، مكتوب عليها فقرة من دعاء «الافتتاح» الشهير، المنقول عن الإمام المهدي عليه السلام، وهي «اللّهم إنّا نرغب إليك في دولةٍ كريمةٍ، تعزّ بها الإسلام وأهله، وتذلّ بها النفاق وأهله...» كما أنّ هناك مجموعة أُخرىٰ من الألواح النفيسة داخل الحرم، تتضمّن مقاطع من ذكر ومدح أهل البيت عليهم السلام.

وينقل المؤرّخون كرامات كثيرة، ودعوات مستجابة لهذه المراقد الشريفة.

ومن المشاهد التي أثارت دهشتي: الاحتفال الجماهيري الضخم بمناسبة مولد الإمام الحسين عليه السلام، وحين تواجدي في مصر تلقّيت دعوة من شيخ الطريقة العزمية ـ وهي إحدى الطرق الصوفية في مصر ـ لحضور مراسم إحياء ذكرى مولد سبط النبي صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام الذي أُقيم في جوار المسجد الحسيني، ولبّيت الدعوة بشوقٍ، وقصدت السرادق الخاصّ المعدّ للضيوف، ففوجئت بالسيل البشري من المسلمين المصريّين ـ والذي قدّرته الصحف المصرية آنذاك بحوالي مليوني نسمة ـ كانوا قد توافدوا من القاهرة، ومن مختلف المدن المصرية القريبة منها والبعيدة؛ للمشاركة في إحياء هذه الذكرى الإسلامية الكبرىٰ.

وقد راعني أنّني لم أر قط مثل هذا العدد من المشاركين في أيّ مكانٍ آخر، حيث كانت جميع الشوارع المؤدّية إلىٰ مسجد سيدنا الحسين عليه السلام مزدحمة بالوافدين، وقد أُغلقت كلّها بوجه مرور السيارات ووسائل النقل المختلفة، ولايجد أحد قدرة على

الحركة إلّا بشقّ الأنفس، ولم يكن لنا سبيل إلّا السير بعناء على الأقدام مسافة كبيرة جداً وسط هذه الكتل البشرية حتّىٰ وصلنا إلىٰ المسجد، إلّا أنّنا وبسبب الزحام الشديد، وعدم إمكانية الوصول إلىٰ المكان المخصّص للضيوف الذي أقامته العشرات من مشيخات الطرق الصوفية المحبّة لأهل البيت عليهم السلام، اضطررنا ـ أنا والإخوة أعضاء سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في القاهرة ـ إلىٰ مغادرة المكان بعد لحظات من وصولنا.

وقد يتسائل سائل عن السرّ في عراقة هذه المودّة الراسخة والحبّ الشغوف لآل البيت عليهم السلام عند شعب مصر، والذي سبق في عمقه التاريخي عهد الدولة الفاطمية، ولعلّنا نجد الجواب عندما نقلّب وريقات التاريخ الإسلامي المدوّن، فنجد أنّ هذا الودّ والحبّ لآل البيت عليهم السلام قد نما وترعرع منذ صدر الإسلام، حين فتح الجيش الإسلامي الظافر بلاد مصر، وكان الروّاد الأوائل بهذا الفتح مجموعة من كبار صحابة الرسول صلى الله عليه وآله، وخواص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والدُعاة إلىٰ حبّه وولايته، والمجاهرين بموقعه ومواقع أهل بيته عليهم السلام من الرسول صلى الله عليه وآله والرسالة، وعلىٰ رأسهم: أبو ذرّ الغفاري والمقداد بن الأسود الكندي وأبو أيّوب الأنصاري، وعندها يمكننا التأكيد علىٰ أنّ مودّة أهل البيت عليهم السلام وحبّهم دخل قلوب المصريّين في اليوم الذي دخل فيها الإسلام، فقرنوا مع شهادتهم بأن لا إله إلّاالله محمد رسول الله: ودّ آل محمد صلى الله عليه وآله وحبّهم.

كلّ هذا قبل أن تستوثق الأُمور لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ويتصدّىٰ لخلافة المسلمين، ويؤكّد هذه الحقيقة التاريخية ما نقله ابن الأثير في «الكامل» عن حوادث سنة ٣٦هـ من أنّ مبعوث الإمام علي عليه السلام إلىٰ مصر دعا في خطبته إلىٰ مبايعته «فقام الناس فبايعوه واستقامت مصر، وبعث عليها عمّاله...»، كما أورد المقريزي في «خطط مصر»: أنّ قيس بن سعد الأنصاري بُعث علىٰ مصر، فدخلها مستهلّ ربيع الأول سنة سبع وثلاثين للهجرة، ومصر يومئذٍ من جيش علي عليه السلام.

وتوّجت أجواء الحبّ والودّ والولاء لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله بتعيين الإمام علي عليه السلام محمد بن أبي بكر وقيس بن سعد علىٰ مصر، وهما خُلّص أصحابه والمحبّين لآل البيت عليهم السلام،

فكان لهم الدور الرائد في تعريف شعب مصر بمقام أهل البيت ﷺ وفضائلهم وفواضلهم، حتّىٰ سرىٰ حبّ آل البيت ﷺ وودّهم في عروقهم، وأشرق في نفوسهم، وانفلقت معانيه السامية في عقولهم.

ولم يستطع الولاة والسلاطين الذين تعاقبوا علىٰ حكم مصر بعد استشهاد أمير المؤمنين علي ﷺ، وخصوصاً في عهد معاوية بن أبي سفيان تغيير عقائد مسلمي مصر وحبّهم وولائهم لأهل البيت ﷺ رغم القتل والسجن والنفي للكثير منهم؛ وذلك لعمق عقيدتهم بأهل البيت ﷺ، ورسوخ حبّهم وودّهم لهم، وغاية ما استطاعوا فعله هو أنّهم حوّلوا أجهزة السلطة وجيشها إلىٰ ولاية السلاطين، وصنعوا منهم أتباعاً لهم، يدورون معهم ما دارت معائشهم.

أمّا في عهد بني العباس، وبعد أن استتبّ لهم الحكم والسلطان، اشتدّوا بالتنكيل بالعلويّين وآل البيت ﷺ، ممّا أدّىٰ إلىٰ بروز انتفاضات ونهضات علوية هنا وهناك، كان منها نهضة علي بن محمد بن عبدالله ـ وهو من أحفاد الإمام الحسن المجتبىٰ ﷺ ـ وهو أول علوي دخل مصر في تلك الحقبة الزمنية وبويع فيها من قبل المسلمين، وكان له أثر كبير في إخراج محبّي أهل البيت ﷺ وأتباعهم من عزلتهم التي ضربها عليهم بنو أُميّة ومن بعدهم بنو العباس.

وتوالت انتفاضات العلويّين في مصر، ورغم أنّها لم تستطع أن تحقّق هدفها في إقامة حكومة موالية لأهل البيت ﷺ، إلّا أنّها عزّزت حالة الولاء والحبّ لأهل البيت ﷺ عند أهل مصر.

وظهرت حركة تجديد الولاء والحبّ لأهل البيت ﷺ مرّةً أُخرىٰ في مصر علىٰ يد الفاطميّين، وقد أطلقوا علىٰ أنفسهم هذه التسمية نسبةً إلىٰ السيدة فاطمة الزهراء ﷺ؛ لاعتقادهم بأنّهم من ذرّيتها، وكان أول خليفة فاطمي استولىٰ على الاسكندرية عام (٣٠١هـ) هو عبيدالله المهدي المنتسب إلىٰ محمد بن إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق ﷺ، وأقام حكومة السلسلة الفاطمية في تونس عام (٣٠٨هـ).

ثم امتدّ بحكومته إلىٰ أجزاء من مصر، إلّا أنّ الأمير المعزّ لدين الله، هو أوّل خليفة فاطمي يفلح في بسط سيطرته علىٰ كلّ مصر، حيث فتحها عام (٣٥٨هـ) وبنىٰ مدينة القاهرة واتّخذها عاصمةً لمصر، وانتشر مذهب أهل البيت عليهم السلام في عهده، وأصبح الفقه الشيعي أساساً للشعائر والعبادات والمعاملات، وانتشرت في عهده أيضاً محافل ذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام ومدائحهم، وأسّس الجامع الأزهر تيمّناً باسم فاطمة الزهراء عليها السلام، بهدف تدريس علوم أهل البيت عليهم السلام وفقههم.

وتوالىٰ تأسيس مؤسّسات التعليم والتربية في عهود الخلفاء الفاطميّين، كان منها: دار الحكمة؛ لتتواصل الحركة العلمية في نشر معارف وعلوم مدرسة أهل البيت عليهم السلام في حواضر مصر وآفاقها.

وممّا تميّزت به هذه المؤسّسات العلمية ـ وخصوصاً الجامع الأزهر ـ هو عقد حلقات الدروس العلمية، والحوار العلمي بين علماء مذهب أهل البيت وعلماء المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ؛ كعلماء الشافعية والحنفية والمالكية وغيرهم.



وقد كان من الأماني التي خالجتني قبل أن أحطّ رحالي في القاهرة أن أطّلع عن قربٍ على المراقد والمقامات الشريفة لآل البيت عليهم السلام في مصر، بهدف تحقيق طموحي لتأليف كتابٍ عن معالم أهل البيت عليهم السلام في مصر، إلّا أنّ هذه الأماني ـ بعد الذي شاهدته ـ تحوّلت إلىٰ ضرورة ملحّة أخذت عليّ جميع مشاعري، فانبريت لهذا الأمر بعزيمة لا تنفسخ، خصوصاً وأنّ مثل هذا العمل الثقافي التاريخي سوف يصبّ في إطار تعميق العلاقات التاريخية والثقافية في بُعدها الإسلامي الرسالي بين الشعبين المسلمين في إيران ومصر؛ لتعيد لحواضرهما ذلك التواصل والتكامل في محور أهل البيت عليهم السلام حبّاً وودّاً وولاءً، وعندها سوف تتلاشى الموانع التي صنعتها يد الاستكبار علىٰ أرضية الجهل والعصبية والوهم، فتجد جامعة الأزهر الشريف تعانق حوزة قم المقدّسة علماً ومعالم ومعارف ومنابر، وتجد مشاعر الحبّ والودّ والولاء لأهل البيت عليهم السلام في مصر

تناغم نظائرها في إيران ويحاكي أحدها الآخر؛ ليعكس حقيقة وحدة الكلمة في أصل كلمة التوحيد، وعندها سنجد أنّ العلاقات الأخوية الشاملة والراسخة لا ينقصها إلّا العلاقة السياسية القائمة على وحدة الهدف الكبير، والتواصل التاريخي الثقافي المشترك، والمصلحة الإسلامية والإنسانية المتبادلة.

والذي زاد في ترسيخ فكرة تأليف كتاب، بل سلسلة كتبٍ عن معالم أهل البيت عليهم السلام في مصر، هو ملاحظتي الفاحصة لثلاث ظواهر أصيلة تشكّل مادّة المعالم الشاخصة لأهل البيت عليهم السلام، ومدى حبّهم وودّهم في أوساط مسلمي مصر، وهذه الظواهر هي:

الظاهرة الأُولى: ظاهرة الحبّ الشغوف والودّ العميق في الأوساط الشعبية العامة، من خلال مجالس الذكر، ومناسبات المواليد والوفيات لأهل البيت عليهم السلام، خصوصاً ذكرى سيدنا الحسين عليه السلام كما يعبّر المصريّون، والتي أخذت حالة شعائرية تقليدية، توارثتها الأجيال وتفاعلت معها، دون أن تؤثّر فيها سلباً التحوّلات العصرية المتواصلة.

الظاهرة الثانية: ظاهرة الثقافة الولائية لأهل البيت عليهم السلام بين أوساط الكثير من مثقفي مصر، سواء كانوا أزهريّين أم غيرهم، وانفتاحهم الموضوعي على مدرسة أهل البيت عليهم السلام وعلومها وثقافتها خصوصاً في القرن الأخير، فهناك عشرات الكتّاب وعشرات الكتب، بحثت بعقلية علمية وقلمٍ واعٍ مسائل أهل البيت عليهم السلام ومعالم مدرستهم الإصلاحية، ولعلّ الحركة العلمية والثقافية التي كانت على عهد الدولة الفاطمية كان لها الأثر الكبير في نشوء ودوام هذه الظاهرة، وقد أشار عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر: عبدالحليم الجندي في كتابه «الإمام الصادق» عليه السلام إلى ذلك قائلاً: «الإمام الصادق هو الإمام الوحيد في التاريخ الإسلامي، والعالم الوحيد في التاريخ العالمي الذي قامت على أُسس مبادئه الدينية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية دول عظمى، ومصر تذكر منها أكبر دولةٍ عرفها التاريخ فيها من عهد الفراعنة: الدولة الفاطمية التي امتدّ سلطانها من المحيط الأطلسي إلى برزخ السويس، ولولا هزيمة جيوشها أمام الأتراك لخفقت

أعلامها علىٰ جبال الهمالايا في وسط آسيا»[١و٢].

الظاهرة الثالثة: أنّ العديد من علماء الإسلام المصريّين ـ وخصوصاً كبار شخصيات جامعة الأزهر الشريف ـ لم يقتصروا علىٰ إبراز حبّهم وودّهم لأهل البيت عليهم السلام في محاضراتهم وخطبهم ومحافلهم العلمية، بل نجدهم منفتحين بعقلية طلّاب الحقّ علىٰ علوم مدرسة أهل البيت عليهم السلام في المطارحات والمناقشات العلمية، ولعلّ أبرز مصاديق ذلك هو مطارحات إمام الأزهر الأكبر: العلّامة الشيخ عبدالحليم البشري مع العلّامة الحجّة الإمام السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي فيما اشتهر بعد ذلك بـ«المراجعات».

وقد وفّقني الله سبحانه لأن أشرع بهذا العمل المهمّ، فقمت بجمع الكتب التاريخية، قديمها وحديثها، التي ألّفها ونشرها كبار علماء الأزهر الشريف، والباحثون والمؤرّخون المصريّون، فاكتشفت أنّ جلّ هذه الكتب تظهر مدىٰ حبّ أهل البيت عليهم السلام وودّهم عند المصريّين بصفةٍ عامة، ولم يقف التنوّع المذهبي الفقهي عقبة أمام ذلك، بل كثيراً ما كان يكشف عن مدى القرب من أهل البيت سلام الله عليهم ومدرستهم المباركة، وقد كرّر لي بعض كبار رجالات الدين والسياسة في مصر عند لقائي بهم مقولتهم عن علاقة أهل مصر بأهل البيت عليهم السلام، وهي: «إنّ شعب مصر شيعي الهوىٰ وسنّي المذهب»[٣]، وهكذا هو فعلاً فيما سمعناه ورأيناه.

وبعد تجميعي لهذه الكتب التي بلغت العشرات، جاءتني فكرة أُخرىٰ، وهي أن أعدّ كتاباً جامعاً أو سلسلة كتب متكاملة باللغة العربية، يكون مخاطبوها كلّ الشيعة وغير الشيعة، ومن ثم تترجم إلىٰ اللغة الفارسية والإنجليزية وإلى اللغات الحيّة الأُخرىٰ.

---

١. عبدالحليم الجندي: الإمام الصادق عليه السلام، ط القاهرة.

٢. وقد نشره المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ضمن تطلّعاته في هذا المضمار في طبعة أنيقة ومحقّقة، أشرف على تحقيقها المركز العلمي التابع للمجمع تحقيقاً علمياً، جديرة بأن تُطالع وتُقلّب صفحاتها بإمعان.

٣. آخرهم صديقي الأستاذ الدكتور مصطفى الفقي حيث يقول: «إنّ المصري سنّي المذهب شيعي المزاج» الأهرام ٢٠٠٢/١٢/٣١، مقال: «دعوة ونداء».

وكانت باكورة هذه الجهد والسعي بدءاً هو هذا الكتاب الذي بين يديكم، تحت عنوان: «أهل البيت في مصر» ويتضمّن مختارات ممّا كتبه بعض العلماء أساتذة الأزهر الشريف، أو بعض البارزين من الباحثين والمفكّرين المصريّين، حيث قمنا بتلخيصها وتنقيحها وتبويبها؛ لتكون المجموعة الأُولىٰ من مشروعنا.

وجدير بالذكر أنّ الكثير من العلماء والمفكّرين الإسلاميّين والكتّاب المثقّفين كتبوا كثيراً عن أهل البيت عليهم السلام عموماً، وفي مصر خصوصاً، منهم: الدكتور عبدالحليم محمود (شيخ الأزهر الأسبق)، والشيخ محمد زكي إبراهيم (رائد العشيرة المحمدية الراحل)، والشيخ أحمد حسن الباقوري (وزير الأوقاف الأسبق)، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ عبدالحليم الجندي، والأُستاذ عبدالفتاح عبدالمقصود، والأُستاذ خالد محمد خالد، وعبدالرحمان الشرقاوي، والسيدة صافيناز كاظم، والأديب عبدالحميد جودة السحّار، والأُستاذ حسن كامل الملطاوي، والأُستاذ عبدالعزيز سيد الأهل، وعشرات غيرهم، وكلّ ذلك يدلّ بوضوح علىٰ موقع ومقام أهل البيت عليهم السلام في نفوس هذه الشريحة العليا من العلماء والمفكّرين والكتّاب المصريّين.

ولا يفوتني أن أُشير إلىٰ أنّ الضوء الذي سلّطته في هذا الكتاب علىٰ مشاهد ومراقد أهل البيت عليهم السلام في مصر هو لمحة خاطفة، لا تستوعب كلّ ما في الواقع، آملاً أن تتمّ الإحاطة المناسبة لها في الكتب القادمة إن شاء الله.



إنّ نشر هذا الكتاب باللغة العربية أولاً ـ وبعدها باللغة الفارسية والإنجليزية ـ وإن كان يعدّ جهداً متواضعاً في حجمه، إلّا أنّه كبير في معناه ودلالاته، فهو خطوة إيجابية مباركة علىٰ طريق التفاعل الإسلامي والتقارب المذهبي، ومفردة ثقافية لتحقيق أرضية التكامل والتحسين للعلاقات السياسية بين جمهورية مصر العربية والجمهورية الإسلامية الإيرانية، الأمر الذي سيصبّ في هدفه الكبير المتمثّل بالتقريب بين المذاهب الإسلامية، وبوحدة الأُمة الإسلامية جمعاء، بقومياتها المتنوّعة وأقطارها المتعدّدة.

وهذه المقولة تصديق لما قاله أخي العزيز السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية

الإسلامية الإيرانية في مقابلته الصحفية مؤخّراً، في الردّ علىٰ سؤال مراسل وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية بأنّ: «مصر وإيران ركيزتان أساسيّان للحضارة الإسلامية» وبلا أدنىٰ شكّ إذا انطلقت هاتان الركيزتان كجناحين قويّين يمكنهما الطيران إلىٰ أعلى القمم، وهو ما يخافه الأعداء، وهم في كلّ يومٍ يواصلون السعي لخلق العقبات والمشاكل للحيلولة دون تحقّقه، ولكن بلا تردّد بإرادة الرجال وعزيمتهم يمكن التغلّب علىٰ هذه المشاكل، وتمهيد الطريق لتطوّر جديد في العلاقات بين البلدين الهامين في العالم الإسلامي [١].

---

١. عقد الرئيس السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية في بداية الدورة الثانية لرئاسته وفي ختام «أسبوع الحكومة» مؤتمراً صحفياً ضمّ جمعاً من الصحفيّين من وسائل الإعلام الداخلية والأجنبية، أجاب علىٰ أسئلتهم، منها سؤال حول العلاقات المصرية الإيرانية على النحو التالي:

وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية الإيرانية (أرنا):

بالنسبة للسياسة الخارجية لديّ عدّة أسئلة حول علاقات إيران ومصر التي تعتبر من الدول المهمة في العالم الإسلامي، منذ فترة مضت أعلن السيد حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية بأنّهم على استعداد لإقامة علاقات منطقية مع إيران، أودّ أن أسأل سيادتكم عن مستقبل هذه العلاقات والعقبات الموجودة في طريقها، مع الأخذ في الاعتبار أنّ البعض يعتقد بأنّه من الممكن أن تكون التيارات المتشدّدة غير راغبة في استئناف العلاقات!

رئيس الجمهورية: إنّ لمصر عندنا جميعاً والعالم الإسلامي والعالم العربي مكانةً وقاعدةً مهمةً، فشعبها شعب نبيل جداً، حضارته عريقة، له دور ممتاز في الحضارة الإسلامية، كما كان له دور حيوي في المحافل السياسية والاجتماعية خلال القرن الأخير في المجتمع العربي الإسلامي.

واليوم يتمتّع المفكّرون والعلماء المصريّون باحترام فائق، فمصر وإيران كانتا ومازالتا في الواقع ركيزتين أساسيتين للحضارة الإسلامية في تاريخ العالم الإسلامي، ولا يقتصر تعامل مصر وإيران على وقتنا هذا، فالمصريّون يحبّون إيران وشغوفون بأهل البيت، كما كان لهم دور مهم في تجديد الفكر في العالم الإسلامي، فهم قاعدة مهمّة، كما أنّ صلة الشعبين العظيمين لا يمكنها أن تنقطع بهذه السهولة، ولا يمكن للقضايا السياسية أن تخدشها وإن كان من الوارد أن تختلف السياسات والحكومات في وجهات النظر، وهذا الاختلاف في وجهات النظر لا يزول في يوم وليلة.

لقد كانت العلاقات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ـ أي العلاقات بين المفكّرين وشعبنا والمفكّرين وشعب مصر ـ قائمة، واليوم مازالت محلّ تشجيع وتأييد. ولأسباب تعلمونها جميعاً، والعالم يعرفها؛ تأثّرت العلاقات فيما بين مصر وإيران من الناحية السياسية. آمل في المستقبل في نفس الوقت ←

وسيقوم قريباً مركز البحوث الإسلامية في مدينة قم المقدسة في ايران ـ الذي أسّسته منذ ربع قرن، ولازلت أشرف عليه ـ بطباعة ونشر هذا الكتاب باللغة الفارسية، ومن ثم ترجمته إلىٰ اللغات الحيّة الأُخرىٰ، وبذلك يمكننا وضع الكتاب في متناول مسلمي العالم علىٰ اختلاف لغاتهم؛ ليعرف الجميع أنّ قواسم مشتركة وأساسية تجمعنا ـ شيعة وسنّة ـ في وحدة ثقافية تاريخية شاملة، وروح معنوية إسلامية واحدة، وأن لا عقبات تقف في طريقها لتحقيق أفضل صور العلاقات السياسية الإسلامية بين بلدانها، وفي مقدّمتها: إيران ومصر.

نودّ أن نشير إلىٰ أنّ الطبعة الأُولى لهذا الكتاب تمّ إصدارها في ٢٠٠ صفحة عن «دار الهدف» عام ١٤٢٢هـ ـ القاهرة ـ وتضمّنت الطبعة الثانية التي أصدرتها (مكتبة الشروق الدولية) عام ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م أكثر من ٣٣٠ صفحة.

ونرىٰ من الضروري أن نعرب للسيد المهندس عادل المعلّم مدير هذه المؤسسة الموقّرة، عن فائق تقديرنا للقيام بنشر هذا الكتاب التاريخي القيّم.

وختاماً أتضرّع إلىٰ الله سبحانه أن يجعل هذا الجهد المتواضع خالصاً لوجهه تعالىٰ، وأن يتقبّله منّي بأحسن القبول، ويحقّق الهدف السامي الذي قصدته من ورائه، إنّه سميع مجيب، وهو علىٰ كلّ شيء قدير.

سيد هادي خسروشاهي

أرض الكنانة ـ القاهرة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

← الذي نشجّع فيه مختلف العلاقات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بين شعبي البلدين، أن نتمكّن من أن نسير في الاتجاه الذي حافظنا فيه، وما زلنا نحافظ فيه على المبادئ والمعايير مع رعاية مبدأ إزالة التوترات واجتناب التدخّل في الشؤون الداخلية؛ لنتمكّن من حلّ المشاكل. وعلى الصعيد السياسي مع رعاية المعايير التي تنشدها، يمكننا من تحسين موقفنا إلىٰ مرحلة أفضل ممّا هو عليه الآن.

علىٰ أية حال، فإنّ مصر تعتبر مهمّة بالنسبة لنا. كما أنّ مصر لها نظرة واهتمام خاصّ بإيران. من هنا فنحن نؤيّد التعاون الثنائي علىٰ كافّة الأصعدة. وإن شاء الله نستطيع أن نصل إلى المرحلة التي نتغلّب فيها على المشاكل السياسية.

مكانة آل البيت ومنزلتهم

بقلم
النبوي جبر سراج

مكانة آل البيت ومنزلتهم[1]

النبوي جبر سراج

قال ﷺ «الزموا محبّتنا أهل البيت، فإنّه من لقي الله عزّ وجلّ وهو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا» أخرجه الطبراني[2].

وأخرج الطبراني في الأوسط كذلك قوله ﷺ: «خُلق الناس من أشجارٍ شتّىً، وخُلقت أنا وعلي بن أبي طالب من شجرةٍ واحدةٍ، أنا أصلها، وفاطمة ابنتي غصنها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين فروعها، وشيعتنا أوراقها، من تعلّق بغصنٍ من أغصانها ساقه إلى الجنّة، ومن تخلّف عنها هوىٰ إلى النار»[3].

---

١. مقتبس من كتاب أحفاد النبي ﷺ، طبع مكتبة طاهر للتراث، القاهرة ٢٠٠١م.

٢. المعجم الأوسط للطبراني ٣: ١٢٢ حديث (٢٢٥١) بإسناده عن ابن أبي ليلىٰ عن الحسن بن علي عليهما السلام.
وفيه: «الزموا مودّتنا» بدل «محبّتنا»، وفي آخره بعد «بشفاعتنا»: «والذي نفسي بيده، لا ينفع عبداً عمله إلّا بمعرفة حقّنا».

٣. لم نعثر على هذا الحديث في معاجم الطبراني الثلاث المطبوعة، وخاصةً الأوسط منها رغم وجود فهرس كامل قد قام بتنظيمه الدكتور محمود الطحّان، ونشرته مكتبة المعارف في الرياض. غير أنّ الحديث بعينه أخرجه ابن جرير الطبري في بشارة المصطفىٰ: ٧٦ حديث (٨) عن ابن عباس. وتجدر الإشارة إلى أنّ الحديث قد رواه وأخرجه الفريقان عن طرقٍ عدّة ولو كانت بألفاظ متغايرة أحياناً، إلّا أنّها متقاربة، نذكر

←

وعنه ﷺ: «أثبتكم على الصراط أشدّكم حبّاً لأهل بيتي ولأصحابي».

رواه ابن حبّان في صحيحه[1] والطبراني في المعجم الكبير[2].

أخرج ابن حبّان: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما بال رجال يؤذونني في أهل بيتي، والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتّىٰ يحبّني، ولا يحبّني حتّىٰ يحبّ ذرّيتي»[3].

وعندما اشتدّت قطيعة قريش لقرابة رسول الله ﷺ خاصةً وللمسلمين في بداية الرسالة ـ فقد كانوا يعبسون في وجوه آل بيت النبي ﷺ، ويقطعون الحديث عند رؤيتهم ـ غضب لذلك الرسول ﷺ غضباً شديداً. ففي الأثر: «ما بال أقوام يتحدّثون، فإذا رأوا الرجل من أهل بيتي قطعوا حديثهم، والله لا يدخل قلب رجلٍ الإيمان حتّىٰ يحبّهم لقرابتهم منّي»[4].

لهذا نجد المحبّين يتسابقون في إظهار الحبّ الصادق لآل البيت، ولله درّ الإمام محيي الدين بن عربي قال:

← من المصادر لا على سبيل الحصر: الأمالي للطوسي ١: ١٨، الأمالي للمفيد البغدادي: ٢٤٥، بصائر الدرجات: ٧٨ و ٨٠، تفسير جوامع الجامع ٢: ٢٨٢ عند تفسير الآية الشريفة: ٢٤ من سورة إبراهيم المباركة، شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني ١: ٤٠٦ وما بعده، تاريخ دمشق لابن عساكر ٤: ٣١٨، كنوز الحقائق للمناوي: ١٥٥، المقتل للخوارزمي: ١٠٨، كفاية الطالب: ٤٢٥، نزهة المجالس ٢: ٢٢٢، الرياض النضرة ٢: ٢٥٣، الإصابة: ٣٠٦، لسان الميزان ٤: ٤٣٤، المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣: ١٦٠، عنه في كنز العمال ١١: ٦٠٨ حديث (٣٢٩٤٤)، السيدة فاطمة الزهراء لمحمد بيومي: ١٠٢ و ١٦٦ وغيرها.

١. صحيح ابن حبّان ٦: ٢٨٥ رقم (٦٩٨٧) بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ.

٢. لم نعثر عليه في المعجم الكبير المطبوع، ولكن الحديث بعينه أورده المتقي الهندي في كنز العمال ١٢: ٥٦ رقم (٣٤١٥٧) عنه، وأيضاً عن ابن عدي في الكامل ٦: ٣٠٢. وأخرجه أيضاً المناوي في الفيض ١: ١٤٨ وفي الكنوز أيضاً: ٥.

٣. صحيح ابن حبّان ٦: ٢٨٠ ـ ٢٨١ رقم (٦٩٧٢). وأخرجه أيضاً الشبلنجي في نور الأبصار: ١٢٦.

٤. أخرجه ابن ماجة في سننه ١: ٥٠ حديث ١٤٠ عن العباس بن عبدالمطلب، وقال: في الزوائد: رجال اسناده ثقات. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤: ٧٥ وذكر حديثاً آخر عن العباس عنه ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتّىٰ يحبّكم لله ولرسوله». وأورده المتقي الهندي في الكنز ١٢: ١٠٢ رقم (٣٤١٩٣) وعزاه إلى ابن ماجة والروياني والطبراني وابن عساكر.

رأيتُ ولائــي آل طــه فــريضةً   علىٰ رغم أنّ البُعد يورثني القُـربا
فما طلب المبعوث أجراً على الهدىٰ   بــتبليغه إلّا المــودّة فـي القُـربىٰ

كما قال كذلك برواية ثانية:

أرىٰ حبَّ آل البـيت عـندي فـريضةً
عـلىٰ رغـم أهـل البُـعد يـورثني القُـربا
فــما اخـتار خـير الخـلق منّا جـزاءه
عـلى هـديه إلّا المـودّة فـي القـربى[١]

وفي الحديث الشريف: «لا يبغضنا أهل البيت أحدٌ إلّا أدخله الله النار».
رواه الحاكم على شرط الشيخين[٢].

وعندما حذّر الإمام علي كرّم الله وجهه معاوية بن أبي سـفيان قـال له: إيّـاك وبغضنا، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يُبغضنا ولا يحسدنا أحد إلّا ذيد عن الحوض يوم القيامة بسياطٍ من نار» رواه الطبراني في الأوسط[٣].

لذلك التزم السلف الصالح بما أُمروا به من حبّ آل البيت وإكرامهم وتوقيرهم، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز يقول لعبدالله بن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ وقد جاءه في حاجةٍ: إن كانت لك حاجة فأرسل أو اكتب بها إليَّ،

---

١. ذكرهما ابن حجر في الصواعق المحرقة ١: ١١٠.

٢. المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٥٢ (المؤلّف).

وأخرج الحديث أيضاً ابن حجر في الصواعق: ١٤٣ وقال: إنّه صحيح. والسيوطي في الدرّ المنثور ٦: ٧ وعزاه إلىٰ أحمد بن حنبل وابن حبّان والحاكم كلّهم عن أبي سعيد الخدرى. وأخرجه جمعٌ في كتب المناقب، مثل: ابن المغازلي: ١٣٨، والسيوطي في الخصائص ٢: ٢٦٦، والقندوزي في الينابيع: ٤٨، والأمر تسري في أرجح المطالب: ٣٣٤ وغيرهم.

٣. المعجم الكبير للطبراني ٣: ٨٢ رقم (٢٧٢٦). (المؤلّف).

نعم، وقد أخرجه في المعجم الأوسط أيضاً ٣: ٢٠٣ ـ ٢٠٤ رقم (٢٤٢٦) بسنده إلى معاوية بن حُدَيج عن الحسن بن علي عليهما السلام.

فإنّي أستحي من الله أن يراك علىٰ بابي[١].

أمّا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقد قال للإمام الحسين رضي الله عنهما حين علم أنّه كان قادماً إليه، فلمّا قابله عبدالله بن عمر في الطريق قال له: إنّ أبي مشغول ببعض الأُمور، فرجع، فلمّا علم عمر بذلك نهر ابنه، ودعا الحسين واعتذر له، وقال له: حتّىٰ وإن كنت أنا مشغولاً فلا أنشغل عنك، فأنت ابن رسول الله ﷺ، وقضىٰ له حاجته بعد أن اعتذر له عمّا بدر من ابنه عبدالله[٢].

وما أروع ما قال الفرزدق في مدح آل البيت في شخص الإمام زين العابدين ابن الحسين رضي الله عنهم جميعاً، مبيّناً فضلهم:

من معشر حبُّهم فرضٌ وبغضهمُ ... كفرٌ وقربهمُ منجىً ومعتصمُ
يستدفع السوء والبلوى بحبّهم ... ويستزاد به الإحسانُ والنعمُ
مقدَّم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كلِّ بدءٍ ومختومٍ به الكلمُ
إن عُدّ أهل التقىٰ كانوا أئمّتهم ... أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: هم
لا يستطيع جوادٌ بعد غايتهم ... ولا يدانيهم قومٌ وإن كرموا[٣]

وفي الأثر: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذرّيتي، والقاضي حوائجهم، والساعي لهم في أُمورهم عندما اضطرّوا إليه، والمُحبّ له بقلبه ولسانه»[٤].

---

١. أورد الأثر ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٧: ٣٦٦ بسنده عن ضمرة وذكر أيضاً: أنّه كان يستعين به على سليمان في حوائجه، فقال له عمر: إن رأيت أن لاتقف ببابي إلّا في الساعة التي ترىٰ أنّه يؤذن لك فيها عليَّ، فإنّي أكره أن تقف ببابي فلا يؤذن لك عليَّ.

٢. رواه ابن حجر في التهذيب ٢: ٣٠٠ ضمن ترجمة الحسين بن علي عليهما السلام برقم (٦١٥) وأضاف: «فقال: أنت أحقّ بالإذن من ابن عمر، وإنّما أنبت ما ترىٰ في رؤوسنا الله ثم أنتم».

٣. ديوان الفرزدق ٢: ٣٥٥.

٤. أورد هذا الأثر المحبّ الطبري في ذخائر العقبىٰ: ١٨، وابن حجر في الصواعق: ٢٣٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتّقين ٨: ٧٣، كلّهم عن علي عليه السلام. وأخرج الأثر الخوارزمي في المقتل ٢: ٢٥ ولكن بلفظ: «أنا لهم شفيع يوم القيامة ولو أتوا بذنوب أهل الأرض: الضارب بسيفه أمام ذرّيتي، والقاضي لهم...الخ».

فواجب المسلم أن يملأ قلبه بحبّ من وصّىٰ بحبّهم المصطفىٰ ﷺ، فبحبّهم ينال الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وما أجمل ما قال المحبّ:

فيا ربِّ زدني من يقيني بصيرةً | وزد حبَّهم يا ربِّ في حسناتي[١]

ورحم الله الشاعر الملهم، شاعر الأولياء، شيخنا الشيخ علي عقل إذ يقول في دفع ملامة الذين يلومونه في شدّة تعلّقه بآل البيت:

ومهما أُلامُ علىٰ حبِّهم | فلستُ الفتى خائف اللائمهْ
فروحي علىٰ بابهم ترتمي | ونفسي بأعتابهم خادمهْ
إذا مسَّ نفسي فتور المعاصي | بذكرهمو أصبحت هائمهْ
فيا عاذلي ثمَّ يا عاذري | سواءٌ رضاك أو اللائمهْ
فقل ما تشاءُ وكن ما تشا | فإنِّي أُحبُّ بني فاطمهْ

من هم آل البيت؟

لمّا نزلت الآية الكريمة في سورة الشورىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ سأل ابن عباس رضي الله عنهما رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، مَن قرابتك الذين نزلت فيهم الآية؟ قال:

«علي وفاطمة والحسن والحسين»[٢].

كذلك جاء: أنّ ذوي قربىٰ رسول الله ﷺ كلّ من ينسب إلىٰ جدّه الأقرب

---

١. ذخائر العقبىٰ في مناقب ذوي القربىٰ: ١٦، والبيت من قصيدة طويلة لدعبل بن علي الخزاعي، يذكر فيها ما أصاب آل محمد ﷺ من رزايا، انظر ديوانه: ٦٣.

٢. ذكر الخبر الطبراني في المعجم الكبير ٣: ٤٧ رقم (٢٦٤١)، والعلّامة القندوزي في ينابيع المودّة ١: ١٠٥ وعزاه إلى أحمد وابن أبي حاتم والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وأبي نعيم في الحلية وغيرهم. وذكره من المفسّرين ابن كثير في تفسيره ٤: ١٦٩ ـ ١٧٠، والقرطبي في أحكام القرآن ١٦: ٢٢، والزمخشري في الكشاف ٤: ٢١٩ ـ ٢٢٠، وعلي بن إبراهيم القمي في تفسيره ١: ٢٧٥، والثعلبي في الكشف والبيان ٨: ٣١٠، كلّهم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ذيل آية: ٢٣ من سورة الشورىٰ المباركة.

عبدالمطلب[١]، وقيل: قريش كلّها[٢]، وقيل: كلّ مسلمٍ محبّ لرسول الله ﷺ[٣].

وإنّما المعنى الخاصّ لذوي القُربىٰ يقصد به علياً وفاطمة والحسن والحسين كما جاء في إسعاف الراغبين في سيرة المصطفىٰ وفضائل أهل بيته الطاهرين، للصبّان[٤].

روى أنّه لمّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]، لفّ رسول الله ﷺ كساءً علىٰ عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين، وقال:

«اللّهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهِبْ عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[٥].

وفي رواية قال: «اللّهم هؤلاء آل محمد، فاجعل صلواتك وبركاتك علىٰ آل محمد كما جعلتها علىٰ إبراهيم، إنّك حميد مجيد»[٦].

---

١. ذهب إليه البعض لرواية مسلم عن زيد بن أرقم، قال له الحُصين بن سبرة: ومن أهل بيته؟ أليس نساؤه أهل بيته؟ قال: أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كلّ هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعم. (صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣ رقم (٢٤٠٨) كتاب فضائل الصحابة).

٢. قاله الزجاج في معاني القرآن ٣: ١٧٦ قال في ذيل الآية ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾: «الخطاب لقريش خاصةً، قاله ابن عباس وأبو مالك والشعبي».

٣. ذهب إليه بعض المفسّرين؛ كالقرطبي في أحكام القرآن ١٦: ٢٢ حيث قال: الآية منسوخة، وانّما نزلت بمكة، وكان المشركون يؤذون النبي ﷺ، فنزلت الآية وأمرهم الله بمودّة نبيّه ﷺ وصلة رحمه. فلمّا هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء، حيث قال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وعزاه إلىٰ الضحاك والحسين بن الفضل.

٤. إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ٢٢٥.

٥. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣: ٢٠٤ ترجمة الحسن بن علي عليهما السلام والطبراني في المعجم الكبير ٣: ٥٣ رقم (٢٦٦٦) و: ٥٤ رقم (٢٦٦٨) و: ٥٥ رقم (٢٦٦٩) والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢: ٦٤ رقم (٦٨٦) وما بعده، وابن المغازلي الشافعي في المناقب: ٣٠٥، والشبلنجي في نور الأبصار: ٢٢٥، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٣: ٣٨٥.

٦. وأخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣: ٢٠٣ ترجمة الحسن بن علي عليهما السلام والطبراني في المعجم الكبير ٣: ٥٣ رقم (٢٦٦٤) و(٢٦٦٥)، والشبلنجي في نور الأبصار: ٢٢٥، والكنجي الشافعي في كفاية الطالب: ٣٧٢.

وجاء كذلك أنّ آل البيت هم زوجاته ﷺ؛ أخذاً من سياق الآيات القرآنية في سورة الأحزاب، فالحديث القرآني موجّه إلىٰ نسائه ﷺ ثم أتبعه الله تعالىٰ بهذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] وهو ما ذهب إليه الزمخشري في تفسيره[١و٢].

ولقد أصبح الإقرار بفضل آل البيت والشعور بفضلهم سمة من سمات المسلمين، ولدى المصريّين خاصّةً، ويستدلّ عليه بانعطاف قلوب المصريّين نحوهم، وزيارتهم لهم في أضرحتهم، والمزاحمة للوقوف عند قبورهم، وإهداء آيات الدعاء وقراءة القرآن علىٰ أرواحهم، والتعبير عن حبّهم لنبيّهم وعترته الطاهرة. وكذلك انجذاب الأرواح إلىٰ مشاهدهم، والصلاة في المساجد المنسوبة إليهم في صلاة الفجر والعشاء، وخاصّةً في شهر الروحانيات شهر رمضان.

لأنّ واجب العرفان والوفاء يقتضي إسناد الفضل لأصحابه، أهل البيت الذين طهّرهم الله تطهيراً، فهم أهل التقوىٰ، وأهل العلم والحكمة، وهم نوّاب المصطفىٰ ﷺ في نشر فضائله وأخلاقه. فحبّ الناس لأهل البيت يعدّ امتداداً لحبّ الرسول ﷺ والتأسّي به وحبّ من أحبّه.

وممّا يؤيّد أنّ أهل البيت هم علي وفاطمة وابناهما خاصّةً، ما رواه أنس بن مالك: أنّ رسول الله ﷺ كان يقف عند بيت السيدة فاطمة ابنته وهو خارج لصلاة الفجر، ويقول:

---

١. تفسير الكشاف ٣: ٥٣٨.

٢. يذكر أنّ عكرمة ومقاتل بن سليمان ينفردان من بين المفسّرين جميعاً بتخصيص الآية بنساء النبي ﷺ، ويرويان عبر التمسك بالسياق العام: أنّ المراد بالبيت هنا بيت النبي الأكرم ﷺ ومساكن زوجاته. بل أنّه يروىٰ عن عكرمة أنّه كان ينادي بالأسواق والطرقات بهذا. ومن يتتبّع كتب جرح الرجال وتراجمهم يرىٰ ما يكفيه عن هذين الرجلين أن يدير الصفح عنهما، فضلاً عن استماع أقوالهما، فقد اتّهما بالاضطراب والوضع والتدليس، بل قد عُرفا بالكذب عند المحدّثين، وبالتجسيم أيضاً. راجع في أحوالهما: تهذيب التهذيب ٧: ٢٦٧ و ١٠: ٢٨١، وتقريب التهذيب ٢: ٢٧٢، التاريخ الكبير للبخاري ٨: ١٤، وفيات الأعيان ٤: ٣٤٢، الكاشف للذهبي ٢: ٢٧٦.

«الصلاة أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾»[١].

كماكان يقول: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمكم الله»[٢].

ومعلوم أنّ المودّة تكون من أثر المحبّة، بل هي الثبات على المحبّة، ومعلوم كذلك أنّه لا دين لمن لا محبّة له، وأنّ محبّة آل البيت نابعة من محبّته ﷺ، ومحبّة النبي ﷺ نابعة من محبّة الله تعالى. ومن هنا، فإنّ محبّة آل البيت أصبحت واجبة علىٰ كلّ مسلم؛ لأنّها أجر لنبيّه ﷺ علىٰ هديه المسلمين إلىٰ نور الإيمان في الدنيا، كما أنّها وفاء له بعد انتقاله.

وقد أشار المحبّ إلىٰ هذا المعنىٰ، فقال:

إنّ النبي هو النور الذي كشفت ... به عمايات باقينا وماضينا

ورهطه عصمةٌ في ديننا ولهم ... فضلٌ علينا وحقٌّ واجبٌ فينا

وهناك فريق آخر يرىٰ أنّ أهل البيت هم ذرّية النبي ﷺ؛ تمييزاً لهم عن باقي المهاجرين والأنصار[٣]، كما يرى غيرهم: أنّ اللفظ يتّسع ليشمل الأمة الإسلامية،

---

١. أخرجه عن أنس الإمام أحمد في المسند ١: ٣٣١ قال: «إنّ رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة ستّة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر...». والترمذي في سننه ٥: ٣٥٢ رقم (٣٢٠٦) وقال: وفي الباب عن أبي الحمراء ومعقل بن يسار وأمّ سلمة. والسيوطي في الدر المنثور ٦: ٦٠٦ ذيل تفسير الآية (٣٣) من سورة الأحزاب المباركة وعزاه إلى ابن جرير وابن مردويه، وفي ص ٦٠٥ عزاه إلىٰ ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسّنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وابن مردويه.

٢. رواه بهذا اللفظ ابن مردويه عن ابن عباس، قال: «شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر، يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول...» الدر المنثور ٦: ٦٠٦.

٣. وهو ما يتمسّك به الفريق الأعظم والأكبر من المفسّرين، لرواية أبي سعيد الخدري وأم سلمة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه وواثلة بن الأسقع وعائشة أخرجه جمع غفير من المحدّثين وأعلام الفقهاء كأحمد بن حنبل في المسند ٤: ١٠٧ و٦: ٢٩٦ و٣٠٤، والطبراني في المعجم الكبير ٣: ٤٨ ضمن ترجمة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، ومحبّ الدين الطبري في الذخائر: ٢١ ـ ٢٤، وابن المغازلي في المناقب: ٣٠٥ ناهيك عن أرباب التفسير كالطبري وابن كثير والسيوطي في الدرّ المنثور والحِبَري عند تفسير الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣.

ولقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ويرى الأُستاذ حسن الملطاوي: أنّ آل البيت هم المنسوبون إلىٰ النبي ﷺ من أولاد فاطمة وعلي رضي الله عنهما، وقال: «إنّ الفقهاء ذكروا أنّه من خصائصه ﷺ أنّه ينسب إليه أبناء بناته، فأولاد فاطمة رضي الله عنها يُنسبون إليه، وأولاد الحسن والحسين رضي الله عنهما يُنسبون إليه ﷺ، بينما أولاد أُختيهما زينب وأُم كلثوم يُنسبون إلىٰ أبيهم عبدالله بن جعفر وعمر بن الخطاب، زوجيهما، وإنّما خرج أولاد فاطمة وحدها؛ للخصوصية التي ورد الحديث بها، وهو مقصور علىٰ ذرّية الحسن والحسين عليهما السلام؛ لقوله ﷺ: «لكلّ بني آدم عصبةٌ، إلّا ابني فاطمة، أنا وليّهما وأنا عصبتهما»[1]...».

أمّا لفظ «الشريف» الذي اختصّ به أهل البيت وسلالتهم الطاهرة فيُطلق علىٰ كلّ من كان من أهل البيت، سواء كان حسنيّاً أو حسينيّاً أو علويّاً، من ذرّية محمد بن الحنفية ـ وهو ابن الإمام علي من زوجته الحنفية ـ أو غيره من أولاد علي، أو جعفريّاً أو عقيليّاً أو عباسيّاً، فيقال: الشريف العقيلي، والشريف العباسي، والشريف الجعفري، والشريف الزينبي[2]. ولما تولّى الفاطميون الخلافة في مصر قصروا لفظ الشريف علىٰ ذرّية الحسن والحسين.

ومن هنا، فإنّ اختصاص الحسن والحسين وذرّيتهما بالـ«آل» خصوصية وإيثار؛ لأنّ أباهم الإمام عليّاً كان الابن والأخ للرسول ﷺ فقد قال ﷺ: «أنت منّي بمنزلة

---

١. أخرج الحديث الطبراني في المعجم ٣: ٤٤ رقم (٢٦٣١) و(٢٦٣٢) بلفظ: «كلّ بني أُنثى...» و«كلّ بني أُمّ...»، والحاكم في المستدرك ٣: ١٦٤ بهذا اللفظ. وابن حجر في الصواعق: ٢٣٦.

٢. يقول الحافظ ابن حجر في الألقاب: «الشريف ببغداد لقب لكلّ عباسي، وبمصر لكلّ علوي. ولاشك أنّ المصطلح القديم أولىٰ، وهو إطلاقه على كلّ علوي وجعفري وعقيلي وعباسي، كما صنعه الذهبي، وكما أشار إليه الماوردي من أصحابنا، والقاضي أبو يعلىٰ من الحنابلة...» (نزهة الألباب في الألقاب ١: ٣٩٩ رقم ١٦٦٩).

هارون من موسى، غير أنّه لا نبي بعدي»[1]. أمّا أُمّهما، فهي ابنته ﷺ، وريحانته، وبضعة منه ﷺ، ورضي الله عنهم جميعاً، وأكرمنا بمحبّتهم.



وجوب محبّة آل البيت ومودتهم:

قال النبي ﷺ للعباس عمّه لمّا شكا إليه نفراً من قريش، قال: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجلٍ الإيمان حتّىٰ يحبّكم لله ولرسوله»[2].

---

١. صحيح الترمذي (٣٧٥٨).

أقول: أخرجه الترمذي مسنداً إلى جابر بن عبدالله (٥: ٦٤٠ ـ ٦٤١ رقم ٣٧٣٠) وقال: وفي الباب عن سعد وزيد بن أرقم وأبي هريرة وأم سلمة. وبسند آخر عن سعيد بن المسيّب عن سعد بن أبي وقّاص، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٧٣١). وأخرجه الطبراني ١: ١٤٦ رقم (٣٢٨) بسنده عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه إلى قوله: «من موسىٰ».

ويذكر أنّ حديث المنزلة من أثبت الآثار، وقد صرّح بتواتره أعلام الحديث. كالحاكم: «هذا حديث دخل حدّ التواتر» (كفاية الطالب: ٢٨٣ ب ٧٠)، والسيوطي في الأزهار المتناثرة: ٧٦ رقم ١٠٣، ونظم المتناثر: ٢٠٦ رقم ٢٣٣، وإتحاف ذوي الفضائل: ١٦٩ رقم ٢١٧. وقال ابن الجوزي والخطيب التبريزي: «أخرجاه في الصحيحين واتّفقا عليه» (تذكرة الخواص: ٢٧ ب ٢، مشكاة المصابيح: ١٧١٩٣ رقم ٦٠٧٨ مناقب علي ﷺ) وقد أخرجه البخاري في صحيحه ٣: ١٣٥٩ رقم ٣٥٠٣ كتاب فضائل أصحاب النبي باب مناقب علي رقم ٩، و٤: ١٦٠٢ رقم ٤١٥٤ كتاب المغازي، غزوة تبوك. كما أخرجه مسلم في فضائله رقم (٦١٦٧) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي عن سعد. وقال ابن عبدالبرّ والتلمساني: «هو من أثبت الآثار وأصحّها» (الاستيعاب ٣: ٣٤٠ بداية ترجمة علي ﷺ، الجوهرة في نسب الإمام علي: ١٤).

وممّا يجدر ذكره أنّ الإمام أحمد قد أخرجه من طرق كلّها صحيحة، في فضائل الصحابة، مناقب علي: ٥٦٧/٢ و٥٦٩ و٥٩٢ و٦٣٣ و٩٥٦ و٩٦٠ و١٠٠٥ و١٠٠٦ و١٠٧٩ عن سعد و٥٩٨ و٦٤٢ و١٠٩١ عن أسماء.

٢. صحيح البخاري (٣٧١٤ ـ ٣٧٦٧).

أقول: لم أعثر عليه في صحيح البخاري المطبوع في دار ابن كثير ودار اليمامة للنشر، لكن الحديث أورده المتقي الهندي في الكنز ١١: ٧٠٠ رقم (٣٣٣٩٥) وعزاه إلىٰ أحمد والترمذي والحاكم عن عبدالمطلب بن ربيعة، وعن الحاكم أيضاً عن العباس. وقد أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب العباس بن عبدالمطلب رقم (٣٧٥٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والشجري في الأمالي ١: ١٥٧.

ولذلك، قال أبو بكر ﷺ صلة قرابة رسول الله ﷺ أحبّ إليّ من صلة قرابتي[١].
ولذلك أنشأ الإمام الشافعي هذه الأبيات في وجوب حبّ آل البيت:

يا آل بيت رسول الله حبّكمو فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنّكمو من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له[٢]

يشير إلىٰ أنّه لا تُقبل صلاة من لم يصلِّ علىٰ آل البيت في التشهّد.
وكما قال المحبّ:

أحبّ النبي المصطفىٰ وابن عمه
عليّاً وسبطيه وفاطمة الزهرا
همو أهل بيت أُذهب الرجس عنهم
وإنّي أرى البغضاء في حقّهم كفرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم
لدى الملأ الأعلى وأكرم بهم ذكرا[٣]

وكذلك قال الإمام الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصب من منىٰ
واهتف بساكن خيفها والناهض

---

١. أخرج الأثر البخاري ٣: ١٣٦١ رقم (٣٥٠٨) عن عروة بن الزبير عن عائشة، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ (١٢).

٢. بيتان من البسيط، يؤكّد فيهما الإمام على أنّ حبّ أهل البيت فرض، وهو العالم الحبير. ورد البيتان في ديوانه: ١١٥ رقم (١١٨).

٣. الأبيات أوردها المحبّ في الرياض ٢: ١١٠ في مناقب علي ﷺ. والشبلنجي في نور الأبصار: ٢٣٢ ـ ٢٣٣، ونسبوها إلى أبي الحسن بن جبير.

ويظهر هنا أنّ الأبيات قد حدث فيها خلط، حيث أنّ عجز البيت الثاني كما يلي

.... وأطلعهم أفق الهدى أنجماً زهرا
مولاتهم فرض على كلّ مسلم وحبّهمو أسنى الذخائر للأخرىٰ
وما أنا للصحب الكرام بمبغضٍ فانّي أرىٰ البغضاء في حقّهم كُفرا

سـحراً إذا فـاض الحـجيج إلى مـنى
فـيضاً كـملتطم الفـرات الفـائض
إن كـان رفـضاً حبّ آل مـحمدٍ
فـليشهد الثـقلان أنّـي رافـضي[1]

وقال المحبّ كذلك:

هـم القـوم مـن أصـفاهم الودَّ مـخلصاً
تـمسَّك فـي أخـراه بـالسبب الأقـوىٰ
هـم القـوم فـاقوا العـالمين مـناقباً
مـحاسنهم تـحكىٰ وآيـاتهم تُـروىٰ
مـوالاتـهم فـرض وحـبّهمو هُـدىً
وطـاعتهم ودّ وودهـمو تـقوىٰ[2]

وقال الفخر الرازي: «إنّ أهل بيته ﷺ ساووه في هذه الأشياء:

في الصلاة عليه وعليهم في التشهد، فيلزم أن قال: اللّهم صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد.

وفي الطهارة، قال تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفي المحبّة، وفي قوله تعالى: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]...»[3].

---

١. الأبيات من الكامل، أنشأها الإمام لمّا نسبت إليه الخوارج الرفض: حسداً وبغياً. وردت الأبيات في ديوانه: ٩٣ رقم (٨٤). ووردت أيضاً في مناقب الشافعي ٢: ٧١. وفي الوافي بالوفيات ٢: ١٧٨ أنّ الربيع بن سليمان قال: خرجنا مع الشافعي من مكة نريد منى، فلم ننزل وادياً ولم نصعد شعباً إلّا وسمعته يقول الأبيات تلك.

٢. الأبيات يُرويها الشبلنجي في نور الأبصار: ٢٣٣، وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة: ٢٩ عن بعضهم في مدح أهل البيت عليهم السلام.

٣. التفسير الكبير ٢٧: ١٦٦ ذيل تفسير آية القربىٰ: ٢٣ من سورة الشورىٰ.

وما أفضل ما قال المحبّ:

يا بني الزهراء والنور الذي ظنّ موسى أنّه نور قبس
لا أوالي قطُّ من عاداكم إنّهم آخر سطرٍ في عبس[١]

ونقول متمثّلين قول المحبّ:

صلُوا حبل ودّي بالنبي وآله
تمسّكت بالمختار جزئي وأجمعي



اختصاص أهل البيت بفضائل كثيرة:

من هذه الخصائص: تحريم الصدقة عليهم، وتعويضهم الخمس من الفيء والغنيمة، وكذلك إطلاق لقب الأشراف عليهم، ويطلق اللقب علىٰ سائر أهل البيت، وخاصّةً علىٰ ذرّية الحسن والحسين والسيدة زينب[٢].

ومن خصائصهم كذلك: وجوب إكرامهم وتوقيرهم، لأجل قرابتهم من رسول الله ﷺ، فقد كان هذا حال الصالحين معهم.

---

١. تحفة الأحباب للسخاوي: ١١٢ ـ ١١٣ يرويها ضمن زيارة مخصوصة ينقلها عن بعض السلف. ويشير إلى قوله تعالى في آخر آي عبس: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

٢. وهل يشاركون أولاد الحسن والحسين عليهما السلام في أنّهم ينسبون إلى النبي ﷺ؟ لقد ذكر جمهور الفقهاء أنّ من خصائصه ﷺ أنّه يُنسب إليه أولاد بناته، ولم يذكروا مثل ذلك في أولاد بنات بناته، فالخصوصية للطبقة العليا فقط، وهم أولاد فاطمة عليها السلام ينسبون إليه، وأولاد الحسن والحسين عليهما السلام يُنسبون إليهما فينسبون إليه ﷺ أمّا أولاد زينب و أم كلثوم فإنّهم يُنسبون إلى أبيهم، لا إلى الأُم، ولا إلىٰ النبي ﷺ فجرى فيهم الأمر على قاعدة الشرع في أنّ الولد يتبع أباه في النسب، لا أمه، وإنّما خرج أولاد عليها السلام للخصوصية التي وردت عنه ﷺ، وهي مقصورة على ذرّية الحسن والحسين عليهما السلام. فقد أخرج الحاكم بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لكلّ بني أُمٍّ عصبةٌ، إلّا ابني فاطمة، أنا وليّهما وعصبتهما». ولهذا جرى السلف والخلف علىٰ أنّ ابن الشريفة لا يكون شريفاً.

ومنها: أنّ محبّتهم تطيل العمر، وتحصل بها البركة، وتبيّض الوجه يـوم القـيامة وعكس ذلك كرههم.

وعلىٰ خلاف ذلك، فبغضهم يورث الشقاوة، ويُعرض المبغض لهم على رسول الله ﷺ مسودّ الوجه يوم القيامة، وما أحسن ما عرض هذا المعنى المحبّ:

فـيا مَـن يـواليـهم ويـحفظ ودَّهـم
ويكـرم مـثواهـم هـنيئاً لك البشـرىٰ
فـلابد يـوم العـرض تسـمع قـائلاً
تـفضّل تـفضّل فـادخل الجـنة الخـضرا
ويـا مَـن يـعاديهم لفـرط شـقائه
تـمهَّل قـليلاً أنت فـي سـقر الحـمرا

ومنها: أنّ أولاد فاطمة بنت رسول الله ﷺ يسمّون أبناءه ﷺ.

وهذه الخصوصية لأولاد فاطمة ابنته رضي الله عنها دون بقية أولاد بناته، وأبناء فاطمة هم: الحسن والحسين والمحسن وزينب و أم كلثوم، فهم الذيـن لهـم هـذه الخصوصية، وما تبع هذا من ذرّيتها من الأبناء الذكور؛ لأنّ أبناء الإناث ينسبون الىٰ آبائهم.

ومنها: أنّ مهدي آخر الزمان من ذرّية أهل البيت.

وممّا يبيّن مكانة أهل البيت، وخاصّةً الحسن والحسين هذه المحاورة التي تمّت بين الحجّاج والشعبي حول بنوّة الحسنين ونسبتهما إلىٰ الرسول ﷺ، وكان الشعبي يحبّ آل البيت، ويقول عنهم: إنّهم أبناء النبي ﷺ وذرّيته.

فذات يوم استدعاه الحـجّاج إلىٰ مـجلسه، وحـضر المـجلس عـلماء الكـوفة والبصرة، ولمّا دخل الشعبي لم يحسن الحجّاج استقباله، ولمّا جلس سأله الحجّاج: يا شعبي، أمر بلغني عنك يشهد عليك بجهلك!

فقال الشعبي: ماهو أيّها الأمير؟

قال الحجّاج: ألم تعلم أنّ أبناء الرجل إنّما ينسبون إليه؟ والأنساب لا تكون إلّا بالآباء؟ فما بالك تقول عن أبناء فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ: إنّهم أبناء رسول الله ﷺ وذرّيته، مع أنّ أباهم علي، وليس لهم اتّصال بالنبي ﷺ إلّا من جهة أُمّهم فاطمة؟!

فردّ عليه الشعبي ردّ الواثق: أيّها الأمير، ما أراك تتكلّم إلّا بكلام من يجهل كلام الله وسنّة نبيّه ﷺ.

فقال الحجّاج وقد اشتدّ غضبه: ويلك! كيف تقول لي هذا؟!

فقال الشعبي: هؤلاء هم العلماء والقرّاء وحَمَلَة كتاب الله، أليس الله تعالىٰ يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وألم يقل سبحانه وتعالى عن سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن ذرّيته عيسى﴾، فهل كان اتّصال عيسى عليه السلام بسيّدنا إبراهيم عليه السلام إلّا من جهة الأُم فقط؟ كما صحّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال عن الحسين عليه السلام: «هذا ابني سيّد شباب أهل الجنّة».

عندئذٍ خجل الحجّاج، وأخذ يتلطّف مع الشعبي بعد أن أفحمه الشعبي بالحجّة من الكتاب والسنّة[1].



في مشروعية الزيارة لقبور الصالحين:

لكي ندفع شبهات المنكرين للزيارة نستند الىٰ أدلّة منسوبة للأئمة الكبار... فجميعهم متّفق علىٰ زيارة المصطفىٰ ﷺ في القبر الشريف، وأنّها أعظم قربةً لمن له سعة، وأنّها مستحبّة وواجبة كذلك. ويدلّ علىٰ زيارة قبور أهل البيت: القياس، أي

---

١. حكى المحاورة محمد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤول في مناقب آل الرسول ١: ٢٤ ـ ٢٥.

قياس الأولىٰ، وهو قبر المصطفىٰ ﷺ[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ يزور أصحابه في البقيع وفي أُحد ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ومن بعده ﷺ كان الصحابة الكرام يواظبون علىٰ هذه الزيارة، ولو كانوا يأتون إلىٰ هذه الأماكن من بلاد بعيدة. ومن بعد الصحابة إلىٰ اليوم يواظب المقتدون بـه ﷺ علىٰ هذه الزيارة كسنّة متوارثة جيلاً بعد جيل.

غير أنّ هناك من يعترضون علىٰ زيارة مشاهد آل البيت، لزعمهم أنّ الحديث الشريف ينصّ علىٰ عدم شدّ الرحال إلّا إلىٰ ثلاثة مساجد فقط: المسجد الحـرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصىٰ. بينما جاء في تفسير الحديث الشريف «لا تشدّ الرحال إلّا إلىٰ ثلاثة مساجد»[2]: أنّ جميع المساجد متساوية في فضل الصلاة فيها

---

١. أفتى فقهاء الإسلام بجواز زيارة القبور، وخاصّةً قبور الأنبياء والأولياء الصالحين، استناداً إلىٰ مجموعة من الأدلّة الشرعية من الكتاب والسنّة والاجماع والقياس والعقل، بـل قـد أفـتى أئـمة المـذاهب كـلّها باستحبابها وأفضليتها. يقول ابن هبيرة ٥٦٠هـ في كتابه «اتّفاق الائمة»: اتّفق مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم علىٰ أنّ زيارة قبر النبي مستحبّة (عنه كتاب المدخل لابن الحاج ١: ٢٥٦).

وقد آلف تقي الدين السبكي الشافعي ٧٥٦هـ كتاباً حافلاً في خصوص زيارة النـبي الأعـظم ﷺ وباقي الأولياء الصالحين أسماه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» ردّاً على ابن تيمية، وذكر كثيراً من أحاديث الباب، ثم عقد باباً في نصوص العلماء من المذاهب الأربعة على استحبابها، ثم قـال: «إنّ ذلك مجمع عليه بين المسلمين» وقال: «لا حاجة إلى تتبّع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم باجماعهم وإجماع سائر العلماء عليه، والحنفية قالوا: إنّ زيارة قبر النبي ﷺ من أفضل المندوبات والمستحبات، بل يقرب من درجة الواجبات» (راجع ص ٤٨).

ويقول السيد نور الدين السمهودي ٩١١هـ في كتابه الموسوم «وفاء الوفا ٢: ٤١٢» بعد ذكر أحاديث الباب: «وأمّا الاجماع، فأجمع العلماء على استحباب زيارة القبور للرجال كما حكاه النووي، بـل قـال بعض الظاهرية بوجوبها... وأضاف الدمنهوري الكبير ـ وهو من كبار المتأخرين ـ إلى ذلك: قبور الأولياء والصالحين والشهداء» وبه قال الحافظ أبو العباس القسطاني المصري ٩٢٣هـ في كتابه «المواهب اللدنية» في الفصل الثاني منه، وكذا الشربيني محمد الخطيب ٩٧٧هـ في كتابه «مغني المحتاج ١: ٣٥٧».

٢. أخرج الرواية البخاري في صحيحه ١: ٣٩٨ كتاب صفة الصلاة ب ١٤ من أبواب التطوّع حديث ١١٣٢ وص ٤٠٠ ب ١٩ ح ١١٣٩، ومسلم في صحيحه ٢: ١٠١٤ كتاب الحج ب ٩٥ ح ١٣٩٧ كلاهما عن أبي هريرة، والترمذي في سننه ٢: ١٤٨ ب ٢٤٢ من أبواب الصلاة ح ٣٢٦ عن أبي سعيد الخدري.

إلّا في هذه المساجد الثلاثة المذكورة يكون الثواب أكبر[١]. وهذا لا يعني ألّا يسافر المرء إلىٰ مسجدٍ غير هذه الثلاثة المذكورة، وإلّا لما حرص المسلمون على الصلاة في مسجد قباء علىٰ سبيل المثال، وهم قد جاءوا إلىٰ هذا من بلاد بعيدة، وكذلك يحرص الحجّاج والمعتمرون على زيارة مساجد المدينة ومكّة للصلاة فيها.

فالمعنىٰ ينصرف إلىٰ بيان أفضلية المساجد الثلاثة علىٰ غيرها، ولا ينفي السفر لزيارة غيرها والصلاة فيها، وكلٌّ له درجته عند الله.

وحول الحديث الثاني، وهو قوله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً» من رواية أبي داود[٢] فإنّ ما فهمه العلماء المنصفون هو: ألّا تجعلوا قبر الرسول ﷺ كالعيد بالعكوف عليه وإظهار الزينات عنده، والاشتغال عنده باللهو والطرب ممّا يجتمع له في الأعياد، أي: لا يؤتى القبر إلّا للدعاء والزيارة. وهذا كلام ابن حجر ﷺ، ثم أضاف: وكذلك يعلم من الحديث: ألّا تجعلوا للزيارة يوماً مخصوصاً مثلما للعيد يوم مخصوص، فلا يزار القبر إلّا في هذا اليوم فقط[٣].

كما يستفاد من الحديث: الزجر عن سوء الأدب عند القبور، والتزام الأدب الذي لا يتجاوز الدعاء والاعتبار والتأسي بأعمال وسيرة الصالحين الذين تضمّهم هذه القبور.

وعن الحديث النبوي الشريف: «اشتدّ غضب الله علىٰ قومٍ اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٤]، فقد جعل بعض المعترضين من هذه ذريعةً لمنع الزيارة، ويزعمون أنّ سبب المنع لديهم المحافظة على التوحيد، وهذا الزعم باطل؛ لأنّ الممنوع هو اتّخاذ القبور مساجد يعكفون عليها، أمّا الزيارة والدعاء عند القبور بقصد الموعظة

---

١. انظر شرح الكرماني على صحيح البخاري ٧: ١٢.

٢. سنن أبي داود ٢: ٢١٨ كتاب المناسك باب: زيارة القبور ح ٢٠٤٢. وأورده المتقي الهندي في الكنز ١: ٤٩٨ ح ٢١٩٩ وعزاه إلى الحكيم.

٣. الجوهر المنظم لابن حجر. ذكره السمهودي في وفاء الوفا ٢: ٦١٢.

٤. رواه ابن أبي شيبة في المصنّف ٨: ٣٢٥، وابن عبدالبرّ في التمهيد ٥: ٤١ و٤٣ كلاهما عن أبي سعيد الخدري.

والاعتبار ممّا أوجبه الشرع الذي شرّع الزيارة والدعاء.

بل كيف يكون الشرك والزائر حين يدخل المسجد يصلّي لله تحية المسجد أولاً، فيعظّم ربّه، ويسجد له، ويشهد أنّه لا إله إلّا هو شهادة توحيد خالص؟!

ومن هنا، فإذا كان الهجر لكلّ مسجدٍ فيه قبر، لهجر المسجد النبوي الشريف والصلاة فيه بعد إدخال القبر فيه في عهد عمارة عمر بن عبدالعزيز له، ولما كانت الصلاة فيه بألف صلاة[١]. ولقد قال ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة» والحديث برواية البزّاز، وهو بسند صحيح[٢].

وقد قال النووي: يسنّ الإكثار من زيارة القبور، وإكثار الوقوف عند قبور أهل الخير والصلاح[٣].

كما قال ابن الحاج في مدخله: ما زال العلماء كابراً عن كابر، مشرقاً ومغرباً، يتبرّكون بزيارة قبور الصالحين، فإنّ بركتهم جارية بعد موتهم، كما كانت في حياتهم[٤].

وكذلك قال الإمام الغزالي ﵁ ـ كما نقل عنه ابن الحاج في مدخله ـ إنّ السفر لأجل العبادة يدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء[٥].

فما القول بعد هذا في زيارة أضرحة أهل البيت الذين دعانا رسول الله ﷺ إلى مودّتهم ومحبّتهم، وحدّث عن فضلهم؟! فمن اعتقد خلاف ذلك فهو المحروم.

وقد اهتم كثير من المسلمين بزيارة أضرحة آل البيت، كما اهتمّوا بزيارة

---

١. لرواية أبي هريرة عنه ﷺ التي أخرجها مسلم في صحيحه ٢: ١٠١٢ كتاب الحج ب ٩٤ فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة ح ١٣٩٤ وما بعده.

٢. مجمع الزوائد ٤: ٦ عن علي ﵇ وأبي هريرة برواية البزّاز، أمّا برواية ابن عبيد «ما بين بيتي ومنبري...» أخرجها البخاري في صحيحه ١: ٣٩٩ ب١٨ من أبواب التطوع ح١١٣٧ و١١٣٨ عن عبدالله بن زيد وأبي هريرة.

٣. حكاه عنه السيد نور الدين السمهودي في وفاء الوفا ٢: ٤١٣.

٤. المدخل ١: ٢٦١.

٥. المصدر السابق: ٢٦٩.

مشايخهم أينما كانوا، مستندين إلىٰ كلامٍ جاء في «نور الأبصار» للشبلنجي قال: فإنّ الأنوار التي على أضرحتهم شاهد صدق علىٰ وجودهم بهذه الأضرحة، ولا ينكر ذلك إلّا من ختم الله على قلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة[١]. كما قال: إنّ مثل هذه الأشياء تؤخذ بحسن النية، فإذا كان صاحب المزار غير موجود فيه فإنّ ثواب الزيارة يحصل، كما أنّ الزيارة تصل إليه في أيّ مكان أينما كان[٢].

وكما قال العلّامة العقاد: إن لم تكن هذه الأماكن التي دُفن فيها رأس الإمام الحسين ـ وسمّاها في أنحاء العالم الإسلامي كلّه ـ قال: فإنّها الأماكن التي تحيا بها ذكراه لا مراء... وأيّاً كان الاختلاف في موضع الرأس الشريف، فهو في كلّ موضع أهل للتعظيم والتشريف[٣].

وقال في كتابه «أبو الشهداء»: وإنّما أصبح الحسين بكرامة الشهداء وكرامة البطولة وكرامة الأُسرة النبوية معنىً يستحضره الرجل في قلبه، وهو قريب أو بعيد من قبره، وهذا المعنىٰ في القاهرة، وفي عسقلان، وفي دمشق، وفي الرقّة، وفي كربلاء، وفي المدينة، وفي غير تلك الأماكن سواء[٤].

وصدق المحبّ حيث قال:

لا تطلبوا المولى الحسين بأرض شرقٍ أو بغرب
وذروا الجميع ويمموا نحوي فمشهده بقلبي

ويضيف الصوفية قولهم: حكم باب البرزخ حكم التيار الذي نزل فيه إنسان، فيغطس ثم يطفو في موضع آخر، وتلك خاصيّة من خواصّ الأولياء الذين لهم ما يشاؤون عند ربّهم.



١. نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار: ٣٥٦.
٢. المصدر السابق: ٣٥٧.
٣. أبو الشهداء الحسين بن علي: ٢٦٢.
٤. المصدر السابق.

أهل البيت في مصر



بقلم

عبدالحفيظ فرغلي

أحمد أبو كف

أهل البيت في مصر[1]

الشيخ عبدالحفيظ فرغلي

تعرّض أهل البيت بعد وفاة الرسول ﷺ لمحنة شديدة، وكان لهذه المحنة جذور عميقة تمتدّ إلىٰ أيام الجاهلية، وظهرت أيام النبي ﷺ، واشتدّت بعد وفاته..

وكانت هناك أحداث عاتية قد حدثت في أيام ثالث الخلفاء عثمان رضي الله عنه، انتهت بمصرعه علىٰ يد بعض الثوّار الذين حاصروا داره عدّة أيام، ثم قتلوه وهو يقرأ في مصحفه، وكان بين المدافعين عنه ابنا علي كرّم الله وجهه: الحسن والحسين، وحين علم «علي» بمقتل الخليفة جاء إلىٰ الدار حزيناً والهاً، وثار غاضباً في وجه ابنيه، وقال لهما: كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ وشتم محمد بن طلحة، ولعن «عبدالله بن الزبير».

واجتمع الناس على «علي» يبايعونه، ولم يكن بالراغب في هذه البيعة، وقال للناس وقد اجتمعوا حوله وتكاثروا عليه: «لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم رضيت به». وكأنّه رضي الله عنه كان يحسّ بما ستنتهي إليه الأمور، وبما يبيت نحوه من غدر، وتحت إلحاحهم الشديد قَبِل، وصعد المنبر وألقىٰ بيانه الذي يوضّح فيه طريقه للناس: «ليس لي من دونكم إلّا مفاتيح مالكم معي، وليس لي أن آخذ درهماً دونكم...».

---

١. مقتبس من مقدّمة كتاب «أهل البيت في مصر» ط. القاهرة.

ولكن على الرغم من هذه الخطّة التي من شأنها أن تقوّم الأمور، إلّا أنّ التبييت كان أقوىٰ من خطّته، والمكيدة أشدّ من أن تقف في طريقها المبادئ والمثل، فظهرت فكرة الأخذ بثأر عثمان، وأحسن استغلالها استغلالاً يرجّح كفّة الباطل على الحقّ... واشتدّ الخلاف، وأُريقت دماء، وانتهى الأمر بقتل الإمام علي كرّم الله وجهه، بيد مارقٍ من الخوارج هو عبدالرحمان بن ملجم.

وهال مقتل «عليّ» الناس فالتفّوا حول ابنه «الحسن» ﷺ... ولكنّه لقي حتفه بعد قليل مسموماً، وبعد أن كان سبباً في حقن دماء المسلمين، فقد آثر صلح معاوية ـ على ما فيه من غمط لحقّه ـ على الاستمرار في القتال وإراقة الدماء، وصدق قول جدّه العظيم عنه: «إنّ بنيَّ هذا سيد، وسيصلح الله به بين طائفتين من المسلمين»[١].

وبوفاة الحسن استتبّ الأمر لمعاوية قليلاً، فأراد أن يمهّد لولاية ابنه يزيد، فقد سنحت أمامه الفرصة، وتمكّن معاوية من أن يأخذ العهد لابنه قبل وفاته، وبايعه الناس علىٰ ذلك ما عدا بضعة نفر، منهم: الحسين وعبدالله بن عمر وعبدالرحمان بن أبي بكر وعبدالله بن الزبير، لذلك كان شغل يزيد الشاغل، حين تولّى الخلافة بعد موت أبيه أن يأخذ هؤلاء بالبيعة.

ولجأ الحسين ﷺ إلىٰ مكّة معتصماً بها، ولاجئاً إليها من عنت هؤلاء الذين اغتصبوا الحقّ من أهله، وقتلوا أباه، وسمّوا أخاه...

وبقي الحسين بمكّة وقتاً جاءته فيه الرسل والوفود من الكوفة طالبين منه الخروج إليهم، فعزم على ذلك، ولكن عزمه هذا أقلق عليه قلوباً تحبّه، وخشيت أن يصيبه ما أصاب أباه وأخاه من الخذلان...

ولكن الحسين كان يرىٰ بعينٍ لا يرىٰ بها غيره، إنّه ما زال يحفظ لمكّة قداستها،

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه ٢: ٩٦٢ كتاب الصلح ب ٩ قول النبي ﷺ للحسن بن علي: ابني هذا سيد... ح٢٥٥٧ و٣: ١٣٢٨ كتاب المناقب ب٢٢ علامات النبوة في الإسلام ح٣٤٣٠، وص١٣٦٩ كتاب فضائل الصحابة ب٢٢ مناقب الحسن والحسين ح٣٥٣٦.

وخشي أن يكون سبباً في انتهاك حرمتها، فقال: «لأن أُقتل خارجاً منها بشبرين أحبَّ إليَّ من أن أُقتل خارجاً منها بشبر، وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتّىٰ يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدىٰ عليَّ كما اعتدى اليهود في السبت».

ويمضي الحسين إلى الكوفة، ولكنّه يُضيق عليه الخناق في الطريق، ويُحاصر في كربلاء بجيشٍ كثيفٍ ينتهي باستشهاده ﷺ بعد أن أبلىٰ بلاءً حسناً. وبعد أن حيل بينه وبين الماء، وبعد أن ناشد المحيطين به من أهله وذوي قرابته والمناصرين له أن يتفرّقوا عنه في سواد الليل؛ لأنّ القوم ليس لهم مطمع سواه، ولكنّ هؤلاء أبوا مفارقته، واستشهدوا دونه، واستشهد معهم.

وأثارت هذه الحادثة ثائرة الناس، وكان من نتائجها ثورة المدينة بعد ذلك التي قمعت بكلّ عنف[1]، وتبعها حصار مكة وضربها بالمنجنيق.

وكان الوالي في المدينة قبل نشوب الثورة يخشىٰ وجود السيدة زينب بها، فطلب منها بأمر يزيد أن تخرج من المدينة وتختار أيّ بلدٍ تريد، ولكنّها رفضت في أول الأمر قائلة: «قد علم الله ما صار إلينا، قُتل خيُّرنا، وسيق الباقون كما تُساق الأنعام، وحُملنا على الأقتاب، فوالله، ما خرجنا وإن أُريقت دماؤنا».

وأحاط بها نساء بني هاشم مشفقات عليها من مصير آخر مشؤوم إن هي استمرّت في مناوأة الوالي.

وقالت لها ابنة عمها زينب بنت عقيل: «يا ابنة عمي، قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوّأ منها حيث نشاء، وسيجزي الله الشاكرين، إرحلي إلى بلد آمن» فاختارت مصر.



---

١. وقد جرت على ألسنة المؤرّخين بوقعة الحرّة سنة ٦٣هـ حينما ثار أهل المدينة على عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد وأخرجوه وبني أُمية منها، ولمّا كتبوا إلى يزيد يستغيثون به بعث إليهم مسلم بن عُقبة المُرّي، وهو الذي سمّي مسرفاً؛ لإسرافه في القتل والجريمة وإراقة الدماء بالجملة. فقمع الثورة وبدّد أهلها، وهتك عرضها، بعدما أباحها لجنده ثلاثاً، يقتلون الناس كيفما شاءوا، ويأخذون المتاع والأموال بما يحلوا لهم، وفيها الصحابة الكرام والقرّاء والزهّاد والحفّاظ. فقُتل فيها خلق كثير. انظر تفصيله في الكامل ٤: ١١١ ـ ١٢٢.

لماذا مصر؟

ذكرنا تلك الأسباب لنخلص منها إلىٰ اختيار السيدة زينب رضي الله عنها ـ وهي أول مهاجرة من أهل البيت ـ مصر مقاماً لها، فلماذا اختارت مصر بالذات لتهاجر إليها؟

والجواب علىٰ ذلك ورد علىٰ لسان ابنة عمها حين قالت لها: «إرحلي إلىٰ بلد آمن». فقد كانت مصر في هذه الآونة أكثر البلاد أماناً واستقراراً. فالحجاز وحاضرتاه مكة والمدينة، قد اشتعل غضباً علىٰ «يزيد» كما يقول المسعودي:

ولمّا شمل الناس جور يزيد وعمّاله، وما ظهر من فسقه وقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأنصاره... أخرج أهل المدينة عامله عليهم وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم وسائر بني أُمية.

ونما فعل المدينة ببني أُمية إلىٰ يزيد، فسيّر إليهم الجيوش بقيادة مسلم بن عقبة المرّي الذي حاصر المدينة من جهة «الحرّة»، وأخاف أهلها، وقتل منهم عدداً كبيراً، ولاسيّما من بني هاشم الذين لم ينج منهم سوىٰ علي بن الحسين المعروف بالسجاد، وعلي بن عبدالله بن العباس وقد عصم الله الأول بدعائه، ومنع الثاني أخواله من كندة الذين كانوا في جيش مسلم بن عقبة.

وترك مسلم بن عقبة المدينة متّجهاً إلىٰ مكّة التي ثارت بقيادة ابن الزبير، ولكنّه هلك في الطريق، وتولّىٰ بعده قيادة الجيش الحُصَين بن نمير الذي نصب المجانيق حول الكعبة ورماها بالأحجار المحماة، حتّىٰ اشتدّ الأمر علىٰ أهل مكّة وابن الزبير[1].

فلا يمكن ـ والحالة هذه ـ أن يستقرّ مقام أهل البيت في هذا الجوّ المشحون بالخطر في الحجاز، أمّا الشام فهو مقرّ الأمويّين، الذين اصطنعوا أهله بالمال والوعود، وزيّنوا لهم كراهية علي وبنيه.

أمّا العراق وهو شيعة علي، فقد وجّه إليه الأمويّون سخطهم، وبلوا أهله

---

١. انظر مروج الذهب ٣: ٧٨ وما بعده.

بالجبّارين، من أمثال زياد ابن أبيه، ثم ابنه عبيدالله، ثم الحجّاج بن يوسف الثقفي، الذين تتبّعوا شيعة علي وبنيه فأذاقوهم ألوان العذاب.

ظلّت هذه الأنحاء ـ الحجاز والعراق والشام ـ تضطرب بالفتن والقلاقل، ولم ينج من ذلك إلّا مصر التي جعلها الله كنانته في أرضه، وقد أصبحت معقل الإسلام ودار الأمان.

ولقد ورد في فضائل مصر أخبار كثيرة، خصّها الله بالذكر في كتابه الكريم في مواطن متعددة[١]، كما جاء عن عيسى عليه السلام أنّه مرّ بسفح «المقطم» في أثناء ذهابه إلى الشام، فالتفت إلىٰ أمه وقال لها: «يا أماه، هذه مقبرة أُمة محمد ﷺ»[٢].

وبغضّ النظر عن ثبوت هذا الخبر أو عدم ثبوته، فإنّه يدلّ علىٰ فضل مصر، وأنّها

---

١. فقد ذكر السيوطي أنّ مصر ذكرت في القرآن في أكثر من ثلاثين موضعاً، بعضها من طريق الصراحة وبعضها بطريق الكناية. فمن الصريح قوله: ﴿ٱهْبِطُوا مِصْراً﴾ البقرة/٦١ و﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ يونس/٨٧ و﴿ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾ يوسف/٢١ و﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ﴾ يوسف/٩٩ و﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الزخرف/٥١. ومن الكناية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ يوسف/٣٠ و﴿دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ القصص/١٥ و﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ القصص/١٨ و﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ القصص/٢٠ و﴿لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ الأعراف/١٢٣ و﴿آوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ المؤمنون/٥٠ و﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يوسف/٥٥ و﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ القصص/٤ و﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ القصص/٥ و﴿نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ القصص/٦ و﴿إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ القصص/١٩ و﴿ٱلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ غافر/٢٩ و﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ غافر/٢٦ و﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الأعراف/١٢٩ و﴿لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الأعراف/١٢٧ و﴿كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ الأعراف/١٣٧ و﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ الأعراف/١١٠ والشعراء/٣٥ و﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ الشعراء/٥٧ ـ ٥٨ و﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ الدخان/٢٥ ـ ٢٦ و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يونس/٩٣ و﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ البقرة/٢٦٥ و﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ المائدة/٢١ و﴿نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ السجدة/٢٧ و﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ يوسف/١٠٠ فجعل الشام بدواً، وسمّى مصر مصراً ومدينة (نور الأبصار: ٣٥٤ نقلاً عن حسن المحاضرة للسيوطي).

٢. كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ١: ٥١.

ستظلّ مهوى القلوب ومحطّ الأنظار من عترة النبي الكريم على مرّ الزمان[١].

ولقد مرّ بمصر كثير من الأنبياء، منهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وإدريس، ويوسف عليهم السلام، ونجت مصر من الفتن التي اشتعلت في غيرها من الحواضر والأقطار الأخرى، وليس يرجع ذلك في الحقيقة إلّا إلى طبيعة أهلها الذين امتازوا «بالبساطة واليسر وعدم المبالغة، والصبر وقوّة العزيمة والهدوء».

جاء في كتاب مصر العربية[٢]: «وحدثت موقعة كربلاء التي استشهد فيها سبط الرسول صلى الله عليه وآله ومعه كثير من أهل بيته وولده، ولم يطمئنّ بهذه الأسرة الكريمة المقام بعد أن أدركوا الحقد الذي يتعقّبهم به خلفاء بني أمية وولاتهم... فأقبلت وفودهم إلى مصر، حيث وجدوا في رحابها الأمن والهدوء... وأكرمت وفادتهم، وأفسحت لهم صدرها، ولاقتهم بما يليق بهم وبمجدهم الكريم، من حفاوة وتكريم، وبذلك أصبحت مصر داراً للأُسرة النبوية المجيدةالتي بادلت مصر الحبّ والوفاء... وأصبحت مصر في نظر العالم الإسلامي منذ ذلك الوقت رمزاً للوفاء والتقدير، يتطلّع إليها المسلمون في شتّى الأقطار، وأصبحت بيوت الهاشميّين في مصر قبلةً يحجّ إليها المسلمون، وأضحت قبورهم من بعدهم مثار ذكرى ومهبط رحمة وكعبةً يقصدها الآلاف، يستعيدون فيها سيرة رسول الله الكريم، ويتبرّكون فيها بآثار عترته الطاهرة الزكية. ولحكمةٍ ما اختصّ الله مصر بهذه النعمة المباركة، فقد أكرمها الله بأوليائه الطاهرين وأصفيائه المقرّبين، حتّى إن شاء الله أن يُقبض بعيداً عن مصر، قيّض الله له من ينقل رأسه الشريف إليها».



١. وقد وردت أخبار في مصر، منها: ما روي عن كعب بن مالك عن أبيه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إذا افتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإنّ لهم ذمّةً ورحماً». وفي مسلم أيضاً عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ستفتحون مصر، وهي أرض يسمّى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإنّ له ذمّة ورحماً». وغيرها.

٢. تأليف أحمد حسنين القرني وعبدالحفيظ فرغلي القرني.(منه)

من جاء من أهل البيت إلىٰ مصر؟

تفرّق بعض أهل البيت في الأمصار، وبقي بعضهم في مكّة والمدينة، ويحسن بنا أن نذكر أسماء ولد علي بن أبي طالب، لنعرف هذا النسل الشريف، ومن جاء منه إلىٰ مصر.

أمّا أولاد علي من فاطمة الزهراء، الذين ينتسبون إلىٰ النبي ﷺ، فهم: الحسن والحسين ومحسن وأُم كلثوم الكبرىٰ وزينب الكبرىٰ.

وأولاده من غيرها: محمد وأُمّه خولة بنت إياس الحنفية، وقيل: ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفي، وعبدالله وأبو بكر وأُمّهما ليلىٰ بنت مسعود، وعمر ورُقيّة وأُمّهما تغلبية، ويحيىٰ وأُمّه أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت متزوّجة من جعفر الطيار ﷺ، وأعقبت منه عوناً ومحمداً وعبدالله، ثم تزوّجها أبو بكر الصدّيق، ثم تزوّجها علي بن أبي طالب، الذي أعقب منها يحيىٰ وجعفر والعباس وعبدالله وأُمّهم أُم البنين بنت حزام الوحيدية، ورملة وأُم الحسن وأُمّهما أُم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي.

كما أنّ له بنات أُخريات، هنّ: أُم كلثوم الصغرىٰ وزينب الصغرىٰ وجمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأُم الكرام نفيسة وأُم سلمة وأُم أبيها.

أمّا العقب للإمام علي من أولاده، فكان من الحسن والحسين ومحمد وعمر والعباس رضي الله عنهم أجمعين.

ويوجد بمصر كثير من الأضرحة والمزارات لا حصر لها، والتي ينسب كثير منها إلىٰ أهل البيت، ومصر من قديم تشتهر بكثرة ما بها من المساجد والقباب والأضرحة، وما ذلك إلّا لطيبة وصلاح يغلبان علىٰ أهلها، والشاهد علىٰ ذلك واضح.

قال القضاعي: «إنّه كان بمصر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة من المساجد: ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وغالب هذه المساجد كانت

بالقرافة الكبرى ومدينة مصر والكيمان والعسكر وأرض القطائع»[١].

فما بالك بما وجد بعد ذلك؟

جاء في كتاب تحفة الأحباب: «أنه لمّا قُتل الحسين بن علي بأرض كربلاء طيف برأسه وسير في البلاد، إلّا بأرض مصر، فإنّ أهلها لم يمكّنوا حامليه من الدخول علىٰ تلك الحالة البشعة... ثم يقول: إنّ أهل مصر تلقّوا أهل البيت بمدينة الفرما ـ وهي أول مدينة من مدائن مصر ـ وحملوهم في الهوادج، وأوسعوا لهم في الكرامة، وأنزلوهم خير الأماكن بمصر وأووهم، وبنوا لموتاهم المشاهد واتّخذوها مزارات، وجعلوا لهم أرزاقاً من أموالهم تقوم بهم، فكان أهل البيت يقولون: يا أهل مصر! نصرتمونا نصركم الله، وآويتمونا آواكم الله، وأعنتمونا أعانكم الله، وجعل لكم من كلّ مصيبة فرجاً، ومن كلّ ضيق مخرجاً»[٢].

وهناك اختلافات حول وجود بعض أصحاب الأضرحة بداخلها، فمن منكر ومن مثبت. وحجّة المنكر عدم وجود النصوص القاطعة والشواهد الدالّة علىٰ التنقّل والارتحال في بعض الأحيان، أو وجود نصوص متعارضة مع ماهو شائع معروف.

ونحن في حديثنا هنا،ليس من هدفنا أن نكذّب أحداث التاريخ، ولكنّا نودّ أن نلقي الضوء علىٰ أصحاب هذه الأضرحة من السلالة الطيّبة الطاهرة، وننوّه إلىٰ أنّ هناك مصادر كثيرة مفقودة، كما أنّ حركة التأليف في الفترة التي تقع بين منتصف القرنين الأول والثاني، لم تكن قد نضجت بعدُ. وهي الفترة التي شهدت الأحداث الدامية التي تعرّض لها أهل البيت. يضاف إلىٰ ذلك حملة التشويه الكبرى التي دعا إليها الأمويّون؛ ليطمسوا بها آثار الهاشميّين وفضائلهم، ليحولوا بينهم وبين التعريف بهم حتّىٰ لايلتفّ الناس حولهم ويظاهرون في نيل حقّهم.

---

١. تحفة الأحباب: ١٨٠ ط القاهرة.

٢. المصدر السابق: ٢٢١.

علىٰ أنّه لايمنع أن يكون هناك بعض الأخبار التي جاءت في بعض المصادر التي أُلِّفت فيما بعد، والتي اعتمد أصحابها على الرواية التي كانت العماد الوحيد للعرب قبل عصر التدوين والتأليف، مثل كتب السيرة والطبقات والفتوح والأنساب والتاريخ. ثم لا ننسىٰ ما فعله التتار بعد ذلك بالكتب والمؤلّفات التي أغرقوها في دجلة، وجعلوها جسراً عبروا عليه.

وقد اعتنى الصوفية علىٰ وجه خاصّ بشأن هذه المزارات والأضرحة على اعتبار أنّها ذكرى من ذكريات الرسول ﷺ، وأثر من آثاره الشريفة. فصاحب الضريح منسوب إلىٰ المصطفىٰ، ومن حقّ المنسوب أن يحترم؛ إجلالاً للمنسوب إليه.



دوحة النبي ﷺ المباركة

لماذا الكثير من أغصانها في مصر؟[1]

أحمد ابو كف

(١)

دوحة النبي ﷺ المباركة[2]

دوحة النبي ﷺ المباركة ظلّلت أرض مصر من أوراقها وأغصانها، ولآلئ من كنوز آل بيت رسول الله ﷺ رصعت جبين مصر، وصارت أنواراً مضيئة يفوح عطرها الذكي.

وهذه الدوحة النبوية المباركة ألقت ثمارها وأوراقها أكثر ما ألقت من نسل فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ابن عم الرسول ﷺ، وبعضها من نسل الحسن بن علي.

بل إنّ أرض مصر وأهل مصر ـ حبّاً في آل البيت وعشقاً وتشيّعاً ـ لم يكتفوا

---

١. مقتبس من كتاب «آل البيت في مصر» ط. دار المعارف بالقاهرة.

٢. الدوحة: الشجرة العظيمة، ومنه حديث الرؤيا: «فأتينا على دوحةٍ عظيمة» أي شجرة. راجع النهاية: مادة «دوح».

بتلك الأضرحة والمشاهد الحقيقية، وإنّما بنوا عشرات ومئات من أضرحة أو مشاهد الرؤيا[١].

إذا كانت القاهرة ـ خاصّةً القديمة منها ـ تُعرف بمدينة الألف مئذنة، فإنّ ما على جغرافية أرضها من قباب ومشاهد يفوق العدد والحصر، ولاشكّ أنّ هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ مصر أرض الإيمان، وأنّ أهل مصر منذ أن ارتفعت الراية الخضراء في سمائها، اختاروا الإسلام عن صدق ويقين واقتناع.

آمن المصريون برسالة محمد بن عبدالله ﷺ وتحمّسوا للدين، بل أنّهم قد انغمسوا فيما وقع من أحداث مصيرية، ولا أكون متجاوزاً أو مبالغاً إذا قلت: إنّ أهل مصر كانوا من صنّاع السياسة في صدر الدولة العربية الإسلامية وما بعد ذلك من قرون.

وقد كان تحمّس أهل مصر للنبي الكريم ﷺ ولدعوته، ولآل بيته، تحمّساً يدعو إلى الفخر ما يدعو إلى التساؤل.

والذين يتساءلون لهم بعض العذر من تساؤلهم؛ لأنّهم ليس لهم رؤية شاملة بالنسبة لمصر بالذات، وبالنسبة لتاريخها الإيماني والعقائدي، حتّى من قبل الإسلام، بل إنّ ـ وهذا ثابت تاريخياً ـ الذين ليس لهم رؤية بالنسبة للمصريّين، ليس لهم هذه الرؤيا أيضاً بالنسبة للفرس، حول سرّ تحمّس أهل فارس لآل بيت رسول الله ﷺ.

والإجابة التي يمكن أن نعطيها بالنسبة لمصر هي نفس الإجابة لفارس! فأهل الحضارات والمعتقدات القديمة كان تحمّسهم وتشيّعهم رائعاً للدين الجديد ولآل البيت. وطبعاً، إنّ تشيّع المصريين يختلف بعض الشيء عن تشيّع الفرس!

---

١. مشاهد الرؤيا أو أضرحة الرؤيا مصطلح يطلق على تلك المشاهد التي بُنيت جراء رؤيا يراها أحد الصالحين في منامه مؤدّاها أن يقيم مسجداً أو ضريحاً لأحدٍ من أهل البيت عليهم السلام أو الوليّ المسمّىٰ في الرؤية، فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمه. وقد كثر بناؤها في العصور الوسطىٰ. وما زالت شاهدة تاريخية تحكي حياة أهل البيت، وتعكس محبة المصريين لهم، لكن هذا لايمنع من إعمال التحقيق وايجاد الوثائق التي تؤكد أو تنفي واقع الأمر.

إنّ الإسلام جاء كسفينة أمان؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، بما في هذه المعاني من أبعاد وأبعاد، بل إنّ الذين لم يدخلوا الإسلام من أهل تلك البلاد كان الإسلام بالنسبة لهم رائعاً؛ لأنّه حافظ علىٰ معتقداتهم واحترمها من خلال شريعته السمحاء.

فمثلاً في مصر، حين جاء عمرو بن العاص وفتحها جند الإسلام، وجد منه القبط مالم يجدوه من الرومان، ومن كلّ غازٍ لها من قبل، آلّف عمرو بن العاص بين المسلمين والقبط، وأرسل كتاب أمان إلى بنيامين بطريرك القبط، وردّه إلىٰ كرسيّه، وأعاد إليه إدارة شؤون الكنيسة، وكان الرومان قد أقصوه عن هذا الكرسي ثلاثة عشر عاماً، فعاد بنيامين إلىٰ الإسكندرية، بعد أن كان مختفياً في الصحاري، وعاش الأقباط في ظلال حرّية العقيدة والأمان.

سألني أحدهم ـ بعد أن كتبت عن كوكبة من آل بيت النبي ﷺ ـ هل هم في مصر حقّاً؟ وهل دُفنوا فيها؟!

أجبته وبثقة: نعم، على الأغلب.

وأضفت قائلاً:

ـ إنّني لم أكتب إلّا عن الذين عاشوا في حدود القرون الأولىٰ تقريباً للإسلام، بمعنى أنّني كتبت عن بعض من دُفن من آل بيت النبي ﷺ في مصر، في إطار قرون أربعة أو خمسة من الهجرة، والمدفونون في مصر من آل البيت يفوقون هذا العدد ـ بلاشكّ ـ أضعافاً مضاعفة.

وقلت: إنّني لم أتشرّف بالكتابة عن بعض المشهورين، والذين لهم قبور لا تزال في مصر من آل البيت، وهم كثيرون، وممّا هو ثابت أنّهم مدفونون عندنا، وثابت أيضاً أنّهم من آل بيت رسول الله ﷺ.

وقلت كذلك: إنّني أردت من هذه الحلقات القليلة أن أزيل النقاب عن الكثير ممّا

لا يعرفه الكثيرون، خاصّةً بالنسبة للشباب المسلم والشابّات المسلمات، فحياة أهل البيت هي نماذج وقدوة ينبغي على الشباب المسلم ـ فتياناً وفتيات ـ أن يتأسّوا بها، ويعرفوا شيئاً من سيرتها ومن تاريخها، ومن قوة إيمانها وصدقها، ومن دفاعها عن العقيدة السمحاء، وعن دين محمد ﷺ.

فليس من الدين في شيء أن يذهب المسلم إلىٰ ضريح سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين ليزوره، وهو لا يعرف شيئاً عن تاريخه، وعن صلابته في الإيمان والمبدأ، والنضال والكفاح إلىٰ حدّ الاستشهاد.

ومن غير المعقول أن تذهب السيدة المسلمة إلىٰ مقام سيدتنا زينب، أو سيدتنا فاطمة النبوية، أو سيدتنا نفيسة، دون أن تعرف شيئاً عن التاريخ الإيماني لتلك النماذج المسلمة الرائعة من آل البيت.

إنّ تعرّف التاريخ والسيرة يجعلك تقتنع أكثر، وتكون لك أُسوة حسنة تتأسّىٰ بها، وتجعلها نبراساً لك ومصباحاً هادياً.

فالتاريخ والسيرة عظات وعبر، ومن لم يتأسّ بذلك يصبح كالببغاء، يظلّ يردّد دون وعي ما يسمعه، وهذا ليس من الإسلام في شيء.

فالحبّ التلقائي الوراثي وحده لا يكفي، وإنّما الحبّ المبني على المعرفة، يصبح يقيناً، خاصة بالنسبة لآل بيت رسول الله ﷺ الذين ضربوا بسلوكهم وسيرتهم أعظم الأمثال، وجمعوا حولهم قلوب المؤمنين في حياتهم ومماتهم على السواء.



بعد كربلاء عادت السيدة زينب أُخت الإمام الشهيد الحسين بن علي إلىٰ المدينة المنوّرة ومعها سيدات آل البيت، بالاضافة إلىٰ الزهرة التي بقيت من صلب الحسين، سيدي علي زين العابدين.

لكن حين ضيّق عليها الأمويون الخناق في المدينة، وخيّروها أن تذهب إلى

أرض الله الواسعة ـ غير مكّة بالطبع ـ حتّى لا تؤلّب المسلمين عليهم، اختارت مصر داراً لإقامتها ومقامها، لماذا؟

تجمع كتب التاريخ أنّها اختارت مصر أرض الكنانة، لما سمعته عن أهلها من محبّتهم لآل البيت، ومودّتهم لذوي القربىٰ من آل محمد ﷺ.

وكذلك لما وعته عمّا حدّثت به أُم سلمة من أنّ رسول الله ﷺ أوصىٰ بأهل مصر، حين بدأ التفكير في فتحها، وروي عنه قوله ﷺ:

«إنّكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمّىٰ فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلىٰ أهلها، فإنّ لهم ذمّةً ورحماً»[١]. وفي رواية أخرى: «ذمّةً وطهراً»[٢].

وقد فسّر البعض «رحماً وطهراً»: مارية القبطية التي يقال: إنّها كانت ابنة المقوقس عظيم القبط في مصر، التي أرسلها إلىٰ رسول الله ﷺ، فتزوّجها، وأنجب منها ابنه إبراهيم[٣].

ويعجز القلم عن أن يصف موكب السيدة زينب حين بدأت تشارف أرض مصر، من الذين ذهبوا على اختلاف طبقاتهم لاستقبالها عند «بلبيس» عام ٦١ هجرية، حتّىٰ أنّها رضي الله عنها حين شاهدت احتفاء أهل مصر بها، ظلّت تردّد وتقول: ﴿هٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

ومنذ ذلك التاريخ كانت السيدة زينب أول جوهرة من دوحة النبوة المباركة ترصع أرض مصر، بل هي رضي الله عنها ظلّت منذ هذا التاريخ قبساً من أقباس النبوة في مصر.

وما فعله أهل مصر مع السيدة زينب فعلوه مع تلك الأغصان من الدوحة النبوية المباركة التي جاءت إلىٰ مصر بعدها.

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه ٤: ١٩٧٠ كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر ح٢٢٦/٢٥٤٣ عن أبي ذرّ.

٢. المصدر السابق: ح٢٢٧/٢٥٤٣. ورحماً لكون هاجر أم اسماعيل منهم، وصهراً لكون مارية أم إبراهيم منهم.

٣. راجع خطط المقريزي ١: ٤٧.

فعلوه مع السيدة نفيسة بنت سيدي حسن الأنور، التي جاءت إلى مصر في الخامس والعشرين من رمضان عام ١٩٣هـ، تلقتها نساء مصر ورجالها بالهوادج والخيول، رافعين المصاحف عند العريش، مكبّرين مهلّلين، فرحين مستبشرين بتلك اللؤلؤة المباركة التي ستضاف إلىٰ عقد لآلئ آل البيت في مصر.

وحين فكّرت السيدة نفيسة في العودة إلى المدينة المنورة، فإن أهل مصر لم يتركوها، وتكاثروا عليها من كلّ فجّ وفي كل وقت يرجون بركتها، وأسقط في يدهم حتّى أنّهم ذهبوا إلىٰ الوالي؛ كي يتشفّع لهم ويرجو السيدة نفيسة البقاء.

وقيل علىٰ لسان السيدة نفيسة: إنّ سبب تفكيرها في العودة إلى المدينة المنوّرة هو كما قالت: «إنّي كنت قد أعتزمت البقاء عندكم، غير أنّي امرأة ضعيفة، وقد تكاثر الناس حولي، فشغلوني عن أورادي، وجمع زادي»[١].

وما فعله أهل مصر مع لآلئ آل بيت النبوة فعلوه أيضاً مع تلك الرؤوس الشريفة، التي بذلوا من أجلها الغالي والنفيس لنقلها أو دفنها في مصر.

فعلوا ذلك مع رأس الإمام الحسين بن علي.

وكذلك مع رأس سيدي زيد بن زين العابدين، ورأس سيدي إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي.



أمّا رأس كلٍّ من سيدي زيد بن علي زين العابدين، وسيدي إبراهيم بن عبدالله فقد جازف المصريون أيام الأمويّين وأيام العباسيّين على التوالي، وسرقوا الرأسين من المسجد الجامع ـ جامع عمرو ـ لكي يدفنوهما، ليصبحا مزارات، رغم أنّ التشيّع لآل البيت كان في أيام دولة الأمويّين، وفي فترات كثيرة في زمن العباسيّين جريمة لا تُغتفر، فرأس سيدي زيد دُفن بالفسطاط، ورأس سيدي إبراهيم دُفن بالمطرية[٢].

---

١. ذكره الشبلنجي في نور الأبصار: ٣٨٩.

٢. راجع المصدر السابق: ٤٠٦.

لكن لماذا هذا كلّه؟

إنّ الرسول الكريم ﷺ رأس هذه الدوحة المباركة يقول: «المرء مع من أحبّ»[١].

وأهل مصر أحبّوا آل البيت ووقفوا معهم، بلاشكّ.

وأهل مصر أيضاً حفظوا عن ظهر قلب، ووعوا ما قاله الرسول ﷺ، وما قاله صدق. فقد روى الإمام أحمد بسنده: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّي أوشك أن أُدعىٰ فأُجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليَّ الحوض يوم القيامة، فانظروني بما تخلفوني فيهما»[٢].

وروى الديلمي والطبراني وابن حبّان والبيهقي: أنّه ﷺ قال: «لا يؤمن عبد حتّىٰ أكون أحبّ إليه من نفسه، وتكون عترتي أحبّ إليه من عترته، وأهلي أحبّ إليه من أهله وذاته»[٣].

وقد كان أهل مصر ـ وما زالوا ـ مؤمنين محبّين لرسول الله ﷺ ودوحته المباركة، وسيظلّون على هذا الإيمان إلىٰ أن يشاء الله. ومن هنا جاء تحمّس أهل مصر لآل بيت النبي ﷺ، ولكلّ أثرٍ من آثار النبوة الكريمة.

وأقصد بآثار النبوة الكريمة تلك المخلّفات النبوية الشريفة التي تقبع في حجرة المخلّفات في مسجد سيدي الإمام الحسين، بعد أن جاءت إلىٰ مصر في القرن

١. أخرجه البخاري ٥: ٢٢٨٣ كتاب الأدب باب: علامة الحبّ في الله عزّ وجلّ ح٥٨١٦ و٥٨١٧ و ٥٨١٨، ومسلم ٤: ٢٠٣٤ كتاب البرّ والصلة والأدب باب: المرء مع من أحبّ ح١٦٥/٢٦٤٠ كلاهما عن ابن مسعود.

٢. مسند أحمد ٣: ١٧ عن أبي سعيد الخدري. وحديث الثقلين قد رواه أجلّاء علماء الجمهور وأكابر محدّثيهم في صحاحهم وسننهم وبأسانيد متعدّدة، ففضلاً عن الإمام أحمد فقد رواه مسلم والترمذي والدارمي وابن ماجة وأبو داود وصاحب الجمع بين الصحاح الستّ والحميدية من إفراد مسلم والسمعاني في فضائل الصحابة والطبراني وابن حجر وأغلب المفسّرين. وقد روي من طريق أهل البيت باثنين وثمانين طريقاً.

٣. فردوس الأخبار للديلمي ٥: ١٥٤ ح٧٧٩٦، المعجم الكبير للطبراني ٧: ٧٥ ح٦٤١٦، شعب الإيمان للبيهقي ٢: ٦٥٤ رقم ١٥٠٥، كلّهم عن أبي ليلى.

السابع الهجري من مدينة «ينبع» حتّىٰ أنّ المصريّين بلغوا من حرصهم علىٰ تلك المخلّفات ـ كما تقول الدكتورة سعاد ماهر ـ أنّهم جعلوا من بين وظائف الدولة المهمة: وظيفة «شيخ الآثار النبوية». بنوا لها رباطاً؛ أي حصناً من الحصون العسكرية، أو قلعةً ليحفظوها بها، ولم تذهب الآثار النبوية إلىٰ تلك الغرفة المباركة في المشهد الحسيني إلّا في موكب هائل، وحراسة مشدّدة من مكانها في «سراي عابدين» في عام ١٣٠٥هـ. وهذا الموكب اعتبره البعض من المواكب المشهورة في تاريخ مصر الحديث[١].



والذين لم يقتنعوا، وما زالوا يتساءلون أيضاً: لماذا آل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه في مصر؟

أقول: معهم الحقّ؛ لأنّهم لا يعرفون أنّ مصر لم تكن بعيدة عن مكة والمدينة في يوم من الأيام، ولا بعيدة أيضاً عن تلك الفتنة التي قامت بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب، حيث قتله أبو لؤلؤة المجوسي في عام ٢٣هـ. وهذه الفتنة هي التي مهّدت «للفتنة الكبرى» كما يسمّيها طه حسين.

ومنشأ هذا كان من مصر أيضاً.

لقد كانت الفتنة التي أدّت إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان من مصر! وأذكىٰ نيرانها صحابي قديم، اشتهر ـ كما يقول صحيح مسلم ـ بأنّه أول من حيّا النبي ﷺ بتحية الإسلام[٢]، وبأنّه رابع ـ أو خامس علىٰ رواية الطبراني[٣] ـ من اعتنق دين الإسلام[٤]، واشتهر بالورع والتقوىٰ، وكان من أئمة الحديث، وقصد به «أبو ذرّ الغفاري».

١. مخلّفات الرسول ﷺ في المشهد الحسيني: ٣٢.

٢. راجع صحيح مسلم ٤: ١٩١٩ ب٢٨ من فضائل الصحابة ح١٣٢/٢٤٧٣ بطوله.

٣. المعجم الكبير ٢: ١٤٧ ترجمة جندب بن جنادة الغفاري رقم ١٦١٧ و١٦١٨.

٤. في رواية الحاكم في المستدرك ٣: ٣٤٢: «كنت ربع الإسلام».

(٢)
المشهد الحسيني

منطقة المشهد الحسيني كانت مقرّ حكم الفاطميّين في القاهرة، وفي مكان المشهد الحسيني الحالي وحوله «قصر الزمرّد»، أهم قصور دولة الفاطميّين. وهذا القصر كان يشمل من منطقة «خان الخليلي»، ويمتدّ ربّما إلىٰ حافة شارع بور سعيد الآن. وفي مكان الزمرّد ـ وكان أشرف مكانٍ بالقصر تقام به الصلاة ـ جيء بالرأس الشريف ليُدفن هناك، ولأنّ الزمرّد لونه أخضر، قد سمّيت المنطقة بالباب الأخضر، ومنطقة الباب الأخضر، هي التي تضمّ مقام الحسين عليه السلام.

وهذا المقام يضمّ الرأس الشريف، وعليه الآن المقصورة من الفضّة، تحوي فصوصاً خمسة من الماس هدية من طائفة «البهرة». وكانت المقصورة قبلها من خشب الساج الهندي، المحفور والمعشق... نُقلت إلى متحف الفن الإسلامي، وقبل مقصورة الفضّة كانت هناك مقصورة من النحاس نُقلت إلىٰ مشهدٍ آخر.

وقد تردّدت الآراء حول رأس الإمام الحسين[١]:

رواية تقول: إنّ الرأس أُرسل إلىٰ عمرو بن سعيد بن العاص والي يزيد على المدينة المنوّرة، حيث قام الوالي بدفنها في البقيع عند قبر السيدة فاطمة رضي الله عنها[٢].

ورواية أخرىٰ تقول: إنّ الرأس وجد بخزانة يزيد بن معاوية بعد موته، فأُخذ، ودُفن بدمشق عند باب «الفراديس»[٣].

---

١. بينما اتفقت الأقوال في مدفن جسده الطاهر. راجع نزهة المشتاق ٢: ٦٦٨، إعلام الورىٰ ١: ٤٧٠، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

٢. راجع المنتظم ٥: ٣٤٤، تاريخ أبي الفداء ١: ٢٦٦، تاريخ الإسلام للذهبي: حوادث ووفيات ٦١هـ ـ ٨٠هـ، مرآة الجنان ١: ١٠٩، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

٣. راجع أنساب الأشراف ٣: ٢٤١، المنتظم ٥: ٣٤٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤، سمط النجوم العوالي ٣: ١٩٧ـ١٩٨.

ويقول ابن كثير: ادّعت الطائفة المسمّاة بالفاطميّين الذين ملكوا الديار المصرية: أنّهم دفنوه، وبنوا عليه المشهد المشهور بمصر[١].

ويحصي العقّاد عدّة أماكن ذُكرت بأنّ رأس الإمام الحسين دُفن فيها، وهي: المدينة المنوّرة، كربلاء، الرقّة، دمشق، عسقلان، القاهرة، مرو[٢].

وأقرب رواية للتاريخ: أنّه بعد استشهاد الإمام الحسين علىٰ أرض كربلاء، جرى التمثيل بالجثّة، فقدم الجسد الطاهر خولي بن يزيد الأصبحي ليجزّ الرأس، لكنّه لم يستطع، وارتعد جسده، فتقدّم شمر بن ذي الجوشن بنفسه وجزّ الرأس، ثم أرسله إلىٰ يزيد بن معاوية ليتلقّى المكافأة، وهي توليته على إحدى الإمارات الإسلامية[٣].

وترى د. سعاد ماهر: أنّ أقوى الآراء هو الذي يقول: إنّ الرأس طيف به في الأمصار الإسلامية حتّىٰ وصل إلىٰ عسقلان[٤] حيث دُفن هناك، وحينما استولى الفرنجة علىٰ عسقلان[٥]، تقدّم الصالح طلائع[٦] وزير الفاطميّين بمصر، فدفع ٣٠ ألف درهم، واستردّ الرأس الشريف ونقله إلىٰ القاهرة.

ويؤيّد هذا الرأي ابن خلّكان، الذي يذكر في تاريخه: أنّ رأس الحسين ابن بنت

---

١. البداية والنهاية ٨: ٢٠٦ وفيه: «... المشهد المشهور به بمصر، الذي يقال له: تاج الحسين، بعد سنة خمسمائة».

٢. أبو الشهداء الحسين بن علي: ٢٦١ ـ ٢٦٢.

٣. تاريخ أبي مخنف ١: ٤٩٣ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٣: ٢٩٦.

٤. مدينة الشام، من أعمال فلسطين، تقع على ساحل البحر بين غزّة وبيت جبرين، ويقال لها: عروس الشام، قد نزلها جماعة من الصحابة والتابعين. راجع معجم البلدان ٣: ٣٢٧.

٥. وذلك سنة ٥٤٨هـ، وبقيت في أيديهم نحو خمس وثلاثين سنة حتّىٰ حرّرها صلاح الدين الأيوبي منهم سنة ٥٨٣هـ. راجع معجم البلدان ٣: ٣٢٧.

٦. أبو الغارات طلائع بن رُزّيك الأرمني المصري، من الأدباء والخطباء فضلاً عن كونه وزيراً للفاطميّين، ولي نواحي الصعيد، واستولىٰ على مصر بعد أن أخذ بثأر الظافر. له كتب وديوان شعر صغير، تزوّج العاضد ابنته ثم دبّر قتله مع بعض الأمراء، فاغتيل سنة ٥٥٦هـ. راجع وفيات الأعيان ٢: ٥٢٦ ـ ٥٢٩، البداية والنهاية ١٢: ٢٤٣، أعيان الشيعة ٧: ٣٩٦ وما بعده.

محمد ﷺ كان مدفوناً بعسقلان قبل نقله إلىٰ مصر، وإنّ الأفضل شاهنشاه[١] بنىٰ مشهد الرأس في عسقلان[٢].

وابن بطوطة[٣] يؤيّد الرواية، ويقول بعد زيارته لعسقلان: «ثم سافرت من القدس الشريف إلىٰ ثغر عسقلان، وهو خراب، وقد عاد رسوماً طامسة وأطلالاً دارسة، وبها المشهد الشهير، حيث كان رأس الحسين بن علي قبل أن يُنقل إلى القاهرة، وهو مسجد عظيم سامي العلو»[٤].

ثم يقول ابن بطوطة عند زيارته للقاهرة: «ومن المزارات الشريفة: المشهد المقدّس العظيم الشأن، حيث رأس الحسين بن علي، وعليه رباط ضخم عجيب البناء، علىٰ أبوابه حلق فضة وصحائفها، وهو موفى الحقّ من الإجلال والإعظام»[٥].

ويقول المؤرّخ الهروي في كتابه «إشارات إلىٰ أماكن الزيارات»: «وفيها ـ أي عسقلان ـ مشهد الحسين... فلمّا أخذتها الفرنج، نقله المسلمون إلىٰ مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة»[٦].

وتفنّد الدكتورة سعاد ماهر الآراء التي قيلت، من الناحية الأثرية، من خلال

---

١. أبو القاسم شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، الملقّب بالأفضل، مولده بعكّا، خلف أباه في إمارة الجيوش المصرية، أرمني الأصل، وطّد دعائم الملك للآمر بأحكام الله العبيدي صاحب مصر، ودبّر شؤون دولته، لكنّه نقم عليه لأمرٍ، فدسّ له من قتله على مقربة من داره بالقاهرة عام ٥١٥هـ.

٢. وفيات الأعيان ٢: ٤٥٠.

٣. أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطّوطة، رحّالة ومؤرّخ معروف، ولد سنة ٧٠٣هـ بطنجة ونشأ فيها، وطاف بلاداً كثيرة، واتصل بملوك وأُمراء، توفّي بمراكش سنة ٧٧٩هـ راجع إيضاح المكنون ١: ٣٦٢.

٤. رحلة ابن بطوطة: ٦٠.

٥. المصدر السابق: ٨٧.

٦. والسائح الهروي هو أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي، المولود بالموصل، وقد استوطن حلب، كان فاضلاً جوّالاً فسمّي بالسائح بنىٰ له مدرسة يدرّس بها ويخطب، له كتاب الاشارات المذكور والخطب الهروية، توفّي ٦١١هـ، وقبره في مدرسته بظاهر حلب. راجع سير اعلام النبلاء ٢٢: ٥٦ ـ ٥٧.

كتابيها «مخلّفات الرسول ﷺ في المشهد الحسيني» و«مساجد مصر».

فعن القول بوجود الرأس في المدينة المنوّرة، هناك ما ينقصه الدليل المادي الذي ذكره المسعودي، وهو أنّه كان يوجد حتّىٰ القرن الرابع الهجري شاهد مكتوب عليه العبارة الآتية: «الحمد لله مميت الأُمم ومحيي الأُمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ، سيدة نساء العالمين، والحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد. رضوان الله عليهم أجمعين».

فلو أنّ الرأس كان مدفوناً في البقيع لما أُغفل ذكر اسم سيد الشهداء. وهذا النصّ منقول من كتاب «الإشراف والتنبيه» للمسعودي عن ابن كثير في «البداية والنهاية»[١].

أمّا قول غالبية الشيعة الإمامية «الاثني عشرية»، بأنّ الرأس مدفون مع الجسد في كربلاء، فهو لا تؤيّده مراجعة الحوادث، فمن المستبعد عقلاً أن يعيد يزيد بن معاوية الرأس إلىٰ كربلاء، حتّىٰ لا يزيد النار اشتعالاً، وهو يعلم بأنّها مركز الشيعة والمتشيّعين للإمام الحسين، والمؤيّدين لمذهبه. هذا بالإضافة إلىٰ ما جاء في أحداث سنة ٢٣٦هـ، من أنّ الخليفة المتوكّل أمر «النويريج» بالمسير إلىٰ قبر الحسين وهدمه، فتناول النويريج مسحاةً وهدم أعلى قبر الحسين، وانتهىٰ هو ومن معه إلى الحفر أو موضع اللحد، فلم يروا أثراً للرأس. ولا يمكن أن يتصوّر أحد أنّ الرأس قد بلي في ذلك الوقت المبكّر، إذا عرف أنّ أرض كربلاء رملية تحتفظ بالعظام مئات السنين[٢].

---

١. الإشراف والتنبيه: ٤٩، وراجع البداية والنهاية ٨: ٢٠٦.

٢. لم تنفرد الشيعة الإمامية وحدها بهذا القول، فقد ذهب غيرها إليه. راجع على سبيل المثال كتاب نزهة المشتاق لابن ادريس الحسني المعروف بالشريف الإدريسي من علماء القرن السادس الهجري: ٦٦٨. بل في تذكرة الخواص: ٢٦٥ أنّه أشهرها. والبداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢٠٥ حيث يقول: «اشتهر عنه كثير من المتأخّرين أنّه (أي قبر الحسين عليه السلام) في مشهد علي، بمكان من الطفّ عند نهر كربلاء... وقد ذكر ابن جرير وغيره أنّ موضع قتله عفي أثره حتّىٰ لم يطّلع أحد على تعيينه بخبر... وذكر هشام بن الكلبي أنّ الماء لما أُجري على قبر الحسين ليمحي أثره نضب الماء بعد أربعين يوماً، فجاء أعرابي من بني أسد

←

أمّا الرأي الذي يقول: إنّ الرأس موجود في رباط مرو بخراسان هو منقوض من أساسه؛ لأنّ أبا مسلم الخراساني الذي قيل: إنّه نقل الرأس من دمشق، لمّا استولىٰ عليها وبنى عليها الرباط بمرو، لم يكن أبو مسلم موجوداً بالشام وقت فتحها أيام العباسيّين، ثم إنّ العباسيّين لو ظفروا بالرأس لأظهروه للناس.

وأقرب الآراء: أنّ الرأس وضع أول الأمر في خزائن السلام بدمشق، ثم دفن في عسقلان على البحر، وحين استولى الفرنجة علىٰ عسقلان تقدّم الصالح طلائع بن رزّيك وزير الفاطميّين بمصر، فدفع ٣٠ ألف درهم، واستردّ الرأس الشريف، ونقله إلى مصر، حيث جاء الرأس في حراسة ثلّة من الجند، واستقبله الخليفة الفاطمي ـ كما يقول الإمام الشعراني[١] في طبقات الأولياء[٢] ـ هو وعسكره حفاة من الصالحية، وقد وضع الرأس الشريف في كيس أخضر من الحرير، علىٰ كرسي آبنوس، وفرش تحته المسك والطيب، وبنىٰ عليه القبّة المعروفة.

والدليل علىٰ وجود الرأس الشريف ما ذكره عثمان مدوخ في كتابه «العدل الشاهد في تحقيق المشاهد» وقد ألّفه في القرن التاسع عشر، وقال فيه: «إنّ المرحوم عباس كتخدا الفزدوغلي لمّا أراد توسيع المسجد المجاور للمشهد الحسيني، قيل: إنّ هذا المشهد لم يثبت فيه دفن، فأراد تحقيق ذلك، فكشف المشهد الشريف بمحضر من الناس، ونزل فيه الأستاذ الجوهري الشافعي والأستاذ الشيخ

← فجعل يأخذ قبضةً قبضة ويشمّها حتّىٰ وقع على قبر الحسين، فبكى وقال: بأبي أنت وأمي، ما كان أطيبك وأطيب تربتك! ثم أنشأ يقول:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه   فطيب تراب القبر دلّ على القبر»

١. أبو محمد عبدالوهاب بن أحمد بن علي الحنفي الشعراني، من العلماء المتصوّفين، يرجع نسبه إلىٰ ابن الحنفية محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام. ولد سنة ٨٩٨هـ في قلقشندة بمصر، ونشأ بساقية أبي شعرة إحدى قرىٰ المنوفية، وإليه يرجع نسبه، له مصنّفات منها: طبقات الأولياء، لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، البدر المنير وغيرها، توفّي سنة ٩٧٣هـ بالقاهرة. راجع شذرات الذهب ٨: ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

٢. طبقات الأولياء: ٢٦. وراجع نور الأبصار: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

الملوي المالكي... وكانا من كبار العلماء العاملين، وشاهدا ما بداخل البرزخ، ثم ظهرا وأخبرا بما شهداه. وهو كرسي من خشب الساج، عليه طست من ذهب، فوقه ستار من الحرير الأخضر، تحتها كيس من الحرير الأخضر الرقيق، داخله الرأس الشريف...».

والذي نريد أن نقوله هنا: إنّنا لا نرجّح وجود الرأس الشريف فقط، بل إنّنا نؤكّد ذلك، ليس ممّا أوردناه من الأدلّة، وإنّما أيضاً من خلال الاهتمام بالمشهد الحسيني قرناً وراء قرن، ذكرنا بعضاً منه وأغفلنا الكثير من الاهتمامات المتنوّعة.

ودليل آخر محسوس ملموس، هو كثرة الإخوة الإيرانيّين، الذين جاءوا إلىٰ مصر عبر العصور، واختاروا مقامهم وسكناهم، بل مقدار أعمالهم، بجوار الرأس الشريف، حتّىٰ أنّ الكثير من الأسماء الإيرانية كانت إلىٰ فترة قصيرة ـ ولا تزال ـ تنتشر فوق الدكاكين والوكالات وغيرها، وانتشر حول المشهد بالذات بيع السجّاد الشيرازي والتبريزي.

ويضاف إلىٰ ذلك تلك المقصورة التي أهدتها جماعة «البهرة» للمشهد الحسيني، وهذه الجماعة فيها الكثير من العلماء، والباحثين الذين درسوا وتأكّدوا من وجود الرأس الشريف، وهو السبب في إهدائهم المقصورة عام ١٩٦٥، والتي تكلّفت ٣٠٠ ألف جنيه، جُمعت من جماعة البهرة أنفسهم، بالإضافة إلىٰ تلك المقصورة التي أُهديت إلىٰ مشهد السيدة زينب رضي الله عنها.

والواقع أنّ لجلال المشهد وبركته، فإنّ الدولة بمصر المؤمنة قد جعلت من المشهد الحسيني المسجد الرئيسي الذي يختصّ بصلاة العيدين فيه، كما تقام فيه أيضاً الاحتفالات بالمناسبات الدينية المهمّة.

هكذا يثبت وجود الرأس في مصر.

وعلىٰ أيّة حال، ففي أيّ مكان رأس الحسين أو جسده ـ كما يقول سبط ابن

الجوزي[١] ـ فهو ساكن في القلوب والضمائر، قاطن في الأسرار والخواطر[٢].

والمهمّ كما يرى العقاد: «أيّاً كان ذلك الموضع الذي دُفن فيه الرأس الشريف، فهو في كلّ موضعٍ أهلٌ للتعظيم والتشريف، وإنّما أصبح الحسين بكرامة الشهادة، وكرامة البطولة، وكرامة الأُسرة النبوية... معنى يستحضره المسلم في صدره، وهو قريب أو بعيد من قبره»[٣].

لكن ماذا بقي من القديم الآن، وقد ثبت أنّ الرأس الشريف موجود في مشهد الإمام الحسين بمصر؟!

يقول المقريزي[٤]: «نقل رأس الحسين من عسقلان إلىٰ القاهرة يوم الأحد ٨ من جمادي الآخرة سنة ٥٤٨هـ (٣١ أغسطس ١١٥٣م)، وصل الرأس إلىٰ القاهرة يوم الثلاثاء العاشر من نفس الشهر، ثم أُنزل بالرأس إلىٰ الكافوري ـ حديقة القصر الفاطمي ـ ثم حُمل في سرداب إلىٰ قصر الزمرّد، ودُفن عند قبّة الديلم بباب دهليز الخدمة»[٥].

ويضيف ابن عبدالظاهر: أنّ طلائع بن رزّيك بنى الجامع خارج باب زويلة ليدفن الرأس به ويفوز بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر الفاطمي، وعمدوا إلىٰ هذا المكان الموجود به الآن، هو قصر الخلافة الفاطمية في ذلك الوقت، وبنوه له، وكان ذلك في خلافة الفائز الفاطمي سنة ٥٤٩هـ (١١٤٥م). وحمل الرأس الشريف في سرداب

---

١. شمس الدين يوسف بن قُزعلي بن عبدالله التركي العويني الهُبيري البغدادي الحنفي، المعروف بسبط ابن الجوزي الواعظ البليغ والمؤرّخ المتفنّن. ولد سنة ٥٨١هـ ثم رحل إلى دمشق وسكنها، فأفتىٰ ودرّس، حتّىٰ توفّي فيها سنة ٦٥٤هـ بسفح قاسيون. راجع وفيات الأعيان ٣: ١٤٢.

٢. تذكرة الخواص: ٢٦٦.

٣. أبو الشهداء الحسين بن علي: ٢٦٢.

٤. أحمد بن علي بن عبدالقادر الحسيني العبيدي المقريزي، مؤرّخ الديار المصرية، أصله من بعلبك من احدى حاراتها: حارة المقارزة، ولد سنة ٧٦٦هـ، ونشأ بالقاهرة، وقد ولي الحسبة والخطابة والإمامة مرّات فيها. من مصنّفاته المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ويُعرف بخطط المقريزي، وتاريخ الأقباط، والسلوك في معرفة دول الملوك وغيرها، توفي بالقاهرة سنة ٨٤٥هـ. راجع الاعلام ١: ١٧٧.

٥. خطط المقريزي ٢: ٣٢٣.

طويل حُفر تحت الأرض من باب زويلة إلىٰ القبّة الشريفة[1].

ويقول ابن جبير الذي زار مصر في عصر الأيوبيّين، وبعد الحريق الذي شبّ في المشهد عام ٦٤٠هـ وفي عهد الصالح نجم الدين أيوب، أنّه أنشئت منارة علىٰ باب المشهد عام ٦٣٤هـ (١٢٣٧م)، أنشأها أبو القاسم ابن يحيى السكري، ولم يتمّها، فأتمّها ابنه وهي مليئة بالزخارف الجصية والنقوش، تعلو الباب الأخضر. وقد قام بترميمها وتوسيعها بعد ذلك القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني، ثم في عصر الناصر محمد بن قلاوون أمر بتوسيع المسجد عام ٦٨٤هـ.

وفي العصر العثماني أمر السلطان سليم بتوسيع المسجد لما رآه من الإقبال العظيم من الزائرين والمصلّين، ثم بعد ذلك أحضرت للمسجد عُمَد الرخام من القسطنطينية، وبُنيت ثلاثة أبواب من الرخام جهة خان الخليلي، ومثلها الباب الأخضر بجوار القبّة بالجهة الشرقية.

ولمّا قدّم مصر السلطان عبدالعزيز العثماني عام ١٢٧٩هـ وزار المقام الحسيني، أمر الخديوي إسماعيل بعمارته وتشييده علىٰ أتمّ شكلٍ وأحسن نظام، واستغرقت العملية التي أشرف عليها علي باشا مبارك ووصفها في خططه عشر سنوات.

هذه ملامح ممّا حدث لسبط الرسول ﷺ وحضور رأسه الشريف إلىٰ مصر، وتشريف مصر به؛ ممّا يجعل المشهد الحسيني قبلة لمحبّي آل البيت، والمؤمنين الصابرين المجاهدين.



أُقيم المشهد الحسيني، لكنّ الدولة الفاطمية تلاشت، ولكنّ الأيوبيّين الذين أنهوا الحكم الفاطمي الشيعي بمصر اهتمّوا بالمشهد. فصلاح الدين[2] جعل به حلقة تدريس

---

١. المصدر السابق.

٢. يوسف بن أيّوب بن شاذي، صلاح الدين الأيّوبي، الملقّب بالملك الناصر، ولد سنة ٥٣٢هـ بتكريت. كان ←

وفقهاء، وفوّض ذلك للفقيه البهاء الدمشقي السنّي المذهب. وكان يجلس عند المحراب الذي يقع الضريح خلفه. وفي مكان هذه المدرسة بنى المسجد الحسيني.

وزيادة في الاهتمام ـ كما يقول الأثري حسن عبدالوهاب ـ فإنّ صلاح الدين الأيوبي أهدى للمشهد مقصورةً، تشبه المقصورة التي أهداها للإمام الشافعي عام ٥٧٤هـ.

وبعد صلاح الدين كان الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي بنىٰ إيواناً للتدريس، وبيوتاً خاصةً للفقهاء، وقد وصفها ابن جُبَير في رحلته[١]، وهذا الرحّالة زار مصر عام ٥٧٨ هجرية. وفي عصر الكامل[٢] الأيوبي بُنيت المنارة على باب المشهد عام ٦٣٤هـ، تعلو الباب الأخضر، تهدّم معظمها، ولم يبق حتّىٰ الآن إلّا القاعدة المربّعة وعليها لوحتان تثبتان ذلك.

وفي عصر الصالح نجم الدين أيوب[٣] (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هجرية) احترق بناء المشهد

← أبوه وأهله من قرى دُوَين في شرقي أذربيجان وهم بطن من الروادية، من قبيلة الهذانية، من الأكراد، نزلوا تكريت، ثم ولي أبوه أعمالاً في بغداد والموصل ودمشق. فنشأ هو في دمشق، وتأدّب بها وبمصر كان له دور في إنهاء الحكم الفاطمي بعد مرض العاضد، وصار يخطب للعبّاسيين، ثم استقلّ بملك مصر، ثم اضطربت البلاد الشامية والجزيرة، فدُعي إلىٰ ضبطها، فأقبل على دمشق واستولىٰ على بعلبك وحمص وحماة وحلب، توفّي بدمشق سنة ٥٨٩هـ.

ويذكر أنّ حكم الأيوبيّين قد امتدّ إلىٰ القسم الأكبر من بلاد الشام ومصر فترةً تقرب من التسعين عاماً، وقد استمرّت في مصر حتّىٰ قُبيل سقوط بغداد بيد المغول. راجع دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي لمحمد ماهر حمادة: ٢٥٩، والاعلام ٨: ٢٢٠.

١. رحلة ابن جبير: ٢٤.

٢. محمد بن محمد العادل ابن أيّوب، ناصر الدين، من سلاطين الدولة الأيوبية، ولد بمصر سنة ٥٧٦هـ ونشأ بها، فأعطاه أبوه الديار المصرية، فتولّاها مستقلاً بعد وفاة أبيه سنة ٦١٥هـ، ثم اتّجه إلىٰ توسيع نطاق ملكه حتّىٰ امتلك الديار الشامية، له مواقف مشهورة في الجهاد بدمياط، وولع في البناء والترميم، من آثاره بمصر المدرسة الكاملية، توفّي بدمشق سنة ٦٣٥هـ ودُفن بقلعتها. راجع السلوك للمقريزي ١: ١٩٤ وما بعده.

٣. أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو الفتوح نجم الدين، الملقّب بالملك الصالح، من كبار الملوك الأيوبيّين بمصر، ولد ونشأ بالقاهرة، وولي بعد خلع أخيه سنة ٦٣٧هـ، فضبط الدولة بحزم، وعمر بمصر ما ←

في عام ٦٤٠هجرية، وقد رمّمه الصالح ووسّعه، وألحق به ساقيةً وميضأةً[١]، ووقف عليه أراضي.

وظلّت العناية بالمشهد الحسيني أيام المماليك، فالظاهر بيبرس[٢] حين بيعت قطعة أرضٍ بجانب المشهد من حقوق الفاطمي، ردّ ثمنها وهو ٦ آلاف درهم ووقفها على الجامع. ثم إنّ الناصر محمد قلاوون[٣] وسّع المسجد عام ٦٨٤هجرية.

وفي العصر العثماني تم توسيع المسجد نظراً للإقبال الشديد عليه من جماهير مصر المؤمنة، وصنعت له مقصورة من أبنوس مطعّم بالصدف، عليه ستر من الحرير المزركش، ونقلت إلىٰ المشهد الحسيني في احتفال كبير وصفه الجبرتي بأنّها حملت وأمامها طائفة الرفاعية والصوفية بطبولهم وأعلامهم، وبأيديهم المباخر الفضية وبخور العود والعنبر، وبأيديهم قماقم ماء الورد يرشّونه على الناس.

← لم يعمره أحد من ملوك بني أيوب، وفي أواخر أيامه أغار الفرنج على دمياط سنة ٦٤٧هـ واحتلوها، وكان غائباً في دمشق، فلمّا قدم مات بناحية المنصورة، ونقل إلىٰ القاهرة. راجع الاعلام ٢: ٣٨.

١. الميضأة والميضاة: الموضع يتوضّأ فيه، أو المطهرة يتوضّأ منها.

٢. بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، الملك الظاهر، صاحب الفتوحات، ولد سنة ٦٢٥هـ بأرض القبجاق، ثم أسر وبيع في سيواس، ثم نُقل إلىٰ حلب، ومنها إلى القاهرة فاشتراه الأمير علاء الدين البندقدار، وبقي عنده، فلمّا قبض عليه الملك الصالح نجم الدين الأيوبي أخذه فجعله في خاصة خدمه، ثم أعتقه، ثم اصبح «أتابك العسكر» بمصر أيام الملك المظفّر، ثم استولى على سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨هـ، وكان يباشر الحروب بنفسه، وله وقائع مع التتر والافرنج، وأخباره وعمائره كثيرة، توفّي بدمشق سنة ٦٧٦هـ ومرقده معروف فيها، أُقيمت حوله المكتبة الظاهرية. راجع النجوم الزاهرة ٧: ٩٤.

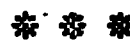
٣. محمد بن قلاوون بن عبدالله الصالحي، من كبار ملوك الدولة القلاوونية، ولد سنة ٦٨٤هـ بدمشق، وأقام فيها مدّة طفولته، ثم ولي سلطنة مصر والشام سنة ٦٩٣هـ وهو صبي، وخلع منها لحداثته بعد عام، وأُعيد إليها سنة ٦٩٨هـ فأقام بالقلعة كالمحجور عليه، والأعمال كلّها بيد الأمير بيبرس ونائب السلطنة الأمير سلّار، واستمرّ الحال نحو عشرين سنة، وضاق بالأمر فأظهر العزم على الحجّ، وتوجّه بعائلته وحاشيته ومماليكه وخيله، حتّىٰ بلغ الكرك فنزل قلعتها واستولى على ما فيها من أموال، ثم وثب فدخل دمشق، ثم زحف إلىٰ مصر فقاتل المظفّر بيبرس حتّى ظفر به فقتله خنقاً بيديه وشرّد أنصاره، وامتلك قيادة الدولة واستمرّ حكمه ٣٢ عاماً، كانت له فيها سير وأنباء وعمران كثير، توفّي بالقاهرة سنة ٧٤١هـ. راجع الأعلام ٧: ١١.

أمّا عبدالرحمان كتخدا فقد أعاد بناء المسجد عام ١١٧٥ هـجرية، وعـمل له صهريجاً وحنفية، وخصّص رواتب لخدمه وسدنته[١].

ثم إنّه في عهد الخديوي[٢] إسماعيل ـ كما يقول علي باشا مبارك ـ أعاد عمارته وتشييده، واستغرق ذلك عشر سنوات، وفُرش بالفرش النـفيسة، ونـوِّر بـالشموع والزيوت الطيّبة والأنفاس الغازية في قناديل البلّور، ورتّبوا له فـوق الكـفاية مـن الأئمة والمؤذّنين والمبلّغين والبوّابين والفرّاشين والكنّاسين والوقّادين والسـقّايين ونحو ذلك، وأوقفوا عليه أوقافاً جمّة بلغ إيرادها نحو ألف جنيه في السنة.

وكما يقول علي مبارك كمهندس قام بتصميم البناء الحالي: وقد صرفت هذه العمارة ٧٩ ألف جنيه من ميزانية الأوقاف، هذا عدا ما تبرّع به الأُمراء وعليّة القوم.

ويذكر أنّه أُحضرت للمسجد الأعمدة الرخامية من القسطنطينية، وقد احتوىٰ صحن الجامع علىٰ ٤٤ عموداً، كما بُني له المئذنة الكبيرة الحالية على الطراز العثماني، وهي تشبه القلم الرصاص، وعلىٰ هذه المئذنة لوحتان بخطّ السلطان عبدالمجيد خان.



علىٰ أنّنا لا يمكن أن نتحدّث عن المشهد الحسيني دون أن نتحدّث عن غرفة تجاور الرأس الشريف، وهذه الغرفة أنشأها عباس حلمي الثاني[٣] لمـجموعة مـن

---

١. عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبدالرحمان الجبرتي ١: ٤٩٢.

٢. الخُدَيوي: لقب أُطلق على بعض الحكّام، منحه السلطان العثماني عبدالعزيز لإسماعيل باشا والي مصر عام ١٨٦٧م، ثم أُطلق على أفراد سلالة محمد علي في مصر. راجع المنجد في الاعلام: ٢٦٧.

٣. عباس حلمي بن توفيق بن إسماعيل، حفيد محمد علي، ويُعرف بالخديوي عباس حلمي الثاني، أحد الذين حكموا مصر، ولد بالقاهرة سنة ١٨٧٤م وتعلّم بمدرسة عابدين، وولي الخديوية بـعد وفـاة أبـيه ١٨٩٢م بإرادة سلطانية من الآستانة، نشبت الحرب العالمية الأولى وهو في أوربـا، فـتأخّرت عـودته، فخلعته الحكومة البريطانية التي بسطت سيطرتها على مصر آنذاك، وولّت أحمد فؤاد مكانه، فاستقرّ في لوزان بسويسرا، وقضىٰ بقية عمره مغترباً حتّىٰ توفّي فيها سـنة ١٩٤٤م (١٨٧٤هـ) ونـقل جـثمانه إلى القاهرة ليدفن فيها. راجع الاعلام ٣: ٢٦١.

الآثار النبوية الشريفة، كانت قد نُقلت إلىٰ المشهد الحسيني عـام ١٣٠٥ هـجرية، وحُفظت في دولابٍ في الجدار الجنوبي الغربي للمزار الشريف.

وهذه الغرفة الآن مفروشة بالسجّاد الثمين، وفيها مصابيح وثريات بلّورية نادرة، وجدرانها مكسوّة بالرخام المجزّع[1]، وبها محراب صغير، كما أنّـها تـحتوي عـلىٰ دولاب عبارة عن دولاب حائط، وهو فجوة في الجدار قُوِّي ظهرها بقُضبان مـن حديد، وكُسيت بالجوخ[2] الأخضر، ولهذه الفجوة باب مـن خشب الجـوز المـطعَّم بالعاج[3] والصدف والأبنوس[4]، وكُتب بأعلى البـاب بأحـرف مـن عـاج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[5]

هذه الغرفة لها بابان: أحدهما يفتح على المسجد، والآخر يـفتح عـلى مشـهد الإمام الحسين، وفي داخل الدولاب الآثار النبوية الشـريفة، وتشـمل: قـطعةً مـن قميص الرسول ﷺ ومكحلةً، ومِرْوداً[6]، وقطعةً من قضيب، وشـعرات مـن شـعره الشريف، ثم مصحفَيْن كريمَيْن بالخطّ الكوفي علىٰ رقّ[7] غزال: أحدهما مـنسوب لعثمان ﵁، والثاني لسيدنا علي بن أبي طالب ﵇.

وهذه الآثار النبوية الشريفة ـ كما تقول المصادر ـ تداولها آل البيت، وتسارع عليها الخلفاء والأُمراء.

وقد ذكرت المصادر أيضاً أنّ ما تركه رسول الله ﷺ بعد وفاته: ثوباً حَـبِرة[8]،

---

١. المجزّع: ما فيه سواد وبياض.

٢. الجُوخ: النسيج من الصوف.

٣. العاج: أنياب الفيل.

٤. الأبنوس: نوع من الشجر، يكثر في البلدان الحارّة، خشبه ثمين يميل إلىٰ السواد، وعوده صلب للغاية.

٥. النساء: ٥٨.

٦. المِرْوَد: الميل يُكتحل به.

٧. الرَقّ: جلد رقيق يُكتب عليه، وذلك لمّا يخترع الورق بعد.

٨. الحَبِرُ من الثياب: ما كان موشيّاً ومخطّطاً.

وإزار عثماني، وثوبان صحاريان، وقميص صُحاري[١]، وقميص سحولي[٢]، وسراويل، وجبّة يمانية، وخميصة أو كساء أبيض، وقلانس[٣]... ومجموعات من شعره الشريف[٤].

أمّا هذه الآثار الموجودة بالمشهد الحسيني فهي بعض ما خلّفه الرسول ﷺ، وقد قامت د. سعاد ماهر بدراسة هذه الآثار، ويقال: إنّ هذه الآثار في مصر، كانت عند بني إبراهيم في مدينة «ينبع» بالحجاز، وهؤلاء توارثوها، وفي القرن السابع الهجري ١٣ ميلادي، في عصر الظاهر بيبرس، اشترىٰ هذه الآثار الشريفة من بني إبراهيم الوزير المصري الصاحب تاج الدين، ولكن اختلفت المصادر على المبلغ الذي دفعه، فمصادر تقول: إنّه دفع فيها ٦٠ ألف درهم فضة، وقيل: مبلغ ٢٥٠ ألف درهم، وقيل كذلك مائة ألف درهم. وهذه الآثار نُقلت إلى مصر، وحُفظت بمكانٍ على النيل سمّي «رباط الآثار» أو «الرباط الصاحبي التاجي»، وعُرف مؤخّراً باسم «أثر النبي» في حي مصر القديمة.

وهذا الرباط لأهميته كان له شيخ بوظيفة «شيخ الآثار النبوية»، وكان هذا الشيخ من القضاة الموثوق بهم، ومنهم من ذكره ابن إياس في حوادث ٨٨٩ هجرية وهو الشيخ ولي الدين أحمد. وفي الضوء اللامع للسخاوي ذكر في عام ٨٧٠ هجرية كان شيخ الآثار هو وليالدين أبو زُرْعَة أحمد بن محمد الذي نُقل قاضياً لدمياط.

والواقع أنّه كما اختلف المؤرّخون ـ علىٰ عادتهم ـ علىٰ ثمن شراء هذه المخلّفات النبوية من بني إبراهيم، فقد اختلفوا أيضاً في نوعها وعددها، ولكنّهم يذكرون

---

١. صُحاري: منسوب إلىٰ صُحار، وهي قرية باليمن اشتهرت بصناعة القمصان والثياب.

٢. قال ابن الأثير: يروىٰ بفتح السين وضمّها، فالفتح منسوب إلىٰ السَّحُول، وهو القصّار؛ لأنّه يسحَلُها، أي يغسلها، أو إلىٰ سَحُول وهي قرية باليمن. وأمّا الضمّ فهو جمع سَحْل، وهو الثوب الأبيض النقي، ولا يكون إلّا من قطن... وقيل: إنّ اسم القرية بالضمّ أيضاً. راجع النهاية ٢: ٧٦٠.

٣. القَلانس والقلانيس والقلاس والقلاسي: جمع قَلَنْسُوة، نوع من أنواع ملابس الرأس، ويكون على هيئات متعدّدة.

٤. راجع البداية والنهاية ٦: ٣ وما بعده.

الكثيرعن رباط الآثار، وكيف بُني ومن بناه، ومهاجمة مياه الفيضان له، واهتمام الخلفاء والسلاطين به، ومنهم الأشرف شعبان[١] في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، ومنهم أيضاً السلطان برقوق[٢] عام ٧٨٤ هجرية.

والمهم أنّ هذه المخلّفات النبوية الشريفة ظلّت في رباط الآثار إلىٰ أن نُقلت منه إلىٰ قبّة السلطان الغوري[٣] عام ٩٢٦ هجرية أو قبل هذا التاريخ؛ خشية السرقة، بعد أن تصدّع مبنى رباط الآثار.

ولقد بقيت هذه الآثار بقبّة الغوري حوالي ثلاثة قرون، إلىٰ أن نُقلت في عام ١٢٧٥ هجرية، وبعدها نُقلت إلىٰ ديوان عموم الأوقاف، ثم في عام ١٣٠٥ هجرية نقلت إلىٰ سراي عابدين، ومن سراي عابدين إلىٰ المشهد الحسيني في دولاب خاصّ، إلىٰ أن أنشئت لها الغرفة الحالية عام ١٣١١ هجرية.

وعملية النقل من قصر عابدين إلى المشهد الحسيني جرت في احتفال كبير تقدّمه رجال الطرق الصوفية... وتقدّمه الشيوخ والبكري والسادات وقناصل الدول

---

١. شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، ولد عام ٧٥٤هـ بالقاهرة، وولي السلطنة بعد خلع ابن عمه محمد بن حاجي سنة ٧٦٤هـ، عرف بحبّه للعلم وأهله، كثير البرّ والصدقات، وقد اضطرب أمر الجيش مدة، وفي عام ٧٧٨هـ لما أراد الحجّ ثار عليه بعض مماليكه، فعاد فقاتلهم، لكنّه انهزم وعاد إلىٰ القاهرة واختفىٰ فيها، واكتشفوا مخبأه، وقبضوا عليه، ثم خنقه الأمير اينبك البدري ورماه في بئر. راجع الدرر الكامنة ٢: ١٩٠، الأعلام ٣: ١٦٤.

٢. الظاهر برقوق بن آنص ـ أو أنس ـ العثماني، أول من ملك مصر من الشراكسة، جلبه إليها أحد تجار الرقيق فباعه فيها، ثم أُعتق وذهب إلىٰ الشام فخدم نائب السلطنة، وعاد إلىٰ مصر، وتقدّم في دولة المنصور القلاووني، وانتزع السلطنة من آخر بني قلاوون سنة ٨٧٤هـ، وانقادت إليه الشام ومصر، قام بأعمال من الاصلاح، وبنىٰ المدرسة البرقوقية بمصر توفي بالقاهرة سنة ٧٩٢هـ. راجع الضوء اللامع ٣: ١٠.

٣. قانصُوه بن عبدالله الظاهري الأشرقي الغوري، الملقّب بالملك الأشرف سلطان مصر، جركسي الأصل، خدم السلاطين، وولي حجابة الحجاب بحلب، ثم بويع بالسلطنة بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٩٠٥هـ، كان ملمّاً بالأدب، له ديوان شعر، قصده السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٢هـ بجيش جرّار، فقاتله لكنّه انهزم عسكر الغوري، فأُغمي عليه وهو علىٰ فرسه، فمات قهراً. راجع خطط المقريزي ٣: ٤٢٠ ـ ٤٢١، الأعلام ٥: ١٨٧.

وغيرهم، وسار الموكب الكبير من قصر عابدين، بشارع عبدالعزيز، فالعتبة الخضراء، إلىٰ شارع محمد علي، فميدان باب الخلق، فطريق تحت الربع، فالسكرية، فالعقادين بالغورية، فالسكّة الجديدة إلىٰ أن وصلت إلى المشهد الحسيني.

ولكن يأتي سؤال هنا: هل هذه المخلّفات النبوية الشريفة الموجودة بالمشهد الحسيني هي المخلّفات الموجودة والتي تمّ توارثها منذ عصر النبوة؟

إنّ في المشهد الحسيني ـ كما أحصت د. سعاد ماهر ـ ثلاث قطع من النسيج، وقطعة من القضيب ـ أي العصا ـ والمكحلة، والمسبل أو المورد، وبعض شعر اللحية والرأس الشريف.

وبالطبع فهناك الكثير في عالم الإسلام في استانبول، وپاكستان، وتونس، بل هناك في المسجد الأحمدي في «طنطا» غرفة خاصّة وخزانة بها شعرات من شعر رسول الله ﷺ.

الواقع أنّه منذ أن مات رسول الله ﷺ ـ بل وقبل وفاته ﷺ ـ كانت مثل هذه المخلّفات الشريفة مطلباً للمسلمين، يحفظونها بين أحداق العيون، بمعنىٰ أنّه لم يكن بنو إبراهيم في «ينبع» وحدهم الذين توارثوا مخلّفات الرسول ﷺ، فالكثير كان لديهم الكثير من المخلّفات الشريفة، بل أنّه في مصر أيضاً كانت هناك كثير من المخلّفات الشريفة ـ خاصّةً الشعرات ـ في الخانقاوات والمساجد والمقتنيات الخاصّة.

وهذا يعني أنّ في المشهد الحسيني قليلاً من كثير من الآثار النبوية الشريفة، بل أنّه ـ وهذا ما يثبت وجهة نظري ـ في المشهد الحسيني ـ كما أحصيت ـ ١٥ شعرة من شعرات الرسول ﷺ الشريفة، فبعضها اشتُري من بني إبراهيم، وبعضها أُهدي للمشهد الحسيني. وهذا يؤكد ما قيل من أنّ الرسول ﷺ كان يهدي شعره بين الناس![١]

---

١. أخرج مسلم ٢: ٩٤٧ كتاب الحج ح١٣٠٥ عن أنس: أنّ رسول الله ﷺ أتىٰ منىٰ، فأتىٰ الجمرة فرماها، ثم أتىٰ منزله بمنىٰ ونحر، ثم قال للحلّاق: «خذ» وأشار إلىٰ جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس. وفي أُخرىٰ: فأعطاه أبا طلحة فقال: «اقسمه بين الناس».

(٣)
رؤوس الشهداء في مصر

ثلاثة من الرؤوس الشريفة لثلاثة من آل بيت رسول الله ﷺ جاءت إلىٰ مصر لترصع جبينها، وتصبح لآلئ ومحاور بركة، ومقامات تُزار، ليس لأهل مصر وحدهم، وإنّما لمحبّي وعاشقي آل البيت رحمة الله عليهم، الذين أذهب لله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

والرؤوس الشريفة، حسب الترتيب التاريخي لدخولها مصر هي كالآتي:

الأول: رأس سيدي زيد بن علي زين العابدين ابن الإمام الحسين رضي الله عنهم، وهو مدفون في المشهد المنسوب لسيدي علي زين العابدين، في الحي المعروف بذلك الاسم، وكان يُعرف في عصور الإسلام الأُولىٰ «الحمراء القصوىٰ» أو هو مدفون قرب ضريح نجله سيدي حسن الأنور، قرب سور مجرى العيون.

الثاني: رأس سيدي إبراهيم بن عبدالله بن الحسن المثنّىٰ ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب، وجدّته لأبيه السيدة فاطمة النبوية. وهذا الرأس مدفون في حي المطرية، في شارع البرنس «ماهر حالياً».

والثالث: رأس سيد شباب أهل الجنة، سيدي الإمام الحسين بن علي، في الحي الذي يحمل اسمه (وقد أفضنا في الرأس الشريف وكيف جاء مصر).



١ ـ علي زين العابدين، زهرة آل البيت:

فالمعروف أنّ سيدي زين العابدين هو الوحيد الذي بقي من بني الحسين بن علي بعد مأساة كربلاء، وقد عاش حياته قطباً كبيراً، نفحة عطرة زكية، وأنجب بذوراً صالحة، منها سيدي زيد.

وفي نطاق اغتصاب بني أُمية للخلافة من آل البيت، كان سيدي زيد أول من طالب بحقّه في الخلافة في أيام الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك، فكانت الجفوة والصراع مع الخليفة الأموي، وكانت السبب في خروج سيدي زيد علىٰ بني أُمية.

وكما سار جدّه الإمام الحسين عليه السلام إلىٰ الكوفة، سار إليها أيضاً سيدي زيد، وفي اللحظات الأخيرة حين همّ بالعودة إلى المدينة المنوّرة؛ لعدم ثقته بأهل الكوفة، أقنعوه بالنصر والبقاء ومحاربة الأمويّين معه، قائلين له: نعطيك الأيمان والعهود والمواثيق ما تثق به، فإنّا نرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذي تُهلك فيه بنو أُمية!

وما زال أهل الكوفة علىٰ إغرائهم ـ وهم الذين خذلوا جدّه ـ حتّى اقتنع سيدي زيد، وبقي هناك.

وهكذا نشب القتال بين سيدي زيد ومناصريه وبين يوسف بن عمر والي الكوفة، من قبل هشام بن عبدالملك. وتفرّق الكوفيّون كعادتهم! من حول سيدي زيد، ليبقىٰ في فئةٍ قليلةٍ من أهله يحارب الأمويّينَ، حتّىٰ سقط شهيداً في صفر عام ١٢٢هـ، وقبل زوال ملك الأمويّين بعشر سنوات.

واختلفت المصادر علىٰ مكان دفن رأس سيدي زيد، فقيل: إنّ جسده الشريف حُمل إلى الكوفة ثم أُحرق وذرّ رماده في النهر؛ ليكون عبرةً لمن تحدّثه نفسه بالخروج على الأمويّين![1]

وقيل: إنّ رأسه احتزّ، وبُعث به إلىٰ الخليفة الأموي، فنصبه علىٰ باب دمشق: ثم أُعيد الرأس الشريف إلىٰ المدينة[2].

---

١. تاريخ دمشق ١٩: ٤٧٧، بغية الطلب ٩: ٤٠٤٦، المعرفة والتاريخ ٣: ٣٤٨، وفيات الأعيان ٦: ١١١ ترجمة هيثم بن عدي، مروج الذهب ٣: ٢٢٠ ذكر أيام هشام بن عبدالملك، أمالي الصدوق: ٣٢١ مجلس (٦٢) ح٣، تاريخ الإسلام ٨: ١٠٦ وغيرها

٢. البداية والنهاية ٩: ٣٤٤ حوادث سنة ١٢٢هـ.

لكن أغلب المؤرّخين يقولون: إنّ الرأس جاء مصر، فالكندي في كتابه «الولاة والقضاة» وهو من المؤرّخين الثقات، يؤكّد قدوم الرأس إلىٰ مصر[1].

وفي «الجوهر المكنون» نصّ يقول: «إنّه بعد قدوم رأسه ـ يقصد رأس سيدي زيد ـ إلىٰ مصر، طِيفَ به، ثم نُصب على المنبر الجامع بمصر ـ جامع عمرو ـ في سنة ١٢٢هـ فسُرق، ودُفن في هذا الموضع، إلىٰ أن ظهر، وبُني عليه المشهد في عهد الدولة الفاطمية».



٢ ـ ثم يأتي الحديث حول الرأس الثاني:

رأس سيدي إبراهيم بن عبدالله، المدفون في مشهده، داخل المسجد الحالي، الذي يعرف باسم مسجد سيدي إبراهيم، في حيّ المطرية. وهو مسجد تعدّدت أسماؤه في الماضي، فقد عُرف باسم مسجد التبر، ومسجد التبن، ومسجد البئر، ومسجد الجميزة.

أمّا الاسم الذي يعتمد علىٰ أسانيد تاريخية صحيحة، كما ترى الدكتورة سعاد ماهر في كتابها «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» فهو مسجد «تبر» أو مسجد «سيدي إبراهيم»، ولكلٍّ دلالة.

لكن، من هو سيدي إبراهيم الذي تدور الحياة حوله في المطرية، ويأتيه الزوّار من كلّ أنحاء عالم الإسلام؟

سيدي إبراهيم كما تجمع المصادر عليه هو إبراهيم الجواد ابن عبدالله المحض ابن الحسن المثنّىٰ ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب، وهو من أوائل الذين جمعوا بين سلالة الحسن والحسين رضي الله عنهما، من خلال جدّه الحسن المثنّىٰ ابن الحسن السبط، ومن خلال جدّته السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين بن علي.

---

١. الولاة والقضاة ١: ٨٢. ويذكر أنّ ياقوت الحموي يذهب إلىٰ هذا الرأي حينما يتكلّم عن مصر فيقول: «وعلىٰ باب الكورتين مشهد فيه مدفن رأس زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قُتل بالكوفة، وأُحرق، وحُمل رأسه فطيف به الشام، ثم حُمل إلىٰ مصر فدفن هناك». معجم البلدان ٥: ١٤٣.

وثابت في المصادر أنّ سيدي إبراهيم قُتل في عهد الخليفة المـنصور العـباسي سنة ١٤٥هـ.

وكما يقول المقريزي في خططه[١]: «أُرسل إلىٰ مصر فنُصب في المسجد الجامع العتيق» أي مسجد عمرو بن العاص.

ويقول المؤرّخ أبو المحاسن في كتابه «النجوم الزاهرة» «... وبينما الناس فـي ذلك، قدم يزيد برأس إبراهيم بن عبدالله فنصب في المسجد أياماً، في محلّة مطر، وهو الاسم القديم للمطرية»[٢].

وفي «الولاة والقضاة» للكندي يقول: «ثم قدمت إلىٰ مصر رأس إبـراهـيم بـن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، في ذي الحجّة سنة خمس وأربعين ومائة، لينصبوه في المسجد الجامع، وقامت الخطباء فذكروا أمره...»[٣].

ويقول القضاعي في كتابه «عيون وفنون أخبار الخلايف» حول مسجد سيدي إبراهيم: «مسجد تبر بُني علىٰ رأس إبراهيم بن عبدالله، أنفذه المنصور، فسرقه أهل مصر، ودفنوه هناك...» ويقصد بهناك أي المطرية.

أمّا الشيخ الشبلنجي في «نور الأبصار»، فهو يحقّق الاسم، ويذكر بـعضاً مـمّا جرى لسيدي إبراهيم، ويقول: «هو إبراهيم بن عبدالله المحض، أخو محمد المهدي ـ يقصد محمد النفس الزكية ـ وكان مرضي السيرة، من كبار العلماء»[٤].

قال أبو الحسن المعمري: «قُتل إبراهيم في ذي الحجّة سـنة خـمس وأربـعين ومائة، وهو ابن ثمان وأربعين سنة، وحمل ابن أبي الكرام رأسه الشريفة إلىٰ مصر».



١. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٤: ٢٨٠ ذكر مسجد تبر.

٢. النجوم الزاهرة ١: ١٢١.

٣. الولاة والقضاة ١: ٤٢. وفي نور الأبصار: ٤٠٦: «وقال الكندي في كتابه الأمراء...» وذكر هذا النصّ.

٤. نور الأبصار: ٤٠٦.

والسؤال الذي ينبغي طرحه هنا لنعرف تسلسل الأحداث حول آل البيت: كيف قُتل سيدي إبراهيم؟ ولماذا؟ وكيف جاء رأسه الشريف إلىٰ مصر بالذات دون بقية الولايات أو الأمصار الإسلامية؟

حين انتهت دولة الأمويين في ١٣٢هـ، وظفر العباسيون بالخلافة، أدرك آل علي بن أبي طالب أنّ أبناء عمومتهم من العباسيّين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم، مع أنّهم ـ بالطبع ـ أحقّ بها منهم.

وطبيعة الأمور أن ينشأ نتيجة لذلك صراع يغذّيه وينفخ في جذوته الكثيرون من المخلصين، وأيضاً الكثير من المتآمرين علىٰ دين الإسلام، والذين يعرفون كيف يصيدون في المياه العكرة.

وهكذا، ألقت الظروف علىٰ كلٍّ من محمد وإبراهيم ولدي عبدالله المحض أن يكونا أول المطالبين بالخلافة لبني علي، وأول الخارجين من آل البيت على العباسيّين، رغم أنّ محمداً وإبراهيم لم يكونا وحدهما من أعمدة آل البيت في ذلك الوقت، فقد كان هناك من أحفاد الإمام الحسين: جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي، إمام الشيعة الإمامية، لكنّه لم يحرّك ساكناً، وأوصىٰ أصحابه ومشايعيه بالخلود إلى السكينة، حتّىٰ تحين الفرصة الذهبية[1].

---

١. لكن من يقف على سيرته عليه السلام يجده أنّه كان يحضّ على الجهاد بالنفس والمال، ويقول للمسلمين: «الجهاد واجب مع إمام عادل، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد» (بحار الأنوار ٩٧: ٢٣، وسائل الشيعة ١٥: ٤٩). وكان يرى الانحياز إلىٰ الظالمين تمكيناً لهم، والجهاد مع العادلين تثبيتاً للاسلام. فقد سأل يوماً عبدالملك بن عمرو الأحول الكوفي (من الممدوحين): «لِمَ لا تخرج إلىٰ هذه الديار التي يخرج إليها أهل بلادك؟» أي تجاهد مع الولاة. فقال عبدالملك: انتظر أمركم. فقال الإمام: «اي والله، لو كان خيراً ما سبقونا إليه».

ولمّا سأله عبدالملك أنّ البعض يقولون أنّك لا ترىٰ الجهاد، أجابه: «أنا لا أرىٰ الجهاد؟!... بلى والله، إنّي أراه، لكنّي أكره أن ادع حلمي إلىٰ جهلهم». راجع جواهر الكلام ٢١: ١٣، الإمام الصادق عليه السلام للمستشار عبدالحليم الجندي: ٤١٤.

كان محمد ـ إذاً ـ وأخوه إبراهيم أوّلي المطالبين بالحقّ، ومحمد كان الأخ الأكبر لإبراهيم[١].

ولذلك فقد طالب محمد النفس الزكية بالخلافة، وساعده أخوه إبراهيم استناداً علىٰ دعواه الأساسية من أنّه من أولاد علي وفاطمة الزهراء، وهو الوصي والإمام كما ذكر ذلك في خطابه إلىٰ أبي جعفر المنصور، ضمن الخطابات التي تبودلت بينهما وسجّلتها كتب التاريخ، وأهمّها كتاب ابن طباطبا: «الفخري في الآداب السلطانية».

وكان محمد قد طالب بحقّه أيضاً استناداً إلىٰ أحداث واتّفاقات جرت في أواخر دولة الأمويّين يقول عنها ابن طباطبا: «إنّ بني هاشم من العلويّين والعباسيّين اجتمعوا في مغرب دولة الأمويّين، وتذكّروا حالهم، وما تعرّضوا له من الاضطهاد، وما آل إليه بنو أُمية من الاضطراب، وميل الناس إلىٰ آل البيت، ورغبتهم في أن تكون لهم دعوة، واتّفقوا علىٰ مبايعة محمد النفس الزكية، الذي كان في ذلك الوقت من سادات بني هاشم، علويّيهم وعباسيّيهم، فضلاً وشرفاً وعلماً، وكانت مبايعته بعد اجتماع حضره كبار آل البيت، ومنهم الإمام جعفر الصادق وعبدالله المحض، وابناه

---

١. محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الملقّب بالنفس الزكية، أحد الأشراف من الطالبيّين، ولد سنة ٩٣هـ بالمدينة ونشأ بها، كان غزير العلم شجاعاً حازماً. لما ذهب ملك الامويّين وقامت دولة العباسيّين تخلّف هو وأخوه إبراهيم عن الوفود على السفّاح، ثم على المنصور، ولم يخف المنصور ما في نفسه، فطلبه وأخاه، فتواريا بالمدينة، فقبض على أبيهما واثني عشر من أهلهما، وأذاقهم العذاب حتّىٰ ماتوا في الحبس بالكوفة بعد سبع سنوات، فعندئذٍ خرج محمد ثائراً في (٢٥٠) رجلاً، فقبض على المدينة وبايعه أهلها، وأرسل أخاه إلىٰ البصرة فغلب عليها وعلى الاهواز وفارس، وجرت مراسلات بينه وبين المنصور انتهت بقتال بعدما أرسل له المنصور جيشاً بأربعة آلاف فارس، فقاتلهم محمد بثلاثمائة رجل على أبواب المدينة، ولمّا اشتدّ الأمر تفرّق عنه أصحابه فقتله عيسى بن موسىٰ وبعث برأسه إلى المنصور سنة ١٤٥هـ.

وأمّا أخوه فسيّر الجموع نحو الكوفة، فكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة، إلىٰ أن قتله حميد بن قحطبة، وبعث برأسه إلىٰ المنصور في تلك السنة التي قُتل فيها أخوه محمد. راجع الاعلام ٦: ٢٢٠ و١: ٤٨.

محمد وإبراهيم، كما حضره أبو العباس السفّاح، والمنصور، وغيرهم».

ثم تغرب شمس الأمويّين.

ولكنّ العباسيّين ها هم الذين يخلفون الأمويّين ويضربون بالاتّفاق عرض الحائط، ومن هنا يمتنع محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم عن مبايعة أبي العباس السفّاح، وحين حاول أخوه المنصور أن يأخذ له البيعة في الحجاز، يمتنع النفس الزكية عن البيعة؛ لأنّه أحقّ بها، ويمتنع أخوه تدعيماً له.

وكان لابدّ من احتدام الصراع الذي وصل إلىٰ حدّ استخدام السلاح، والقتل والصلب، واحتزاز الرؤوس!

حين ولي المنصور الخلافة! كانت دعوة محمد النفس الزكية وإبراهيم قد جمعت حولها الأنصار والمشايعين، وصارت خطراً يهدّد الدولة العباسية، وهنا رأى المنصور أنّه لابدّ من التخلّص منهما، ولابدّ من الظفر بهما، مع إعمال كلّ الحيل، كما يقول الطبري في تاريخه الجزء التاسع[١].

بل إنّ المنصور العباسي أصدر تعليماته إلىٰ واليه بالمدينة المنورة، أن يبذل كلّ ما في طاقته للقبض على الأخوين، لكنّ الوالي ـ في الواقع ـ تهاون في القبض عليهما، بل إنّه اتّصل سرّاً بمحمد النفس الزكية، وساعده على الهروب من المدينة المنورة، فسافر إلىٰ عدن، ثم إلىٰ السند، ثم إلىٰ الكوفة، بعدها عاد إلىٰ المدينة المنورة بعد أن جمع عدداً كبيراً من الأعوان والمشايعين.

وهنا يقسو المنصور علىٰ واليه في المدينة، فيعزله، بل يأمر بتكبيله بالحديد، ويحبسه بعد أن يصادر أمواله، ويولّي مكانه خالد بن عبدالله القسري الذي اتُّهم أيضاً بالتهاون والتفريط في مصادرة النفس الزكية وأخيه إبراهيم، ثم يولّي المنصور على المدينة رباح بن عثمان بن حيّان، وهو عم مسلمة بن عقبة المرّي قائد معركة

---

١. تاريخ الطبري: حوادث سنة ١٤٤هـ.

«الحرّة» في عهد يزيد بن معاوية الأموي.

ويتولّىٰ مسلمة بن عقبة المرّي المدينة المنورة سنة ١٤١هـ، ويعتلي المنبر يخطب في أهل المدينة مهدّداً إذا ساند أهلها محمداً النفس الزكية وأخاه إبراهيم، ويستخدم في خطبته ألفاظاً لاتختلف عن ألفاظ خطبة الحجّاج بن يوسف الثقفي في أهل الكوفة.

لكن أهل المدينة لم يخافوا، بل أعلنوا الاستمرار في موقفهم، وتدفّق شعورهم حماسةً نحو آل البيت، فرجموا الوالي بالحصىٰ، حتّىٰ أنّه بعث للمنصور يشكو له ما حدث من أهل المدينة.

وهنا تثور ثائرة المنصور، ويبعث بخطابٍ يتوعّد فيه أهل المدينة، ويقرأ الخطاب من فوق المنبر مسلمة بن عقبة المرّي، فكان نصيبه مثلما حدث له أثناء خطبته العنترية السابقة.

لكن، ما العمل والمنصور يشدّد علىٰ واليه في طلب محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم؟

هنا يبدأ التنكيل الحقيقي بآل البيت من قبل العباسيّين، ويأتي مسلمة بن عقبة المرّي بعبدالله المحض، والد محمد وإبراهيم من سجنه، وكان المنصور قد حبسه بعد قيام ابنيه ومعارضتهما مبايعة العباسيّين، وهدّد مسلمة عبدالله بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يأته بابنيه.

ويزداد الاضطهاد والتنكيل، فيقبض مسلمة علىٰ إبراهيم القمر، والحسن المثلّث أخوي عبدالله المحض، وعمّي محمد وإبراهيم ومن يناصرهما في المدينة المنورة[1].

كلّ ذلك يحدث والأخوان مختفيان.

وحين عرفا ما حلّ بأهلهما، بعث محمد ـ كما يقول اليعقوبي في تاريخه[2]

---

١. راجع مقاتل الطالبيين: ١٤٠ وما بعده.

٢. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢١.

والمسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر[١] ـ إلىٰ أبيه في سجنه بمن يشاوره، لكنّ أباه شجّعه على الكفاح والنضال من أجل حقّ آل البيت، هذا رغم ما كان يلاقيه الأب وأُسرته من اضطهاد وتعذيب.

وهنا بدأ محمد وإبراهيم يعدّان العدّة للخروج من دعوتهما السرّية إلىٰ الدعوة العلنية، ويستفحل أمرهما، ممّا أزعج المنصور؛ لأنّهما هدّدا أركان الدولة العباسية بأسرها.

ويحجّ المنصور في سنة ١٤٤هـ، ويأتي إلىٰ المدينة المنوّرة، فجاءوا له بالمسجونين من آل البيت؛ لينكل ببعضهم، ويرسل البعض الآخر إلىٰ سجون أخرىٰ، علىٰ أقتاب جمالٍ بغير وطاء، جمال بغير سروج وغطاء ـ كما يقول الطبري[٢] ـ ويحبس أغلبهم في سراديب تحت الأرض، لا يفرّقون فيها بين ضياء النهار وسواد الليل.

ويزيد المنصور في تعذيب كبار آل البيت، حتّىٰ يموت عبدالله المحض وأخواه: إبراهيم القمر والحسن المثلث، خنقاً داخل السراديب المظلمة.

وكان لابدّ لمحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم من الظهور، بعدما جرىٰ لأهلهما أهل البيت النبوي الكريم.

وفعلاً ظهرا علناً في جمادى الآخرة سنة ١٤٥هـ ـ ٧٦٢م. ظهر محمد النفس الزكية بعد أن بايعه الناس بالإمامة في مكة والمدينة، أي الحجاز، وتلقّب بأمير المؤمنين. وقد شجّعه أيضاً على الظهور فتوى الإمام مالك بنقض بيعة المنصور، حين قال لأهل المدينة: «إنّما بايعتم مكرهين، وليس علىٰ مكرهٍ يمين».

كما شجّع محمداً النفس الزكية وإبراهيم على الظهور تلك الخطابات التي جاءت من الأمصار الإسلامية بتأييد الناس له، وهي خطابات ـ كما يقول المؤرّخون ـ غالبيتها دسيسة من تدبير الخليفة المنصور وأعوانه؛ لكي يظهر محمد وأخوه ويسهل على العباسيّين اصطيادهما.

---

١. مروج الذهب ٣: ٣٠٦، ٣١٠.

٢. تاريخ الطبري ٦: ١٧٤ حوادث سنة ١٤٤هـ، وانظر تاريخ الإسلام ٩: ١٨ حوادث سنة ١٤٤هـ.

يظهر محمد وإبراهيم، ويكون الصراع سافراً بين من لهم الحقّ، ومن اغتصبوا هذا الحقّ.

ويرسل محمد أخاه إبراهيم إلىٰ البصرة لنشر دعوته وأخذ البيعة له، وقبلها توجّه الاثنان وأشياعهما إلىٰ سجن المدينة، وأخرجا من لا يزال حيّاً فيه من آل البيت، كما قبضا علىٰ والي المنصور وحبساه.

وقيل: إنّ المنصور حاول أن يقبض علىٰ إبراهيم وهو في طريقه إلىٰ البصرة متخفّياً، لكنّه ـ أي المنصور ـ لم يوفّق.

وبالفعل وصل إبراهيم إلى البصرة «سرّاً في عشرة أنفس» كما يقول الذهبي[1]... ووجد الأشياع كثيرين، واستولىٰ علىٰ دار الإمارة بعد أن هزم والي المنصور هناك، وقد شدّ من أزره ورحّب به فقهاء البصرة وغيرهم من ذوي الجاه والرأي هناك. وانضوت الزيدية والمعتزلة تحت لوائه بمعاونة الإمام أبي حنيفة، وراسله سرّاً. كما سبق أن ذكرنا فتوى الإمام مالك للنفس الزكية.

وقد استطاع إبراهيم إدخال أهل واسط والأهواز وفارس في دعوته، وحصل منهم علىٰ اعتراف بمبايعة أخيه محمد النفس الزكية بالإمامة، بل إنّ الأخوين ـ قبل ذلك ـ أرسلا إلى الأمصار الإسلامية، ومنها مصر التي رحّبت بذلك.

ويوالي محمد وإبراهيم انتصاراتهما. وبدت الصورة أنّ الخلافة العباسية أوشكت علىٰ زوالها.

ولكنّ الأخبار تصل إلىٰ إبراهيم بمقتل أخيه النفس الزكية في المدينة المنورة، وقبل عيد الفطر بثلاثة أيام في عام ١٤٥ الهجري.

فقد أرسل المنصور إلىٰ المدينة بجيشٍ كبيرٍ، وحين وجد محمد النفس الزكية أنّه لا قِبَل له بجيش المنصور أشار عليه البعض أن يرحل إلىٰ مصر؛ لأنّه سيجد فيها

١. سير أعلام النبلاء ٦: ٢١٩.

أرضاً خصبة وقلوباً مفتوحة مرحّبة ومشايعة، لكنّ البعض الآخر رجوه أن يبقىٰ في المدينة ويصمد، رغم أنّ المدينة من الناحية الاستراتيجية العسكرية غير صالحة. وقد انقاد النفس الزكية للرأي الذي غلب ببقائه في المدينة لحرب قوات المنصور، وكان لابدّ ممّا ليس منه بدّ، إذ كانت المدينة هي المصيدة بالنسبة لمحمد النفس الزكية الذي هُزم وقُتل واحتزّ رأسه.

وفي كتاب «العبر في خبر من غبر»: «أنّ محمداً النفس الزكية ظهر في المدينة المنوّرة، وخرج في مائتين وخمسين نفساً بالمدينة، فندب الخليفة المنصور لحربه ابن عمّه عيسى بن موسى، يدعوه إلىٰ الإنابة، فلم يسمع، ثم أنذر عيسىٰ أهل المدينة ورغّبهم ورهّبهم، ثم زحف إلىٰ المدينة فظهر عليها، وقتل محمداً وبعث برأسه إلىٰ المنصور»[1].

وقد أثّر في إبراهيم مقتل أخيه. حتّى أنّه صعد إلىٰ المنبر ونعاه، فأبكى الناس[2].

ويقال: إنّ إبراهيم جمع حوله مائة ألف محارب، وأنّه لو أحكم التخطيط لانهزمت الدولة العباسية. وكان المنصور يستشعر هذا الأمر، فجنّد كلّ القوىٰ ضد إبراهيم، وأرسل إليه المنصور ـ ابن عمّه ـ عيسى بن موسى الذي قتل النفس الزكية، بجيش عباسي كبير، فدارت معركة هائلة في «باخمرىٰ»[3]، أو «باغمرىٰ»، ما بين واسط والكوفة، وكادت الهزيمة تلحق بالجيش العباسي، لولا أنّ عيسىٰ بن موسى ثبت في المعركة، وأبىٰ أن يغادر ساحتها حتّىٰ يُقتل أو ينتصر.

وما زال الفريقان يقتتلان، حتّىٰ بدا أنّ جيش إبراهيم ينهزم، بعد أن تخلّىٰ عنه

---

١. العبر في خبر من غبر: ٢: ١٤٧.

٢. الكامل في التاريخ ٥: ٥٦٥، وانظر تاريخ الطبري ٦: ٢٥.

٣. باخمرىٰ: موضع بين الكوفة وواسط، وهو إلى الكوفة أقرب، وإيّاها عنى الشاعر دعبل بن علي بقوله:

وقبرٌ بأرض الجوزجان محلّه ... وقبرٌ بباخمرا لدى الغُربات

راجع معجم البلدان ١: ٣١٦.

الكثيرون. ومع ذلك فإنّ إبراهيم ثبت في عددٍ قليلٍ من أنصاره، حتّىٰ أُصيب بسهمٍ في حلقه، فأنزلوه وهو يقول: «وكان أمر الله مقدوراً، أردنا أمراً وأراد الله غيره».

وبسرعة حمل عيسى بن موسى علىٰ إبراهيم ومن بقي معه، وكان عددهم سبعين رجلاً، فتفرّق عنه حتّى أنصاره. وجاء ابن قحطبة ـ من قوّاد عيسى بن موسى ـ فاحتزّ رأس إبراهيم وأرسله للمنصور في يوم الاثنين لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة.

يقول د. حسن إبراهيم حسن في كتابه «تاريخ الإسلام السياسي»: «كانت هزيمة إبراهيم بسبب تقسيمه جيشه إلىٰ كراديس يقدّم منها إلى المعركة كردوساً، فإذا انهزم قاد آخر، وهكذا، بمعنىٰ أنّ إبراهيم لم يقاتل بجيشه صفّاً واحداً... بالإضافة إلىٰ أنّ الخطّة التي رسمها مع أخيه النفس الزكية في المدينة المنوّرة لم تنفّذ، وهي خطّة كانت تهدف بدء القتال في المدينة والكوفة في وقتٍ واحدٍ، وقيل: إنّ تأخّر إبراهيم في بدء القتال يرجع إلىٰ مرضه. وقيل أيضاً: إنّ تعجّل أخيه محمد للحرب كان سبب الهزيمة، ولو خرج الأخوان في وقتٍ واحدٍ لحرب قوات المنصور، لتغيّر وجه التاريخ»[1].

هزّ مقتل سيدي إبراهيم ـ شهيد باخمرىٰ ـ أركان دولة العباسيّين هزّاً عنيفاً، وكاد يصدع أركانها، حتّىٰ أنّ المؤرّخ الحافظ الذهبي يقول: «إنّ الخليفة العباسي المنصور مكث لا يقرّ له قرار، فجهّز العساكر، ولم يأو إلىٰ فرش خمسين ليلة، وكلّ يومٍ يأتيه فتق في ناحية»[2]. والمقصود بالفتق هنا هو الهَبّات والثورات على الحكم العباسي.

ويضيف الذهبي عن المنصور العباسي: «...ولولا السعادة لثلّ عرشه بدون ذلك، فلو هجم إبراهيم بالكوفة لظفر بالمنصور، ولكنّه كان فيه دين ـ أي إبراهيم ـ قال:

---

١. تاريخ الإسلام السياسي والديني و... ٢: ١٣٧ ـ ١٣٨، ويذكر أنّ خروج محمد كان بالمدينة أول رجب سنة ١٤٥هـ، وكان ظهور أخيه إبراهيم بالبصرة في أول رمضان من تلك السنة، أي بعد شهرين من ظهور النفس الزكية.

٢. تاريخ الإسلام ٩: ٣٩ حوادث سنة ١٤٥هـ.

أخاف إن هاجمتها يُستباح الصغير والكبير، وكان أصحابه يختلفون عليه»[1].

والواقع أنّه من بين أسباب هزيمة إبراهيم ـ خلافاً لما ذكرنا ـ أنّ الخليفة المنصور استطاع أن يحتفظ بالكوفة؛ لأنّها موقع استراتيجي، وأثناء ثورة إبراهيم ألزم الناس بلبس السواد، وجعل يقتل كلّ من اتُّهم بالتعاون والتعاطف مع العلويّين، ويحبسه. ولو أنّ سيدي إبراهيم سيطر على الكوفة بجانب البلدان التي ذكرناها لتغيّرت المقادير، خاصّةً وأنّ محمداً النفس الزكية وإبراهيم بعد أن خرجا بعثا بإخوتهما وأبناء عمومتهما إلىٰ الأمصار الإسلامية ليأخذوا البيعة لمحمد.

ففي مصر ـ كما يقول «ابن ظهيرة» في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» ـ: «وفي أيام يزيد بن هاشم والي مصر من قبل الخليفة المنصور، ظهرت بمصر دعوة بني الحسن بن علي بن أبي طالب، وتكلّم بها الناس، وبايع منهم لبني الحسن في الباطن، وماجت الناس بمصر، وكاد أمر بني الحسن أن يتمّ، والبيعة كانت باسم علي بن محمد بن عبدالله، أي ابن محمد النفس الزكية أخي إبراهيم، وبينما الناس في ذلك، قدم يزيد برأس إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في ذي الحجّة سنة خمس وأربعين ومائة، فنصب في المسجد أياماً»!

وهذا يعني أنّ مصر، كولاية إسلامية، لعبت دوراً خطيراً ومرموقاً في هذه الثورة العلوية، بل إنّ مصر، منذ أيام كربلاء وربّما قبلها، أيام الخلاف بين علي عليه السلام ومعاوية، أعلنت تعاطفها مع آل البيت، ولذلك فليس بغريب أن نجد الكثير من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله مدفونين بمصر.



---

١. تاريخ الإسلام ٩: ٤٠ حوادث سنة ١٤٥هـ سير أعلام النبلاء ٦: ٢٢٢ رقم ١٠٦ ترجمة إبراهيم بن عبدالله بن الحسن.

١ ـ الإمام الحسين

ابن

الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام

بقلم

حنفي المحلاوي

د. سعاد ماهر

مأمون غريب

أهل البيت المدفونون في مصر[1]

حنفي المحلاوي

من هم آل البيت... أو آل بيت النبوة؟!

سؤال نردّده كثيراً، وفي المناسبات عديدة ـ ونتناوله في كثيرٍ من الأحوال بالبحث والدراسة ـ وقد نعثر على الإجابة المطلوبة.

إلّا أنّ البعض منّا يريد تحديداً أكثر لما يسمعه من إجابات، خاصةً حين يأتي الحديث عن آل البيت الذين وفدوا وعاشوا في مصر حتّىٰ توفّاهم الله تعالىٰ، وتركوا وراء ظهورهم آثاراً لا تزال باقية، نستظلّ بها، ونعيش في رحابها.

وكان علينا أيضاً ـ ونحن بصدد الحديث عن «مقابر» آل البيت وصفاتهم وعملهم وأخلاقهم ـ أن نردد هذا التساؤل، وذلك من أجل إحداث نوع من الربط التاريخي الواجب لما سوف نتلوه من كلمات، وبين ما هو شائع من أقوال وأقاويل عن أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

والحديث عن توصيف أهل البيت، وتحديد ماهيّتهم بالضبط، قد بدأ يتردّد بقوة حين أنزل ربّ العالمين هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ

---

١. مقتبس من كتاب مقابر المشاهير من آل البيت، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]. إذ حاول المفسّرون تحديد المقصود بأهل البيت الذين جاء ذكرهم بتلك الآية الكريمة، وقد انقسموا إلىٰ فريقين... ما ساهمت الموسوعات العربية في وضع تعريف لهؤلاء القوم الصالحين من أُسرة النبي الكريم ﷺ، وقد أخذت هذه الموسوعات في تعريفهم بأكثر الروايات رواجاً في مجال التفسير.

وممّا ذكرته تلك الموسوعات القول بأنّ المقصود بأهل البيت: أُسرة النبي ﷺ؛ تمييزاً عن المهاجرين والأنصار.

أمّا مفسّرو أهل السنّة ـ والكلام لايزال لمؤلّف الموسوعة العربية ـ فيجعلون تسمية أهل البيت تتّسع من وجوهٍ شتّىٰ، لتشمل فروع بني هاشم وما لهم من موالٍ، وعلىٰ رأسهم أزواج النبي وأبناؤه... ويقول العلويون في تفسير معنى «أهل البيت»... فهم عندهم: علي وفاطمة ونسلهما، وهم طاهرون مطهَّرون[1].

وقد أكّدت بعض الأحاديث الشريفة: أنّ أهل البيت الذين قصدهم ربّ العالمين في هذه الآية إنّما هم زوجات النبي ﷺ وأولاده وبناته، خاصّةً فاطمة رضي الله عنها، والإمام علي وولداه الحسن والحسين... مصداقاً لما ذكره بعض المفسّرين من أنّه حين نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]. جمع النبي ﷺ ابنته فاطمة وولديها الحسن والحسين، وتوجّه إلى الله وقال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهِبْ عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً»[2].

---

١. الموسوعة العربية: حرف الألف.

٢. حديث الكساء وجمعه ﷺ أهل بيته: فاطمة وبعلها وبنيها تحته من الأحاديث المتواترة على ألسنة الحفّاظ وأعلام الحديث وفحول الرواية والفقهاء والمؤرّخين، وغير قابلٍ للإنكار وإن اختلفت بعض الألفاظ. وهذا الحديث بهذا اللفظ أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٠: ٢٧٨ برقم ٥٣٩٦ ترجمة عبدالرحمان بن علي المروزي، بإسناده إلىٰ أبي سعيد الخدري، والعقيلي المكي في الضعفاء الكبير ٣: ٣٠٤ برقم ١٣١٣ ترجمة عمران بن مسلم الفزاري الأزدي، وعلّة ضعف سند الحديث بعمران هذا الذي يذكره سبب ضعفه على لسان مجاهد: «رافضي»، ثم قال: وهذا الحديث يروىٰ بإسناد أصلح من هذا. يريد ←

أمّا القول الأغلب والأعمّ ـ والذي يتمسّك به معظم المفسّرين، وكتّاب السيرة النبوية ـ فإنّ المقصود بأهل البيت هم أُسرة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وبناته وأحفاده[١].

وقد حدّثتنا كتب السيرة النبوية عن هذه الأُسرة الكريمة، سواء فيما يخصّ زوجات النبي صلى الله عليه وآله أو فيما يخصّ أولاده وبناته وأحفاده من الذين عاصروا أيامه العظيمة صلى الله عليه وآله أو من الذين لم يعاصروا هذه الأيام الطيبة، كما حدّثتنا هذه الكتب نفسها عن أماكن معيشة هؤلاء وأماكن تواجدهم من مولدهم حتّىٰ وفاتهم.

وقد اتّضح لنا أنّ غالبية أُسرة النبي صلى الله عليه وآله قد عاشت ما بين مكّة والمدينة، ثم استقرّ بها المقام نهائياً في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله التي اختارها بعد هجرته الشريفة... وقد ظلّوا يعيشون بالمدينة المنوّرة حتّىٰ توفّاهم الله تعالىٰ، ودفنوا جميعاً بأرض البقيع.

وهناك من أحفاد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من ترك المدينة المنوّرة متّجهاً إلى العراق، ومنهم من اتّجه إلىٰ مصر، وكان توقيت ذلك قد بدا واضحاً بعد مقتل عثمان بن عفان، ثم حدث ما حدث من خلاف بين المسلمين الذين انقسموا بين مؤيّدين لعلي بن أبي طالب، ومؤيّدين لمعاوية بن أبي سفيان.

هذا الخلاف كان بداية تفرّق أحفاد رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وتركهم المدينة: إمّا إلى العراق حيث الحرب ضدّ الفتن، وإمّا إلىٰ مصر، طلباً للأمان، وفراراً من البطش والعدوان.

← ما رواه الترمذي في السنن ٥: ٣٥١ ب ٣٤ من أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة الأحزاب ح ٣٢٠٥.

ويذكر أنّ الشاهد الذي يدليه المؤلّف يخالف ما ادّعاه بأنّ بعض الأحاديث الشريفة يؤكّد أنّ أهل البيت الذين قصدهم ربّ العالمين في الآية أنّما هم زوجات النبي وأولاده وبناته، خاصّةً فاطمة و...!! إذ أنّ الرواية صريحة بخروج الجميع عدا فاطمة وبعلها وبنيها الذين خصّهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالدعاء بالتطهير، ويقوّيه ما في ذيل الرواية التي ذكرها من أنّ أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله قالت: ألست منهم؟ فقال: «إنك لعلىٰ خير أو إلى خير».

١. لم يزد المؤلّف في هذا القول عمّا ذكره في قوله السابق، بل قول الأغلب والأعم من المفسّرين وأصحاب السيرة فيتجلّىٰ فيما رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أنّ الآية نزلت في خمسة (لا سبعة ولا أكثر): «فيَّ وفي علي والحسن والحسين وفاطمة». راجع كتاب السيدة نفيسة للأستاذ توفيق أبو علم: ٦٩ ـ ٧٠ ط. المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ففيه بحث رائع في هذا النطاق.

وممّا هو ثابت تاريخياً أنّ أهل البيت من أحفاد النبي ﷺ قد بدأوا يتوافدون علىٰ مصر بعد معركة كربلاء.

وكان أشهر من وفد إلىٰ مصر من أحفاد النبي ﷺ، سواء الأحفاد المباشرون أو غير المباشرين: الإمام الحسين عليه السلام، وابنه الإمام زين العابدين، وحفيده الإمام زيد، والإمام الجعفري.

وكذلك السيّدات العابدات المؤمنات بالله وبالقدر حلوه ومرّه: السيدة زينب، والسيدة رقيّة، والسيدة عائشة، والسيدة نفيسة، والسيدة سُكَينة، والسيدة فاطمة النبوية، والسيدة أُم كلثوم رضي الله عنهم أجمعين.



الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام

من هو؟

إنّه الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، سيد شباب أهل الجنّة، أبو عبدالله، ريحانة النبي ﷺ وشبيهه.

ولد الإمام الحسين عليه السلام في اليوم الثالث أو الخامس من شهر شعبان[١] عام أربعة من الهجرة، الموافق ٥٦٤م، وقد أسماه النبي الكريم ﷺ حسيناً، فهو وأخوه سيّدا شباب الجنة، وأُمّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين بعد السيدة مريم عليها السلام[٢].

١. يذكر أنّ ولادته عليه السلام في الثالث من شعبان بالمدينة المنوّرة، لكن المشهور أنّ ولادته كان لخمس خلون منه. راجع مقاتل الطالبيين: ٥١، كشف الغمة للأربلي ٢: ٢١٥، الفصول المهمة: ١٧٠، نور الأبصار: ٢٥٣، أبو الشهداء الحسين بن علي للعقّاد: ١٤ ـ ١٥ ط المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

٢. وفي السياق أخرج الحاكم النيسابوري في المستدرك ٣: ١٥٦ بسنده عن عائشة قالت: أنّ النبي ﷺ قال وهو في مرضه الذي توفّي فيه: «يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء هذه الأمة، وسيّدة نساء المؤمنين؟» ثم قال الحاكم: هذا إسناد صحيح.

وممّا روي عن النبي ﷺ في هذا السياق أنّه قال: «هما ريحانتاي من الدنيا»[١].

وعن أبي يعلى بن مرّة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسين منّي وأنا منه... من أحبّ الحسين أحبّه الله... حسين سبط من الأسباط»[٢].

وجاء في مسند أحمد بن حنبل عن سبب تسمية الحسين بن علي بهذا الاسم، قال: إنّ علياً عليه السلام قال عن ذلك: «لمّا ولد الحسن سمّيته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أروني ابني، ماذا سمّيتموه؟» قلت: حرباً! قال: «بل هو حسن». فلمّا ولد الحسين، سمّيته حرباً! فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أروني ابني، ما سمّيتموه؟» قلت: حرباً! فقال: «بل هو حسين»[٣].

كما يروىٰ في هذا السياق أنّ رسول لله ﷺ قد عقّ يوم سبوعه بكبش، وحلق رأسه وتصدّق بزنته فضة، وأُذّن في أُذنه، ودعا له[٤].

والإمام الحسين بن علي عليه السلام اسمه وذكره ملأ الدنيا في عصره ومن بعده في كلّ مكان في البلاد الإسلامية والعربية، فهو لذلك غنيّ عن التعريف بنسبه الشريف، ومكانه من محبّة النبي ﷺ.

---

١. أخرجه البخاري ٣: ١٣٧١ ب٢٢ مناقب الحسن والحسين من أبواب فضائل الصحابة ح٣٥٤٣، وفي ٥: ٢٢٣٤ ب١٨ رحمة الولد وتقبيله من أبواب كتاب الأدب (٨١) ح٥٦٤٨ عن عبدالله بن عمر، وأحمد في المسند ٢: ٨٥، ٩٣ عن ابن عمر، والطبراني في المعجم الكبير ٣: ١٢٧ برقم ٢٨٨٤ عن ابن عمر.

٢. أخرجه الإمام أحمد ٤: ١٧٢، وابن ماجة ١: ٥١ ب١١ في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ من أبواب المقدّمة ح١٤٤، والترمذي في السنن ٥: ٦٥٨ ب٣١ من أبواب المناقب ح٣٧٧٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٨١، والطبراني في الكبير ٣: ٣٢ برقم ٢٥٨٦ ورقم ٢٥٨٩ وفيها: «أحبَّ الله من أحبّه...».

كما ورواه ابن الأثير في أُسد الغابة ٢: ١٩ ترجمة الحسين بن علي عليه السلام برقم ١١٧٣، والحاكم في المستدرك ٣: ١٧٧، والأدب المفرد للبخاري: باب معانقة الصبي، وفضائل الخمسة للفيروزآبادي ٣: ٢١٦.

٣. مسند أحمد ١: ٩٨، ١١٨ بإسناده عن هانئ بن هانئ عن علي عليه السلام. ورواه البيهقي في السنن ٦: ١٦٦ و٧: ٦٣، والحاكم في المستدرك ٣: ١٦٥، ١٨٠ عن هانئ بن هانئ، ورواه الطبرسي في إعلام الورىٰ: ٢٢٥ ف٣ ذكر بعض خصائصه ومناقبه عليه السلام عن مسند الرضا عليه السلام.

٤. البداية والنهاية ٨: ١٥٢، مولد العلماء ووفياتهم ١: ١٦٨، إعلام الورى: ٢٢٥، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٥.

ولقد أصبح ذلك الإمام الشهيد بعد مأساة كربلاء سيد الشهداء، ورمز الإيـمان والفداء، وموضع الحبّ والتقدير، كما كانت لهذا الإمام التقي مناقب كـثيرة، كـانت حديث العام والخاصّ في حياته، وقد خلّدها التاريخ فوق صفحاته؛ إذ كان كـثير الصلاة والصوم والصدقة والحجّ وأفعال الخير جميعاً.

أمّا بخصوص حادث مقتله في كربلاء فقد تحدّث عنها التاريخ طويلاً، وذكرها العشرات من المؤرّخين[1]... وتتلخّص وقائعها فيما سوف نرويه مختصراً، وقد نقلناه من مصادر عديدة، إذ ليس من هدفنا في هذه الأوراق سرد تلك الوقائع بالتفصيل التاريخي، إلّا بالقدر الذي يخدم موضوعنا الأساسي، وهو الحديث عـن الضـريح الذي أُقيم له بالقاهرة من بعد وصول رأسه الشريف بعد مقتله في كربلاء، وقد دُفن جسده وفق الإجماع في مدينة كربلاء، من بعد الشهادة مباشرةً.

ولقد صوّر العديد من المؤرّخين المسلمين الأوائل هذه المأساة تصويراً بـليغاً، كما عبّروا من خلال كلماتهم عمّا كان يمرّ به العالم الإسلامي آنذاك من مشاكل، أودت بحياة العديد من آل بيت النبوة.

وممّا ذكره العلّامة محمد بن علي طباطبا المعروف باسم «الطقطقي» عن هـذه المأساة قوله: «هذه قضية لا أحبّ بسط القول فيها؛ استعظاماً لها واستفظاعاً، فإنّها قضية لم يجر في الإسلام أعظم منها... ولعمري إنّ قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامّة الكبرىٰ، ولكن هذه القضية جرىٰ فيها من القتل الشنيع والسبي والتمثيل ما تقشعرّ له الجلود، واكتفيت أيضاً عن بسط القول فيها بشهرتها، فإنّها شرّ الطامّات. فلعن الله كلّ من باشرها وأمر بها ورضي بشيءٍ منها، ولا تقبّل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وجعله

---

١. انـظر: اليعقوبي ٢: ٢٤١ ـ ٢٤٧، والمسعودي ٣: ٦٤ ـ ٧٤، والدولابي: ١١٩ ـ ١٢١، وأبـو الفـرج الاصفهاني: ٥١ ـ ٨١، والخطيب ١: ١٤١ ـ ١٤٤، والمقدسي ٦: ١٠ ـ ١٣، وابن عساكر ١٤: ١١١ ـ ٢٦٠ والذهبي: ٩٣ ـ ١٠٨ حوادث سنة ٦١هـ، وابن كثير ٨: ١٤٩ ـ ٢١١، والعاصمي في سمط النجوم ٣: ١٦١ ـ ١٩٨ وغيرهم.

من الخاسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً». في طبقاته، الجزء الأول.

وتعود قصة كربلاء ومأساتها التيانتهت بمقتل الإمام الحسين إلىٰ عـام ٦٠هـ، وذلك بعد تولّي يزيد بن معاوية الحكم بعد وفاة والده معاوية في العام نفسه، وقد أراد يزيد أن يأخذ البيعة بتوليته خلافة المسلمين ـ بدلاً مـن والده ـ مـن الإمـام الحسين عليه السلام، فأرسل بذلك إلىٰ أميره على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

وفي لقاء الوليد مع الإمام الحسين لأخذ تلك البيعة رفض الإمام ذلك، وأصـرّ علىٰ أن تكون البيعة عامةً، وليست قاصرةً عليه وحده،ومن ثم ترك الإمام الحسين المدينة وأقام في مكة قرابة شهرين بعيداً عن هذه الأجواء، وقد أخذ مـعه أهـله وإخوته وبني أخيه.

في هذا الوقت، علم أهل الكوفة بوفاة معاوية وبتولّي يزيد ابنه الخلافة مكانه، فرفضوا هذا الأمر، وكتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام؛ لكي يكون هو إمامهم بدلاً من يزيد، وأخذوا يرسلون له الرسائل بهذا المعنىٰ، فما كان من الإمام الحسين إلّا أن أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب برسائل إلىٰ هؤلاء الشيعة؛ ليعرف منهم موقفهم هناك، فسافر مسلم بن عقيل إلىٰ الكوفة، واجتمع بهؤلاء المتشيّعين للإمام الحسين، وأثناء وجوده هناك علم بذلك يزيد بن معاوية فأمر والي البصرة ـ وهو من أتباعه ـ أن يتعقّب رسول الإمام الحسين ويضرب عنقه وعنق من كانوا معه.

وبالفعل حدث ذلك، وقد أرسل والي البصرة رؤوس هؤلاء إلىٰ يزيد في دمشق، وذكر ابن كثير: أنّ عدد الذين بايعوا الحسين بالكوفة بلغ حوالي ثمانية عشر ألفاً[١]، أمّا ابن قتيبة فذكر أنّهم ثلاثون ألفاً، كما ذكر أنّ الذين كـانوا مـع رسـول الإمـام الحسين ثمانين رجلاً[٢].

---

١. البداية والنهاية ٨: ١٥٤.

٢. تاريخ الخلفاء ٢: ٨.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة من العام نفسه قرّر الإمام الحسين الزحف ناحية الكوفة، وقد شدّ من أزره آنذاك أهل مسلم بن عقيل للأخذ بثأره ممّن قتله، وقد قيل كلام كثير عن تلك التحذيرات التي لم يأخذ بها الإمام الحسين، حيث مضىٰ إلى الكوفة لملاقاة جيش يزيد بن معاوية هناك.

وفي كربلاء دارت معركة حامية، شارك فيها أكثر من ألف فارس من أتباع عبيدالله بن زياد والي البصرة ومبعوث يزيد بن معاوية، ثم انضم إليه بعد ذلك أربعة آلاف مقاتل آخرون.

وخلال ساعات استشهد كلّ أتباع وأصحاب الإمام الحسين، وظلّ هو يحارب وحده حتّىٰ مات شهيداً في كربلاء عام ٦١هـ الموافق ٦٨٠م، وقد عرفت باسم موقعة «الطف» الواقعة بجوار مدينة كربلاء.

وتقول الدكتورة سعاد ماهر أُستاذ الآثار: «إنّه يكاد يكون هناك إجماع بين المؤرّخين وكتّاب السير علىٰ أنّ جسد الإمام الحسين ـ بالفعل ـ مدفون هناك بكربلاء وقد جاء في كتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد[1] بشأن ذلك أنّه بعد أن احتزت الرأس وأُخذت إلىٰ ابن زياد بالكوفة، خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغاضرية إلى الحسين وأصحابه فصلّوا عليهم، ودفنوا الحسين حيث قبره الآن بكربلاء، كما دفنوا ابنه علياً عند رجليه، وحفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه حوله، كما دفنوا العباس بن علي في الموضع الذي قُتل فيه علىٰ طريق الغاضرية حيث قبره الآن...»[2].

---

١. الشيخ المفيد هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان البغدادي، المعروف بابن المعلم، أحد مشاهير فقهاء الإمامية، ومن أجلّة متكلّميها، انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته، كان مقدّماً في العلم وصناعة الكلام، له ما يقارب من مائتي مصنّف، ولد سنة ٣٣٨هـ وقيل: ٣٣٦، وتوفي سنة ٤١٣هـ ودفن بداره سنين، ثم نقل إلى مقابر قريش. (فهرست الشيخ الطوسي: ١٨٦، ١٨٧، رجال النجاشي: ٣٩٩ رقم ١٠٦٧).

٢. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١: ١٦٤.

أمّا عن رأس الحسين ـ والتي ارتبطت بضريحه الموجود الآن بالقاهرة ـ فقد كثرت فيه الأقوال وتضاربت الآراء[١]، واختلفت الروايات وكتب السيرة في تحديد مكان تواجده... ولسوف نسوق بعض هذه الأماكن التي ذكرت في هذا السياق، ثم نتوقّف كثيراً أمام قبره وضريحه الموجود الآن بالقاهرة بحي الحسين، والمجاور للأزهر الشريف.

وممّا قيل عن ذلك: إنّ رأس الحسين عليه السلام قد دفنت في عدة أماكن قبل مقدمها إلىٰ القاهرة. وقد ذكر ذلك كلٌّ من الأثري حسن عبدالوهاب، والدكتورة سعاد ماهر، وآخرين.

ومن الأماكن التي ذُكرت بخصوص رأس الحسين: أنّها دفنت مع جسده في كربلاء، إذ أنّه أُعيد إلىٰ جسده الطاهر بعد أربعين يوماً من موته، ثم قيل: إنّه دُفن في المدينة المنوّرة. وقد ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته والبخاري في تاريخه، حيث ذكرا: أنّ رأس الحسين حُمل إلىٰ المدينة ودُفن بها في البقيع عند قبر أمه رضي الله عنها.

أمّا طائفة الشيعة الإسماعيلية فقد ذكروا: أنّ رأس الإمام الحسين تمّ دفنها في مدينة دمشق وجاء في المقريزي[٢]: «مكث الرأس مصلوباً بدمشق ثلاثة أيام، ثم أُنزل في خزائن السلاح حتّىٰ ولي سليمان بن عبدالملك، فبعث فجيء به وقد صار عظماً أبيض، فجعله في سفطٍ، وطيّبه وجعل عليه ثوباً ودفنه في مقابر المسلمين».

كما أنّ هناك أقوالاً أخرىٰ ضعيفة تقول بوجود الرأس في «حلب»، وأنّ الرأس مدفون في حلب في وسط جبل جوشن، وقد بنىٰ عليه الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين، ولكنّه لم يذكر متىٰ وكيف جيء بالرأس الشريف إلىٰ هناك؟!

---

١. ذكر الشبلنجي الشافعي هذه الآراء ضمن فصل أسماه «فصل: اختلفوا في رأس الحسين» من كتابه نور الأبصار: ٢٦٩.

٢. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٢: ٣٢٨.

ثم قالوا: إنّ رأس الإمام الحسين قد دُفن أيضاً في مدينة «مرو» بأرض خراسان، وكذلك في مدينة «عسقلان» بأرض الشام... ومنها نقل إلىٰ مصر حيث دُفن في مقامه الموجود حالياً.

وقد أيّد رواية الرأس الشريف بعسقلان ونقله منها إلىٰ مصر جمهور كبير من المؤرّخين والرواة، منهم: ابن ميسر، والقلقشندي، وابن إياس، وسبط ابن الجوزي.

علمه وصفاته:

كان الإمام الحسين عليه السلام ولا يزال مصدراً خصباً من مصادر البحث والدراسة فيما يخصّ أعماله ومناقبه... بهدف الاستفادة ممّا تركه وراءه من تراث إسلامي عظيم يمكن أن تنتفع به الأمة حتّىٰ يوم القيامة. أضف إلىٰ ذلك ما في ذكراه وحياته من مثاليات نحن أحوج ما نكون إليها الآن وسط هذه الماديات التي طغت علىٰ حياة البشر، وأصبحت تنذر بعواقب وخيمة.

ولقد استوقفني كثيراً ما كتبه «العقّاد» عن إمام الشهداء وسيد شباب أهل الجنة: الحسين عليه السلام، حيث وصفه بالوفاء والشجاعة كصفتين أساسيتين في حياة هذا الإمام، وممّا جاء في السياق قوله: «لقد اشتهر الحسين مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الإنسانية وأليقهما بشرفه وبيته، وهما: الوفاء والشجاعة، فأمّا عن وفائه فإنّه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن؛ لأنّه عاهد معاوية على المسالمة، وقال لأنصاره الذين حرّضوه علىٰ خلع معاوية: إنّ بينه وبين الرجل عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتّىٰ تمضي المدة. وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معاً... أمّا عن الشجاعة فإنّها صفة لا تُستغرب منه؛ لأنّها الشيء من معدنه كما قيل، وهي فضيلة ورثها عن الآباء، وأورثها الأبناء من بعده. وقد شهد الحروب في أفريقيا الشمالية، وطبرستان، والقسطنطينية[1]... كما

---

١. ولعلّ النصوص التاريخية لا تأيّد اشتراك الإمام الحسين عليه السلام في فتح القسطنطينية عام ٥١ هـ، اذ لم يذكر ←

حضر مع أبيه وقائعه جميعاً، من الجمل إلىٰ صفّين[١]. وليس في بني الإنسان من هو أشجع قلباً ممّن أقدم علىٰ ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء... وقد عاش الإمام الحسين سبعاً وخمسين سنة بالحساب الهجري»[٢].

وبخلاف عملاق الأدب العربي، وما ذكره عن أخصّ صفات الإمام الحسين، انشغل الكثيرون غيره بالغوص في سيرة حياة هذا الإمام الجليل؛ لاستخراج ما بها من صفات أخرى عديدة. فإلىٰ جانب صفتي الوفاء والشجاعة عُرف الإمام الحسين عليه السلام بصفة التواضع، وهو من بيت النبوة العظيم محمد صلى الله عليه وآله.

وممّا رواه ابن عساكر في التاريخ الكبير في هذا السياق قوله: «إنّه مرّ يوماً بمساكين يأكلون في الصّفة، فقالوا: الغداء. فنزل وقال: إنّ الله لا يحبّ المتكبّرين، فتغدّىٰ معهم، ثم قال لهم: قد أجبتكم فأجيبوني، فقالوا: نعم، فمضى بهم إلىٰ منزله، وقال للرباب خادمته: أخرجي ما كنت تدّخرين»[٣].

وهناك بخلاف ذلك عشرات الروايات التي حفل بها التاريخ عن صفات هذا الإمام الجليل، خاصّةً فيما يتعلّق بصفة التواضع التي تحلّىٰ بها طويلاً حتّىٰ يوم وفاته.

والأمر بالنسبة لحياة الإمام الحسين عليه السلام لم يتوقّف عن حدّ الصفات الطيّبة وفقط، بل امتدّ ليشمل علمه الغزير. وفي يقيني أنّ الصفات الطيّبة داخل الإنسان لا يمكن أن تكتمل بغير علم، فكلّما زاد علمه زاد تواضعه وزادت صفاته الحسنة، وهكذا كان الإمام الحسين رضي الله عنه وأرضاه.

وممّا يروىٰ عن علم الإمام الجليل ـ كما ذكر بعد ذلك العديد من المراجع ـ أنّ

← أحد ما عدا ابن كثير في البداية ٨: ٥٨ و ٢٢٩ ذلك، فضلاً عن أنّ المعروف عنه عليه السلام عدم اتّصاله بمعاوية، ولا تردّده إلىٰ الشام من سفر أو غيره.

١. انظر البداية والنهاية ٨: ١٥٠، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨٤.

٢. أبو الشهداء الحسين بن علي: ١٤٢ وما بعده.

٣. تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٨١ برقم ١٥٦٦ مسنداً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

الناس كانوا يقدمون على الحسين وينتفعون بما يسمعونه منه، ويضبطون ما يروونه عنه، فمن أقواله:

«لاتتكلّف ما لاتطيق، ولاتنفق إلّا بقدر ما تستفيد».

«حوائج الناس إليكم من نِعَم الله، فلا تملّوا النعم فتعود نقماً».

وقال: «صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عن سؤالك، فأكرم وجهك عن ردّه».

وكان عليه السلام مخلصاً لله في عبادته، كثير التعبّد... وقد تواترت الأقوال في كثيرٍ من المراجع أنّ الحسين عليه السلام كانت له صلوات، يؤدّيها في اليوم والليلة، غير الصلوات الخمس المفروضة.

وصف الضريح

نستخدم لفظ «الضريح» بدلاً من لفظ «المقبرة»، خاصّةً ونحن نتحدّث عن المكان الذي دفن فيه رأس الإمام الحسين عليه السلام بالقاهرة.

ذلك لأنّ هذا الإمام الجليل لم يدفن رأسه في التراب أو داخل المقبرة، وإنّما قد وضعت في تابوت من بعد رحلتها عبر المدن الإسلامية السابق الإشارة إليها، هذا التابوت الموجود حالياً داخل المقبرة هو نفسه الذي وضعت فيه الرأس الشريفة داخل حفرة صُنعت خصيصاً لهذا التابوت، وقد أقيم بناء تمّ تمييزه بقبّة، حيث المكان الموجود حالياً خلف مسجد الإمام الحسين عليه السلام.

ولقصة إنشاء هذه المقبرة أو هذا الضريح تفاصيل كثيرة اهتمّ بها العديد من المؤرّخين ومن الدارسين ومن رجال الآثار، وذلك علىٰ مرّ العصور، منذ استقرار هذا الرأس الشريف داخل هذا الضريح في عام ١١٥٣م.

قال ابن جبير في هذا الوصف: «فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو في تابوت من فضّة

ومدفون تحت الأرض، وقد بني عليه بنيان يقصر الوصف عنه، ولا يحيط به الإدراك، مجلّل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض، ومنه ما هو دون ذلك، وقد وضع أكثره في أتوار فضّة خالصة، ومنها مذهّبة، وعلّقت عليه قناديل فضّة، وحُفَّ أعلاه بأمثال التفافيح ذهباً في مصنع شبيه الروضة، يقيد الأبصار حسناً وجمالاً. وفيه أنواع الرخام المجزَّع، الغريب الصنعة، البديع الترصيع، ممّا لايتخيّله المتخيّلون.

والمدخل إلىٰ هذه الروضة علىٰ مثال المسجد في التألّق والغرابة، وحيطانه كلّها رخام على الصفة المذكورة، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها، وهما أيضاً علىٰ تلك الصفة بعينها، والأستار البديعة من الديباج معلّقة على الجميع»[١].

وفي عصر الدولة العثمانية أمر السلطان خان بتوسيع ذلك المسجد، كما عنىٰ الوالي العثماني آنذاك السيد محمد باشا الشريف في عام ١٠٠٤هـ /١٥٩٥م بترميم المشهد الحسيني، وإصلاح زخارفه.

أمّا الأمير حسن كتخدا فقد وسّع المشهد وزاد مساحته، ووضع له تابوتاً من أبنوس مطعّم بالصدف والعاج، كما جعل عليه ستراً من حرير مزركش، نُقل إلىٰ الضريح في احتفالٍ كبيرٍ، ذكره الجبرتي في تاريخه[٢].

أمّا في عام ١١٧٥هـ /١٧٦١م فقد أعاد الأمير عبدالرحمان كتخدا بناء المسجد الحسيني[٣]، وفي عصر الوالي عباس الأول تمّ شراء الأملاك اللازمة لتوسيع المسجد، فهدمها وشرع في البناء الذي لم يكتمل في حياته، حيث توفّاه الله.

وفي عام ١٢٧٩هـ /١٨٩٢م أمر الخديوي إسماعيل بتجديد مسجد الحسين وزيادة مساحته، فوضعت المشاريع اللازمة لذلك، كما تمّ فتح شارع السكّة الجديدة،

---

١. رحلة ابن جبير: ١٩.

٢. تاريخ عجائب الآثار ١: ١٧٠ حوادث سنة ١١٤٠هـ.

٣. انظر المصدر السابق: ٤٩٢ حوادث سنة ١١٩٠هـ.

وروعي في التجديد ترك القبّة علىٰ حالها، كما نقل إلى المسجد منبراً جميلاً من جامع «أزبك بن ططخ» بالأزبكية، كما اشترى الخديوي إسماعيل الأعمدة الرخامية بالمسجد من استانبول علىٰ حسابه الخاصّ، وتمّ الانتهاء من بناء المسجد في عام ١٢٩٠هـ /١٨٧٣م.

وفي عام ١٣١٦هـ /١٨٩٨م أمر الخديوي عباس الثاني بإعادة نقوش القبّة إلى ما كانت عليه، وتمّ فتح نوافذ جديدة داخل الضريح. كما تمّ في عهد هذا الخديوي إنشاء قاعة للآثار النبوية داخل ضريح الإمام الحسين، وذلك بعد أن بقيت تلك الآثار لستّ سنواتٍ محفوظة في دولاب جميل صُنع لهذا الغرض خصّيصاً، وكان هذا الدولاب يوجد بالطرف للجدار الشرقي للمسجد. كما جعل لهذه القاعة باب موصل إلىٰ شرقي المسجد.

وفي عهد الملك فؤاد وابنه فاروق[١] حدثت إضافات علىٰ المسجد الحسيني، منها: تجديد أستار الضريح. أمّا بعد ثورة يوليو فقد زيدت مساحة المسجد حتّىٰ بلغت ٣٣٤٠ متر مربع بعدما كانت مساحته ١٥٠٠ متر فقط.

وممّا هو ملاحظ فيما يخصّ ضريح الإمام الحسين ـ وفق إجماع المؤرّخين ورجال الآثار ـ أنّه لم يتبقّ من المشهد الفاطمي للإمام الحسين سوى أحد أبوابه المعروف باسم الباب الأخضر، والذي يقع بالقرب من الركن الجنوبي للضريح. وتؤكّد الدكتورة سعاد ماهر: أنّ هذا الباب يعدّ من أقدم أجزاء ضريح الإمام الحسين، والذي شيِّد تقريباً في وقت وصول الرأس الشريف إلى مصر[٢].

---

١. فاروق بن أحمد فؤاد بن إسماعيل (الخديوي)، آخر من حكم مصر من أُسرة محمد علي، وآخر من لقّب بالملك فيها. ولد بالقاهرة سنة ١٣٣٨هـ وتعلّم بها، ثم بفرنسا وانكلترا، خلف أباه فؤاد ملكاً على مصر سنة ١٩٣٦م، وأرغمته ثورة مصر ١٩٥٢م على خلع نفسه، وذهب إلىٰ روما حتّىٰ وفاته سنة ١٣٨٤هـ /١٩٦٥م. (الأعلام ٥: ١٢٨).

٢. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون: ١٣٩.

ويوجد الآن داخل الضريح حجرة التابوت التي بها رأس الإمام الحسين بالطبقة الثالثة من أرضية القبّة، وقد تبيّن من وصف الرحّالة ابن جبير أنّ هذا التابوت كان موجوداً تحت الأرض منذ إنشاء ذلك الضريح[1].

* * *

---

١. انظر رحلة ابن جبير: ١٩.

المرقد الحسيني

الدكتورة سعاد ماهر

في العصر الأيوبي أنشأ أبو القاسم بن يحيىٰ بن ناصر السكري المعروف بالزرزور! منارةً علىٰ باب المشهد سنة ٦٣٤هـ(١٢٣٦م). وهي منارة مليئة بالزخارف الجصّية والنقوش البديعة، وهي تعلو الباب الأخضر، وقد تهدّم معظمها، ولم يـبق مـنها إلّا القاعدة المربّعة، وعليها لوحتان تأسيسيتان. ونصّ الأولى: «الشيخ الصالح المرحوم أبو القاسم بن يحيى المعروف بالزرزور ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، وكان تمامها علىٰ يدي ولده محمد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عفا الله عنه». ونصّ الثانية: «بسم الله الرحمن الرحيم الذي أوصىٰ بإنشاء هذه المئذنة المباركة على باب مشهد السيد الحسين تقرّباً إلىٰ الله، ورفعاً لمنار الإسلام، الحاج إلى بيت الله أبو القاسم بن يحيى بن ناصر السكري المعروف بالزرزور، تقبّل الله منه، وكان المباشر بـعمارتها ولده لصلبه الأصغر، الذي أنفق عليها من ماله بقية عمارتها خارجاً عمّا أوصى به والده المذكور، وكان فراغها في شهر شوال سنة أربع وثلاثين وستمائة».

وقد احترق هذا المشهد في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب[١] سنة ٦٤٠هـ،

---

١. هو أبو الفتوح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر، من كـبار الملوك الأيـوبيين بـمصر، ولد سـنة ←

وكان سبب الحريق كما يرويه المقريزي وأبو المحاسن: «أنّ أحد خزّان الشمع دخل ليأخذ شيئاً فسقطت منه شعلة، فوقف الأمير جمال الدين نائب الملك الصالح بنفسه حتّىٰ طفئ».

وقد قام بترميمه بعد هذا الحريق القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني ووسعه، وألحق به ساقية وميضأة، ووقف عليه أراضي خارج الحسينية قريب الخندق[1].

وفي العصر المملوكي سنة اثنتين وستين وستمائة، رفع إلىٰ الملك الظاهر ركن الدين بيبرس قضية موضوعها: أنّ مسجداً على باب مشهد الحسين ﷺ وإلىٰ جانب مكان من حقوق القصر، بيع وحمل ثمنه للديوان وهو ستة آلاف درهم، فأمر السلطان بردّ الدراهم وأبقى الجميع للمسجد، فاتّسع نطاقه وزاد رونقاً وبهاءً بما صرفه عليه من تلك الأموال.

وفي عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون أمر بتوسيع المسجد، وذلك ببناء إيوان وبيوت للفقهاء العلوية، وكان ذلك عام أربعة وثمانين وستمائة.

وفي العصر العثماني أمر السلطان سليمان خان بتوسيع المسجد، وذلك لمّا رآه من الإقبال العظيم من المصلّين والزائرين، كذلك عنى الوالي العثماني السيد محمد باشا الشريف الذي ولي مصر في سنة ١٠٠٤هـ إلىٰ سنة ١٠٠٦هـ، بترميم المشهد وإصلاح زخارفه، أمّا الأمير حسن كتخدا الجلفي فإنّه وسّع المشهد، وزاد في مساحته، وصنع له تابوتاً من أبنوس مطعّم بالصدف والعاج، وجعل عليه ستراً من الحرير المزركش، نقله إليه في احتفال كبير.

ويصف الجبرتي ذلك الاحتفال فيقول: «لمّا تمّموا صناعته، وضعوه علىٰ قفصٍ

← ٦٠٣هـ، بالقاهرة، ونشأ بها، ولي بعد خلع أخيه العادل سنة ٦٣٧هـ، وضبط الدولة بحزم، عمر مصر ما لم يعمره أحد من ملوك بني أيوب، مات سنة ٦٤٧هـ بناحية المنصورة بمرض السلّ، فنقل إلى القاهرة ودُفن فيها. (الأعلام ٢: ٣٨، مرآة الزمان ٨: ٧٧٥).

١. الحسينية: اسم حيّ من الأحياء الشعبية التي تقع خارج القاهرة.

من جريد وحمله أربعة رجال، وعلىٰ جوانبه الأربعة أربعة عساكر من الفضة المطلية بالذهب، ومشت أمامه طائفة الرفاعية بطبولهم وأعلامهم وبين أيديهم المباخر... حتّىٰ وصلوا المشهد الشريف ووضعوا ذلك الستر على المقام»[1].

وأمّا الأمير عبدالرحمان كتخدا فقد قام بإصلاحات كثيرة، ففي سنة ١١٧٥هـ أعاد بناء المسجد، وعمل به صهريجاً وحنفية بفسحة، وأضاف إليه إيوانين، كما رتّب لسدنته والقائمين عليه مرتّبات كثيرة ظلّ معمولاً بها حتّىٰ سنة ١٢٠٦هـ، حيث أصبحت أوقاف المسجد تحت نظارة السيد محمد أبي الأنوار الوفائي، فألحق بالمسجد ضرراً كبيراً.

ويقول الجبرتي في ترجمة المذكور: «إنّ أبا الأنوار كان له دار بجوار المسجد، ولوجودها قبالة الميضأة والمراحيض كان يتضرّر من سكّانها، فعزم على إبطال دورة المياه من تلك الجهة، فاشترىٰ داراً قبلي المسجد وأدخل فيها جانباً فيه بمقدار باكية، ورفعها درجةً؛ ليميّز الحديث من العتيق، وجعل به محراباً، وأنشأ فيما بقي من الدار الميضأة والمراحيض، وفتح لها باباً من داخل المسجد، وأبطل الدورة القديمة لانحراف مزاجه منها، وتأذّيه من رائحتها»[2].

وتحوّل عبور الناس إلى الميضأة الحديثة من المسجد، ولم تمض أيام قلائل حتّىٰ أضرّت الروائح الكريهة بمن في المسجد من المصلّين والزائرين، وظهرت بالمسجد أقذار البلل من أرجل الأوباش لقربها منه، فغلظ الناس وشنوا القالة، ولم يحضر من أوقات الصلاة من أتراك خان الخليلي والتجّار أحد. ثم قاموا قومةً واحدةً وأغلقوا الباب، وأبطلوا تلك الميضأة والمراحيض الحديثة بالقوة، ومنعوا الناس من الدخول، وساعدهم المنصفون من أجناسهم، فاضطرّ أبو الأنوار ـ كما

---

١. تاريخ عجائب الآثار ١: ١٧٠ حوادث سنة ١١٤٠هـ.

٢. المصدر السابق ٢: ١٣٩ حوادث سنة ١٢٠٦هـ.

يقول الجبرتي ـ إلىٰ إعادة الميضأة القديمة كما كانت، وجعل الحديثة مربطاً للحمير! يستغلّ أجرته بعد أن أزال أثرها.

ولمّا قدم السلطان عبدالعزيز ١٢٧٩هـ وزار المقام الحسيني الشريف، أمر الخديوي إسماعيل بعمارته وتشييده علىٰ أتمّ شكل وأحسن نظام، وقد استغرقت هذه العملية عشر سنوات؛ إذ تمّت سنة ١٢٩٠هـ. وقد أسهب علي مبارك في خططه في وصف الإنشاءات التي قام بها الخديوي إسماعيل، ولم يذكر أنّها تنفيذ لأمر السلطان عبدالعزيز، فقد قال: «وفرش بالفرش النفيسة، وتنويره بالشموع والزيوت الطيّبة والأنفاس الغازية في قناديل البلور، ورتّبوا له فوق الكفاية من الأئمة والمؤذّنين والمبلّغين والبوّابين والفرّاشين والكنّاسين والوقّادين والسقّايين ونحو ذلك، ووقفوا عليه أوقافاً جمّة يبلغ إيرادها نحو الألف جنيه».

وفي بيان مدى الاهتمام بالمسجد الشريف، فيقول: «لمّا رأى أهمّية وازدحام الناس عليه وضيقه؛ لأنّ أرباب مظاهر الدين يسعون من كلّ فجّ على العربات والخيل والبغال والحمير، حتّىٰ تزدحم أبوابه وطرقه، فيضرّ ذلك بالمارّة، خصوصاً في المواسم، ففتح بجواره سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) شارع السكة الجديدة حتّىٰ وصل إلىٰ تلول البرقية».

وكان علي مبارك هو الذي قام بعملية الرسم، إذ يقول: «وندبني لعمل ورسم للجامع يكون به وافياً بمقصده الحسن، فبذلت الهمّة في ذلك، وعملت له الرسم اللائق بعظم شأنه، بحيث لو وضع عليه لكان مبرّاً من العيوب، مع الاتّساع العظيم داخلاً وخارجاً، إذ جعلته منفصلاً من كلّ جهةٍ عن المساكن بشوارع وميادين رحيبة، وجعلت شكله قائم الزوايا، وجعلت حدّه الأيمن بحذاء جدار القبّة الأيسر بالنسبة للمصلّي فيها، بحيث يكون الجداران واحداً، وحدّه الأيسر نهاية الحدّ الأيسر للصحن الذي به الحنفية الآن، ويصير هذا الصحن من ضمن الجامع، وحدّه

الذي به المحراب والمنبر يكون بحذاء جدار القبّة الذي به محرابها، بحيث يكـون الجداران واحداً. والحدّ الرابع الذي يلي خان الخليلي هو الذي له الآن، وجـعلت الصحن والحنفية عن يمين الجدار الأيمن، أعني في محلّ الإيوان القـديم بـجوار عمارة العناني، وتكون عن يمين ذلك المطهرة والساقية بحيث يؤخذ لها بعض من عمارة العناني، فيكون الجامع آمناً من انعكاس الروائح إليـه. وفـي الرسـم صـار الضريح الشريف خارجاً من الجامع في الزاوية التي عن يمين المحراب، داخلاً في الصحن من جهته اليسرىٰ، وجعلت للضريح باباً إلىٰ الجامع، وباباً إلىٰ الصحن، وباباً إلىٰ شارع الباب الأخضر لزيارة النساء، وجعلت سعة الشارع في غربيّه وشـرقيّه نحو ثلاثين متراً، وفي بحريّه نحو أربعين».

أمّا الذي قام بتنفيذ المشروع فكان راتب باشا، إذ كان ناظر الأوقاف يومئذٍ، فقد تسارع في بناء المسجد جميعه ما عدا القبّة والضريح الشريف، وتـمّ البـناء سـنة ١٢٩٠هـ ، أمّا المنارة فقد تمّت سنة ١٢٩٥هـ.

غير أنّ راتب باشا لم يلتزم برسم علي مبارك، ولذلك فإنّه انـتقده نـقداً لاذعاً ـوهو محقّ في ذلك ـ يقول: «إنّ راتب باشا بنى الجامع غير قائم الزوايا، فإنّ ضلعه الأيمن قصير عن ضلعه الأيسر، وكذا الضلعان الآخـران غـير مـتساويين، بـحيث أوجب ذلك وضع الأساطين منحرفة، بحيث لو وافقتها صفوف المصلّين كـما هـو العادة لانحرفوا عن القبلة، ولو سامتوا القبلة كـما هـو المـطلوب لقـطعوا صـفوف الأساطين، وصار الجامع مع سعته وارتفاعه غير مستوفٍ لحقّه من النور والهـواء؛ لسوء رسم الأبواب والشبابيك، وعدم أخذها حقّها من الارتفاع والاتّساع مع قلّتها وقلّة الملاقف».

وقد تكلّفت هذه العمارة ـ علىٰ حدّ قول علي مبارك ـ تسعاً وسبعين ألف جنيه صُرفت من خزينة الأوقاف، هذا عدا ماتبرّع به الأُمراء وعليّة القوم، فقد أحضرت له

العمد الرخام من القسطنطينية، وثلاثة أبواب مبنية من الرخام الأبيض جـهة خـان الخليلي، ومثلها الباب الأخضر الذي بجوار القبّة، وبالجامع منبر خشبي بديع مطليّ بطلاء مذهَّب، وهو في الأصل منبر جامع «أزبك» الذي كان عند العتبة الخـضراء، فلمّا تخرّب المسجد نقل إلى مشهد الحسين. وفي مؤخّرة المسجد دكّة تبليغ كبيرة. أمّا صحن الجامع فيحتوي على أربعة وأربعين عموداً عليها بوائك حاملة للسقف، وهو من الخشب المطليّ بزخارف نباتية وهندسية متعدّدة الألوان، ومذهَّبة غاية في الدقّة والإبداع. وفي وسط السقف ثلاثة مناور مرتفعة مسقوفة كـذلك، وبـجدران المسجد الأربعة يوجد ثلاثون شبّاكاً كبيراً من النحاس المطليّ بالذهب، ويعلوها شبابيك أخرى صغيرة دوائرها من الرخام.

وللمسجد مئذنتان: إحداهما قصيرة وقديمة، وهي التي بناها أبـو القـاسم ابـن يحيىٰ بن ناصر السكري المعروف بالزرزور سنة ٦٣٤هـ(١٢٣٦م) فوق القبّة ـ كما سبق أن أشرنا ـ وقد طوّقتها لجنة حفظ الآثار بحزامين من الحديد محافظةً على بقائها. أمّا المئذنة الثانية فتقع في مؤخّر المسجد، وهي مرتفعة ورشيقة على الطراز العثماني الذي يشبه المسلّة أو القلم الرصـاص، وعـليها لوحـان بـخطّ السـلطان عبدالمجيد خان، كتبهما سنة ١٢٦٦هـ، بأحدهما سورة الأنعام الآية (٩٠): ﴿أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

والآخر: «أحبّ أهل بيتي إليَّ: الحسن والحسين»[١].

كذلك فرشت أرضية مصلّى الباب الأخضر بالسجّاد والبسط التركية، وبشرقي المسجد باب موصل إلىٰ قاعة الآثار النبوية، التي أنشأها عباس حلمي الثاني سنة ١٣١١هـ بعد أن بقيت هذه الآثار ستّ سنوات محفوظة في الدولاب الجميل الذي

---

١. أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال ٤: ٤٦١ برقم ٩٨٥٥ عن أنس، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٢: ١١٦ برقم ٣٤٢٦٥ وعزاه إلىٰ الترمذي عن أنس.

صنع سنة ١٣٠٥هـ في الطرف الجنوبي للجدار الشرقي للمسجد، وهي قاعة متّسعة الأرجاء، مفروشة بالسجّاد الدقيق الصنع، المستورد من إيران وتركيا، تضاء بالمصابيح والثريات البلورية النادرة، وقد كُسيت جدرانها بالرخام (المجزع) وبها محراب صغير، وسقفها من الخشب المنقوش، ونوافذها من الجصّ المخرّم والمعشّق بالزجاج الملون.

أمّا دولاب الآثار الشريفة فقد وضع في الجهة القبلية من القاعة، وهو عبارة عن فجوة كبيرة في الجدار، قوي ظهرها بقضبان من الحديد، وقد كُسيت جدرانها وأرضيتها وسقفها بالجوخ[١] الأخضر، وفي سطحها لوح من الزجاج لتوضع فوقه باقي الأمانات، وقد عمل لهذه الفجوة باب من خشب الجوز المطعّم بالعاج والصدف والأبنوس، وكتب بأعلاه بأحرف من العاج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وللقاعة الشريفة بابان: أحدهما إلى المسجد، والآخر يؤدّي إلىٰ القبّة. وقد كتب على جدران الغرفة من الداخل على الرخام البسملة وسورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ وبعد ذلك النصّ الآتي: «ذكر ما هو محفوظ بهذه الخزانة المباركة من آثار المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وآثار خلفائه رضي الله عنهم أجمعين. تشتمل هذه الخزانة من الآثار النبوية على قطعة من قميصه الشريف، ومكحلة ومرود، وقطعة من القضيب، وشعرتين من اللحية الشريفة. وبها أيضاً مصحفان كريمان بالخطّ الكوفي، أحدهما بخطّ سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، والآخر بخط سيدنا الإمام علي كرّم الله وجهه. ذكر ما تركه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم وفاته ثوباً حَبِرَة وإزار عماني، وثوبان صحاريان، وقميص صحاري، وقميص سحولي، وسراويل، وجبّة يمنية، وخميصة، وكساء أبيض، وقلانس، وفدك، وثلث أرض وادي القرىٰ، وسهم وخمس أرض خيبر، وحصته من أرض بني النضير».

---

١. الجُوخ: نسيج من الصوف، فارسية، والقطعة منه جوخة.

أمّا في عهد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م، فقد عُنيت عنايةً خاصةً بتجديد مسجد الحسين وزيادة مساحته، وفرشه وإضاءته، حتّىٰ يتّسع لزائريه والمصلّين به.

فقد كان المسجد القديم يضيق بهم، وخاصةً في المواسم والأعياد، فزيدت مساحته حتّىٰ بلغت ٣٣٤٠ متر مربّع، بعد أن كانت مساحته ١٥٠٠ متر مربّع، أي بإضافة ١٨٤٠ متر مربّع إليه، وقد أخذت أبعاد الأروقة وقطاعات العقود، وكذا النوافذ والأبواب التي استجدت من الطبيعة حتّىٰ جاءت التوسعة كامتداد طبيعي للمسجد القديم.

وقد روعي كذلك أن تكون المباني مشابهة للقديم، ومن نفس الخامات بقدر الإمكان، فقد بُنيت الجدران التي يبلغ سمكها ٨٠ سم من الحجر المتخلّف (من المباني القديمة) من الخارج والآخر من الداخل، كما كُسيت الحوائط من الداخل بمونة الحجر الصناعي حتّىٰ تكون مضاهية للحوائط القديمة.

وقد أُضيف للمسجد مبنىً مكوَّن من دورين، خاصّاً بإدارة المسجد، يقع في الجهة الشرقية منه بجوار غرفة المخلّفات، كما أُنشئت مكتبة خاصّة بالمسجد تبلغ مساحتها ١٤٤ متر مربّع في الجهة الشرقية أيضاً، على امتداد القبّة والمصلّى الخاص بالنساء.

ولمّا كانت الواجهة الرئيسية للمسجد القديم ـ وهي الواجهة القبلية ـ ليست على استقامة واحدة، فقد أُضيف إليها مثلث في الطرف الجنوبي الشرقي مساحته ٣٥ متراً مربعاً، فجاءت الواجهة الرئيسية على استقامة واحدة، وبدأت هذه التجديدات سنة ١٩٥٩م، وتمّت سنة ١٩٦٣م، وبلغت جملة تكاليفها ٨٣ ألف جنيه، هذا بالإضافة إلى السجّاد اليدوي الذي صُنع خصيصاً بمدينة المحلّة الكبرىٰ، والذي بلغت تكاليفه ما يقرب من ٤٠ ألف جنيه.

هذا وقد اعتمدت وزارة الأوقاف مبلغ ٤٠ ألف جنيه لإقامة واجهة جديدة تتقدّم الواجهة القديمة، تليق وصاحب المقام، خاصّةً بعد أن أُزيلت كل المباني التي كانت تحجبه عن الميدان الذي خطّط خصّيصاً من أجله، وسيكون طول هذه الواجهة ٤٥ متراً وعرضها ٨ أمتار، وروعي في الواجهة الجديدة أن تكون أقصر

من القديمة، حتىٰ تظهر شرفات الواجهة القديمة.

وقد صُمِّمت هذه الواجهة بحيث جاءت آيةً في الدقّة والإبداع، وتتكوّن الواجهة من حائط تزخرفه سبعة عقود مدبّبة، يرتكز كلٌّ منها على عمودين من الرخام، ويحيط بهذه العقود شريط من الزخارف الجصّية البديعة، ويستعمل ثلاثة من هذه العقود كأبواب، أمّا الأربعة الباقية فهي نوافذ مملوءة بالرنز المخرّم، وكذا النصف العلوي من الأبواب، وتتدلّى من الحوائط المحصورة بين العقود مشكاوات بديعة التصميم، ويعلو كلٌّ منها دائرة من الزخارف الجصّية في توازن وتماثل محكم.

وستقام مئذنة في الطرف الجنوبي الشرقي، مماثلة للمئذنة الموجودة في الطرف الجنوبي الغربي ومن نفس الطراز. كما صنع منبر جديد للمسجد من الخشب العزيزي والجوز التركي والزان، ويتكوّن من حشوات مجمّعة ومطعّمة بالصدف والعاج والأبنوس، وقد بلغت تكاليفه ١٥٠٠ جنيه. ورصدت الوزارة كذلك مبلغ ٥٠ ألف جنيه لإقامة دورة مياه جديدة تقع في الجهة البحرية من المسجد. وقد أهدت «طائفة البهرة» مقصورةً من الفضّة كتب عليها «بسم الله الرحمن الرحيم» ورُصِّعت بفصوص من الماس، وذلك سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.



القبّة:

يقول الأستاذ «كرزويل» الذي قام بالكشف على المشهد من الناحية المعمارية: إنّ القبّة كلّها ترجع إلىٰ منتصف القرن التاسع عشر فيما عدا الضريح الشريف، وهذا يؤيّد ما ذهب إليه «الجبرتي» و«علي باشا مبارك»، فقد ذكر: أنّ عبدالرحمان كتخدا أعاد بناء الضريح الشريف سنة ١١٧٥هـ كما هو ثابت على العتب الرخامي ونصّه:

مسجد للحسين أصل المعالي لا يضاهيه في البقاع علا

فيه فضل الرحمن للعبد نادي زر وأرّخ لك الهنا والرضا

والقبّة ليست مربعة تماماً، ولكنّها تميل إلىٰ الاستطالة قليلاً، ولذلك فقد كانت هناك صعوبة في إقامتها، أمكن التغلّب عليها بفتح نافذة ذات ثلاث فتحات بين المثلثات الكروية الموجودة في أركان الضلع القصير، ونافذة ذات ستّ فتحات بين المثلثات الكروية الموجودة في أركان الضلع الطويل. وقد غطّيت فتحات النوافذ بجصّ مخرّم ومعشّق بزجاج ملون، وتتكوّن زخارف النوافذ الجصّية من كتابات نسخية كلّها آيات قرآنية وأحاديث نبوية. أمّا القبّة فإنّها ترتكز علىٰ عقود نصف دائرية ومقرنصات في الأركان شبه دائرية، وكل هذه الأجزاء مزخرفة بنقوش زيتية غاية في الدقّة، تشبه إلىٰ حدٍّ كبيرٍ تلك النقوش التي عملها «علي بك الكبير» في قبّة الإمام الشافعي، فهي بذلك عثمانية الطراز، وفوق المحراب نقشت قصيدة بماء الذهب كتبها الخطّاط البلخي سنة ١١٨٧هـ، ومطلع القصيدة:

ألا إنَّ تقوى الله خير البضائع   ومَن لازم التقوى فليس بضائع

كما نجد نفس التاريخ منقوشاً على الشريط الذي يحيط بقاعدة القبّة، ومعنىٰ ذلك: أنّ هذه الزخارف عملت بعد اثنتي عشرة سنة من العمارة التي قام بها عبدالرحمان كتخدا.

علىٰ أنّ أقدم أجزاء الضريح هو الباب الذي يُعرف بالباب الأخضر، ويقع بالقرب من الركن الجنوبي للضريح، وبالركن الجنوبي الغربي بالنسبة لجدار القبّة، وهو عبارة عن حائط طوله ٤/٩٢ متر وارتفاعه ٥/٨٥ متر، تخترقه بوّابة مستطيلة الشكل عرضها ١/٨٩ وارتفاعها ٢/٣٣ متر. ويعلو البوابة عقد عاتق به حنية، بداخلها دائرة مفرغة بزخارف دقيقة، وتعلوها بقايا شرافات جميلة، وتشبه هذه البوابة وزخارفها باب جامع الأقمر[١].

ولذا فإنّ «كرزويل» يرجع هذا الجزء إلىٰ آخر العصر الفاطمي، ومعنى ذلك: أنّ

---

١. مسجد من المساجد الفاطمية، جدّدته طائفة البهرة.

هذا الجزء يرجع تاريخه إلىٰ تاريخ مجيء الرأس الشريف إلىٰ مصر تقريباً، وقد عرف هذا الباب باسم «المحسنين» كما ورد في خريطة الحملة الفرنسية، أمّا الآن فإنّه يعرف بالباب الأخضر.

وفوق هذا الباب توجد مئذنة قصيرة ترجع إلىٰ العصر الأيوبي، فقد ثبت عليها لوحة تذكارية مؤرَّخة ٦٣٤هـ، وسبقت الإشارة إليها، والمئذنة مبنية بالآجر، وتتكوّن من مربّع طول ضلعه ٢/٥٠ متر، وارتفاعه ١٢/٧٦ متراً ينتهي بقاعدة مثمَّنة الشكل، تقوم عليها الدورة الثانية للمئذنة، وهي مثمَّنة الشكل، وارتفاعها ٢/٥٠ متر، وفي كلّ وجهٍ من أوجه المثمَّن توجد فتحة طويلة، ويعلو هذه الدورة رقبة مثمَّنة تعلوها قبّة مضلّعة يبلغ ارتفاعها مع الرقبة ٢/٣٠ متر، وعلىٰ ذلك يكون ارتفاع المئذنة كلّه ١٧/٥ متر.

أمّا مربّع القبّة من الداخل فقد كُسيت واجهته المطلّة على المسجد بالرخام الدقيق المطعَّم بفسيفساء من الصدف، وكذا غطّي محيطها من الداخل بالرخام والصدف في رسوم هندسية غاية في الدقّة والإبداع، وترجع هذه الآثار الرخامية والصدفية إلىٰ القرن الثامن الهجري.

أمّا الأجزاء العليا من مربّع القبّة فقد زخرف بنقوش زيتية مذهَّبة تشبه تلك التي نقشت على القبّة نفسها، وكلّها ترجع إلىٰ القرن الثاني عشر الهجري، ثم جدِّدت هذه النقوش سنة ستّ عشرة بعد الثلاثمائة والألف، وقد سجِّل على الباكية الشريفة ما يأتي:

ركن هذا المقام جنّة عدن فما ... من أتاه يفوز بالمأمول
ركن هذا المقام ركن سديد ... نال فيه الداعون حسن القبول
ركن هذا المقام كعبة مصر ... زاد مجداً بالسيد ابن البتول
ركن هذا المقام حاز فخاراً ... بالإمام الحسين سبط الرسول

وتحتوي القبّة علىٰ أربعة أبواب، بابين في الجهة الغربية يؤدّيان إلى المسجد،

وباب بجوار المحراب سد الآن بأعلاه، كُتِب بالخطّ الثلث البارز الجميل المذهّب على الرخام: «الإجابة تحت قبّته، والشفاء في تربته، والائمة في ذرّيته وعـترته». وباب يؤدّي إلىٰ غرفة الآثار كُتب بأعلاه: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾.

كذلك كتب الشيخ عبدالله الشبراوي عام ١١٥٦هـ أبياتاً من الشعر على البـاب الخارجي نصّها:

يــا كــرام الأنــام يــا آل طــه ... عــلىٰ مــن يــهيم فـيكم غـلام

ركن هذا بابكم كعبة الهدىٰ وحماكم ... مــنهل فــيه للأنــام ازدحــام

بــاب فــضل لمــا ســما أرّخــوه ... مــن دنــا نــحو بـابكم لا يـضام

رضــى الله عــنكم آل طــه ... وصــلاة مــنّي لكـم وســلام

وفي العمارة التي قام بها السيد علي أبو الأنوار، والتي سـبقت الإشـارة إليـها، أجرى فتح باب الجهة البحرية للقبّة، وله مصراعان من النحاس المـخرّم بـنقوش جميلة، بتواشيح الباب أربع دوائر كتب فيها على التوالي: لا إله إلّا الله محمد رسول الله، الإمام علي، الإمام الحسين، الإمام الحسن.

ويعلو الباب عتبان كُتب علىٰ أحدهما:

أنشأ عــلي أبـو الأنـوار سـيدنا ... باباً لسبط رسول الله ذي الرشـد

وحسن أشـراف نـور الله أرّخـه ... باب حماة عـظيم الجـاه والمـدد

وقد غُطِّيت كلّ الأبواب والنوافذ بستار من الحرير الأخضرالجميل، وفي وسط القبّة توجد المقصورة، علىٰ بابها أربع حلقات من الفضّة النقية الخالصة:

لن يخيب اليوم من رجائك من ... حـرّك مـن دون بـابك الحـلقه

وحول المقصورة توجد مشكـاوات مـن الزجـاج المـموّه بـالميناء المـنقوشة بزخارف جميلة، ومكتوب عليها اسم الملك الظاهر أبي سعيد، كما تحتوي عـلىٰ كتابات قرآنية ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويبلغ عدد هذه المشكاوات ثلاثاً

وعشرين. كانت قيمتها في ذلك الوقت أكثر من ألفي دينار.

وبالقبّة قبلة قديمة محلّاة بقطعٍ من الفسيفساء الرخامية، ويكتنفها عمودان من حجر السماق، وبجانبها قاعدتان من الرخام كانتا معدّتين فيما مضىٰ لوضع الشموع، ومكتوب فوق القبلة قصيدة مطلعها:

ألا إنّ تقوى الله خير البضائع ومن لازم التقوىٰ فليس بضائع

وسبق أن ذكرنا: أنّ جميع جدران القبّة مكسوّة بالرخام الملوّن الجميل إلى ارتفاع نحو قامتين، وفوق ذلك ألواح من الخشب المطلي بنقوش زيتية متعدّدة الألوان، ومذهَّبة، وبأعلى النقوش كُتب عليها قصيدة الإمام ابن جابر الأندلسي المشهورة، والتي مطلعها:

في كلّ فاتحة للقول معتبره حقّ الثناء على المبعوث بالبقره

وهي مكتوبة بالخطّ الثلث المذهَّب، وتحيط بالقبّة وتعلوها قصيدة أُخرى، يقال: أنّها تُنسب إلى الحسين عليه السلام، ويقول الشيخ الببلاوي: إنّها لسان حاله، ومطلعها:

خيرة الله من الخلق أبي بعد جدّي وأنا ابن الخيرتين
عبدالله غلاماً ناشئاً وقريش يعبدون الوثنين
والدي شمس وأُمي قمر وأنا الكوكب بين النيّرين

وفوق القصيدتين شريط من الخشب يحيط بالقبّة كُتب عليه سورة «الفتح» من القرآن الكريم.

أمّا حجرة التابوت فهي تقع في الطبقة الثالثة من أرض القبّة، وقد وضعت الرأس فيها علىٰ كرسي من الأبنوس، وهي ملفوفة في برنس أخضر، وحولها نحو نصف أردب من الطيب الذي لا يفقد رائحته بتوالي السنين، وفوق الحجرة طبقة أخرىٰ يسلك إليها من فجوتين على كلّ فجوةٍ باب متين.

والحجرة مسقوفة بقضبان من الحديد الصلب، وتحتوي علىٰ مكان فسيح، بحدّه

الشرقي باب يوصل إلىٰ الحجرة المباركة التي تحتوي على القبر الشريف، وبها تابوت من خشب الساج الهندي، ويحتوي التابوت علىٰ ثلاثة جوانب فقط؛ لأنّ التركيبة التي تحيط به كانت ملتصقة بالجدار الشرقي، ولمّا تصدّع بعض جدران الروضة الشريفة قامت وزارة الأوقاف سنة ١٣٢١هـ بترميمها وإعادتها إلىٰ حالتها الأولىٰ، كما أُخرج التابوت الخشبي ورُمِّم وأُعيد إلىٰ حالته الأولىٰ، وهو محفوظ الآن بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

وقد عنىٰ حسن عبدالوهاب بدراسة وقراءة ما نقش عليه من النصوص القرآنية والإحاديث النبوية دراسةً مستفيضةً.

ويبلغ طول التابوت ١/٨٥ متر وعرضه ١/٣٢ متر وارتفاعه ١/٣٥ متر، وهو مكوَّن من جنب ورأسين، ومقسَّم إلىٰ مستطيلات رأسية وأُفقية، يحيط بها أشرطة تحتوي علىٰ كتابات، بعضها بالخطّ الكوفي، والبعض الآخر بالخطّ النسخي الذي انتشر في مصر في العصر الأيوبي. أمّا زخارف هذه الحشوات فهي عبارة عن نقوش نباتية غاية في الروعة والإتقان، ويحيط بالحشوات السداسية شريط من الخطّ الكوفي به كلمات منها «الملك لله»، «وما توفيقي إلّا بالله»، «ثقتي بالله»، «نصر من الله وفتح قريب»، «العزّة لله»، «وما بكم من نعمة فمن الله»...الخ.

ويقول حسن عبدالوهاب: «إنّ هذا التابوت يشبه إلىٰ حدٍّ كبير تابوت الإمام الشافعي، ممّا يدلّ علىٰ أنّه معاصر له، ولذلك فإنّه يرجِّح أنّهما صُنعا في عصرٍ واحدٍ، وبيد صانعٍ واحدٍ» وبما أنّ تابوت الإمام الشافعي مؤرَّخ سنة ٥٧٤هـ، أي أنّه صنع صلاح الدين الأيوبي، لذلك يرجّح حسن عبدالوهاب أنّ تابوت الإمام الحسين صُنع بأمر صلاح الدين؛ ذلك لأنّه عنى عنايةً خاصةً بمشهد سيدنا الحسين، وأنشأ مدرسةً بجواره.

❊ ❊ ❊

الإمام الحسين عليه السلام [1]

مأمون غريب

في ذكرى مولانا الإمام الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيّد شباب أهل الجنّة، نتذكّر قصّته الخالدة عندما خرج وفي ذهنه أن يقوّض حكم بني أُمية، ويعيد للخلافة صفاءها ورواها، لكنّه استشهد في كربلاء، ولاقىٰ من أعدائه ما لم يمكن تصوّره من الخسّة والنذالة، وعدم مراعاة لحرمة البيت النبوي.

ولاشكّ أنّ الإمام الحسين له مكانة كبيرة في قلوب الناس وعقولهم، فهو حفيد الرسول صلى الله عليه وآله، وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوه علي بن أبي طالب صاحب المواقف المشهودة مع رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وآله: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبي بعدي» رواه البخاري ومسلم[2].

وهناك أحاديث كثيرة تشيد بالحسين[3]، ومدى حبّ الرسول صلى الله عليه وآله له، فقد عاش

---

١. مقتبس من كتاب «الإمام الحسين حياته واستشهاده» ط. القاهرة.

٢. صحيح البخاري ٣: ١٣٥٩ رقم ٣٥٠٣ كتاب فضائل أصحاب النبي باب (٩) فضائل علي، و٤: ١٦٢ رقم ٤١٥٤ كتاب المغازي، غزوة تبوك، صحيح مسلم ٤: ١٨٧١ رقم ٢٤٠٤ وما بعده، كتاب فضائل الصحابة باب (٤) فضائل علي بن أبي طالب.

٣. فقد تضافرت النصوص الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن الحسين عليه السلام وهي تبرز المكانة الرفيعة التي ←

الحسين خمس سنوات في ظلّ النبوّة... كثيراً ما كان يحمله الرسول ﷺ على ظهره، وكثيراً ما كان وأخوه الأكبر الحسن يقفزان علىٰ ظهر الرسول الكريم ﷺ أثناء سجوده، فيطيل السجود حتّىٰ ينزلا من علىٰ ظهره.

وقد ولد الحسين في شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة علىٰ أرجح الأقوال، وسعد به الرسول ﷺ.

ويقول الرواة: إنّ السيدة أم الفضل بنت الحارث رأت في منامها أنّ في بيتها طرفاً من رسول الله ﷺ، فذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ ليفسّر لها هذه الرؤيا، فقال لها: «... هو ذاك»...فولدت فاطمة حسيناً فأرضعته أم الفضل حتّىٰ فُطم[1].

وقد أمر الرسول ﷺ بحلق رأس الحسين، وتصدّق بزنته فضة، وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يضع يده الشريفة في فمه ليمتصّها... وكثيراً ما كان يغذّيه، وكان يخشىٰ عليه هو وأخيه الحسن من الحسد، فكان يعوّذهما قائلاً:

«أُعيذكما بكلمات الله التامّة من كلّ شيطانٍ وهامة، ومن كلّ عينٍ لامّة»[2].

وقد تربّى الحسين بن علي في ظلّ بيت النبوة، وتعلّم كيف يكون عليه دينه، وكيف يعامل الآخرين علىٰ ضوء تعاليم الإسلام، فشرب العلم من جدّه ومن أُمه فاطمة الزهراء، ومن والده.

← يمثّلها في دنيا الرسالة والأُمة. راجع كتب الصحاح والسنن، في فضائل الصحابة، الباب الذي يتعلّق بمناقب وفضائل الحسين بن علي عليه السلام وأخيه الأكبر الحسن عليه السلام. ومن الكتب الشيعية المهمّة التي روت هذه النصوص، انظر علىٰ سبيل المثال: إعلام الورىٰ بأعلام الهدى: الركن الثالث، الفصل المختصّ بذكر الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، وكتاب عيون أخبار الرضا للصدوق ابن بابويه القمي، والإرشاد للمفيد، وبحار الأنوار: المجلدان (٤٤) و(٤٥) المختصّان بذكر تاريخ هذين الإمامين... وغير ذلك ممّا يطول ذكره.

١. رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ترجمة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، وذكر رواية أم الفضل الطبراني في المعجم الكبير ٢٥: ٢٢ برقم (٣٨) مسنداً عن قابوس بن المخارق، والطبرسي في اعلام الورىٰ: ٢٢٥ الفصل الثالث نقلاً عن الأوزاعي.

٢. أخرجه أبو داود في السنن ٤: ٢٣٥ برقم ٤٧٣٧ كتاب السنّة، والحاكم في المستدرك ٣: ١٦٧، والإمام أحمد في المسند ١: ٢٧٠ عن ابن عباس.

وقد نصحه والده الإمام علي عليه السلام بقوله في خطبة طويلة يحثّه فيها علىٰ ما ينبغي أن يكون عليه كشخصٍ يراقب الله في سرّه وعلانيته، ويراقب الناس في خلقه، ويبصّره بالتجارب التياستفاد منها في حياته. ومن هذه النصائح الغالية التي استوعبها الإمام الحسين بلاشكّ: قول الإمام علي:

«يا بني، أُوصيك بتقوىٰ الله عزّ وجلّ في الغيب والشهادة، وكلمة الحقّ في الرضا والغضب، والقصد في الغنىٰ والفقر، والعدل في الصديق والعدوّ، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله تعالى في الشدّة والرخاء...

يا بني، ما شرّ بعده الجنّة بشرّ، ولا خير بعده النار بخير، وكلّ نعيم دون الجنة محقور، وكلّ بلاء دون الناس عافية...

واعلم يا بني، إنّ من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره، ومن تعرّىٰ من لباس التقوىٰ لم يستتر بشيء من اللباس أبداً، ومن رضي بقسم الله تعالى لم يحزن علىٰ ما فاته، ومن سلّ سيف البغي قُتل به، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم الغمرات غرق، ومن أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنىٰ بعقله ذلّ، ومن تكبّر على الناس ذلّ، ومن سفّه عليهم شُتم، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم، ومن خالط الأنذال حُقِّر، ومن جالس العلماء وُقِّر، ومن فرح استُخِفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن كثر كلامه كثر خطأه، ومن كثر خطأه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار».

إلىٰ آخر هذه النصيحة الغالية التي ركّز فيها الإمام علي على الفضائل الإنسانية، ونهىٰ فيها عن الرذائل التي تفقد الإنسان وزنه في دنيا الناس، والتي اختتمها بقوله:

«واعلم يا بني... من لانت كلمته وجبت محبّته، ومن لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولىٰ به من الحياة... لا تتمّ مروءة الرجل حتّىٰ لايبالي أيّ ثوبيه لبس، ولا أيّ طعاميه أكل. وفّقك الله لرشده، وجعلك من أهل طاعته بقدرته إنّه جواد كريم».

كلّ هذه القيم والشمائل التي تربّىٰ عليها الإمام الحسين، جـعلت مـنه إنسـاناً متكاملاً في أخلاقه، صاحب شخصية قوية آسرة، محبوباً من الناس.

كان الإمام الحسين تقيّاً... بليغاً... ونقيّاً... صاحب مـروءة... ومـحبّاً للـخير... عزوفاً عن الشرّ، فقيهاً في أمور دينه، جواداً كجدّه العظيم، بجانب وسامته الفائقة، فقد كان شبيهاً بجده ﷺ.

وما أكثر ما قاله الرواة عن شخصية الحسين المحبوبة من الناس! وما أكثر ما ساقوه عن تواضعه وهيبته وقوة منطقه! وما أكثر الروايات التي ساقها الرواة عـن مدى احترام الصحابة وأبناء الصحابة لشخصية الحسين.

الرواة يروون مثلاً عن فصاحته وبلاغته فيسوقون مثالاً عن حديثه لأبي ذرّ ﵁ الذي هاجم الترف الذي يعيش فيه معاوية وبنو أُمية، فنفاه معاوية عندما كان والياً على الشام، ونفاه الخليفة عثمان بن عفان من المدينة، فـقال الحسـين للـصحابي الجليل المغلوب على أمره: «يا عماه! إنّ الله قادر أن يغيّر ما قد ترىٰ، والله كلّ يوم في شأن... وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك، وما أغناك عمّا منعوك، وأحوجهم إلىٰ ما منعتهم، فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فإنّ الصبر من الدين والكرم، وإنّ الجشع لايقدّم رزقاً، والجزع لايؤخّر أجلاً»[١].

هذه الكلمات اللغوية الرائعة التي تنبئ عن عقليةٍ متفتّحةٍ واعية، قـالها الإمـام الحسين وكان عمره ثلاثين عاماً!

ويروي الرواة عن جوده وكرمه الكثير، ومن ذلك أنّ أُسامة بن زيد أقعده المرض، وذهب الإمام الحسين لزيارته فوجده شديد الحزن، لا لخوفه من الموت، ولكن لأنّ عليه ديناً يخشىٰ أن يموت دون أن يقدر علىٰ سداده، وكان الدين ثقيلاً علىٰ أُسامة، فسدّده الإمام الحسين حتّىٰ يلقىٰ أُسامة وجه ربّه وهو قرير العين والفؤاد[٢].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨: ٢٧٣ـ٢٧٤، الغدير للعلّامة الأميني ٨: ٣٥١، أبو الشهداء للعقّاد: ١٣٦.
٢. سيرة الائمة الاثني عشر ٢: ٣٠ ـ ٣١.

وقد ساق الرواة حادثةً طريفةً تبيّن علمه وجوده وحبّه للمعرفة، والتبسّط مع الناس، ومعاملة كلٍّ علىٰ قدر عقله.

جاءه أعرابي في حاجةٍ، فما سأله عنها؛ وكتب الأعرابي حاجته على الأرض، هنا داعبه الإمام الحسين، وقال له: سمعت أبي يقول: «المعروف بقدر المعرفة» فأسألك عن ثلاث مسائل إن أجبت على واحدةٍ فلك ثلث ما عندي، وإن أجبت على اثنين فلك ثلثا ما عندي، وإن أجبت الثلاث فلك كلّ ما عندي! وقد حملت اليَّ (صرة) من العراق. فقال الأعرابي: سل! ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

فقال الإمام الحسين: أيّ الأعمال أفضل؟

فأجابه الأعرابي: الإيمان بالله.

فقال الإمام الحسين: ما نجاة العبد من الهلكة؟

فأجابه الأعرابي: الثقة بالله.

فقال الإمام الحسين: ما يزيّن المرء؟

فأجابه الأعرابي: علم معه حلم.

فقال الإمام الحسين: فإن أخطأه ذلك؟

فأجابه الأعرابي: مال معه كرم.

فقال الإمام الحسين: فإن أخطأه ذلك؟

فأجابه الأعرابي: فقر معه صبر.

فقال الإمام الحسين: فإن أخطأه ذلك؟

فأجابه الأعرابي: صاعقة تنزل من السماء فتحرقه.

فضحك الإمام الحسين وأعطاه الصرّة![1]

وإذا كان الحقّ ما شهد به الأعداء، فقد كان معاوية يعرف للحسين قدره، حتّىٰ

---

١. عقد اللآل في مناقب الآل: ٨٧، سيرة الائمة الاثني عشر ٢: ٢٨.

قال: إنّه لا يجد فيه ما يعيبه، حتّىٰ أنّ رجلاً سأل معاوية أين يجد الحسين؟ فقال معاوية: إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت حلقةً فيها قوم كأنّ علىٰ رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبدالله الحسين[١].

ويروي الرواة عن سخائه وكرمه وجوده، وحسن معاملته للناس، كما يتحدّثون عن كثرة صيامه وصلاته، وأنّه حج خمساً وعشرين مرةً ماشياً على قدميه، وكان دعاؤه في الحج وهو يمسك الركن الأسود:

«إلهي، أنعمتني فلم تجدني شاكراً، وابتليتني فلم تجدني صابراً، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدّة بترك الصبر... إلهي، ما يكون من الكريم إلّا الكرم...».

وقد كان الإمام الحسين شديد التضرّع إلى الله، كثير الدعاء؛ لأنّ الدعاء يقرّب بين الإنسان وربّه، لا يجعل بين الله وعباده حجاباً، إنّ الإنسان يشعر وهو يرفع يديه إلى السماء ويناجي خالقه أنّ الله برحمته وجلاله ورأفته معه، فتستكين النفس، وتطمئنّ الروح، ويتوافق الإنسان فيما بينه وبين نفسه، فيعود إلى النفس صفاؤها، وطمأنينتها، لا يهمّها ما تواجه من صعوبات الحياة.

وكان من أدعيته التي رواها عنه الرواة دعاؤه عندما يكون في عرفة، كان كثير الدعاء يدعو بقلبٍ خاشعٍ، وممّا كان يدعو به:

«اللّهم اجعل غنائي في نفسي، واليقين في قلبي، والإخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني، ومتّعني بجوارحي، واجعل سمعي وبصري الوارثين منّي، وانصرني علىٰ من ظلمني، وأرني فيه ثأري ومأربي، وأقر بذلك عيني.

اللّهم اكشف كربتي، واستر عورتي، واغفر لي خطيئتي، واخسأ شيطاني، وفكّ رهاني، واجعل لي الدرجة العليا في الآخرة والأولىٰ.

---

١. تاريخ دمشق ١٤: ١٧٩ ترجمة الحسين بن علي عليهما السلام مسنداً عن أبي سعيد الكلبي.

اللّهم لك الحمد كما خلقتني فجعلتني سميعاً بصيراً، ولك الحمد كما خلقتني سوياً، رحمةً بي، وقد كنت عن خلقي غنياً».

وكان من دعائه أيضاً:

«اللّهم أوسع عليَّ من رزقك الحلال، وعافني في بدني وديني، وآمن خوفي، وأعتق رقبتي من النار...».

وما أكثر الأدعية التي وردت عنه، وتدلّ علىٰ نفسٍ بالغة الصفاء، بالغة الشفّافية، تريد ما عند الله لا ما عند الناس.

ومن أجلّ هذه الصفات والشمائل التي كان يتمتّع بها الإمام الحسين: أنّه كان قريباً إلىٰ قلوب الناس، وكان يذكّرهم بنبيّهم العظيم، كلّما استمع إلىٰ عظةٍ من عظاته، أو خطبةٍ من خطبه، أو مجلس علمٍ يجلس فيه في مسجد جدّه العظيم يلقي درسه، فإذا الناس تستمع إليه وكأنّ علىٰ رؤوسهم الطير، فهم منتبهون إلىٰ كلّ كلمةٍ يقولها، أليس هو سليل بيت النبوة الطاهرة، وغصن الدوحة المباركة؟!

مرّ يوماً علىٰ جماعة في مسجد جدّه صلى الله عليه وآله وكان فيهم عبدالله بن عمرو بن العاص، وعندما اشرأبّت الأعناق نحو الإمام الحسين، قال عبدالله بن عمرو بن العاص لهم: ألا أُخبركم بأحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء؟

قالوا: بلىٰ.

قال: هذا الماشي... وأشار إلى الإمام الحسين![1].

شخصية لها كلّ هذا الجلال والعلم، الذي ورث بعضه عن جدّه العظيم نبي الإسلام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله[2]، وورث بعضه عن أُمه فاطمة الزهراء، فقد رويت علىٰ لسانه بعض الأحاديث التي سمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله والتي سمعها من أمه ومن أبيه.

---

١. تاريخ دمشق ١٤: ١٧٩ مسنداً عن العيزار بن حُرَيث.

٢. ويكفيه قول النبي صلى الله عليه وآله له: «حسين منّي وأنا من حسين...» أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ١١٦، والترمذي في السنن ٥: ٦٥٨ ـ ٦٥٩ ح ٣٧٧٥ كتاب المناقب.

ومن هذا مثلاً: أنّه روى عن أبيه وصفه للنبي ﷺ في جلساته، فقال:

«كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحّاش، ولا عيّاب ولا مشّاح، يتغاءل عمّا لايشتهي ولايؤيس منه، ولا يخيب فيه، فقد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكبار وما لايعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذّم أحداً ولايعيبه، ولايتطلّب عورته، ولايتكلّم إلّا فيما رجا ثوابه.

وإذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنّما علىٰ رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلّم عنده أنصتوا إليه حتّىٰ يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك ممّا يضحكون منه، ويتعجّب ممّا يتعجّبون، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتّىٰ إن كان أصحابه ليستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجةٍ يطلبها فارفدوه، ولا يقبل الثناء إلّا من مكافئٍ، ولا يقطع على أحدٍ حديثه حتّىٰ يجوز فيقطع بنهي أو قيام...».

وهناك أحاديث كثيرة مسندة إليه، قد رواها عن أبيه أو عن أُمه ممّا سمعاه من خاتم النبيّين ﷺ[1].

رجل في مثل الحسين، وفي جمال خلقته، وجمال خُلُقه، وجمال تكوينه، وشخصيته التي تأثّرت بالبيئة النبوية، كان جديراً بأن يكون محبوباً عند الناس لأنّهم يعرفون قدره، ومحبوباً عند صحابة رسول الله ﷺ لأنّهم يعرفون كم كان النبي ﷺ حفيّاً به، ومحبّاً له.

وكان الإمام عالماً جليلاً... متفقّهاً في أمور دينه، وأصقلته تجارب الأيام.

---

١. من ذلك ما أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند المصيبة الحديث ٩١٩ عن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم تصيبه مصيبة وإن قدم عهدها، فيحدث لها استرجاعاً، إلّا أعطاه الله ثواب ذلك».

وما أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: في من تكلّم بكلمةٍ يضحك منها الناس الحديث ٢٢٤٠ عن النبي ﷺ أنّه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وأخرج أبو يعلى الموصلي في مسنده، المجلد الثاني عشر من الصفحة ١٤٢ إلى ١٥٦ خمسة عشر حديثاً عنه عليه السلام عن النبي ﷺ، وأسماه مسند الحسين بن علي.

سمع رجلاً يقول في حضرته: إنّ المعروف إذا أُسدي إلىٰ غير أهله ضاع! فقال الإمام الحسين: ليس كذلك، ولكن تكون الصنيعة مثل وابل المطر، تصيب البرّ والفاجر!

ومن أقواله المأثورة:

* «إياك وما يعتذر منه، فإنّ المؤمن لا يسيء ولا يعتذر، والمنافق كلّ يومٍ يسيء ويعتذر».

* «إعلموا أنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عزّ وجلّ عليكم فلا تملّوا النِعَم فتعود النقم».

* «لاتتكلّف ما لا تطيق، ولاتتعرّض لما لاتدرك، ولاتعد بما لاتقدر عليه، ولاتنفق إلّا بقدر ما تستفيد، ولاتطلب من الجزاء إلّا بقدر ما صنعت، ولاتفرح بما نلت من طاعة الله، ولا تتناول إلاّ ما رأيت نفسك أهلاً له».

* وعندما سأله رجل كيف أصبح، قال: «أصبحت ولي ربّ فوقي، والنار أمامي، والموت يطلبني، والحساب محدق بي، وأنا مرتهن بعملي، لا أجد ما أحبّ، ولاأدفع ما أكره، والأمور بيد غيري، فإن شاء عذّبني، وإن شاء عفا عنّي، فأيّ فقيرٍ أفقر منّي؟!»[1].

بهذا الأسلوب الجميل، وبهذه المعاني الراقية الفضفاضة، وبهذه التجلّيات التي تفوح بالإيمان والحكمة وفهم الحياة بما مرّ عليه من تجارب، وما تغلغل في أعماق نفسه من أنوار النبوة، كان الإمام الحسين صورةً تجسّد كلّ ما في الإسلام من قيم الحقّ والخير والجمال، والعدل والإيثار.

وكان يعيش بالمادئ وللمبادئ، فلم يؤثر عنه المداهنة أو النفاق أو السعي وراء مغانم رخيصة، ولكنّه عاش وفي قلبه منهج القرآن، وسنّة جدّه صلى الله عليه وآله، فعاش حياته

---

١. راجع هذه الحِكَم وغيرها كتاب تُحف العقول عن آل الرسول لأبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني: ١٧٤ ـ ١٧٧.

ولعلّ من أجمل هذه الدرر قوله عليه السلام: «إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عباد العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة».

كلّها ينشد الحقّ ويسعىٰ إليه، ويكره الباطل ويحاربه.

وهذا ما يفسّر موقفه بعد ذلك عندما قرّر أن يتصدّىٰ لظلم بني أُمية، والوقوف في وجه يزيد، واستشهد في سبيل المبدأ. ولو أراد أن يعيش في ترفٍ من العيش، وفي رغدٍ من المال، لاستطاع، ولأعطاه الحكم الأموي ما يريد علىٰ ألّا يقف في طريقهم، ويفنّد أكاذيب حكمهم الذي ابتعد عن الحكم الذي انتهجه الراشدون من الخلفاء.

لو أراد ذلك ما كلّفه ذلك إلّا الصمت عن الخوض في سياسة الدولة الأموية المتمثّلة في يزيد بن معاوية، ولكنّه رفض أن يرى الظلم ويسكت... ورفض أن يرى الباطل يرتفع له لواء ويصمت... ورفض أن يرى الحكم بالكتاب والسنّة قد خفت ثم يلوذ بالصمت...ورفض أن يشاهد المظالم علىٰ أشدّها، وأموال المسلمين تغدق بلا حساب على الأعوان وطلّاب السلطة، والمتحلّقين لها يبغون السلطان ويضع يده في أذنيه.

لقد قرّر أن يقوم بثورة... أن يغيّر من الصورة القاتمة التي عشّشت على العـالم الإسلامي في فترة حكم يزيد بن معاوية.

هل كان يعرف أنّه يستطيع أن يتغلّب على الدولة الأموية في أوج قوّتها وعنفوان سلطانها؟ وهل حسب أنّ بقدرته أن يقضي علىٰ دولةٍ لها جيوشها القوية، ويـدها المتمكّنة من أعناق الناس، ولها سطوة الحكم، وجبروت السلطة؟

هل كان اندفاع من الإمام الحسين أن يذهب ليحارب قوىٰ عاتية تملك السلاح والرجال، ويخرّ تحت أقدامها طلّاب النفوذ والجاه والمال؟ وهل كـان يـتصوّر أن ينتصر وسيوف الناس معهم حتّىٰ ولو كانت قلوبهم معه؟أم أنّ الأقدار قد كتبت عليه أن يكون دمه الشريف نقطة تحوّل في التاريخ الإسلامي كلّه؟

فإنّ دم الإمام الحسين لم يضع عبثاً. فقد انهارت الدولة الأموية بعد أقلّ من قرن واحد، ولتظلّ بعد ذلك العبرة بأنّ الحقّ دائماً يعلو في النهاية مهما كانت أشواك الطريق.

إنّ النظر إلى موقف الإمام الحسين من خلال النظرة إلى الحوادث التي تمرّ بدنيا

الناس ربّما لا يكون نظراً سليماً. فإنّ لموقف الإمام الحسين بُعداً إيمانياً غيبياً. فقد كان عليه أن يطلق صيحته بأن يكون الحكم شورىٰ بين المسلمين كما أقرّه الإسلام، وأنّ الديكتاتورية وحكم الفرد ممّا يأباه الإسلام، وأنّ تقويم الأوضاع لابدّ له من الضحايا،لابدّ من الدماء والدموع، حتّىٰ لا يترك الباطل يرفع رايته فـي أرض الله، وحتّىٰ لا تترك سلوكيات الناس حسب الأهواء، بل حسب ما جاء في كـتاب الله وسنّة الرسول صلى الله عليه وآله.

لقد كان الإمام الحسين يوقن بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده[١]، هذا الحديث الشريف:

عن أُم سلمة قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يمسح رأس الحسين ويبكي، فقلت: ما بكاؤك؟ قال: «إنّ جبريل أخبرني أنّ ابني هذا يُقتل بأرضٍ يقال لها كربلاء».

قالت: ثم ناولني كفّاً من تراب أحمر، وقال: «إنّ هذا مـن تـربة الأرض التـي يُقتل بها، فمتىٰ صار دماً فاعلمي أنّه قد قُتل».

قالت أُم سلمة: فوضعت التراب في قارورةٍ عندي، وكنت أقول: إنّ يوماً يتحوّل فيه دماً ليوم عظيم.

وفي رواية أُخرىٰ عن أُم سلمة قالت: كان جبريل عند النبي صلى الله عليه وآله والحسين معي، فبكىٰ فتركته، فذهب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له جبريل: أتحبّه يا محمد؟ قال: «نعم».

قال: إنّ أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يُقتل بها، فـبسط جناحه إلى الأرض، فأراه أرضاً يقال لها: كربلاء![٢]

ورويت أحاديث كثيرة بصيغ مختلفة تجمع في مضمونها علىٰ أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد

---

١. مسند أحمد ٣: ٢٤٢، ٢٦٥، وانظر ٦: ٢٩٤. ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٨٧ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني بأسانيد.

٢. أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٨٨ ـ ١٨٩ وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها ثقات.

تنبّأ بقتل حفيده الحسين في كربلاء[١]. والحديث بلاشكّ قد عرفه أهل البيت، حتّىٰ أنّ ابن عباس قال: ما كنّا نشكّ ـ وأهل البيت متوافرون ـ أنّ الحسين بن علي يُقتل بالطف[٢].

والإمام الحسين كان يعرف بلاشكّ أمر حديث جدّه ﷺ، ومن هنا فقد خرج غير هيّاب ولا وجل.

أترىٰ قد قُدِّر على الإمام الحسين ما قُدِّر علىٰ والده الإمام علي كرّم الله وجهه؟ قد تنبّأ الرسول ﷺ للإمام علي بأنّه سيُقتل[٣].

ويروي الرواة: أنّ أُم المؤمنين أم سلمة هي أول من علمت مقتل الحسين، واختلفت الروايات في ذلك، فمن قائل: إنّها شاهدت النبي ﷺ في رؤيا لها، وكان علىٰ لحيته التراب، وعندما سألته عمّا حدث قال لها: «كنت أدفن ابني الحسين» فعرفت أنّ الحسين قد قُتل.

---

١. وقد روى في مسند الرضا عليه‌السلام بأسانيد متعددة عن أم سلمة حديث النبي ﷺ لها في شأن مقتل ولده الحسين عليه‌السلام، والتربة الحمراء. نقلها العلّامة الطبرسي في إعلام الورىٰ: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

ويذكر ابن عساكر حديثاً عن أنس بن الحارث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ ابني هذا ـ يعني الحسين ـ يُقتل بأرضٍ يقال لها كربلا، فمن شهد ذلك منكم فلينصره» قال الأشعث بن سُحيم عن أبيه: فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء، فقُتل مع الحسين.

٢. وهو ما دعا ابن عباس إلى القول: أوحىٰ الله تعالى إلىٰ محمد ﷺ: أنّي قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وأنا قاتل بابن ابنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً. أخرجه ابن عساكر ١٤: ٢٢٥.

٣. ما أخرجه الحاكم في مستدركه ٣: ١٤٢ بسنده عن حيان الأسدي قال: سمعت علياً عليه‌السلام يقول: «قال رسول الله ﷺ: إنّ الأمة ستغدر بك بعدي، وأنت تعيش على ملّتي، وتُقتل علىٰ سنّتي، من أحبّك أحبّني، ومن أبغضك أبغضني، وإنّ هذه ستخضب من هذا» يعني لحيته من رأسه. ثم قال الحاكم: صحيح وروىٰ بمثله في الاستيعاب ٢: ٦٨١ باب الكنىٰ، حرف الفاء ترجمة أبي فضالة الأنصاري. وأخرجه أحمد أيضاً في مسنده ١: ١٠٢ (مسند علي بن أبي طالب)، والمحبّ الطبري في الرياض النضرة ٢: ٢٢٣ ب٤ مناقب علي بن أبي طالب/كراماته. ثم قال: أخرجه ابن الضحاك. وكذا أخرجه أبو داود الطيالسي ١: ٢٣ ح١٥٧.

ويذكر الهيثمي في مجمعه ٩: ١٣٧ كتاب المناقب/مناقب علي باب في وفاته: عن عائشة قالت: رأيت النبي ﷺ التزم علياً وقبّله ويقول: «بأبي الوحيد الشهيد» وقال: رواه أبو يعلى. كما رواه ابن حجر في الصواعق: ٧٤ ب٩ مآثر علي وفضله ف ٢.

وهناك رواية أُخرىٰ تقول: إنّ النبي في حياته كان قد أعطاها قارورةً بها تراب، وقال لها: «إذا استحال هذا التراب دماً فاعلمي أنّ الحسين قد قُتل».

ومهما يكن من شيء، فقد قُتل الحسين مظلوماً، ولم يراعوا فيه حرمةً، ولكن استشهاده كان صيحةً مدوّيةً في مختلف أرجاء العالم العربي.

هناك من طالب بدم الإمام الشهيد... وهناك من ثار علىٰ بني أُمية إلىٰ أن انتهت دولتهم نهايةً مأساويةً رهيبة.

وهناك من تشفّع لآل البيت إلىٰ أن ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب العربي وفي مصر، وظهرت الانقسامات حول من يكون له حقّ الحكم... إلىٰ أن خلّفت الدولة الأموية الدولة العباسية، وأخذ التاريخ مسارات جديدة.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه: أين ذهبت رأس الحسين؟ وكيف جاءت إلىٰ القاهرة؟! علىٰ أساس أنّه لا خلاف بين المؤرّخين والرواة أنّ الجسد الشريف قد دُفن في مكانه في كربلاء، في مشهده المعروف هناك!

ولكن الخلاف حول مكان الرأس.

يقول بعض الرواة: إنّ الذي وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة وواليها، ووصل في القصر يوم الثلاثاء، العاشر من جُمادىٰ الاخرىٰ.

وقالوا: إنّ هذا الرأس الشريف لمّا أُخرج من المشهد بعسقلان وجد دمه لم يجفّ، وله ريح كريح المسك، وعندما جيء به إلى مصر دُفن في قصر الزمرّد، وهو المكان المعروف الآن بالمشهد الحسيني [1].



١. تقدّم الحديث حول هذا الموضوع سابقاً.

٢ـ السيدة زينب (أم الشهداء) عليها السلام

بقلم

علي أحمد شلبي

صافيناز كاظم

حنفي المحلاوي

السيدة زينب عليها السلام[1]

علي أحمد شلبي

بعد أن قتلوا الحسين في كربلاء واحتزّوا رأسه الشريف، اقتحم السفلة من جند ابن زياد ـ وما أكثرهم ـ فسطاط نساء أهل البيت وصاحباتهنّ، وأعملن فيه سلباً ونهباً وحرقاً، غير مبالين بأمر عمر بن سعد الذي أمرهم به من قبل، وغير مكترثين بحرمة الموت الذي يحيط بالنساء والأطفال من كلّ جانب، فأظهروا من القسوة والغلظة في معاملتهنّ ما لم يُعرف من قبل في مثل هذه المواقف المؤلمة.

وبعد أن قضوا أَرَبهم، واتمّوا سلبهم ونهبهم، وأحرقوا الخيام بما بقي فيها من متاع لم يستطيعوا حمله معهم، ساقوا أسراهم وسباياهم من الأطفال والنساء، وكان فيهم ولدان للإمام الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم جميعاً، استصغر الأعداء شأنهما وسنّهما، فتركوهما دون أن يقتلوهما، كما كان فيهم كذلك زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما، وكان مريضاً في حجر عمّته العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها، وقد أراد الأعداء قتله، لولا أن انقذته عمّته بعد أن عرضت نفسها للقتل دونه[2].

---

١. مقتبس من كتابه «السيدة زينب» ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

٢. نور الأبصار: ٣٧٨ نقلاً عن تاريخ القرماني.

وكان من نعمة الله تعالى على الأمة المحمدية أن بقي زين العابدين علي بن الحسين حيّاً، إذ حفظ الله تعالى به ذرّية الإمام الحسين، وهم من ذرّية جدّه النبي الأمين محمد رسول الله ﷺ.

كما سيق في هذا الركب من نساء البيت النبوي الكريم: العقيلة الطاهرة السيدة زينب، وأُختها أُم كلثوم، وابنتا الإمام الحسين فاطمة وسكينة، وبقية من نساء بني هاشم رضي الله تعالى عنهنّ جميعاً.

حملت السيدة العقيلة زينب ومن معها على أقتاب[1] الجمال بغير غطاء، فمرّت علىٰ مصارع الشهداء، ووقعت أبصار النساء والأطفال علىٰ أبشع منظر، فكان لذلك أثره العميق في النفوس؛ إذ كانت الأرض مغطّاة بجثث الأبرار، محزوزة الرؤوس، وقد ارتوت رمال الصحراء من دمائهم، وتسفي عليها الرياح، وتطير في الفضاء القريب منهم الطيور الجارحة، كأنّها تريد أن تنقض على لقمةٍ سائغةٍ ووليمةٍ حافلة، فضلاً عن الوحوش الكاسرة التي كانت تنتظر هبوط الليل لتخرج من جحورها لتشترك بنصيب في هذه الوليمة الأموية!

كان لهذا أثره البالغ على العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها، فنفد صبرها، ولم تتمالك نفسها أمام ما ترىٰ من هولٍ وبشاعة، فنادت بصوتٍ حزينٍ وقلب يتفتّت حسرةً وألماً.

يا محمداه! صلّى عليك مليك السماء، هذا حسين بالعراء، مقطّع الأعضاء، وبناتك سبايا، إلى الله المشتكىٰ، وإلىٰ محمد المصطفىٰ، وإلى علي المرتضىٰ، وإلى فاطمة الزهراء، وإلىٰ حمزة سيد الشهداء.

يا محمداه! هذا حسين بالعراء تسفى عليه الصبا، قتيل أولاد البغايا.

واحزناه، واكرباه عليك يا أبا عبدالله، اليوم مات جدّي رسول الله.

---

١. الأقتاب: واحدة قتب، وهو الرحل الصغير يُحمل علىٰ قدر سنام الجمل.

يا أصحاب محمداه، هؤلاء ذرّية المصطفىٰ يساقون سوق السبايا، وهذا حسين محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والرداء.

بأبي من أضحىٰ معسكره يوم الاثنين نهباً، بأبي من فسطاطه مقطّع العرىٰ، بأبي من لا غريب فيرجىٰ، ولا جريح فيداوىٰ، بأبي من نفسي له الفداء، بأبي المهموم حتّىٰ قضىٰ، بأبي من جدّه محمد المصطفىٰ، بأبي خديجة الكبرىٰ، بأبي علي المرتضىٰ، بأبي فاطمة الزهراء، بأبي من ردَّت عليه الشمس حتّىٰ صلّىٰ.

ولقد صوّرت العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها بكلامها الفصيح وبلاغتها الفائقة الموقف الذي مرّ عليه الركب أبلغ تصوير، ولذلك أبكت ألفاظها التي صدرت من قلبٍ جريحٍ مسكورٍ كلّ عدوّ وصديق، وكان لكلامها هذا أعظم الأثر في الإحساس بفداحة ما أقدم عليه القوم من فعلةٍ شنعاء، والشعور بعظم الخسارة التي لاتعوّض.

ولمّا أقبل الركب على الكوفة، تتقدّمه السبايا والرؤوس المقطّعة، في نحو أربعين جملاً، كان زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما علىٰ بعيرٍ بغير غطاء، وفي حالةٍ يرثىٰ لها من الضعف والمرض، ومن الحزن علىٰ ما أصاب أهل البيت النبوي الكريم وعلىٰ رأسهم والده الحبيب، فكان يقول في أسىً وألمٍ بالغين:

يا أمة السوء لا سقياً لربعكم — يا أمة لم تراع أحمداً فينا
لو أنّنا ورسول الله يجمعنا — يوم القيامة ما كنتم تقولونا
تسيرون بنا على الاقتاب عاريةً — كأنّنا لم نشيد فيكم دينا
بني أُمية ما هذا الوقوف على — هذي المصائب لم تصغوا لداعينا
تصفقون علينا كفكم فرحاً — وأنتم في فجاج الأرض تسبونا
أليس جدي رسول الله الكريم — هادي البرية من سبل المضلّينا
يا وقعة الطف قد أورثتني حزناً — والله يهتك أستار المسيئينا

وما أن وقعت أنظار الكوفة على هذا الركب، حتّىٰ أقبلوا يناولون الأطفال وهم

على محاملهم بعض التمر والخبز والطعام، فصاحت فيهم السيدة زينب وقالت: يـا أهل الكوفة! إنّ الصدقة علينا حرام.

وصارت تأخذ من أيدي الأطفال وأفواههم ما أخذوه من القوم وتلقي بـه إلىٰ الأرض، والناس حولهم يبكون علىٰ مصيبتهم التي حاقت بهم. فطلّت عليهم السيدة أم كلثوم برأسها من محملها وقالت لهم: صه يا أهل الكوفة يقتلنا رجالكم، وتبكينا نساؤكم! فالحكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء.

وبينما هي تخاطبهم، إذ بضجّةٍ قد ارتفعت، وإذا هم قد أتوا برأس الإمام الحسين، والرمح تلعب بها يميناً ويساراً، فالتفتت موجعة، وأومأت إليه بحرقة، وجعلت تقول:

يا هلالاً لمـا اسـتتمّ كـمالاً　　　غاله خسفه فأبـدى غـروبا
ما توهمت يا شقيق فؤادي　　　كـان هـذا مـقدّراً مكـتوبا

ثم أشارت رضي الله تعالى عنها إلىٰ الناس، فسكتت أصواتهم، وطارت نفوسهم؛ خشية من جلال الموقف ورهبته، وأخذت تخاطبهم قائلة:

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ أبي محمد وآله الطيّبين الأخيار.

أمّا بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل[١] والغدر، أتبكون، فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتّخذون أيمانكم دخلاً[٢] بينكم.

ألا وهل فيكم إلّا الصلف[٣] والنطف[٤]، والكذب والشنف[٥]، وملك الإمـاء وغـمز الأعداء، أو كرعي علىٰ دمنة[٦]، أو كفضّة ملحودة، ألا بئس ما قدّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون.

---

١. الختل: الخديعة.
٢. دخلاً: أي خيانةً ومكراً.
٣. الصلف: التكبّر والإصرار عليه.
٤. النطف: التلطّخ بالعيب.
٥. الشنف: البغض والإنكار.
٦. الدمنة: ما تدمنه الأنعام من الأبوال والأبعار.

أتبكون وتنتحبون؟ إي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً، وأنّىٰ ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، مدرة[١] حجتّكم ومنار محجّتكم، وملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ماتزرون.

فتعساً ونكساً، وبُعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة! أتدرون أيّ كبدٍ لرسول الله فريتم، وأيّ كريمةٍ له أبرزتم، وأيّ دمٍ له سفكتم، وأيّ حرمةٍ له انتهكتم؟ لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشقّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً. ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع[٢] الأرض وملء السماء، أفعجبتم أن مطرت السماء دماء، ولعذاب لا يحفزه[٣] البدار، ولا يخاف فوت الثأر، وإنّ ربّك لبالمرصاد.

أدهش خطابها البليغ الذي تدفّق من لسانها كجلمود صخر حطّه السيل من عل، هؤلاء القوم وأثّر فيهم، وأيقظ أفئدتهم، وأظهر لهم شنيع جرمهم، فأخذوا وقد أدركوا فجيعة فاجعتهم وعظيم جنايتهم في حقّ الإسلام والمسلمين، فلايدرون ما يصنعون، حتّىٰ أنّ شيخاً كبيراً كان يستمع، فأبكاه كلامها حتّىٰ اخضلّت لحيته بالدموع، وأخذ يقول:

ـ بأبي أنتم وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير النسل، لايخزى ولايبزو[٤].

ثم تكلّمت فاطمة الصغرىٰ فقالت:

---

١. المدرة: الناطق عن القوم والمدافع عنهم وحاميهم.

٢. طلاع الأرض والشيء: ملؤه.

٣. يحفزه: يحثّه ويعجّل به.

٤. أي لا يُغلب ولا يُقهر.

الحمد لله عدد الرمل والحصىٰ، وزنة العرش إلىٰ الثرىٰ، أحمده وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

اللّهم إنّي أعوذ بك أن أفتري عليك الكذب، أو أن أقول خلاف ما أنزلت عليه من أخذ العهود لوصيّه علي بن أبي طالب، المقتول كما قُتل ولده بالأمس، في بيتٍ من بيوت الله، فيه معشر مسلمة بألسنتهم، تعساً لمروءتهم، ما رفعت عنه ضيماً في حياته وبعد وفاته، حتّىٰ قُبض إليك محمود النقيبة، طيّب العريكة[1]، معروف المناقب، مشهور المذاهب، لم تأخذه فيك لومة لائم، زاهداً في الدنيا، مجاهداً في سبيلك، فهديته إلىٰ صراطك المستقيم.

أمّا بعد، يا أهل الكوفة! يا أهل المكر والغدر والخيلاء! فإنّا أهل بيتٍ ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا، فجعل بلاءنا حسناً، وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه[2]، أكرمنا بكرامته، وفضّلنا بمحمد نبيّه ﷺ علىٰ كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً، فكذّبتمونا ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً، كأنّا أولاد ترك أو كابل، فلا تدعوكم أنفسكم إلىٰ الجدل بما أصبتم من دمائنا، ونالت أيديكم من أموالنا، فكأنّ العذاب قد حلّ بكم وأتت نقمات، ألا لعنة الله على الظالمين.

تبّاً لكم يا أهل الكوفة! أيّ تراث لرسول الله ﷺ قبلكم، ودخول له لديكم، بما عنتّم بأخيه علي بن أبي طالب، افتخرتم بقتل قومٍ زكّاهم الله في كتابه، وطهّرهم وأذهب عنهم الرجس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

ثم تكلّمت أم كلثوم بنت الإمام علي كرّم الله وجهه وشقيقة العقيلة[3] الطاهرة السيدة زينب رضي الله تعالى عنهما، وقد غلب عليها البكاء، فقالت: يا أهل الكوفة

---

١. العريكة: الخُلُق.

٢. أي: خزّان علمه.

٣. العقيلة من النساء: المرأة الكريمة على قومها، العزيزة في بيتها.

سوءة، ما لكم خذلتم حسيناً وقتلتموه، وسبيتم نساءه ونكبتموه! ويلكم، أتدرون أيّ دواهٍ دهتكم، وأيّ وزرٍ علىٰ ظهوركم حملتم، وأيّ كريمة أصبتموها، وأيّ أموال انتهبتموها؟ قتلتم خير رجالات بعد النبي ﷺ. ألا إنّ حزب الله هم الفائزون، وحزب الشيطان هم الخاسرون.

ثم قالت:

قتلتم أخي والله صبراً للؤمكم ... ستجزون ناراً حرّها يتوقّد
سفكتم دماءً حرّم الله سفكها ... وحرّمها القرآن ثم محمد
ألا فأبشروا بالنار أنّكم غداً ... لفي سقرٍ حقاً يقيناً تخلدوا
وإنّي لأبكي في حياتي علىٰ أخي ... علىٰ خير من بعد النبي سيولد
بدمعٍ غزيرٍ مستهلٍّ مكفّف ... على الخدّ منّي دائباً ليس يجمد

فضجّ الناس بالبكاء والعويل.

ثم قام زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما، وأومأ للناس أن اسكتوا، وقال بعد حمد الله والثناء عليه:

أيها الناس، من عرفني فكفى، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات بغير ذحل[1] ولا تراث، أنا ابن من انتهك حريمه، وانتهب ماله، وسُبي عياله، وقُتل صبراً، وكفىٰ بذلك فخراً، فأنشدكم الله هل تعلمون أنّكم كتبتم إلىٰ أبي، وأعطيتموه العهد والميثاق فخذلتموه، فتبّاً لما قدّمتم، وسوأةً لرأيكم، بأيّة عينٍ تنظرون إلىٰ رسول الله ﷺ، إذ يقول: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي!

فارتفعت الأصوات من كلّ ناحية، وقال بعض الناس لبعضهم: هلكتم وما تعلمون، فقال رضي الله تعالى عنه:

---

١. الذحل: الثأر.

رحم الله امرءاً قبل نصيحتي ووصيتي في الله وفي رسوله وأهل بيته، فإنّ لنا في رسول الله أسوةً حسنة.

فقالوا جميعاً: سامعون مطيعون، حافظون لذمامك، غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك يرحمك الله، فإنّا حرب لحربك وسلم لسلمك، لنأخذن يزيد ونبرأ ممّن ظلمك وظلمنا. فقال رضي الله تعالى عنه:

هيهات هيهات! أيّها الغَدَرة المَكَرة، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلىٰ أبي بالأمس وأهل بيته معه، ولم ينس ثكل رسول الله ﷺ وثكل أبي وبني أبي، ووجده[1] بين لهاتي[2]، ومرارته بين حناجري، وغصصه في فراش صدري؟ ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا، ثم قال:

غمز وإن قتل الحسين فشيخه   قد كان خيراً من حسين وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذي   أصاب حسيناً كان ذلك أعظما
قتيل بنهر الشط روحي فداؤه   جزاء الذي أرداه نار جهنّما

ثم قال: رضينا منكم رأساً برأس، فلا يوم لنا ولا علينا.



ولمّا أُدخل أهل البيت النبوي الكريم ومن معهم إلىٰ حيث اللعين عبيدالله بن زياد والي الكوفة من قبل يزيد بن معاوية، والذي كان حرباً علىٰ أهل البيت، وكرهه الشديد للإمام الحسين ﷺ، لمّا أُدخلوا إلىٰ هذا المكان تذكّرت السيدة العقيلة زينب رضي الله عنها تلك القاعة التي يجلس فيها قاتل أخيها وأهلها وأنصارهم، بعد أن كان يجلس فيها ـ من قبل ـ أبوها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

دخلتها السيدة العقيلة زينب هذه المرّة وقلبها متصدّع من الحزن والأسىٰ من أثر

١. الوجد: الحزن.

٢. اللهاة: قطعة اللحم المدلاة في أقصىٰ الفم. ويريد بهذا المبالغة، أي أنّه بلغ به الحزن في صدره وقلبه حتّىٰ وصل إلىٰ أطراف فمه وحلقه.

ما مرّ بها من أحداث جسام شهدتها بعيني رأسها، ولمستها بيديها عن كثب، ولكنّها لاذت بكلّ كبريائها وعزّة نفسها وكرامة محتدها، واعتزّت بعلوّ حسبها ونسبها الشريفين، والتفّت بجلال البنوّة، وجلست بعد أن كانت قد لبست أبلىٰ ثيابها وأرذلها متنكّرة فيها، منتحية ناحيةً من القاعة، تحفّ بها إماؤها.

ثم أمر اللعين ابن زياد، فجيء له برؤوس الضحايا والشهداء، ومن بينها الرأس الشريف لمولانا أبي عبدالله الحسين رضي الله تعالى عنه، فجعل اللعين ابن زياد ينكت بقضيبٍ كان في يده بين ثنيتي الرأس الشريف، غير عابئٍ بشعور الحاضرين، ولا مراعٍ لإحساس أهل البيت النبوي، وهم يرون ما يصنع هذا المجرم الآثم.

ولذلك انبرى له زيد بن الأرقم[1] وصاح فيه قائلاً: أعل هذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا إله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ علىٰ هاتين الثنيتين يقبّلهما، ثم بكىٰ.

فقال له اللعين ابن زياد: أبكى الله عينيك، فوالله لولا أنّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، لضربت عنقك.

فخرج ابن الأرقم وهو يقول:

أنتم يا معشر العرب! العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذلّ[2].

نظر اللعين ابن زياد إلىٰ الحاضرين أمامه، وتفحّص كلّاً منهم بنظرة،ثم تساءل عن هذه المنحازة وحدها ومعها نساؤها وهي شامخة الرأس عالية، فلم تجبه

---

١. أبو عمرو زيد بن ارقم بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري، من مشاهير الصحابة. كان نزيلاً في الكوفة فشهد هذه الواقعة المؤلمة. وكان زيد ممّن شهدوا غزوة مؤتة وغيرها. وصفين إلى جانب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. توفي بالكوفة عام ٦٦هـ وقيل: ٦٨هـ.(طبقات ابن سعد ٦: ١٨، تهذيب الكمال ١٠: ٩ ـ ١٢).

٢. الأخبار الطوال: ٢٥٩ ـ ٢٦٠، الإرشاد للمفيد ٢: ١١٤ ـ ١١٥، تاريخ أبي الفداء ١: ٢٦٦. وفي البداية والنهاية ٨: ١٩٧ أنّ الذي أجاب ابن زياد انّما هو أبو برزة الأسلمي.

العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها، فأعاد تساؤله ثلاثاً دون أن تردّ عليه.

فقال بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وبنت الإمام علي كرّم الله وجهه[١].

فقال متشفّياً فيها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم، وأكذب أُحدوثتكم!

فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه، وطهّرنا من الرجس تطهيراً، إنّما يفتضح الفاجر، ويكذّب الفاسق، وهو غيرنا.

فلم يصبر اللعين ابن زياد علىٰ قولها، بل ردّ عليها قائلاً: كيف رأيت صنع الله في أهل بيتك وأخيك؟!

وهنا تتجلّىٰ كلّ معاني الإيمان والصبر والشجاعة، فتردّ عليه بقولها: ما رأيت إلّا خيراً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلىٰ مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجّ وتُخاصَم، فانظر لمن الفلج يومئذٍ، ثكلتك أُمك يابن مرجانة. فأثار هذا الردّ الحازم الحاسم حفيظة اللعين ابن زياد، واستشاط غيظاً وغضباً، فقال له عمرو بن حُريث: أصلح الله الأمير، إنّما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيءٍ من منطقها، إنّها لاتُؤاخذ بقولٍ، ولاتُلام علىٰ خطل.

ولكنّ اللعين ابن زياد ظلّ غاضباً محنقاً، فردّ على السيدة الطاهرة بقوله: لقد شفىٰ الله قلبي.

فقالت: قتلت كهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي.

فردّ عليها اللعين ابن زياد قائلاً: هذه سجّاعة، ولعمري لقد كان أبوها سجّاعاً شاعراً!

فقالت: يا بن زياد، ما للمرأة والسجاعة، وإنّ لي عن السجاعة لشغلاً، وإنّي لأعجب ممّن يشتفي بقتل أئمته، ويعلم أنّهم منتقمون منه في آخرته[٢].

---

١. في المصادر التاريخية هكذا: «هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله» وسنأتي على ذكر هذه المصادر.

٢. الإرشاد ٢: ١١٥ ـ ١١٦، الكامل في التاريخ ٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، اعلام الورى ١: ٤٧١ ـ ٤٧٢، البداية ←

وفي هذا الموقف الشجاع الجدير بالتسجيل، يقول الشيخ الجليل ابن نما الحلّي:

يا أيّها المتشفّي فـي قـتل أئـمته ... قلبي من الوجد على مثل الحجر
لا بــلغتك اللــيالي مــا تـؤمّله ... منها وبـل سـداك المـالح المـقر
قــوم هـم الديـن والدنـيا فـمن ... قــلاهم فــمأواهـم إذن سـقر
لهم نـبي الهـدىٰ جـدٌّ، وجـدُّهم ... يـوم المـعاد بـنصر الله يـنتصر [1]

أثار هذا النقاش الصريح بين العقيلة الطاهرة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها وبين اللعين ابن زياد، غيرة زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عـنهما وعلىٰ عمّته العقيلة، فانبرىٰ صائحاً بابن زياد: إلىٰ كم تهتك عمتي بين من يعرفها ومن لا يعرفها؟

فالتفت إليه ابن زياد وقال: من أنت؟

فردّ عليه في حزم وثبات: أنا علي بن الحسين.

قال ابن زياد، أليس الله قتل علي بن الحسين؟

قال علي: كان لي أخ يسمّىٰ علياً قتله الناس بأسيافهم.

فردّ اللعين عليه: بل قتله الله.

وهنا تتجلّىٰ مرّة أخرىٰ قوة إيمان أهـل البـيت وشـجاعتهم، عـندما ردّ زيـن

← والنهاية ٨: ١٩٣.

وفي هذه الواقعة كتب الاستاذ بولس سلامة معتبراً:

ورأى زيــنباً عـليها مـن الأسـ ... ـمال والبوس ما يسرّ الأعادي
فأراد امــتهانها بشــمات ... بـعض إيــلامه سنان الصعاد
فأجــابت بــحكمة وإبـاء ... هــاج فـيه شـرارة الإيـقاد
يفضح الجـوهر القـديم هـجيناً ... مـحدَث الجـاه زائـف الأجـداد
ذاك أنّ العــريق يــبقى عـريقاً ... لا يـضيرالهـزال أصـل الجـواد
لا يكون الطـود العـتيّ خـصيباً ... إنّما الخصب في وديـع الوهـاد

(عيد الغدير: ٣٢٤ ـ ٣٢٥)

١. ديوان ابن نما الحلّي: ٣٧.

العابدين بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا...﴾[١].

فيسأله ابن زياد عليه اللعنة في دهشة وغضب: أوَبك جرأة على جوابي، وفيك بقيّة للردّ؟

وصاح بغلمانه أن ينظروا هل أدرك[٢]، إنّي لأحسبه رجلاً.

فكشف عنه مري بن معاذ الأحمري، وقال: نعم، قد أدرك.

قال: اقتله.

فقال علي: من توكل بهذه النسوة؟

فتعلّقت العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها بزين العابدين علي وقالت: يا بن زياد! حسبك من دمائنا ما ارتويت وسفكت، وهل أبقيت أحداً غير هذا؟ والله لا أُفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه.

وعندئذ قال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: اسكتي يا عمّة حتّىٰ أُكلّمه. والتفت إلىٰ اللعين ابن زياد وقال: أبالقتل تهدّدني؟ أما علمت أنّ القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة؟

فنظر ابن زياد إليه وإلىٰ العقيلة الطاهرة عمّته ساعة، ثم قال: عجباً للرحم، والله إنّي لأظنّها ودّت لو أنّي قتلته أنّي قتلتها معه، دعوه مع نسائه فإنّي أراه لما به مشغولاً[٣].

ثم نادى اللعين ابن زياد بالصلاة الجامعة، ونصر أمير المؤمنين! وأيّد حزبه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب الحسين بن علي وشيعته!![٤]

---

١. الزمر: ٤٢.

٢. أي: بلغ سنّ الحلم. وكأنّه يريد أن يتثبّت من إحدىٰ أحكام الله وهو يريد أن يقتل ابن رسول الله ﷺ!!

٣. طبقات ابن سعد ٥: ٢١٢، اعلام الورىٰ ١: ٤٧٢ ـ ٤٧٣، الكامل في التاريخ ٤: ٨٢.

٤. يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ»: هذا النصر في نظري ونظر كل عاقل صحيح العقل شرّ من الخذلان، إذ ما فخر الآلاف الكثيرة تجتمع على اثنين وسبعين رجلاً قد نزلوا علىٰ غير ماء، إنّما يعتبر النصر شرفاً وفخراً إذا كانت العدّة متكافئة والعدد قريباً.

←

وقبل أن يستأنف كلامه، وثب إليه عبدالله بن عفيف الأزدي، وكان ضريراً قد ذهبت إحدىٰ عينيه يوم الجمل مع الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وذهبت الأخرى بصفّين معه أيضاً، وكان لا يفارق المسجد يصلّي فيه الليل ثم ينصرف. فلمّا سمع مقالة اللعين ابن زياد، قال: يابن مرجانة! إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه، يابن مرجانة! أتقتلون أبناء النبيّين وتتكلّمون بكلام الصدّيقين؟!

فقال ابن زياد: عليَّ به. فأخذوه، فنادىٰ بشعار الأزد: «يا مبرور!» فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه من أيدي الجلاوزة، وأتوا به أهله ومنزله.

فقال ابن زياد: إليَّ أعمى الأزد، أعمى الله قلبه، فأتوني به.

فلمّا بلغ الأزد ذلك، اجتمعوا وقبائل اليمن معهم، فبلغ ذلك ابن زياد، فجمع قبائل مصر وضمّهم إلى ابن الأشعث وأمر بالقتال، فاقتتلوا حتّىٰ وصل أصحاب ابن زياد عليه اللعنة إلىٰ دار عبدالله بن عفيف الأزدي، فكسروا الباب واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: أتاك القوم من حيث تحذر، فقال: لا عليك، ناوليني سيفي، فناولته، فجعل يذبّ عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر عفيف شيخي وابن أُم عامر
كم دارعٍ من جمعكم وحاسر

فقالت ابنته: يا ليتني كنت رجلاً أخاصم بين يديك هؤلاء الفَجَرة، قاتلي العترة البرَرَة. والقوم محدقون به، كلّما جاءوه من جهة أشعرته ابنته، وهو يذبّ عن نفسه ويقول:

أقسم لو فرج لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري

فتكاثروا عليه فأخذوه، فقالت ابنته: واذلّاه! يُحاط بأبي وليس له ناصر.

← فحقّ ابن زياد ومن كان علىٰ شاكلته أن يندبوا على أنفسهم بالخيبة والخسران، وأن يطأطئوا رؤوسهم ذلّاً وعاراً حينما وقف هؤلاء النسوة الأشراف وعلى رأسهم السيدة زينب بنت فاطمة بنت رسول الله وهي بهذه الحالة. لعن الله الفسق والفسّاق، لقد سوّأوا صحائف التاريخ، وسجّلوا على أنفسهم الجرائم الكبرىٰ التي لا تغتفر ولاتنسىٰ مدى الدهر، فإنّا لله وأنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

وأدخلوه على اللعين ابن زياد، فقال: الحمد لله الذي أخزاك.

فقال: يا عدوّ الله، فماذا أخزاني؟ والله لو فرج لي عن بصري، ضاق عليكم موردي ومصدري.

فقال: يا عدوّ الله، ما تقول في عثمان؟

فقال: يا عبد بني علاج، يا بن مرجانة، ما أنت وعثمان، أساء أم أحسن، فقد لقي ربّه وهو وليّ خلقه يقضي بينهم بالعدل، ولكن سلني عن أبيك وعن يزيد وأبيه.

فقال: والله لا أسألنّك عن شيءٍ حتّىٰ تذوق الموت عطشاً.

فقال: الشهادة، وسألته أن يجعلها على يدى ألعن خلقه وأبغضهم إليه، فلمّا كفّ بصري يئست من الشهادة، والآن، فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها.

فأمر ابن زياد، فضُرب عنقه وصُلب في السبخة[١].

ثم عاد بجندب بن عبدالله الأزدي وكان شيخاً، فقال: يا عدوّ الله! ألست بصاحب أبي تراب[٢]؟

فقال: بلىٰ، لا أعتذر منه.

قال: ما أراني إلّا متقرّباً الىٰ الله بدمك.

قال: إذن، لايقربك الله منه، بل يباعدك.

قال: شيخ قد ذهب عقله. وخلّىٰ سبيله.



ثم أمر ابن زياد عليه اللعنة برأس الحسين فطافوا به في الكوفة، وكان هذا الرأس الشريف أول رأس حمل في الإسلام علىٰ خشبة[٣].

ويقول ابن الأثير في ذلك: «وإني لأعد من سيّئات بني أمية ـ ومنهم معاوية ـ أن

١. انظر الارشاد ٢: ١١٧، الكامل في التاريخ ٤: ٨٣.
٢. يقصد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.
٣. انظر الكامل في التاريخ ٤: ٨٣.

يرخّصوا لولاتهم في المعاقبة بالقتل، وكان سبيلهم أن يكون العقاب علىٰ يد الخليفة لا الوالي، فإنّ الترخيص بذلك جرّأ أمثال زياد و سمرة بن جندب و عبيدالله على الإكثار من القتل، لموجبٍ و لغير موجب».

رحلة إلى الشام

أمر اللعين عبيدالله بن زياد، فأرسل رأس مولانا الإمام الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه، مع زحر بن قيس[1] ومعه جماعة إلى الشام حيث يزيد بن معاوية في مقرّ حكمه، كما أرسل النساء والصبيان من أهل البيت النبوي الكريم محمولين علىٰ أقتاب الجمال، وفيهم زين العابدين علي بن الحسين، مغلول اليدين والرقبة.

فلمّا قربوا من دمشق دنت السيدة أم كلثوم رضي الله عنها من شمر بن ذي الجوشن وكان ضمن جماعة ابن زياد، وقالت له: لي حاجة!

قال: ما هي؟

قالت: إذا دخلت البلد «دمشق»، فاحملنا في دربٍ قليل النظارة، وتقدّم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحونا عنها، فقد خُزينا من كثرة النظر إلينا ونحن في هذه الحال.

ولكنّ اللعين شمر، أمر بعكس ما سألته السيدة أم كلثوم، بغياً وعدواً وعتوّاً علىٰ أهل البيت النبوي الكريم، وسلك بهم علىٰ تلك الصورة الدروب الواسعة، حتّىٰ وصلوا باب دمشق حيث يكون السبي!

ويقول ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ: ولمّا بلغوا دمشق دخل زحر بن قيس علىٰ يزيد بن معاوية، فسأله قائلاً: ما وراءك؟

---

١. وقيل: مع شمر، ومعه ابن مرّة العايذي، من عايذة قريش. انظر في ذلك تاريخ ابن الأثير ٤: ٨٣.

وقيل: غير ذلك، مثل محفز بن ثعلبة، زفر بن قيس، أبو بردة وطارق وجماعة. راجع تاريخ أبي مخنف ١: ٤٩٧، الأخبار الطوال: ٢٦٠، البداية والنهاية ٨: ١٩١، المنتظم ٥: ٣٤١.

فردّ عليه قائلاً: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره! ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته، وستّين من شيعته[١]، فسرنا اليهم فسألناهم أن ينزلوا علىٰ حكم الأمير عبيدالله أو القتال، فاختاروا القتال، فعدونا عليهم من شروق الشمس، فأحطنا بهم من كلّ ناحية، حتّىٰ إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم جعلوا يهربون[٢] الىٰ غير وزر! فوالله ما كان إلّا جزر جزُور، أو نومة قائل، حتّىٰ أتينا علىٰ آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجرَّدة، وثيابهم مرمَّلة، وخدودهم معفَّرة، تصهرهم الشمس، وتسفي عليهم الريح، زوّاره العقبان والرخم بِقيٍّ سبسب[٣].

فدمعت عينا يزيد! وقال: كنت أرضىٰ من طاغيتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية! أما والله لو أنّي صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين![٤].

ويروىٰ أنّه لما ورد وفد أهل الكوفة بالرأس الشريف إلى الشام ودخلوا مسجد دمشق، أتاهم مروان بن الحكم فقال: حجبتم عن محمد ﷺ يوم القيامة، لن أجامعكم علىٰ أمرٍ أبداً. ثم انصرف عنهم[٥].

---

١. صحّة العدد كلّه: اثنان وسبعون رجلاً من أهل البيت وشيعتهم.

٢. هذا هو الفخر المزيّف والكذب الصريح، فإنّ كلّ المؤرّخين يذكرون لمن كان مع الحسين وآله ثباتاً لايضارعه ثبات، وإباءً وشمماً ندر أن يريا لمكسورٍ قلّ ناصروه ومؤيّدوه، وكثر خاذلوه وواتروه (منه).

٣. القِيّ: قفر الأرض، الخلاء. وفي نسخة: ومعى سبيهم. والسبسب: المفازة، الأرض البعيدة المستوية، لا ماء فيها ولا أنيس (لسان العرب: مادة سبسب).

٤. الكامل في التاريخ ٤: ٨٣ ـ ٨٤. ويروي ابن الأثير فيه: ٨٧ أنّه قيل: لمّا وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده، وزاده، ووصله وسرّه ما فعله، ثم لم يلبث إلّا قليلاً حتّىٰ بلغه بغض الناس له ولعنهم وسبّهم، فندم على قتل الحسين، فكان يقول:... لعن الله ابن مرجانة فإنّه اضطرّه... فبغّضني بقتله إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة، فأبغضني البرّ والفاجر بما استعظموه من قتلي الحسين، مالي ولابن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه!!

٥. وإن كان من المستبعد علىٰ مروان أن يقول هذا، لأنّه رأس كلّ المصائب، إلّا أنّها ربّما تكون صحوة ضمير بعد فوات الأوان (منه). ويذكر ابن الأثير: انّ الذي قال ذلك هو أخوه يحيىٰ بن الحكم، وليس مروان.

فلمّا دخلوا علىٰ يزيد، قال يحيى بن الحكم[١]:

لهــام بــجنب الطــفّ أدنــىٰ قــرابـة
من ابن زيــاد العــبد ذي الحَسب الوَغـل
سُــميّة أمسـىٰ نســلها عـدد الحـصىٰ
وليس الآل المصطفى اليومَ مـن نَسـل[٢]

وقيل: إنّه لمّا سمعت هند بنت عبدالله بن عامر بن كريز ـ وكانت تحت يزيد ـ ما دار من حديث زحر بن قيس وجماعته، ورأت بعينيها الرأس الشريف بين يـديه، تقنّعت بثوبها وخرجت، وقالت: يا أمير المؤمنين، أرأس الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قال: نعم، فأعولي عليه، وحدي علىٰ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وصريحة قريش، عجّل عليه ابن زياد فقتله، قتله الله!

ثم أذن للناس فدخلوا عليه والرأس بين يديه، ومعه قضيب وهو ينكت به ثغره! ثم قال: إنّ هذا وإيّانا، كما قال الحُصين بن الحُمام:

أبــىٰ قــومنا أن يــنصفونا نــصفت
قــواضبُ[٣] فــي أيــماننا تـقطر الدمـا
يـفلّقن هــاماً[٤] مــن رجــالٍ أعــزّةٍ[٥]
عــلينا وهــم كــانوا أعــقّ وأظــلما

فقال له أبو برزة الأسلمي: ويحك، أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين ابن فاطمة؟!

---

١. في الكامل: ٨٩، «يحيىٰ بن أكثم». أمّا في الارشاد ٢: ١١٩، واعلام الورىٰ ١: ٤٧٤، وكـفاية الطـالب: ٤٣٢ فكما هو مثبت في المتن.

٢. وفي رواية: وبنت رسول الله ليست بذي نسل.

٣. أي السيوف.

٤. الهام: الرؤوس.

٥. في رواية: «أحبّة» بدل «أعزّة».

أشهد لقد رأيتُ النبي ﷺ يرشف ثناياه وثنايا أخيه ويقول: «أنتما سيّدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكما، ولعنه الله، وأعدّ له جهنّم وساءت مصيرا». أما إنّك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء هذا ومحمد شفيعه، ثم قام أبو برزة فولّىٰ.

فقال يزيد: والله يا حسين، لو كنت أنا صاحبك ما قتلتك! ثم قال: أتدرون من أين أُتي هذا؟ لقد قال: أبي علي خيرٌ من أبيه، وفاطمة أُمي خيرٌ من أمّه، وجدّي رسول الله خير من جدّه، وأنا خيرٌ منه وأحقّ بهذا الأمر منه. فأمّا قوله: «أُمي خير من أُمّه» فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أُمي، وأمّا قوله: «جدّي رسول الله خير من جدّه» فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرىٰ لرسول الله فينا عدلاً ولا ندّاً، ولكنّه أُتي من قبل فقهه، ولم يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾!![1].

ثم أُدخل نساء الحسين عليه والرأس الشريف بين يديه، فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الشهيد الإمام الحسين تتطاولان لتنظرا إلى الرأس، وجعل يزيد يتطاول بدوره ليستره عنهما، فلمّا رأتا الرأس صاحتا، فصاحت نساء يزيد وولولت بنات معاوية، فقالت فاطمة بنت الحسين: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟

فقال: يا ابنة أخي، أنا لهذا كنت أكره!

فقالت: ما تُرك لنا خُرص[2].

فقال: ما أتىٰ إليكنّ أعظم ممّا أُخذ منكنّ[3].

وقد تجرّأ من أهل الشام من كان حاضراً في هذا الحبس، فقام وقال: هب لي هذه الجارية[4] يا أمير المؤمنين تكون خادمة عندي!

---

١. انظر تاريخ الطبري ٤: ٦٥٧ ـ ٦٥٨، المنتظم ٥: ٣٤٣، الكامل في التاريخ ٤: ٨٥، والآية: ٢٦ من آل عمران.

٢. أي: اعتبار في الرأي.

٣. الكامل في التاريخ ٤: ٨٥ ـ ٨٦.

٤. يعني بها فاطمة بنت الحسين.

فارتعدت فرائص فاطمة[١]. وأخذت بثياب عمّتها العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها، وقالت: يا عمّتاه، أوَ تمّت وأُستخدم!!

فقالت العقيلة السيدة زينب للشامي: كذبت ولؤمت، ما جعل الله ذلك لك ولا لأميرك.

فغضب يزيد وقال: كذبت والله، إنّ ذلك لي، ولو شئت أن أفعل لفعلت.

فقالت: كلّا والله، ما جعل الله ذلك لك إلّا أن تخرج من ملّتنا وتدين بغير ديننا.

فاستطار يزيد غضباً وقال: إياي تستقبلين بهذا الكلام!! إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت السيدة العقيلة: بدين أبي وأخي اهتديت أنت وأبوك وجدّك إن كنت مسلماً.

قال: كذبت يا عدوّة الله!

قالت: يا يزيد، أنت أمير! تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك.

فاستحىٰ يزيد وسكت، فأعاد الشامي سؤاله قائلاً: هب لي هذه الجارية.

فقال له يزيد: اسكت، وهب الله لك حتفاً قاضياً[٢].

ولم يرتدع يزيد بن معاوية عن غيّه في مجلسه هذا، بل ظلّ ينكت بقضيبه الذي في يده ثنايا الإمام أبي عبدالله الحسين، ويقول:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل[٣]
فأهلّوا واستهلّوا فرحاً   ثم قالوا يا يزيد لاتشل
قد قتلنا القوم من سادتهم   وعدلنا ببدر فاعتدل

---

١. فاطمة بنت الحسين بن علي الهاشمية؛ أم عبدالله. وأمّها: أم إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله التيمية. لقّبت بفاطمة الصغرىٰ تمييزاً لها عن فاطمة الكبرىٰ بنت علي بن أبي طالب عليه السلام. تزوّجها الحسن المثنّى بن الإمام الحسن عليه السلام، وولدت له عبدالله المحض وإبراهيم والحسن المثلّث وزينب، وهي صاحبة الخطبة الشهيرة التي ألقتها على مسامع أهل الكوفة بعد مقتل أبيها عليه السلام توفّيت على الأشهر: سنة ١١٧هـ. وقيل: ١١٠هـ عن أكثر من سبعين عاماً (مرآة الجنان ١: ١٨٤، اعلام النساء: ٣٦٠ وما بعده).

٢. تاريخ أبي مخنف ١: ٥٠٠، الإرشاد٢: ١٢١، تاريخ ابن الأثير ٤: ٨٦، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

٣. الأسل: السيف.

وما أن سمعت العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها ذلك القول حتّىٰ انتصبت قائمة تردّ علىٰ يزيد قائلة في خطبةٍ تعدّ من أبلغ الخطب وأفصحها، عليها أنوار الحقّ، خطبة علوية فاطمية، فتقول رضي الله تعالى عنها:

خطبة علوية زينبية

«الحمد لله ربّ العالمين، وصلّي الله علىٰ رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا ٱلسُّوءىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠]، أظننت يا يزيد حين أُخذ علينا بأقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الأُساريٰ، أنّ بنا هواناً على الله، وبك عليه كرامة وأنّ ذلك لعظيم خطرك عنده، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، تضرب أصدريك[١] فرحاً، وتنفض مذوريك[٢] مرحاً، جزلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوثقة والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا؟! فمهلاً! أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؟

أمن العدل يابن الطلقاء[٣]، تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهنّ، وأبديت وجوههنّ، تحدوا بهنّ الأباعر من بلدٍ إلى بلد، ويستشرفهنّ أهل المناهل والمناقل، ويتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد، والدنيّ والشريف، ليس معهنّ من رجالهنّ ولي، ولا من حماتهنّ حمي؟

وكيف يرتجىٰ مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء؟!

---

١. أصدريك: منكبيك.

٢. المذوران: جانبا الأليتين، ولا واحد لها، وهي كناية عن البغي المفرط، والفرح الشديد بذلك.

٣. الطلقاء: هم أبو سفيان ومعاوية وبقية الأمويين الذين أطلقهم رسول الله ﷺ يوم الفتح، وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وبهذا صاروا موالي له هم وذرّيتهم الى يوم القيامة.

وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن، والإحن والأضغان، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

فأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لاتشل

منحنياً علىٰ ثنايا أبي عبدالله، سيّد أهل الجنة، تنكتها بمخصرتك؟!

وكيف لاتقول ذلك وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرّية محمد صلى الله عليه وآله، ونجوم الأرض من آل عبدالمطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنّك تناديهم؟

فلتردنّ وشيكاً موردهم، ولتودّنّ أنّك شللت وبكمت، ولم تكن قلت ما قلت، وفعلت ما فعلت.

اللّهم خذ لنا بحقّنا، وانتقم ممّن ظلمنا، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا.

فوالله يا يزيد، ما فريت إلّا جلدك، ولا حززت إلّا لحمك، ولتردنّ على رسول الله صلى الله عليه وآله بما تحمّلت من دماء ذرّيته، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلمّ شعثهم، ويأخذ بحقّهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وحسبك بالله حاكماً، وبمحمد صلى الله عليه وآله خصيماً، وبجبريل ظهيراً، وسيعلم من سوّل لك وأمكنك من رقاب المسلمين ـ بئس للظالمين بدلاً ـ أيّنا شرّ مكاناً وأضعف جنداً.

ولئن جرت على الدواهي مخاطبتك، إنّي لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستنكر توبيخك، لكن العيون عبرىٰ، والصدور حرىٰ، وما يجزي ذلك أو يغني، وقد قُتل أخي الحسين، ألا إنّ حزب الشيطان يقرب إلىٰ حزب السفهاء، ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاك محارم الله.

ألا فالعجب كلّ العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء! فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الذواكي

تنتابها العواسل[١] وتعفرها أُمّهات الفراعل[٢].

ولئن اتّخذتنا مغنماً، لتجدنّ وشيكاً مغرماً، حين لاتجد إلّا ما قدّمت يداك، وما ربّك بظلّام للعبيد، وإلىٰ الله المشتكىٰ وعليه المعوّل.

فكد كيدك، وآسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لاتمحو ذكرنا، ولاتميت وحينا، ولاتدرك أمدنا، ولاترحض عنك عارها، وهل رأيت إلّا فندا[٣]، وأيامك إلّا عـدداً، وجمعك إلّا بدداً، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين.

فالحمد لله ربّ العالمين الذي ختم لأوّلنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، نسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويـوجب لهـم المـزيد، ويـحسن عـلينا الخلافة، إنّه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

لم يستطع يزيد بن معاوية، مع ما هو عليه من سلطان ومُلك وهيبة يخشاها أكثر الناس أن يقاطع العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها، أو أن يمنعها من الاستمرار في الكلام ـ رغم أنّه من لاذع القول وشديد التقريع ـ مع علم السيدة زينب أنّها في ذلّة الأسر، وأنّها كانت دامية القلب، باكية الطرف، ممّا مرّ بها من أحداث جسام.

إنّه لموقف عظيم لايحتاج إلىٰ برهان للتدليل علىٰ شجاعتها رضـي الله تـعالى عنها، وعلىٰ قوّة حجّتها، إذ مثلّت في موقفها هذا الحقّ تمثيلاً صحيحاً، وأضاءت إلىٰ طلّاب المعرفة والحقيقة سبيلاً واضحاً.

إلّا أنّ يزيد بن معاوية أراد أن يخرج من هذا المأزق الذي وقع فيه، والحـرج الشديد الذي أصابه من افتضاح حقيقة أمره، فلم يستطع أن ينطق بغير هذه الكلمة:

يا صيحة تُحمد من صوائح ما أهون النوح على النواح

ثم أمر، فأخرج النساء وأُدخلن دور يزيد، فلم تبقَ امرأة من آل يزيد إلّا أتتهنّ،

---

١. العواسل: الذئاب.

٢. الفراعل: الضباع.

٣. أي: كذباً.

وأقمن مأتماً على الضحايا الشهداء.

وقد سألن يزيد عمّا أُخذ منهنّ، فأضعفه لهنّ حتّى قالت السيدة سكينة ابنة الإمام الحسين رضي الله تعالى عنهما: ما رأيت كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية![1].

أمّا زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما، فكان قد أُدخل علىٰ يزيد وهو مغلول الأيدي، فقال ليزيد: «لو رآنا رسول الله صلى الله عليه وآله مغلولين لفكّ عنّا».

قال: صدقت، وأمر بفكّ غلّه.

فقال علي: ولو رآنا رسول الله صلى الله عليه وآله بُعَداء لأحبّ أن يقرّبنا.

فأمر يزيد فقرب منه، وقال: إيه علي بن الحسين، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت.

فقال علي: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فقال يزيد: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

فقال علي: «هذا في حقّ من ظلم، لا من ظُلم»[2].

ثم سكت عنه، وأمر بإنزاله وأهل بيته ـ بعد أن خرجن من عند نساء يزيد ـ في دار خاصّة، وكان يدعوه للطعام معه سواء في الغداء أو العشاء. فدعاه مرّةً ومعه ابن الحسن [عمرو] وهو صبي، فقال له يزيد بن معاوية وهو يشير إلى ابنه خالد: أتقاتل هذا؟

فقال عمرو: أعطني سكّيناً وأعطه سكّيناً حتّىٰ أقاتله!

---

١. الكامل في التاريخ ٤: ٨٦. ربّما يبدو من هذه الرواية عطف يزيد ورقّته على أهل البيت عليهم السلام لدرجة أن قالت سكينة بنت الإمام الحسين عليه السلام ـ لو صحّ الخبر ـ هذا الكلام. غير أن ابن قتيبة يروي الرواية هكذا: «ان يزيد غضب ـ من جواب الإمام علي بن الحسين عليه السلام ـ وجعل يعبث بلحيته، وقال، ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يا أهل الشام: ما ترون في هؤلاء؟... فقال النعمان بن بشير: يا أمير... اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله صلى الله عليه وآله لو رآهم بهذه الحال...». الإمام والسياسة ٢: ١٢ ـ ١٣.

٢. الكامل في التاريخ ٤: ٨٦ ـ ٨٧، الإمامة والسياسة ٢: ١٢ ـ ١٣.

فقبّله يزيد وضمّه إليه وقال: شنشنة أعرفها من أخزم، وهل تلد الحيّة إلّا حيّة؟![١و٢]

ويروي أبو الديلم: أنّه لمّا جيء بعلي بن الحسين إلىٰ دمشق فيمن جاء معهم، فأُقيم علىٰ درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرني الفتنة.

فقال علي: «أقرأت القرآن؟».

قال: نعم.

قال: «أقرأت آل حم؟».

قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم.

قال: «أما قرأت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؟»

قال: وإنّكم لأنتم هم؟

قال: «نعم»[٣].



ولقد اطمأنّ يزيد بن معاوية علىٰ ملكه بعد ما حدث للإمام الحسين عليه السلام، واستتبّ له الأمر، فرضي عن اللعين عبيدالله بن زياد، وزاده ووصله، وسرّه منه ما فعل. إلّا أنّ هذا لم يدم طويلاً، إذ كبر على الناس ما جرىٰ للشهيد العظيم الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره، فكرهوا يزيد وحكمه، وأبغضوه ولعنه وسبّوه.

ولمّا بلغه ما وصل إليه حال الناس ندم علىٰ قتل الإمام الحسين وصحبه رضي الله تعالى عنهم جميعاً، فصار يقول:

---

١. الكامل في التاريخ ٤: ٨٧، الأخبار الطوال للدينوري: ٢٦١ وفيه: «أعطني سيفاً، واعطه سيفاً حتّىٰ أقاتله، فتنظر أيّنا أصبر». والشنشنة: الطبيعة والسجيّة. وأخزم: اسم ولدٍ كان عاقّاً لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدّهم أيضاً وزادوا عليه أن ضربوه وأدموه، فقال: إنّما هو شنشنة أعرفها من أخزم، فصار مثلاً.

٢. ولو أنصفه اللعين يزيد لقال: إنّ ذلك الشبل من ذاك الأسد.

٣. كتاب الفتوح لابن أعثم ٥: ٢٤٢ ـ ٢٤٣، مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٦١، اللهوف على قتلى الطفوف: ١٠٠، مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٤٤٩ نقلاً عن تفسير ابن كثير والآلوسي.

ـ وما عليّ لو احتملت الأذىٰ، وأنزلت الحسين معي في داري، وحكمته فيما يريد وإن كان في ذلك وهن في سلطاني؛ حفظاً لرسول الله ﷺ، ورعايةً لحقّه وقرابته، لعن الله ابن مرجانة فإنّه اضطرّه، وقد سأله أن يضع يده في يده أو يلحق بثغرٍ حتّىٰ يتوفّاه الله، فلم يجبه إلىٰ ذلك فقتله، فبغّضني بقتله إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة، فأبغضني البرّ والفاجر بما استعظموه من قتل الحسين، مالي ولابن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه.

بيان الحقيقة واجب

كأنّي بالقارئ الكريم وهو يطالع فصول هذه المأساة الأليمة التي روّعت الأمة الإسلامية، وصدعت قلوب أبنائها في القرن الأول الهجري، كأنّي بالقارئ الكريم وقد ارتسم علىٰ وجهه من علامات الاستفهام ما ينمّ عن حزنٍ عميقٍ، وحيرةٍ شديدةٍ ودهشةٍ بالغة، تثير في خاطره سيلاً من الأسئلة عن هذا الذي حدث لبيت النبوّة، كيف حدث أنّ أهل البيت قد أشاد الله تعالىٰ بذكرهم، وأثنىٰ في القرآن الكريم عليهم، فكيف تعرّضوا للقتل والإبادة بتلك الصورة البشعة التي تقشعرّ الأبدان من هولها؟ وأين ما تكفّل الله به لأوليائه من رعايتهم وحمايتهم ونصرتهم؟ ومن أولىٰ من الحسين وأهل بيته رضي الله تعالى عنهم جميعاً بتلك الرعاية، وتلك الحماية، وتلك النصرة؟!

ألا هوّن عليك أيها القارئ الكريم، فإنّ الله تعالى لم يرد بالإمام الحسين وأهله الطيّبين الطاهرين إلّا خيراً، إنّه تعالىٰ أراد أن يجعلهم في مستوىً مع أنبياء بني إسرائيل ورسلهم، وهؤلاء قد طغى الظلمة والجبّارين من اليهود عليهم، فأمعنوا فيهم قتلاً وتمزيقاً، وتحريقاً وإبادةً، فقتلوا زكريا ويحيىٰ وشيعاء وأرمياء وعدداً كبيراً من كرام الأنبياء.

وقد روي[١]: أنّ زكريا عليه السلام لاذ من قاتليه بشجرة، فانفتحت له ودخل في جوفها، ولكنّ الطغاة البغاة أعملوا فيها بمناشيرهم حتّىٰ نشروه وهو في داخلها، وشطروا جسمه شطرين، فلم ينقص ذلك من درجة الشهادة إلىٰ جانب مرتبة النبوّة، فكان نبيّاً وكان شهيداً، وحاق بالظَلَمة ما بين الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقد وصف النبي صلى الله عليه وآله بعض ما تعرّض له المؤمنون من قبل، وذلك حين جاء خباب بن الأرتّ يشكو إليه ما كان يعانيه هو ورفاقه من تنكيل كفّار قريش بهم، فقال صلى الله عليه وآله: «اصبروا، فقد كان يؤتىٰ بالرجل ممّن قبلكم، فيُنشر بمنشارٍ من حديد من قمّة رأسه إلىٰ أخمص قدمه، ما يصرفه ذلك عن دين الله»[٢].

وفي القرآن الكريم إشارة إلىٰ طوائف من المؤمنين بغىٰ عليهم الكفّار، فحفروا لهم أخاديد في الأرض ملأوها ناراً، ثم أخذوا يعرضون عليهم الارتداد عن الإسلام فيأبون، فيقذفون بهم في تلك الأخاديد، ويجلسون للتفرّج عليهم وهم يحترقون، ومن هؤلاء: ابن ماشطة فرعون، فإنّه لمّا أراد فرعون أن يقذف به في النار، وخشيت عليه أُمّه، أنطق الله تعالى لسانه وهو طفل رضيع، وقال لها: تقدّمي يا أمي ولا تتقاعسي، فإنّك علىٰ الحقّ، فتقدّمت واحترقت، ولم تستغرق عملية احتراقها إلّا لحظات قصيرة، من بعدها تفتّحت لها ولرضيعها أبواب الجنّة، ينعمان بقصورها وأنهارها، وأشجارها وثمارها، وكلّ ما فيها.

فإذا كان الإمام الحسين عليه السلام ومن معه من بني هاشم قد لاقوا ما لاقوا من بغي الباغين، وظلم الظالمين، فإنّ ذلك لم يكن لهوان لهم على الله تعالى، إنّ الله تعالى

---

١. رواه ابن الأثير في تاريخه ١: ٣٠٦.

٢. أخرجه البخاري ٣: ١٣٢٢ من كتاب المناقب ب٢٢ علامات النبوة في الاسلام، حديث ٣٤١٦، و: ١٣٩٨ من كتاب فضائل الصحابة ب٥٨ ما لقي النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه من المشركين بمكة حديث ٣٦٣٩.

رفعهم إلىٰ أعلىٰ علّيّين، وجعل أعداءهم في أسفل سافلين.

وفي اعتقادي أنّ الله تعالى لم يرد للإمام الحسين عليه السلام أن يكون والياً لأمور الدنيا؛ لأنّه لو تولّاها لكان واحداً من الخلفاء الراشدين، ولحكمة لا يعلمها إلّا الله. اقتضت المشيئة الإلهية ألّا يتجاوز عهد الخلفاء الراشدين أكثر من ثلاثين عاماً[1] بعد الرسول صلى الله عليه وآله. فلو أصبح الإمام الحسين خليفةً لجاء في عهد غير عهده، وأوان غير أوانه. وكما قال الفرزدق الشاعر الكبير:

القدر ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء

علىٰ أنّ ما صنعه الإمام الحسين كان له نور في الأرض وذخر في السماء، فما زال يذكر عليه السلام بكلّ إجلال وإكرام، بينما خصومه لايذكرون إلّا بالرجم والشتم واللعن. وقد أصاب من قال:

لذكرك فينا يا حسين خلود بقيت به حيّاً ومات يزيد
نعم مات حتّىٰ ضلّ في الأرض قبره وليس له بين القبور وجود
ومن رجمت ذكراه من بعد موته هو الميّت لكنّ الحسين شهيد

وقد يسأل القارئ عن الأمة الإسلامية بعد مقتل الحسين، لماذا لم تغضب غضبتها ولم تثر ثورتها؟

وأقول: إنّ الأمة قد حزنت أشدّ الحزن لمّا أصاب الإمام الحسين ورفاقه، ولكنّها إذ ذاك كانت ذاخرة بالعقلاء من الرجال ما بين صحابة وتابعين، وهؤلاء رأوا أنّ الثورة آنذاك لأعداء الإسلام من اليهود والنصارىٰ، فيسرعون بالتدخّل، ويعملون بكلّ ما أُوتوا من قوة علىٰ وقف تقدّم الدعوة وانطلاقها لهداية المشرق والمغرب.

---

١. وهي مدة حكم الخلفاء الراشدين الأربعة، وكذلك الإمام الحسن. فقد بقي أبو بكر الصدّيق في الحكم سنتين وثلاثة شهور وعشرة أيام، وبقي عمر عشر سنوات وستّة شهور وأربعة أيام، وبقي عثمان إحدىٰ عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً. وبقي علي أربع سنوات وتسعة شهور. أمّا الحسن بن علي فبقي ستة شهور فقط. وهي المدة المكمّلة للثلاثين عاماً.

ففضّلوا أن تسكن الفتنة، ليتاح لدعوة الحقّ أن تشقّ طريقها في كلّ اتّجاه، فذلك أجدىٰ بكثيرٍ من ثورة عارمة لا يعلم إلّا الله تعالى مداها.

وممّا يجدر ذكره أنّ قتلة الحسين عليه السلام وأهل بيته ظنّوا أنّهم يستطيعون القضاء على الذرّية المحمدية، ولكنّ الله تعالى أحبط كيدهم.

فقد عاش زين العابدين علي بن الحسين وكثر نسله، وانتشرت في الأرض ذرّيته رضي الله تعالى عنهم جميعاً، ولايزالون حتّى الآن يعيشون في أقطار شتّىٰ من الدنيا، فهم أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ولكنّ الله تعالى أتمّ نوره على الرغم منهم.

وأمّا سيّدات بني هاشم اللاتي شهدن المأساة، فإنّ الأحداث المروّعة لم تستطع أن تطغي علىٰ إيمانهنّ و صبرهنّ، فقد بقين في الحياة وبعد الممات يملأن حياة المسلمين نوراً وهدىً، وخيراً وبركة، وفي طليعتهنّ سيّدتنا الطاهرة العقيلة السيدة زينب رضي الله تعالى عنها وأرضاها.

وقد اختارت السيدة العقيلة زينب رضي الله تعالى عنها مصر داراً لإقامتها، لما سمعته عن أهلها من محبّتهم لأهل البيت النبوي الكريم، وعظيم عطفهم ومودّتهم وولائهم لذوي القربىٰ، ولما تعرفه من أنّ مصر كنانة الله في أرضه، من أرادها بسوء من جبّار قصمه الله، ولما سمعته بما حدّثت به أُمّ سلمة، من أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصىٰ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بأهل مصر، فقال:

«إنّكم ستفتحون أرضاً يُذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإنّ لهم ذمّةً ورحماً»[1].

وفي رواية: أنّه صلى الله عليه وآله قال: «إنّكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمّىٰ فيها القيراط،

---

١. أخرجه مسلم ٤: ١٩٧٠ من كتاب فضائل الصحابة ب٥٦ وصية النبي صلى الله عليه وآله بأهل مصر ح٢٥٤٣، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٩: ٢٠٦ عن أبي ذرّ.

فإذا فتحتموها فأحسنوا إلىٰ أهلها، فإنّ لهم ذمّة ورحماً»، أو قال: «ذمّة وصهراً»[١].

وقد صحب السيّدة الكريمة في مجيئها إلىٰ مصر بعض أهل البيت الكرام. وكان فيمن صحبها من أهل البيت النبوي الكريم ـ كما يروي البعض ـ: السيدة فاطمة ابنة مولانا الحسين، ومسجدها معروف بالقاهرة باسم مسجد السيدة فاطمة النبوية، وكذلك السيدة سكينة ابنة مولانا الإمام الحسين، ومسجدها معروف بالقاهرة كذلك باسمها، وبهذا قال محمد بن عبدالله بن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم جميعاً.

وبالإسناد المرفوع الىٰ علي بن محمد بن عبدالله، قال:

لمّا دخلت مصر في سنة ١٤٥ هجرية، سمعت عسامة المعافري يقول: حدّثني عبدالملك بن سعيد الأنصاري، قال: حدّثني وهب بن سعيد الأوسي، عن عبدالله بن عبدالرحمن الأنصاري، قال: رأيت زينب بنت علي بعد قدومها بأيام، فوالله ما رأيت مثلها وجهاً، كأنّه شقّة قمر.

وبالسند المرفوع إلىٰ رقيّة بنت عامر الفهري، قالت:

كنت في من استقبل زينب بنت علي لمّا قدمت مصر بعد المصيبة، فتقدّم إليها مسلمة بن مخلد الأنصاري وعبدالله بن الحارث وأبو عميرة المزني، فعزّاها مسلمة فبكىٰ، فبكت وبكى الحاضرون، وقالت: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

وكان مسلمة بن مخلد والي مصر، قد توجّه ومعه جماعة من أصحابه، ورهط كبير من أعيان مصر وعلمائها ووجهائها وتجّارها؛ ليكونوا في شرف استقبال السيدة زينب رضي الله تعالى عنها عندما تطأ قدماها الشريفتان أرض الكنانة، فاستقبلوها جميعاً استقبالاً حافلاً يليق بمقامها الكريم، عند قريةٍ علىٰ طريق مصر

---

١. أخرجه مسلم ٤: ١٩٧٠ من كتاب فضائل الصحابة ب٥٦ وصية النبي صلى الله عليه وآله بأهل مصر ح٢٢٧/٢٥٤٣، وأحمد في المسند ٥: ١٧٤ كلاهما عن أبي ذرّ. وقوله: «ورحماً» لكون «هاجر» أُم إسماعيل منهم، وقوله: «وصهراً» لكون «مارية» أُم إبراهيم، زوج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله منهم.

والشام، شرقي مدينة «بلبيس» بمحافظة الشرقية. وقد عرفت هذه القرية فيما بعد باسم «القرية العباسية» نسبةً للعباسة ابنة أحمد بن طولون.

وقد وافق دخول السيدة الطاهرة مصر بزوغ هلال شعبان سنة إحدىٰ وستين هجرية، الموافق ٢٦ أبريل سنة ٦٨١ ميلادية، وكان قد مضىٰ على استشهاد شقيقها الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام ستة أشهر وأيام.

ولقد قال أحد الشعراء في اختيارها مصر داراً لإقامتها:

لمّا رجعت من الشام ليثرب ... من بعد فاجعة الإمام الحسينِ

طلبوا إليك الظعن للبلد الذي ... تستوطنينه خارج الحرمينِ

فاخترت مصر فرحبت بكِ وانثنت ... تهتزُّ من شرفٍ على الكونينِ

وقد أنزلها الوليّ هي ومن معها في داره بالحمراء القصوىٰ ترويحاً لها، إذ كانت تشكو ضعفاً من أثر ما مرّ بها، فنزلت بتلك الدار معزّزة مكرّمة، وبقيت فيها موضع إجلالهم وتقديرهم، حيث كانوا يفدون إلىٰ منزلها الكريم متلمّسين بركتها ودعواتها، مستمعين إلىٰ ما ترويه من الأحاديث النبوية الشريفة، والأدب الديني الرفيع.

وبقيت العقيلة السيّدة زينب بتلك الدار أقلّ من عام بقليل، فلم تر خلال مدة إقامتها إلّا عابدة متبتّلة متهجّدة، صوّامة قوّامة تالية لآي الذكر الحكيم.

وقد انتقلت رضوان الله عليها عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من رجب سنة اثنتين وستين من الهجرة، الموافق ٢٧ مارس سنة ٦٨٢ ميلادية، فمهّدت لها الأرض الطاهرة مرقداً ليّناً في مخدعها من دار مسلمة، حيث أقامت، وحيث اختارت أن تلقىٰ فيها ربّها الكريم؛ ليكون مضجعها الأخير [١].

---

١. اختلف المؤرّخون في قبرها عليها السلام على ثلاثة أقوال:

الأول: أنّها دفنت في مدينة جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله. ومال إلى ذلك المرحوم السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة، مستدلاً بأنّه قد ثبت دخولها إلى المدينة، ولم يثبت خروجها.

الثاني: أنّها عليها السلام قد دُفنت في قرية بضواحي الشام. ذهب إليه ثلّة من العلماء والمؤرّخين، منهم: ←

وصار مقامها حيث ووريت الثرىٰ مزاراً مباركاً يفد إليه المسلمون من كلّ حدب وصوب، يتبرّكون به ويسألون ربّهم فيه صالح الدعوات.

وفي هذا المقام الطاهر المعروف بالحرم الزينبي أو المسجد الزينبي أو مسجد السيدة زينب، حيث أُطلق على الحيّ كلّه، يقول الشاعر:

هـذا ضـريح شـقيقة القـمرين ... بـنت الإمـام شـريفة الأبـوينِ

وسـليلة الزهـراء بـضعة أحـمد ... نـور الوجـود وسـيّد الثـقلينِ

نسبٌ كـريمٌ للـفصيحة زيـنب ... شمس الضحىٰ وكريمة الداريـنِ

هذا قبس من تاريخ حياة العقيلة الطاهرة، سليلة المجد وزهرة أهل البيت السيّدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، ومنه نقف علىٰ ما غمض من حياة جرى النبل في ركاب صاحبتها، وتسابقت الفضائل بين يديها، وتكاملت الصفات في ثناياها، وانطبعت محامد الخصال علىٰ لألاء صفحتها، وتفجّرت جلائل الأعمال من ينبوع همّتها.

سيّدة كانت و لاتزال فخر النساء، حملت علم الجهاد، وشاركت الرجال في الضرّاء، وألزمت أعداءها الحجّة ببليغ منطقها، وفصيح خطابها، فباتوا يخشون علىٰ سطواتهم وجبروتهم بأسها، ويعملون ألف حساب لحماستها، ولكن لم يغنهم حسابهم، ولم يفدهم تدبيرهم نفعاً.



← المقريزي، وصاحب كتاب لواقح الأنوار، وابن بطوطة، وياقوت الحموي، وابن جبير في رحلته.

والثالث: أنّها دُفنت في مصر. ونقل هذا عن جماعة، منهم: العبيدلي، وابن عساكر، وابن طولون...

والحقيقة هي أنّ المشهد الذي بمصر هو مشهد أم كلثوم بنت علي عليه السلام، والمشهد الذي بالشام هو مشهد السيدة زينب الكبرى عليها السلام، وقد تسلّمته الشيعة يداً عن يد، وجيلاً عن جيل. وللسيد الحجّة عبدالحسين شرف الدين مقالة مسهبة في هذا السياق، كتبها بمناسبة وصول الضريح الأثري الذي تبرّع به المرحوم محمد حبيب الباكستاني، ونُصب على قبر السيدة زينب في قرية «الستّ» من ضواحي الشام، تحت عنوان «مشهد العقيلة». انظر عقيلة بني هاشم لعلي بن الحسين الهاشمي الخطيب: ٦٩.

أم الشهداء

زينب بنت الإمام علي عليها وعلى أبيها السلام[1]

صافيناز كاظم

إن كنتُ قد قُتلت بكاءً عند أُمّك فاطمة، فكيف يكون حالي عندك يا زينب بنت علي؟ إلّا أنّ الدموع لم تكن قطّ لترضيك، فكرهتها لمّا أتيتك، وبلعتها ناراً.

وأمسكت شهقاتي، مكظومة، لأقف وراءك، أتعلّم كيف يكون الفعل حين لا يكون الوقت لائقاً للبكاء، وكيف يغرق الصدق في انهمار الدمعة الكذوب من عين الذي قَتل، والذي سلب، والذي انحاز للصمت، فجرت الدماء من تحت أنفه ولم يحرّك ساكناً، ثم أتىٰ والرؤوس على الحراب، والخيام محروقة، والحرائر الكريمات سبايا، ثم أتى: يبكي!



حين سال النفاق دمعاً واختلط البكاء، سقطت معاني الشفقة، وأدركتها من فورك أنّ هذا البكاء مريب، فرفضت يا زينب المواساة، ورأيت العداء في النحيب، كما رأيته في النبال الساقطة علىٰ «عترة» جدّك المفدّىٰ، والسيوف الذابحة أهل بيته،

١. مقتبس من كتاب «رساليات في البيت النبوي»، ط. دار الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ١٩٨٧م.

وصوته الشريف ما زال يطوف بالضمائر: «أُذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي»[١].

يجلجل صوتك يا ابنة رسول الله ﷺ، صوتك الذي عرفته الليالي متبتّلاً خاشعاً ذاكراً، يجلجل صوتك حاسماً صارماً:

«صه يا أهل الكوفة! يقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم يا أهل الكوفة؟! يا أهل الختل والغدر، أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم... ألا بئس ما قدّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون و تنتحبون؟ أي والله... فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، لقد ذهبتم بعارها و شنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً، وأنّىٰ ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة! مدرة ـ المدافع عن ـ حجّتكم، ومنار محجّتكم، وملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، وسيّد شباب أهل الجنة، ألا ساء ما تزرون!

فتعساً ونكساً، وبُعداً لكم وسُحقاً، فلقد خاب السعي وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة!

ويلكم يا أهل الكوفة! أتدرون أيّ كبدٍ لرسول الله ﷺ فريتم، وأيّ كريمةٍ له أبرزتم، وأيّ دمٍ له سفكتم، وأيّ حرمةٍ له انتهكتم؟

لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشقّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً... فلايستخفنّكم المهل، فإنّه لايحفزه البدار، ولايخاف فوت الثار، وإنّ ربّكم لبالمرصاد!»[٢].

---

١. رواه مسلم ٤: ١٨٧٣ من كتاب فضائل الصحابة ب ٤ فضائل علي بن أبي طالب ح٣٦، والبيهقي في السنن ٢: ١٤٨ و٧: ٣١ و١٠: ١١٤ عن زيد بن أرقم.

٢. من خطبتها الغرّاء لأهل الكوفة حينما سيقت السبايا إلى عبيدالله بن زياد بن أبيه والي يزيد على الكوفة. نقلتها أغلب كتب التاريخ والسيرة.

ووراءك يا زينب كربلاء، كرب وبلاء، لتوّك تركتها: مصّاصة دم شريف، وآكلة أجساد عطرة: «... ثلاثة وسبعون شهيداً ثبتوا أمام أربعة آلاف حتّىٰ قُتلوا عن آخرهم»!

عون ابن زوجها عبدالله بن جعفر وأخوه محمد، وإخوتها من أبيها، أولاد علي: العباس، وجعفر، وعبدالله، وابنا أخيها الحسن: أبو بكر والقاسم، وبنو عمّها عقيل: جعفر، وعبدالرحمن، وعبدالله، وغيرهم، وعلىٰ رأسهم جميعاً سبط الرسول: الحسين، استشهد الجميع بين ذراعيها وهي تقول: «اللّهم تقبّل منّا هذا القليل من القربان»!

هطل الجور والعسف، وغرور الدنيا علىٰ أرض كربلاء مطراً نجساً، ترتوي منه بذور حقد جاهلية، كان الإسلام قد دفنها طيّ سماحته حين كانت: «اذهبوا فأنتم الطلقاء!» حمامة يطلقها الرسول صلى الله عليه وآله لترفرف بالرحمة فوق الثأر، وفوق عدل القصاص!

وكان حتماً أن يروي مطر الجور بذرة الحقد القديم، فتينع كربلاء!

وكربلاء بذرة كانت في صلب الاستهزاء الفظّ بالنبي الكريم، وتكذيبه، وإيذائه بكرش البعير!

كربلاء كانت سطراً في حلف قريش الذي فرض حصار الجوع والعطش على العصبة المؤمنة في شعب أبي طالب.

وكربلاء كانت رنيناً في صرخة أبي جهل: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتّىٰ إذا تجاثينا على الركب وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ تدرك هذه؟! والله لانؤمن به أبداً ولانصدّقه»!

وكربلاء كانت في نفر القبائل الذي اجتمع ليقتل محمد بن عبدالله، الذي ظنّوه نائماً، فإذا النائم علي بن أبي طالب، المفتدي بروحه حياة نبيّه ورسوله ومربّيه، ابن عمّه وأخيه: محمد الأمين صلى الله عليه وآله.

وكربلاء كانت رمحاً في قتلة الغدر بحمزة يوم أُحد!

وكربلاء كانت دقّات على دفوف النساء المشركات، يرقصن على جثث شهداء المسلمين! يقطعن الآذان والأنوف يعلّقنها أقراطاً وقلائد، ويبقرن البطون يمضغن الأكباد، وقائدهم أبو سفيان يقول للنبي وأصحابه: «اعل هبل، الحرب سجال، يوم بيوم بدر!». ويكاد يكرّرها حفيده يزيد بعده بنصف قرن، حين تسقط بين يديه رؤوس الشهداء من أحفاد النبي وأحفاد أصحابه، فيتغنّى بأبيات من شعر الشماتة:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا، واستهلّوا فرحاً ... ثم قالوا: يا يزيد لاتشل!

لكنّ الله أعلى وأجلّ! فيشاء سبحانه وتعالى أن يظلّ قول نبيه المبعوث للعالمين أمام عناد المشركين من قريش: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته أو أهلك دونه».

يظلّ هذا القول رايةً نبويةً، يحملها علي ويستشهد تحتها، ويحملها أبناؤه: الحسن ثم الحسين، وكوكبة من نجوم أهل البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيراً، ومعهم صحابة أبرار من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدّلوا تبديلاً، ووراءهم على طول الزمن الإسلامي، ومن مشارق الأرض ومغاربها تأتي قوافل من أبناء الإسلام، لاتنتهي ولاتنفد، بل تنمو وتربو كلّما اشتدّ الحصار وسقط الشهداء.

فلايمكن للشهيد أن يحدّد نسله، وقد جعله الله أكثر الرجال خصوبةً، وما زال الإسلام الولود يكثر أبناؤه على طريق دين الله، والراية النبوية مرفوعة أبداً تتبادلها الأيدي: «والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته أو أهلك دونه!».



وردة طفلة تولد في بيت النبوة في شعبان في السنة الخامسة للهجرة، ويسمّيها الرسول المفدّى: زينب.

ومع الفرحة تكون النبوءة: هذه الطفلة النبوية تنتظرها من أيام الجهاد أشقّها وأثقلها على القلب وطأةً «... فهم يذكرون أنّ سلمان الفارسي أقبل علىٰ عليّ بن أبي طالب يهنّئه بوليدته، فألفاه واجماً حزيناً، يتحدّث عمّا سوف تلقى ابنته في كربلاء...!»[١].

وتحت ظلال هذه النبوءة تنمو زينب في كنف الرسول مع أُمّها فاطمة سنوات خمساً، أو تقارب الستّ، وتدرج طفلة رصينة ناضجة، لاتفارق أمّاً مجاهدة متبتّلة، تسابقها في إسباغ الوضوء، وتلاحقها في إقامة الصلاة، ترشف وتتعلّم، وتحاكي كلّ حركة وسكنة تفعلها الأمّ البتول التي هي أشبه خلق الله بالرسول صلى الله عليه وآله.

وفاطمة تحتضن زينب بين ابتسامة ورقرقة دمعة، تدعو لها: «جعل الله فيك الخير يا زينب، وفي أبنائك البَرَرَة الأتقياء، وكأنّي يا ابنتي أنظر إليك وأنت تدافعين عن الحقّ المهضوم، بمنطقٍ فصيحٍ ولسانٍ عربيٍّ مبين».

ثم تأتي اللحظة التي تلحق فيها الأم القدوة بأبيها العظيم في رحاب الله، حزينة، غاضبة، وقد أوجعها أن ترى الحقّ يخرج من مكمنه، وبشفافية التقىٰ والتبتّل تراه، وقد استدرجته الأهواء؛ ليكون كرةً تتقاذفها العاصفة الفاتنة، التي سوف يستشهد فيها زوجها وأبناؤها وأهل بيتها، صرعىٰ مجندلين[٢]، لايؤنسهم إلّا الحقّ في وحشة الطريق.

وغريب: لاتشعر زينب بثقل هذا اليتم الرهيب المبكّر، حين يفقد الإنسان أُمّاً ليست ككلّ الأُمّهات، فكأنّها استثقلت علىٰ أمّها مواصلة الحياة بعيداً عن النبي المفدّىٰ، فآثرت لها سعادة اللقاء به علىٰ مرارة الفراق عنها، فداء لها، وبرهان حبّ سخي.

وتوصيها فاطمة في ثقةٍ واحترامٍ أن تكون «أُمّاً لأخويها: الحسن والحسين»!

وتنفّذ زينب الوصية بدقّة والتزام، فتكون أُمّاً حقيقيةً، وهي لم تتجاوز السادسة، لاتفارق أخويها، حتّىٰ بعد زواجها وزواجهما، لتبقىٰ دائماً أُمّاً لهما، ثم لتصير من بعد ذلك أُمّاً للشهداء في كلّ زمان ومكان!

---

١. عن كتاب «السيدة زينب بطلة كربلاء» للدكتورة بنت الشاطئ: ٣٠ ط. دار الهلال، القاهرة (المؤلّفة).

٢. مجندل: ممدّد.

وأغمض عيني وأطرد من ذهني كلّ أوصافها التي خاض فيها المؤرّخون والرواة والكتّاب ـ سامحهم الله ـ فلا أرىٰ تفصيل هيئة أو وجه، لكنّني أراها:

خديجة تعود... خديجة السكن الرؤوم!

ويدخل بيت علي ثماني نساء زوجات له بعد فاطمة الزهراء، معظمهنّ أرامل شهداء، وإخوة في الجهاد، أو يتيمات كريمات، سوف يجدن في بيت إمام العلم حمايةً ورعايةً وتربية، وإعداداً طيّباً ليكنّ رساليات حاملات للعلم والفقه.

ويحتفظ بيت علي لزينب بموقعها: أُمّاً لأخويها، وتلميذةً لباب مدينة العلم النبوي، فتجلس بين يدي أبيها علي يعلّمها تفسير بعض الآيات، ويأخذه الحديث إلىٰ ما ينتظرها من دور خطير، فتومئ زينب برأسها، «أعرف ذلك يا أبي... أخبرتني أُمي!».

وتسمع عن أنس بن مالك يقول: «كنت عند النبي ﷺ، فرأىٰ علياً مقبلاً، فقال: يا أنس، قلت: لبيك، قال: هذا المقبل حجّتي علىٰ أمتي يوم القيامة» لم أجد له أصلاً فتأخذها المسؤولية منذ البداية، لكي لايفوتها من أبيها ما لم تستطع أن تأخذه مباشرةً من جدّها رسول الله، وخاتم أنبيائه، وقد عرفت قول الرسول المفدّىٰ: «علي منّي بمنزلة هارون من موسىٰ، إلّا أنّه لا نبي بعدي»[١].

فتعلّمت بعلم أبيها الذي وصفه ابن عباس: «والله لقد أُعطي علي تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم في العشر العاشر»!

وحفظت بلاغته، وحكمته، ومأثوراته في القضاء:

أُتي عمر بامرأةٍ حاملٍ قد اعترفت بالفجور، فأمر برجمها، فردّه علي وقال: هذا سلطانك عليها، فما سلطانك علىٰ ما في بطنها؟ ولعلّك انتهرتها أو أخفتها، قال: قد كان ذلك، قال: أَوَ ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا حدّ علىٰ معترفٍ بعد بلاء، إنّه

---

١. أخرجه الكثير من الحفّاظ، وأصحاب الصحاح، وذكره أصحاب التواريخ عند الكلام عن غزوة تبوك عن عدّة من الصحابة.

من قيد أو حُبس أو تهدّد فلا إقرار له. فخلّىٰ عمر سبيلها[1].

ويزوّجها أبوها الإمام علي من ابن عمها عبدالله بن جعفر، الذي قال عنه فقراء المدينة: ما عرفنا ما السؤال إلّا بعد وفاة عبدالله بن جعفر! وكان والده هو جعفر بن أبي طالب، الذي اشتهر باسم «جعفر الطيّار» إذ بشّر الرسول صلوات الله عليه أرملته بعد استشهاده بأنّ الله قد أعطاه جناحين في الجنّة؛ ثواباً لقتاله، حاملاً الراية في غزوة مؤتة في جهادٍ أمر به الرسول المفدّىٰ ضدّ الروم، وظلّ جعفر يقاتل حاملاً الراية حتّىٰ قُطعت يداه واستشهد، وبه ما يزيد عن التسعين طعنة!

وأنجبت السيدة زينب من عبدالله بن جعفر: محمداً المسمّىٰ بجعفر الأكبر وإخوته عون الأكبر، وعلي الأكبر، وأُمّ كلثوم، وأم عبدالله، وقد توفّوا جميعاً دون عقب، إلّا علي الأكبر وأم كلثوم، فكان منهما ذرّية عقيلة بني هاشم[2].

إلّا أنّنا، مع أخبار هذا الزوج والأبناء، لانراها إلّا في إطار الابنة للإمام علي، والأم الملازمة لأخويها: الحسن والحسين، سيدي شباب أهل الجنّة، وقرّة عين نبيّنا المفدّىٰ، حافظة لوصيّة أُمها الزهراء، منذ كانت في السادسة من عمرها.

وعندما نراها في هذا الإطار، نجدها: العالمة، المتفقّهة، الدارسة، القارئة، الحافظة لكتاب الله العزيز، المتأمّلة في آيات الله، الزاهدة المتحرّجة من حلال الدنيا، المتصدّرة لمجالس العلم النسائية، تروي الحديث عن أُمّها وأبيها وأخوَيها، وعن أُم سلمة وأم هانئ، والمروي عنها من ابن عباس، وعبدالله بن جعفر، وعلي زين العابدين، وفاطمة بنت الحسين، والساهرة ليلاً تتهجّد: مسبّحة، داعيةً، ناطقةً بالخير والمأثورات، تقول أبياتها الشهيرة:

سهرت أعين ونامت عيون لأُمورٍ تكون أو لاتكونُ

---

١. نقلاً عن كتاب «زينب» للأستاذ علي أحمد شلبي: ٧٠ ط. المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٧م (المؤلّفة).

٢. انظر الذرّية الطاهرة للدولابي: ١٦٤.

إنّ ربّاً كفاك ما كان بالأمس — سيكفيك في غدٍ ما يكونُ
فادرأ الهمّ ما استطعت عن النفـ — س فحملانك الهموم جنونُ!

وتقول: «خفِ الله لقدرته عليك، واستحِ منه لقربه منك!».

وتنقل عن أبيها: «نعم الحارس الأجل!» حين ينصحه ناصح بأخذ حارسٍ يحميه من الخوارج.

وتردّد عنه:« ثلمة الدين موت العلماء!».

و«شرّ الولاة من خافه البريء».

و«خابت صفقة من باع الدنيا بالدين!».

و«يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم!».

وتتحاور مع أبيها الإمام فتسأله: أتحبّنا يا أبتاه؟

فيردّ قائلاً: وكيف لاأحبّكم وأنتم ثمرة فؤادي؟!

فتقول وكأنّها قد أمسكت عليه خطأً: يا أبتاه، إنّ الحبّ لله تعالى، والشفقة لنا!

محفوفة مبجّلة بأبيها وأخويها إذا أرادت الخروج، وغالباً لزيارة قبر جدّها رسول الله ﷺ، خرجت ليلاً متدثّرة بالحجاب الساتر الكامل، من الرأس حتّىٰ القدم، والحسن عن يمينها والحسين عن شمالها، والإمام علي أمامها، فإذا اقتربت من القبر الشريف، سبقها أبوها فأخمد ضوء القناديل؛ خشية أن ينظر أحد إلىٰ عقيلة بني هاشم: زينب[1].

هذه الصورة الممعّنة في الحرص الشديد على التستّر والتحجّب في عزوة الأب والأخوين، أحبّ الناس إلىٰ رسولنا المفدّىٰ، تواجهها بقسوة صورتها بعد مذبحة كربلاء، وهي مقصوصة الأب والإخوة، وكلّ رجال ومحارم بيتها، منزوعة الستر، محترقة الخباء، منهوبة المتاع، منتهكة الحرمة، يسوقها رجال عبدالله بن زياد، مكشوفة الوجه،

---

١. أعلام النساء: ٢٧٣ برواية يحيىٰ المازني، وانظر زينب الكبرىٰ للنقدي: ٢٢.

حاسرة الرأس، تسير في موكب السبايا الكريمات من بنات رسول الله صلى الله عليه وآله من كربلاء إلىٰ الكوفة، إلىٰ دمشق، إلىٰ المدينة، يتطلّع إليها وإليهنّ كلّ من غلبه حبّ الاستطلاع علىٰ حبّ اتّقاء لله بغضّ البصر رحمةً ومودّة في قربى النبي المفدّىٰ، ومنهنّ نائحات: «وامحمداه! هذا الحسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء، يا محمداه! هذه بناتك سبايا، وذرّيتك مقتلة، تسفي عليها الصبا!».

وَى لنيران الغضب من جرأة السفهاء، الذين ـ مع هذا النحيب ـ لم يكتفوا بالنظر، بل بادروا بالوصف والتغزّل في محاسن وجه بنات رسول الله صلى الله عليه وآله!



تمرّ أحداث التاريخ المعروف، وزينب في خضمها يوماً بيوم، بل لحظةً لحظة، والقضية أمامها: إسلام أو لا إسلام، حقّ أو باطل.

تأتي فتنة التآمر لقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان فيأمر علي بن أبي طالب ولديه: ـ «اذهبا بسيفيكما حتّىٰ تقوما علىٰ باب عثمان، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه...» [١].

لكنّ الأهواء ما تلبث أن تجعل الذين أثاروا النفوس علىٰ عثمان هم المطالبون بثأر عثمان، ويقفون مناوئين لخلافة إمام المتّقين، وباب مدينة العلم، معلّم الفقهاء: علي بن أبي طالب. ويعلنها بنو أُمية حرباً سافرة علىٰ بني هاشم، إحياءً لثارات الجاهلية، وطمعاً في ملك الدنيا. ويخرج الصحابي الجليل عمّار بن ياسر، وعمره تسعون سنة، يقول مهتاجاً: «أيّها الناس، سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنّهم يثأرون لعثمان، ووالله ما قصدهم الأخذ بثأره، ولكنّهم ذاقوا الدنيا واستمرؤوها، وعلموا أنّ الحقّ يحول بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من شهواتهم ودنياهم، وما كان لهؤلاء سابقة في الإسلام يستحقّون بها طاعة الإسلام، أو الولاية عليهم... ألا إنّهم ليخادعون الناس بزعمهم أنّهم يثأرون لدم عثمان، وما يريدون إلّا أن يكونوا جبابرةً وملوكاً. والذي

---

١. انظر تاريخ ابن الأثير ٣: ١٧٢ و ١٧٤ ذكر مقتل عثمان، وعلي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين لمحمد رضا: ٣٠ وما بعده.

نفسي بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ، وهأنذا أقاتل بها اليوم!»[١].

وتتحقّق نبوءة النبي ﷺ أنّ علياً سيقاتل قريشاً في سبيل الله: «... يا معشر قريش لتنتهنّ أو ليبعثنّ الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الايمان».

قالوا: من هو يا رسول الله؟

قال: «هو خاصف النعل» وكان قد أعطىٰ علياً نعله يخصفها.

أخرجه الترمذي عن ربعي بن حراش، وأخرج مثله أحمد[٢].

ويقف علي مبدئياً حاسماً، لايخشىٰ في الله لومة لائم، ويعلنها: «والله لاأُداهن في ديني، ولاأعطي الرياء في أمري».

ـ «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، لن يراني الله متّخذ المضلّين عضداً...».

ـ «ما لي ولقريش، أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنّهم مفتونين، والله لأبقرنّ الباطل حتّىٰ يظهر الحقّ من خاصرته، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجها!».

وتقضي زينب سنوات خلافة أبيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الكوفة من ٣٥هـ إلىٰ ٤٠هـ، وهو في بحر متلاطم من الصراعات والمؤامرات والفتن، والكوفة معه، كما ستكون مع بنيه، مسرفة في الوعود، متخاذلة في الأفعال، ناكثة عهودها!

حتّىٰ تأتي ضربة عبدالرحمن بن ملجم في ١٩ رمضان عام ٤٠هـ لتقضي علىٰ الإمام الشهيد بعد يومين، فينتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، لاحقاً بحبيبه وأخيه ونبيّه ورسوله ﷺ في ٢١ رمضان عام ٤٠ الهجري، ووصيّته: «يا بني عبدالمطلب، لاتخوضوا دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لاتقتلنّ بي إلّا قاتلي. انظروا إذا أنا متّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربةً ولاتمثّلوا به، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

---

١. تاريخ ابن الأثير ٣: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

٢. سنن الترمذي ٥: ٦٣٤ كتاب المناقب ب ٢٠ مناقب علي بن أبي طالب ح ٣٧١٥. مسند أحمد ٣: ٣٣ و٦: ١٠٦.

ووقف الحسن يقول في رثائه: «... والله ما ترك ذهباً ولا فضّة...»[١].

* * *

علىٰ أثر استشهاد الإمام علي بايع أهل العراق الحسن، لكنّ خلافته لم تدم أكثر من ستّة أشهر، آثر الإمام الحسن بعدها، حقناً لدماء المسلمين، أن يتركها لمعاوية؛ حتّىٰ تكفّ الفتنة، وتهدأ الأطماع، لكن هل تشبع لبني أُمية بطن؟!

يستشهد الحسن مسموماً علىٰ يد زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس، بعد أن يرسل إليها معاوية يقول: إنّي مزوّجك يزيد ابني، علىٰ أن تسمّي زوجك الحسن بن علي! لكنّه لايزوّجها يزيد خوفاً علىٰ حياته من مسممة الأزواج، ويعطيها بدلاً عن ذلك مائة ألف درهم!!

وكان هدفه من وراء قتل الإمام الحسن تمهيد الطريق لأخذ البيعة ليزيد في حياته، كاسراً لنظام الشورى الإسلامي إلىٰ وراثة قيصرية؛ لتكون ملكاً عضوضاً لبني أُمية دون المسلمين أجمعين، ومن فيهم من أفذاذ بيت النبوّة. وليبدأ أول انحراف أساسي في تاريخ الحكم الإسلامي؛ ليفرخ فيما بعد المزيد والمحزن من الانحرافات.

* * *

ويتصدّى الحسين: لا مبايعة ليزيد!

وتتسارع الأحداث نحو النبوءة التي أخبر بها رسولنا المفدّىٰ، وأبكته البكاء المرّ، قبل حدوثها بما يزيد علىٰ نصف قرن.

عن أنس بن مالك: أنّ ملكاً... استأذن ربّه أن يأتي النبي ﷺ، فأذن له، فقال لأم سلمة: أملكي علينا الباب لايدخل علينا أحد، قال: وجاء الحسين ليدخل، فمنعته، فوثب فدخل، فجعل يقعد علىٰ ظهر النبي وعلىٰ منكبه وعلىٰ عاتقه، قال: فقال الملك للنبي: أتحبّه؟ قال: نعم، قال: أما إنّ أُمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان

---

١. تناقلت كتب التاريخ والسيرة والمناقب خبر مقتله ٧ والحوادث التي وقعت آبان أيام جرحه من سنة ٤٠هـ.

الذي يُقتل فيه، فضرب بيده فجاء بطينةٍ حمراء، فأخذتها أُم سلمة فصرّتها في خمارها. قال: قال ثابت: بلغنا أنّها كربلاء.

أخرجه الإمام أحمد[١]. وفي رواية البيهقي عن أبي الطفيل[٢]. وقال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني، وإسناده حسن[٣].

وفي رواية أخرىٰ: «أنّ جبريل عليه السلام أخبر الرسول المفدّىٰ بأنّ الحسين يُقتل بشطّ الفرات»[٤].

يموت معاوية دون أن ينجح في حمل الحسين على المبايعة أو سمّه هو الآخر، ويأتي يزيد ويأمر الوليد بن عتبة[٥] واليه على المدينة بأخذ البيعة من الحسين، فيقول الحسين بحسم: «يا أمير، إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد فاسق فاجر، شارب الخمر، وقاتل النفس المحرَّمة، معلن بالفسق والفجور، ومثلي لايبايع مثله!».

ويوصي مروان بن الحكم الوليد بقتل الحسين، فيفزع الوليد: ويحك! أنت أشرت عليّ بذهاب ديني بدنياي، والله ما أحبّ أن أملك الدنيا بأسرها وأنّي قتلت حسيناً، سبحان الله! أأقتل حسيناً لما أنّه قال: لاأبايع؟! والله ما أظنّ أحداً يلقى الله بدم الحسين، إلّا وهو خفيف الميزان، لاينظر الله إليه يوم القيامة، ولايزكّيه وله عذاب أليم[٦].

---

١. مسند أحمد ٣: ٢٤٢.

٢. السنن الكبرىٰ ٧: ٣١٥.

٣. مجمع الزوائد ٩: ١٨٧، وانظر المعجم الكبير للطبراني ٣: ١٠٦ ح٢٨١٣. وفي الباب عن الطبراني بطرق عدّة عنه صلى الله عليه وآله، لكن بألفاظ قريبة. راجع ح٢٨١٤ ـ ٢٨٢٢.

٤. انظر المعجم الكبير ٣: ١٠٥ ح٢٨١١.

٥. الوليد بن عتبة بن أبي سفيان الأموي، ولي لعمه معاوية المدينة، كما ولي الموسم عدّة مرات، عرف بالاعتدال في مواقفه تجاه خصوم بني أمية، وخاصة أهل البيت عليهم السلام، ولمّا مات معاوية بن يزيد أراده أهل الشام على الخلافة، فطُعن فمات سنة ٦٤هـ. وقيل: أصابه الطاعون وهو في الصلاة، فمات!!. انظر تاريخ الإسلام للذهبي: حوادث ٦١ ـ ٨٠هـ، ص ١٩٤ ـ ١٩٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٥٣٤.

٦. ذكرت تفاصيل هذه الحادثة في كتب التاريخ والسيرة. انظر على سبيل المثال: تاريخ خليفة: ١٤٤، ←

وتتوالى التفصيلات، ويخرج الحسين من المدينة مع أهله إلىٰ مكّة، وهناك تأتيه كتب الكوفة تستحثّه على القدوم لمبايعته، والتصدّي معه لعدوان يزيد: «... إنّ الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك... العجل العجل... فأقدم إذا شئت فإنّما تقدم علىٰ جند مجنّد لك!»[١].

فيرسل إليهم ابن عمه الوضيء مسلم بن عقيل، فإذا بهم يتخاذلون حين تأتيهم فتنة عبيدالله بن زياد! ويقتل عبيدالله بن زياد مسلم بن عقيل رسول الحسين، ومعه من آواه: هاني بن عروة المرادي، وهو يقسم: قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يقتلها أحد في الإسلام![٢]

ثم يسير بالظلم يجمع الولاء ليزيد: يقتل عشوائياً في جاهلية وضراوة، لتخاذل الناس خوفاً وهلعاً، ويعمّ العراق جوّ قاتل رهيب من الفزع والذعر!

بينما الحسين في مكة يستعدّ للتحرّك إلىٰ خلفائه الذين أهـابوا بـه أن يـعجل بالمجيء إلىٰ العراق!

ويتوسّل إليه أحبّاؤه بمكّة، ألّا يذهب إلىٰ أهل الغدر، الذين خذلوا أباه وأخاه من قبل، ويقول قائل: «... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أُمية ليقتلنّك، ولئن قتلوك لايهابون أحداً أبداً!».

والحسين يستخير الله، وقدر الله سابق، فقد شاء الله أن يهلك يزيد وجنده بقتلهم الحسين، وينجو الحسين وأهله بالاستشهاد علىٰ طريق دين الله! ويقول الحسين:

ـ «ألا ترون الحقّ لايُعمل به، والباطل لايُتناهىٰ عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله

← الأخبار الطوال: ٢٢٧ ـ ٢٢٨ تاريخ الطبري ٤: ٥٤٨ ـ ٥٥٠ ،إعلام الورىٰ ١: ٤٣٤ ـ ٤٣٥، البداية والنهاية ٨: ١٤٦ ـ ١٤٧.

١. راجع تاريخ أبي مخنف ١: ٤٠٤، الأخبار الطوال: ٢٢٩، مروج الذهب ٣: ٦٤، إعـلام الورىٰ ١: ٤٣٦، تاريخ أبي الفداء ١: ٢٦٣.

٢. راجع الأخبار الطوال: ٢٤١ـ٢٤٢، الإرشاد ٢: ٦١ و٦٥، الكامل في التاريخ ٣: ٢٧٥، تذكرة الخواص: ٢٤٣.

عزّ وجلّ، وإنّي لاأرى الحياة مع الظالمين إلّا جرماً».

ويتحرّك الشهيد ابن الشهيد نحو الكوفة، وجنبات مكّة لم تنس بعد جدّه النبي وصوته الشريف: «والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، علىٰ أن أترك هذا الأمر، ما تركته أو أهلك دونه!»[١].

ويأتيه من يخبره بمقتل مسلم ورسوله الآخر، وتخاذل الكوفة: «أمّا أشراف الناس فقد أُعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، فهم قلب واحد عليك، وأمّا سائر الناس بعدهم، فإنّ قلوبهم تهوىٰ إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك!»[٢].

وما يلبث أن يبعث ابن زياد بألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي؛ ليحاصره في الطريق، ويقطع عليه خطّ الرجعة حتّىٰ يأخذه معتقلاً إلىٰ ابن زياد، أو يخضع بالبيعة الجبرية ليزيد!

ويواجههم الحسين خطيباً بالمعروف يستحثّ ضمائرهم: «أيّها الناس، إنّ رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلّاً لحُرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله ﷺ، يعمل في العباد بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الشيطان أن يدخله مدخله! ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله... وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم، وأنكم لاتسلّموني ولاتخذلوني، فإن أقمتم علىٰ بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله... نفسي من نفسكم، وأهلي من أهلكم... فإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي، وخلعتم بيعتي، فلعمري... لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغترّ بكم!».

---

١. تاريخ الطبري ٢: ٣٢٦.

٢. قائله مجمع بن عبيد العامري. راجع تاريخ أبي مخنف ١: ٤٤٣، أنساب الأشراف ٣: ١٧٢ وفيه: مجمع بن عبدالله العائذي، البداية والنهاية ٨: ١٧٣ وفيه: مجمع بن عبدالله العامري.

فقال الحرّ: «... فإنّي أشهد لئن قاتلت لتقتلنّ».

فقال الحسين: أبالموت تخوّفني؟...

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
وواسى رجالاً صالحين بنفسه
وخالف مثبوراً وفارق مجرما
فإن عشت لم أندم وإن متُّ لم أُلم
كفى بك أن تعيش وترغما![1]

يتصاعد المكر، وتشحذ قوى البشر، وتأتي أوامر ابن زياد، تحمل تعليمات يزيد: «لا رحمة! امنعوهم عن الماء!».

ومعسكر الحسين ينسج مجد الاستشهاد، ثلاثة وسبعون إنساناً في مواجهة أربعة آلاف وحش غاشم من جند ابن زياد من الكوفيّين!

والأقمار من بيت النبوة من كلّ عمر، من لم يتجاوز العاشرة، ومن ملك فتوة الثامنة عشرة والعشرين، ومن بلغ مبلغ الرجال والكهول، يتلألؤون بالإقدام والشجاعة، لايقهرهم إلّا العطش: «يا أباه، العطش!».

والحسين يجيب: «اصبر بنيّ، فإنّك لاتمسي حتّىٰ يسقيك رسول الله!».

وزينب بين الخيام والمعركة تتلقى الأقمار: شهيداً شهيداً، وأنّاتها رغماً عنها تتوالىٰ: «يا حبيباه! يا ابن أخاه! يا ولدي! واثكلاه! اليوم مات جدي رسول الله! اليوم ماتت أمي فاطمة! اليوم مات أبي علي! واليوم مات الحسن! واحسيناه».

وتثخن الجراح حسيناً، ويتقدّم التعس الذي باء بقتله، وبعده يحزّ رأسه؛ لترفعها الرماح إلىٰ يزيد!

---

١. تاريخ أبي مخنف ١: ٤٤٢ ـ ٤٤٣، الإرشاد ٢: ٨٠ ـ ٨١، الكامل في التاريخ ٣: ٢٨٠ ـ ٢٨١، البداية والنهاية ٨: ١٧٢ ـ ١٧٣، سمط النجوم العوالي ٣: ١٧٤.

وترفرف كلمات الحسين حمائم، تسكن أعشاشها في قلب زينب وبين جوانحها، تطوف بها، ترويها في كلّ الأمصار، ولكلّ الآذان، حاضرة بأكملها كما أطلقها يوم الطفّ، يوم كربلاء وهو يتفرّس في وجوه الكوفيّين، الذين دعوه ثم جاءوه قاتلين وراء عمر بن سعد:

ـ «ألست ابن بنت نبيكم؟».

ـ «... يا فلان... يا فلان... يا فلان... ألم تكتبوا إليَّ... أن تقدم على جندٍ لك مجنّد؟!».

ـ «أتطلبونني بقتل منكم قتلته؟ أو بمال استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟».

ـ «أعلى قتلي تجتمعون؟ أما والله لاتقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتلة منّي، وأيم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لاتشعرون. أما والله لو قتلتموني لألقي الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لايرضى بذلك منكم حتّى يضاعف لكم العذاب الأليم».

وينتهي الدور الحسيني بالاستشهاد البطولي والفداء، ويبدأ الدور الزينبي: الراوية، الشاهدة، الفاضحة للجور والبغي والطغيان.

فإذا الذي ظنّ نفسه منتصراً يبوء بانتصاره الفادح! وإذا الذي ظنّوا أنّهم قد سحقوه وأحاطوا به وقتلوه: متوّج بالمجد لم ينهزم، وزينب تحمل راية الحسين المنتصرة، بعد أن ألقمت الجبّارين وهي أسيرتهم أحجاراً بلعوها في خزي، بين أهليهم وحرّاسهم وبروجهم المحصنة، وإذا الحسين حي في زينب، أشدّ قوةً وتمكيناً ممّا كان عليه، وأنّى لأعدائه بعد أن يقتلوه، وقد خرج من أسر الموت يتوالد عبر اللحظات والأيام، كبيراً، كثيراً، خالداً.

ويضجّ عمرو بن سعيد الأشدق، والي يزيد على المدينة، يشكو زينب:

ـ إنّ وجودها بين أهالي المدينة مهيّج للخواطر!

وتصدر أوامر يزيد المرتعب: لتختفي زينب من المدينة.

وتأتي العزيزة، ابنة الأعزّاء لتسعد بها كنانة الله، وتخرج مصر إلىٰ «بلبيس» لتأخذها إلىٰ قلبها، مضغة رسول الله ﷺ، حانية على الجراح!

وفي شهر مولدها: شعبان عام ٦١ للهجرة، وقد بلغت السادسة والخمسين، تريح العقيلة الهاشمية رأسها الشريف إلىٰ صدر مصر، وتركن إلىٰ التبتّل والتضرّع والاستغفار أحد عشر شهراً، حتّىٰ يأتي رجب لعام ٦٢ هجرية، فتلحق بركب النور النبوي في الرفيق الأعلىٰ أُمّاً للشهداء، وشهيدة معركة: «الدنيا» أو «محمد»!

السيدة زينب
بنت الإمام علي بن أبي طالب عليها وعلى أبيها السلام[1]

حنفي المحلاوي

من هي

كنت وإلى فترة غير قصيرة من الزمن أعتقد ـ ومعي بعض الناس ـ أنّ الضريح الموجود حالياً بحي السيدة زينب بوسط القاهرة القديمة، هو مقام أو مشهد أو ضريح أو قبر السيدة زينب، كبرى بنات النبي الكريم ﷺ، لكنّني حين عقدت العزم على الكتابة عن أشهر المقابر والأضرحة في مصر، اكتشفت من بعد الرجوع إلى المصادر التاريخية الرئيسية في هذا السياق: أنّ هذا الضريح إنّما يخصّ ابنة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، السيدة زينب، وأُخت الإمام الحسن والإمام الحسين، وابنة السيدة فاطمة الزهراء، وأنّ جدّها العظيم النبي الكريم محمداً ﷺ هو الذي اختار لها اسم السيدة زينب، مثل أخويها: الحسن والحسين.

ومن أجل بيان هذا الفارق، وإجلاء لهذا اللبس الذي فرض نفسه علينا بعض الوقت، رأينا من الضرورة ـ ونحن نكتب عن السيدة زينب صاحبة هذا الضريح ـ أن

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت» ط. القاهرة، ٢٠٠٠م.

نشير إلى السيدة زينب، كبرىٰ بنات رسولنا الكريم ﷺ.

ومن أهمّ ما ذكرته كتب التاريخ والسيرة عن هذه السيدة العظيمة: أنّها ولدت بمكة المكرمة قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، أي: قبل بعثة الرسول ﷺ بعشر سنوات، وكان عمر والدها ﷺ آنذاك ثلاثين عاماً.

والسيدة زينب هي الابنة الكبرىٰ للرسول الكريم ﷺ من زوجته السيدة خديجة بنت خويلد، وقد زوّجها النبي ﷺ لابن خالتها هالة بنت خويلد: العاص بن الربيع، قبل ظهور الإسلام[1]. ولمّا بُعث النبي ﷺ طلبت السيدة زينب من زوجها العاص بن الربيع أن يسلم، فرفض، ولذلك طلّقت منه، وظلّ علىٰ دين آبائه حتّىٰ العام السابع من الهجرة، حين أسلم وآمن بالإسلام، عندئذ ردّت إليه زوجته السيدة زينب، وكان قد رزق منها بطفلتين[2]، إلّا أنّه وبعد عام واحد من عودتها إلىٰ زوجها من بعد إسلامه فرّق بينهما الموت، ودُفنت بالبقيع.

وهناك بعض الروايات التاريخية التي أشارت إلىٰ أنّ السيدة زينب ابنة رسولنا الكريم ﷺ قد ماتت في حادث عرض، وقد نقلت بعض هذه الروايات الدكتورة سعاد ماهر، وممّا أشارت إليه في هذا السياق قولها في مطلع حديثها عن السيدة ابنة الإمام علي عليه السلام: ولدت السيدة زينب ابنة الإمام علي في السنة السادسة للهجرة في بيت النبوة بالمدينة المنوّرة، فباركها جدّها النبي ﷺ واختار لها اسم زينب إحياءً لذكرى ابنته التي تُوفيت في السنة الثانية للهجرة متأثّرة بجراحها، فقد لقيت أحد المشركين بعد غزوة بدر وهي في طريقها إلىٰ المدينة، فنخسها في بطنها وكانت حاملاً، فأسقط حملها وماتت.

وظلّ الرسول ﷺ حزيناً حتّىٰ ولدت أُختها الزهراء «فاطمة الزهراء» زوجة

---

١. الطبقات الكبرىٰ ٨: ٣٠، نساء حول الرسول لمحمود طعمة: ١٥٤.

٢. ذكر ابن سعد أنّها ولدت علياً وأُمامة، فتوفّي علي وهو صغير وبقيت أُسامة، فتزوجها علي بن أبي طالب عليه السلام بعد وفاة الزهراء عليها السلام. الطبقات الكبرىٰ ٨: ٣٠.

الإمام علي بن أبي طالب ابنتها الأولىٰ فسمّاها زينب، وقد نشأت هذه الطفلة ـ السيدة زينب ـ تحوطها رعاية جدّها العظيم حتّىٰ لقي ربّه.

ولمّا شارفت السيدة زينب ابنة الإمام علي على الزواج، اختار لها أبوها ابن عمها عبدالله بن جعفر، وأنجبت من زوجها عبدالله بن جعفر ثلاثة بنين، هم: جعفر، وعون، وعلي... وكذلك أنجبت بنتين، هما: أم كلثوم، وأم عبدالله.

كما ذكرت هذه المصادر أنّ زوجها ربّما تزوّج من غيرها في حياتها، حيث تفرّغت هي لرعاية إخوتها من بعد مقتل أبيها[١].

وقد عاصرت السيدة زينب عدّة أحداث سياسية عصفت بأهل بيتها، بدءاً بوالدها الإمام علي، ومروراً بأخويها الحسن والحسين، كما شهدت كذلك معركة كربلاء التي قُتل بها أخوها الحسين، وقد سيقت بعد هذه المعركة مع الأسرىٰ والسبايا حيث مقرّ البصرة عبيدالله بن زياد التابع ليزيد بن معاوية، ثم سيقت السيدة زينب بعد ذلك مع هؤلاء الأسرىٰ إلى دمشق، وفي مقدّمة الركب رأس الإمام الحسين عليه السلام، ثم أمرها يزيد بن معاوية باختيار مكان إقامتها، ففضّلت العودة إلى المدينة المنوّرة، وكان وجودها هناك دافعاً لاشتعال الثورة ضدّ بني أُمية، ممّا جعل والي المدينة المنوّرة يجبرها على الرحيل خوفاً من زيادة هذه الثورة، فاختارت مصر، للإقامة بها حتّىٰ يوم رحيلها.

علمها وصفاتها

لم تكن هذه السيدة الشريفة... ببعيدة عن بيت العلم والمعرفة والأخلاق، إلىٰ جانب تحلّيها بصفات الشجاعة والإقدام، وحسن الاختيار، ذلك لأنّها قد تربّت في بيتٍ كان كلّه علماً، ووالدها الإمام الكبير علي بن أبي طالب كم هو معروف بالعلم

---

١. أعلام النساء لابن عساكر: ١٩٠، الطبقات الكبرىٰ ٨: ٣٦٥ وسمّوها: ليلىٰ بنت مسعود.

والتقوىٰ، كذلك أخواها الكبيران: الإمام الحسن والإمام الحسين رضي الله عنهما.

ومن أخصّ صفات هذه السيدة الطاهرة: الوفاء، حيث حفظت عهد والدتها السيدة فاطمة ابنة النبي الكريم محمد ﷺ.

وممّا يروىٰ في هذا السياق أنّ والدتها رضوان الله عليها ورغم صغر سنّ ابنتها السيدة زينب، إلّا أنّها قد أوصتها خيراً بكلٍّ من أخويها: الحسن والحسين، وأن تكون بعدها أُمّاً لهما، فقامت بتنفيذ هذه الوصية خير قيام طوال حياتها، حتىٰ أصبح هناك نوع من التلازم بين قصّة حياة هذين الإمامين الجليلين، وبين قصّة حياة هذه السيّدة الفاضلة، من حيث التفاصيل والأحداث، خاصّةً الأحداث التي حضرها أخوها الإمام الحسين عليه السلام، والتي انتهت بمقتله ورحيلها وأُسرتها إلىٰ المدينة المنوّرة، ثم اختيارها مصر كمنفىً آمن لها ولأُسرتها، بعدما واجهت القسوة في المعاملات وهي تعيش في المدينة من بعد حادث كربلاء.

وقد علّمتها المصائب: الشجاعة وحسن التصرّف، ولها العديد من المواقف التي أظهرت فيها شجاعتها بقوة. وممّا يروىٰ في هذا السياق... أنّه لمّا استشهد أخوها الإمام الحسين علىٰ مرأىً ومشهدٍ منها، لم تجزع، ولم تولول كبقية النساء في مثل هذه المواقف، بل تذرّعت بالصبر والشجاعة والرضا بقضاء الله وقدره، وقالت: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهم تقبّل منّا هذا القليل من القربان».

وممّا يروىٰ كذلك عن شجاعتها وقوّة نفوذها علىٰ أهل الباطل... أنّه لمّا وصلت هي وسيدات أهل البيت مع رأس الإمام الحسين إلى الكوفة، ومثلت أمام عبيدالله بن زياد، لاحظت أنّه كان ينظر إليهنّ نظرة التشفّي والتهكّم، فلم يسعها إلّا أن أنذرته بسوء ما سيلقاه هو ورجاله يوم القيامة، جزاء خيانتهم وغدرهم بأخيها الإمام الحسين وصحبه، كما أُسمعته من العبارات الحادّة والكلام الشديد ما لم يعتدّ أن يسمعه من أعظم الرجال شجاعةً وأقواهم بأساً، فخاف أن يسترسل في إساءاتها، وحوّل مجرى الحديث إلىٰ شاب كان بجانبها وسأله: من أنت؟

فقال الشاب: أنا علي بن الحسين.

فقال ابن زياد: أَوَ لم يقتل الله علي بن الحسين؟

قال الشاب: كان لي أخ أكبر منّي يسمّىٰ علياً، قتله الناس.

فقال ابن زياد: إنّ الله قتله!

فقال الشاب: إنّ الله يتوفّى الأنفس حين موتها.

فاغتاظ ابن زياد: وأمر بضرب عنقه، فتقدّمت إليه عمّته السيدة زينب فاحتضنته، وقالت: والله لا أفارقه، إن قتلته فاقتلني، فبهت ابن زياد وعمل علىٰ أن يتخلّص من هذه الورطة... ثم تراجع عن تنفيذ حكمه السابق بقتل ابن الامام الحسين.

وكان لها إلى جانب ذلك العديد من المواقف الشجاعة الأخرىٰ حتّىٰ مع الخليفة!! يزيد بن معاوية نفسه، عندما قدمت إليه في دمشق مع رأس أخيها الإمام الحسين، ليس هذا فقط، بل وكان لشجاعتها بعد عودتها إلى المدينة دور كبير في إثارة مشاعر المسلمين ضدّ يزيد بن معاوية، بما كان ينذر بثورة عارمة ضدّه وضدّ رجاله، ويرىٰ بعض المؤرّخين أنّ هذه الثورة ظلّت مشتعلة سواء في الحجاز أو في العراق، والتي وضعت بذرتها الأولىٰ هي السيدة زينب في عام واحد وستّين من الهجرة، وقد أخذ نطاق هذه الثورة يتّسع حتّىٰ أفلت الزمام من يد بني أُمية في عام ١٣٢ هـ، فتولّى الخلافة من بعدهم بنو العباس بن عبدالمطلب عمّ النبي صلى الله عليه وآله.

أمّا عن علمها وورعها، فيقول عنه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين: إنّها كانت تشبه أُمّها لطفاً ورقّةً، وتشبه أباها علماً وتقوىً. فقد كان لها مجلس علم حافل تقصده جماعة النساء اللواتي يردن التفقّه في الدين؛ لذلك كانت ـ بحقّ ـ عقيلة بني هاشم، كما كانت تلقّب[1].

وحتّىٰ عندما اختارت مصر للإقامة بها، بعد أن خيّروها في منفىً اختياري بدلاً

---

١. البيان والتبيين ٢: ١٥٧.

من المدينة ـ خوفاً من اندلاع المزيد من الثورة ضدّ بني أُمية ـ أخذت تجمع حولها العلماء من أهل مصر من الذين أرادوا الاستزادة من علمها وورعها وتقواها حتّىٰ بات لها مريدون كثيرون.

وصف الضريح

أجمعت المصادر التاريخية علىٰ أنّ ضريح السيدة زينب كان في بدايته زاوية صغيرة يقع في الضاحية البحرية من مدينة «الفسطاط»، حيث الحدائق الغنّاء المطلّة على الخليج المصري، الذي كان يمرّ من هذه المنطقة آنذاك.

وقد دُفنت السيدة زينب ابنة الإمام علي بن أبي طالب في الدار التى أقامت بها لمدّة عام من بعد قدومها مصر، وهي بيت الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري، كما أُقيم الضريح حيث دفنت هذه السيدة الطاهرة، وهو لايزال موجوداً حتّى الآن، وكان الوالي الأموي يقيم آنذاك في منطقةٍ بالفسطاط تُعرف باسم «الحمراء القصوىٰ»، وهي منطقة كانت غنية بالبساتين والحدائق، وأمّا المنطقة التي يوجد بها الضريح الآن فكانت تُعرف باسم «قنطرة السباع» نسبة إلى السباع التي كانت موجودة على القنطرة التي أقامها على الخليج «الظاهر بيبرس»[١]، هذا الخليج كان يخرج منه الماء إلى فم الخليج وينتهى عند السويس، وكانت هذه السباع هي شارة «الظاهر بيبرس» الذي شيّد القنطرة.

وفي عام ١٣١٥هـ /١٨٩٨م تمّ ردم جزء من هذا الخليج، وبردمه اختفت هذه القنطرة، ومع الردم تمّ توسيع الميدان.

وتقول بعض مصادر التاريخ: إنّ هذا الخليج كان يستمدّ ماءه من نهر النيل عند

---

١. بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، الملك الظاهر، صاحب الفتوحات والعمران، وكانت له أنباء وسيرة بها، ولد عام ٦٢٥هـ بأرض القبجان، وتوفّي بدمشق سنة ٦٧٦هـ ومرقده معروف فيها، حيث أُقيمت حوله المكتبة الظاهرية. انظر النجوم الزاهرة ٧: ٩٤.

مصر القديمة، ثم يتّجه شمالاً حتّى حي غمرة، ولمّا ردم في عام ١٨٩٨م سار فيه الترام بدءاً من عام ١٩٠١م.

وعند بدء عمليات توسيع ذلك الميدان، اكتشف رجال الآثار واجهة زاوية وضريح السيدة زينب الذي كان قد أقامه من قبل الوالي العثماني علي باشا الوزير في عام ٩٥١هـ/١٥٤٧م، ثم أعاد تجديده الأمير عبدالرحمن كتخدا عام ١١٧٤هـ/١٧٦١م، ثم ظهرت به بعد ذلك عيوب، فشرع في هدمه وبنائه عثمان بك المعروف بالطنبورجي المرادي عام ١٢١٢هـ/١٧٩٨م، وتوقّف البناء بمجيء الحملة الفرنسية حتّىٰ أكمله محمد خسرو باشا عام ١٢١٧هـ/١٨٠٢م.

ثم جدّد بعد ذلك علىٰ يد السيد أحمد المحروقي، ثم شرع عباس باشا في تجديده وتوسيعه ووضع أساسه في عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م، ولكنّه توفّي قبل إتمامه، فأجرى هذا التجديد سعيد باشا ناظر الأوقاف في ذلك الوقت، وأدخل فيه الردهة البحرية التي بها ضريح الشيخ محمد العتريس أخي سيدي إبراهيم الدسوقي، والشيخ عبدالرحمن الحسيني العلوي العيدروسي التريمي المتوفّىٰ في عام ١١٩٢هـ/١٧٥٨م، كما بنىٰ حول الجامع سوراً من الحديد، وبعد ذلك أمر الخديوي توفيق بهدم المسجد دون الضريح، وبناه من جديد، وأدخل فيه الرحاب التي حوله، وانتهى البناء في عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م[١].

وقد أراد الخديوي اسماعيل إنشاء عدّة شوارع يكون مركزها جامع السيدة زينب وضريحها، وذلك للمحافظة على الصحّة العامة. وكان أحدها من ميدان السيدة إلى بركة الفيل إلى شارع محمد علي. كما ذكر المورّخ علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» عن ذلك المسجد والضريح، فقال: وفي سنة ستّ وثمانين ومائتين وألف، عندما كنت ناظراً على ديوان الأوقاف، وكان يلصق بمسجد السيدة

---

١. انظر مدينة القاهرة من ولاية محمد علي إلى اسماعيل، للدكتور محمد حسان الدين اسماعيل.

زينب من الجهة الشرقية مقبرة، وبعدها أراضٍ فضاء ومزارع، فاشتريت ما كان مملوكاً من ذلك وأضفته إلى أرض المقبرة، ثم أُعطي بالحكر لمن يرغب في ذلك، فأخذ منه الكثير من الناس وبنوا فيه، وبعد قليل من الزمن صار خطّاً عظيماً، به جملة شوارع وحارات وبيوت لكثيرٍ من الأُمراء وغيرهم.

ولهذا السبب ردم معظم البركة (بركة ابن طولون)، وكانت هذه البركة تقع فيما بين قلعة الكبش ومقابر زين العابدين[١].

وبعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢م اهتمّت الثورة بهذا المسجد، فأخذت في توسعته والاهتمام بالضريح. وفي عام ١٩٦٤م أصبحت مساحة المسجد ٧٨٠٠ متر مربع، بعد أن كانت مساحته قبل ذلك ٤٥٠٠ متر مربع فقط.

وبعد هذه التوسعة الجديدة نقلت الينا الدكتورة سعاد ماهر صورة لمسجد السيدة زينب وضريحها، فقالت: يتكوّن المسجد من سبعة أروقة موازية للقبلة، يتوسّطها صحن مربّع بقبّة، ويقابل هذه القبّة ضريح السيدة زينب... كما يتقدّم المسجد من الواجهة الشمالية رحبتان، يوجد بهما مدخلان رئيسان يفصل بينهما مستطيل تعلوه «شخشيخة»... وفي الطرف الشمالي الغربي يوجد ضريح سيدي العتريس...

وفي عام ١٩٦٩م أضافت وزارة الأوقاف مساحة ثانية مماثلة تماماً للمسجد الأصلي وبنفس مساحته، بحيث أصبحت الإضافة الاولىٰ تفصل بين المسجد الأصلي والتوسعة الأخيرة؛ لذلك فقد عمل في منتصف التجديد الأول محراب يتوسّط المسجد الجديد، مع الإبقاء على المحراب القديم. ويقابل ضريح السيدة زينب في التجديد الثاني رحبة مماثلة للصحن مغطّاة أيضاً...[٢].

---

١. الخطط التوفيقية ٣: ١٧٨.

٢. كتاب مساجد مصر وأولياؤها الصالحون. وقد أُضيفت إلى المسجد مساحة جديدة في العصر الحاضر إذا تمّ هدم ما حوله من محالّ تجارية ومساكن وضمّها إلى المسجد.

مرقد السيدة زينب عليها السلام[1]

د. سعاد ماهر

يقع جامع السيدة زينب في الميدان الذي يعرف باسمها، وكان يعرف قبل ذلك باسم «قنطرة السباع» نسبةً إلى نقش السباع الموجودة على القنطرة التي كانت مقامة على الخليج الذي كان يخرج من النيل عند فم الخليج وينتهي عند السويس، وكانت السباع (رنك) شارةً إلى «الظاهر بيبرس»، الذي أقام القنطرة.

وفي عام ١٣١٥هـ/١٨٩٨م تمّ ردم الجزء الأوسط من الخليج، وبردمه اختفت القناطر، ومع الردم تمّ توسيع الميدان، وعند عملية التوسيع اكتشفت واجهة جامع السيدة زينب الذي كان الوالي العثماني علي باشا قد جدّده سنة ٩٥١هـ/١٥٤٧م، ثم أعاد تجديده الأمير عبدالرحمن كتخدا سنة ١١٧٠هـ/١٧٦٨م.

ومنذ اكتشاف واجهة الجامع في القرن التاسع عشر، أصبح يطلق على الميدان، بل والحيّ كلّه، اسم: عقيلة بني هاشم.

وقد أقامت وزارة الأوقاف سنة ١٩٤٠م المسجد الموجود حالياً، ويتكوّن من سبعة أروقة موازية للقبلة، يتوسّطها صحن مربّع مغطّىً بقبّة، ويقابل القبلة قبّة

---

١. مقتبس من كتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون».

ضريح السيدة زينب، ويتقدّم المسجد من الواجهة الشمالية رحبتان، يوجد مدخلان رئيسان يفصل بينهما مستطيل تعلوه (شخشيخة).

وفي الطرف الشمالي الغربي يوجد ضريح سيدي العتريس.

وقامت وزارة الأوقاف بعد ذلك بإضافة مساحة تبلغ ١٧×٣٢ إلى المسجد الأصلي.

وفي سنة ١٩٦٩ أضافت وزارة الأوقاف مساحةً ثانيةً مماثلةً تماماً للمسجد الأصلي وبنفس مساحته، بحيث أصبحت بالإضافة الأُولىٰ تفصل بين المسجد الجديد والتوسعة الأخيرة... مع الابقاء على المحراب القديم. ويقابل ضريح السيدة زينب في التجديد الثاني رحبة مماثلة للصحن مغطّاة أيضاً، وفي الواجهة الغربية يوجد مدخلان أحدهما يتوسّط التجديد الأول، والثاني في التجديد الأخير.

٣ـ السيدة نفيسة عليها السلام

بقلم

توفيق أبو علم

حنفي المحلاوي

السيدة نفيسة عليها السلام[1]

توفيق أبو علم

نفيسة الدارين...

نفيسة العلم...

نفيسة الطاهرة...

نفيسة العابدة...

نفيسة المصريّين...

وسيدة أهل الفتوى والتصريف، والسيدة الشريفة العلوية، وصاحبة الكرامات الطاهرة الوفيرة، والمناقب الفاخرة، وأُم العواجز، والسيدة المرضية، ومشبعة المحروم.

وهي السيدة النقيّة، العفيفة الزاهدة، الساجدة الراكعة، المحدّثة المتبحّرة المتضلّعة، الكثيرة النفحات، الغزيرة البركات، والبضعة المنيفة الناضرة، والزهرة الزاهرة، سليلة

---

١. مقتبس من كتاب «السيدة نفيسة» ط. المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية. وللمؤلّف سلسلة مطبوعة عن آل البيت، ط. دار المعارف ـ القاهرة. وقد ترجم الجزء الخاص بالسيدة فاطمة الزهراء إلى الفارسية، وطبع في ايران عدّة مرات.

أقول: وقد طبعه مؤخّراً المركز العلمي التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية طبعةً محقّقة وموثّقة، ومزدانة بتعليقات رأيتها ضرورية ومكمّلة للمقام، كما قام المركز بترجمة الكتاب بأكمله إلى اللغة الفارسية، حينما وجده جديراً بالاطّلاع للناطقين بهذه اللغة العريقة.

النبوة، وفرع الرسالة، وجناح الرحمة، كريمة العنصر والمنبت من آل بيت من اصطفاه الله، ورسوله محمد بن عبدالله ﷺ، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

هذه ألقاب السيدة نفيسة رضي الله عنها:

١ ـ فهي نفيسة الدارين: لعوارفها وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصديها، وبجناح الرحمة لتواضعها وخضوعها لبارئها، وشفقتها ورحمتها وبرّها وصلتها لذويها وقاصديها، ويستظلّ زائرها بجناح رحمتها.

٢ ـ وهي نفيسة العلم: لما استنبطته من ذخائر العلم، واستجلته من غوامضه، وما نثرته على طالبي الاستفادة منها، فكان يرجع اليها في المشكلات، ويستصبح بضوئها في المعضلات، وتشدّ اليها الرحال من أطراف البلاد في طلب ما حذقته وأحكمته من علوم بيت النبوة.

ويكفي أن نذكر هنا أنّها تعلّمت القرأءة والكتابة قبل أن تبلغ السابعة من عمرها، وهي بلاشكّ علامة كبيرة مميّزة تنبئ عمّا ينتظرها في مستقبلها، وقد ساعدها ذلك علىٰ أن تحفظ القرآن الكريم وتجيده في سنّ مبكرة.

٣ ـ وهي نفيسة الطاهرة: لطهارتها وتعبّدها، وهي السيدة العظيمة العابدة، النقية الطاهرة.

٤ ـ وهي نفيسة العابدة: لعبادتها وتقواها، فإنّها كانت من السائحات العابدات، الصالحات القانتات، تصوم نهارها وتقوم ليلها، وقد حجّت ثلاثين حجّة، أكثرها وهي ماشية، وكانت تتعلّق بأستار الكعبة وتقول: إلهي وسيدي، ومولاي، متّعني وفرّحني برضاك عنّي، فلا تسبّب لي سبباً يحجبك عنّي[1].

٥ ـ وهي نفيسة المصريّين: لحبّ أهل مصر لها، ويكفي أن أقول في أول هذا البحث: إنّها لمّا عزمت على الرحيل من مصر إلى بلاد الحجاز، شقّ ذلك على أهل مصر وسألوها الإقامة لحبّهم لها[2].

---

١. انظر خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

٢. راجع تفصيله في المصدر السابق: ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

كما أجمع أهل السير والتاريخ على وفاة السيدة نفيسة بالقاهرة، كما أجمعوا على أنّها لمّا توفّيت وصل زوجها في ذلك اليوم وأراد حملها إلى المدينة لدفنها بالبقيع، فاجتمع أهل مصر إلى أمير البلد، واستجاروا به إلى زوجها ليردّوه عمّا أراد، وقد دفنت فعلاً بالقاهرة كما سيأتي تفصيله، ولذلك كان المصريّون يسمّونها بنفيسة المصرية.

مولدها وسبب تسميتها بـ«نفيسة»

ولدت السيدة الطاهرة بمكة المكرمة في يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة النبوية، وقد فرحت أُمها بمولدها، واستبشر بها أبوها، وعمّت الفرحة أكناف بيتها، وقد زاد في سرور أبيها وبهجته أن تكشّف في سيماها شبهاً عظيماً بأُخته، عمّتها السيدة نفيسة بنت زيد رضي الله عنها، وهي التي تزوّج بها الوليد بن عبدالملك، فاختار لها أبوها اسم عمّتها لنفاستها، وما تبيّنه لبنته من وسام و قسام اختصّت بهما أُخته، وتفاؤلاً بأن يكتب الله لها حظّ عمّتها، وما واتاها من سعادة ونعماء، ومالها من آثار وحظوة.

إذ كانت محبّبة، ولها اليد البيضاء في خلافة زوجها؛ إذ أنّها دفعته إلى ما قام به في عهده، فقد فتحت في عهده فتوح عظيمة، وكان يتكفّل بالأيتام، ويرتّب لهم معاشهم، ومن يرعاهم، ومن يقوم بخدمتهم، وللعميان من يقودهم، وعمّر المسجد النبوي ووسّعه، ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء، وأسبغ عليهم، وحرّم الاستجداء وفرض لذوي الحاجات ما يكفيهم، وقد ضبط أمور الخلافة أتمّ ضبط[١].

ومن المصادفات أنّ عمة السيدة نفيسة رضي الله عنها، رحلت إلى مصر وتوفّيت بها، ومقامها بالقرب من السيّدة نفيسة؛ إذ أنّها دفنت بالدار التي وهبت لها من والي مصر أخي زوجها عبدالله بن عبدالملك، وكانت من الصالحات، وقد توفّيت قبل وفاة بنت أخيها.

---

١. انظر تاريخ الطبري ٨: ٩٧، بلغة الظرفاء: ٢٣، تاريخ اليعقوبي ٣: ٢٧، مروج الذهب ٢: ١١٩ ـ ١٢٧.

ووالدها: هو أبو محمد الحسن الأنور ابن زيد الأبلج ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فهي من دوحة النبوة التي طابت فرعاً، وزكت أصلاً، ومن شعبة الرسالة التي سمت رفعةً ونبلاً، قد اكتنفها العزّ والشرف، ولازمها السؤدد والكرامة:

يا حبذا روضة في الخلد نابتة ... ما مثلها أبداً في الخلد من شجر
المصطفىٰ أصلها والفرع فاطمة ... ثم اللقاح علي سيد البشر
والهاشميان سبطاء لها ثمر ... والشيعة الورق الملتفّ بالثمر
هذا مقال رسول الله جاء به ... أهل الرواية في العالي من الخبر
إنّي بحبّهم، أرجو النجاة غداً ... والفوز في زمرة من أفضل الزمر[١]

وكان والدها إماماً عظيماً، عالماً جليلاً من كبار أهل البيت، معدوداً من التابعين، مجاب الدعوة، فاضلاً شريفاً.

وفي سنة خمسين ومائة عزل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عامله جعفر بن سليمان عن إمرة المدينة، وولّاها الحسن بن زيد، وقد بقي والياً على المدينة إلى أن عزله المنصور لوشايةٍ فيه سنة ستّ وخمسين ومائة[٢].

فإنّ الحسن كان قد اصطفى ابن أبي ذئب محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة، وآواه وأكرمه، لكنّه لم يأمن فلتات لسانه، فإنّ ابن أبي ذئب ذهب إلى المنصور وأخبره بأنّ الحسن يطمح للخلافة، ويعمل على عودتها للعلويّين، فثارت ثائرة المنصور، وأمر بعزل الحسن وحبسه.

وقد تسرّع ابن أبي ذئب في وشايته، إذ أنّه غلب علىٰ ظنّه طمع آل البيت في الخلافة وما يعرفه أنّه حقّ لهم، وهم أولىٰ بها من غيرهم، مع أنّ الحسن كان معروفاً

---

١. الأبيات في كتاب بشارة المصطفىٰ: ٧٦ وهي منسوبة إلى يعقوب البصراني، وفي الغدير ٣: ٨: أبو يعقوب النصراني.

٢. انظر تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩ وما بعده، والمنتظم في تاريخ الملوك والأُمم ٨: ٢٩٤.

بمظاهرته لبني العباس، ومناصرته لدولتهم، وكان أول من لبس السواد، شعار العباسيّين من العلويّين[1].

وقد لبث الحسن في حبسه إلى أن ولي المهدي الخلافة، وكان يعرف منه علمه واعتداله، وزهادته وعبادته، فأمر بإخراجه من حبسه، وقرّبه منه واصطفاه[2].

وكان الحسن ذا حزم في ولايته، وعزم في إمرته، وشدّة في أخذ الناس بالحدود وحرمات الله، لاتأخذه رأفة في دين الله، ولاتقفه رحمة عن إقامة حدوده.

ولمّا عاد إلى المدينة لم يعاتب ابن أبي ذئب[3].

ولمّا توفي أبوه زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو غلام، وترك عليه ديناً أربعة آلاف دينار، فحلف السيد حسن أن لايظلّ رأسه سقف إلّا سقف مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله أو بيت رجلٍ يكلّمه في حاجةٍ حتّىٰ يقضي دين أبيه، فوفىٰ بنذره، ووفى دين أبيه[4].

ومن كرمه أنّه أتيٰ بشاب شارب متأدّب وهو عامل على المدينة، فقال: يا بن رسول الله، لاأعود، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»[5] وأنا ابن أبي أُمامة بن سهل بن حنيف، وقد كان أبي مع أبيك كما علمت.

فقال: صدقت، هل أنت عائد؟

قال: لا والله!

فأقاله وأمر له بخمسين ديناراً وقال له: تزوّج بها وعد إليّ، فتاب الشاب، فكان الحسن يحسن إليه[6].

---

١. راجع عمدة الطالب: ٧٠.

٢. إن أردت تفصيل ذلك، راجع تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩، تهذيب التهذيب ٢: ٢٧٩، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨: ٢٩٤، أعيان الشيعة ٥: ٧٥.

٣. خطط المقريزي ٤: ٣٢٦.

٤. ذكر القصة المقريزي في الخطط ٤: ٣٢٦، والخطيب البغدادي في تاريخه ٧: ٣٠٩.

٥. أخرجه أحمد في المسند ٦: ١٨١، والهيثمي في المجمع ٦: ٢٨٢.

٦. انظر خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

وكان الحسن والد السيدة نفيسة مجاب الدعوة، يقال: مرّت به امرأة وهو في الأبطح ومعها ولدها! فاختطفه عقاب، فسألت الحسن أن يدعو الله لها بردّه، فرفع يديه إلى السماء ودعا ربّه، فإذا بالعقاب قد ألقى الصغير، من غير أن يضرّه بشيء، فأخذته أمه[١].

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشده:

الله فرد وابن زيد فرد

فقال: بفيك الأثلب، ألا قلت:

الله فرد وابن زيد عبد

ونزل عن سرير الإمارة، وألصق بالأرض، يسبّح الله العلي الكبير[٢].

وكان ﷺ جليلاً جميلاً، سريّاً، سخيّاً.

وفيه يقول الشاعر:

إذا أمسى ابن زيد لي صديقاً ... فحسبي من مودّته نصيبي[٣]

وقال آخر:

إلى حسن بن زيد بات نضوي ... يجوب السهل وهناً والأكاما
إلى رجل أبوه أبو المعالي ... وأول مؤمن صلّى وصاما
أأُشتم أن أحبّك يا بن زيد ... وأن أهدي التحية والسلاما
وقد سلفت عليَّ له أيادٍ ... تعيش الروح منها والعظاما
وكان هو المقدَّم من قريش ... ورأس العزّ منها والسناما
وخيرهم لجار أو لصهر ... بتسكين الكلالة والذماما
وكان أشدّهم عقلاً وحلماً ... وأبرحهم إذا ازدحم الزحاما[٤]

---

١. المصدر السابق.
٢. حكاه الشبلنجي في كتابه نور الأبصار: ١٣٧.
٣. أنشده في غاية الاختصار ١: ٢٧٦ عن بعضهم استعطاه فأكرمه.
٤. روى الأبيات الحاكم في المستدرك ٤: ٨٦.

وكان الحسن كثير الثراء، وله مال بالغابة، وقصره الحمراء كان من أعظم قصور المدينة، وقد أتاه مصعب بن ثابت الزبيري وابنه عبدالله وهو يريد الركوب إلى ماله بالغابة، فأنشده مصعب:

يا ابن بنت النبي وابن علي ... أنت أنت المجير من ذا الزمان
من زمان ألحّ ليس بناجٍ ... منه من لم يجيره الخافقان
من ديون تنوؤنا فادحات ... من يد الشيخ من بني ثوبان
في صكاك مكتبات علينا ... بمئين إذا عدّد ثمان
بأبي أنت إن أخذن وأمي ... ضاق عيش النسوان والصبيان

فأرسل الحسن إلى ابن ثوبان فسأله، فقال: على الشيخ سبعمائة، وعلى ابنه مائة، فقضىٰ عنهما، وأعطاهما مائتي دينار![1].

وقد خلّف الحسن من الذكور تسعة، ومن البنات اثنتين: السيدة أم كلثوم وقد تزوّج بها أبو العباس السفّاح الخليفة العباسي، والسيدة نفيسة ولم يبلغ واحد من أولاده من الشهرة وذيوع الذكر ما بلغته ابنته السيدة نفيسة، فهي درّته اليتيمة، وغرّته الوضّاءة.

وأولاده الذكور[2] هم: القاسم، ومحمد، وعلي، وإبراهيم، وزيد، وعبدالله، ويحيىٰ، وإسماعيل، وإسحاق. أمّا أُمّهم فأمّ سلمة، واسمها ابنة الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وتزوّج أم كلثوم عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهم، وقد توفّي سنة ١٦٨هـ، وهو في طريقه إلى الحجّ في صحبة أمير المؤمنين المهدي، ودفن في

---

١. راجع القصة بكاملها في تاريخ بغداد ٧: ٣١٠ ـ ٣١١.

٢. ذكر صاحب عمدة الطالب في أنساب أبي طالب: ٧١ أنّه أعقب سبعة ذكور: القاسم وهو أكبرهم، وكان مظاهراً لبني العباس على بني عمّه، وعلي يكنّى أبا الحسن، مات في حبس المنصور، وكان يتظاهر بالنصب، وزيد ويكنّى أبا زيد، وإبراهيم ويكنّى أبا إسحاق، وعبدالله ويكنّى أبا زيد، وإسحاق ويكنّى أبا الحسن، وكان أعور ويلقّب بالكوكبي، قيل: كان عيناً للرشيد، فيسعى بآل أبي طالب إليه، حتّى غضب عليه الرشيد يوماً وحبسه، فمات في حبسه، واسماعيل ويكنّى أبا محمد، وهو اصغر أولاده.

الحجاز، وقيل بالحاجر[١]. ويذكر الشعراني: أنّه مدفون بتربته المشهورة قريباً من جامع القرّاء بين مجراة القلعة (العيون) وجامع عمرو بن العاص[٢]. ويغلب على الظنّ أنّه دفن بالحاجر في الطريق إلى مكة.

وروي أنّ الإمام زيد الأبلج، والد السيد حسن الأنور، كان يأخذ بيد ولده الحسن ويدخل إلى قبر النبي ﷺ ويقول: «يا سيدي يا رسول الله، هذا ولدي الحسن وأنا عنه راضٍ»، ثم يرجع وينصرف. فلمّا كان في بعض الليالي نام فرأى المصطفى ﷺ، وهو يقول له: «يا زيد، إنّي راضٍ عن ولدك برضاك عنه، والحقّ سبحانه وتعالى راضٍ عنه برضاي عليه».

وجاء الحسن بالسيدة نفيسة إلى المدينة، وكان دائماً يأخذ بيدها ويدخل بها إلى القبر الشريف ويقول: «يا رسول الله، إنّي راضٍ عن بنتي نفيسة» ويرجع، فما زال يفعل حتّى رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول: «يا حسن، إنّي راضٍ عن ابنتك نفيسة برضاك عنها، والحقّ سبحانه وتعالى راضٍ عنها برضاي عنها»[٣].

وزيد الأبلج هو ابن الحسن السبط ابن سيّدنا الإمام.

---

١. قاله الخطيب وأغلب النسّابة. راجع تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩ و٣١٣، وعمدة الطالب: ٧٠. وحاجر: موضع على خمسة أميال من المدينة من جهة مكة.

٢. لواقح الأنوار في طبقات الأخيار ٢: ٢٧١.

٣. وجد أخيراً ما يدلّ على دفن السيد زيد الأبلج بالقاهرة، قريباً من جامع القرّاء، بين مجراة القلعة وجامع عمرو في التربة المشهورة قريباً من جامع القرّاء، فقد وجد حجر عتيق شرقي مقام ولده السيد حسن الأنور بقرب جامع عمرو بعد مجراة القلعة بقليل، مرقوم عليه نسب زيد.

أمّا الإمام محمد الأنور عمّ السيدة نفيسة في المشهد القريب من عطفة جامع طولون، ممّا يلي دار الخليفة في الزاوية التي ينزل اليها بدرج، وهو على يمين الطالب للسيدة سكينة، ومكتوب على بابه في لوح رخام هذا البيت.

مسجد حلّ فيه نجل لزيد ذلك الأنور الأجلّ محمد

وهذه تدلّ على أنّ الأضرحة والمساجد الموجودة في القاهرة، لآل البيت أو الأولياء، ليست «مشاهد الرؤيا» كما يدّعيها بعض الكتّاب.

من هذا الغصن، غصن القرن الأول للهجرة، جاءت إحدىٰ أغصان رياحين القرن الثاني.

أمّا أُمها فأم ولد، وأمّا إخوتها فأُمّهم أُمّ سلمة زينب بنت الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وليس ذلك بضائرها، ولا ما ينقص من قدرها، فقديماً تسرّىٰ الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر، فولدت له إسماعيل عليه السلام، فكان من نسله صفوة خلق الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله. وقد تسرّىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله مارية القبطية فولدت له إبراهيم، وقد كان أبوها الحسن من أُمّ ولد.

وكذا زيد بن علي رضي الله عنهما من أُمّ ولد، وقد دخل علىٰ هشام بن عبدالملك، فقال له: بلغني أنّك تحدّث نفسك بالخلافة؟ ولاتصلح لها لأنّك ابن أَمه!

فقال له: أمّا قولك: إنّي أُحدّث نفسي بالخلافة، فلايعلم الغيب إلّا الله تعالى، وأمّا قولك: إنّي ابن أمة، فإسماعيل ابن أمة، أخرج الله من صلبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وآله، وإسحاق ابن حرّة أخرج من صلبه القردة والخنازير!

فقال له: قم!

فقال: إذن، لاتراني إلّا حيث تكره. فلمّا خرج من الدار قال: ما أحبّ أحد الحياة إلّا ذلّ.

فقال سالم مولى هشام: بالله لايسمعهنّ هذا الكلام منك أحد[1].

وقد كان زيد عليه السلام من أحسن بني هاشم عبادةً، وأجلّهم سيادةً. وكانت ملوك بني أُمية تكتب إلى صاحب العراق أن يمنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد بن علي، فإنّ له لساناً أقطع من ظبّة السيف، وأحدّ من شبا الأسنّة، وأبلغ من السحر والكهانة، ومن النفث في العُقد[2].

---

١. راجع تفصيله في تاريخ دمشق ٢١: ٣٢٣ ـ ٣٢٤، ومروج الذهب ٣: ٢٠٦، والصواعق المحرقة: ٢٤٦ـ٢٤٧.

٢. انظر زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني ١: ٧٢.

وقال الشعبي: والله ما ولدت النساء أفضل من زيد بن علي، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد[١].

وقال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم، ولا أسرع جواباً، ولا أبين قولاً. لقد كان منقطع النظير، وكان يدعىٰ بحليف القرآن، قرأ مرّةً قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ فقال: إنّ هذا لوعيد وتهديد من الله تعالى، ثم قال: اللّهم لا ملجأ ممّن تولّى عنك فاستبدلت به بديلاً...[٢].

ونشأت السيدة نفيسة رضي الله عنها نشأةً نبويةً. فـإنّها بـعد أن درجت بـمكّة تحوطها العزّة والكرامة، استصحبها أبوها وقد أوفت الخامسة من عمرها إلى المدينة المنوّرة، وعاشت معه بداءةً، وأخذ يلقّنها ما تحتاج اليه من أمور ديـنها ودنـياها، وكانت تذهب إلى المسجد النبوي تسمع من شيوخه، وتتلقّى الحديث والفقه مـن علمائه، وعاشت في مدرسة أبيها المحمدية، تسمع منه تاريخ دينها وتاريخ أسرتها.

ومن بين الذين التقت بهم السيدة نفيسة في المدينة الإمام مالك الذي كان حديث الفقهاء والمسلمين جميعاً بكتابه «الموطّأ» وفقهه الذي انتشر في كلّ الأمصار، ووجدت السيدة كريمة الدارين في هذه الأجواء الرائعة مبتغاها، وقرأت «الموطأ»، وناقشت كلّ القضايا الدينية، وبدأت تزداد معرفةً كاملة، والناس من حولها بما فيهم الإمام معجبون بهذه السيدة الطاهرة، يسمعون آراءها في كلّ ما يتدارسون من فقه وسيرة وحديث.

وبلغت كريمة الدارين سنّ الزواج، فرغب فيها شباب آل بيت رسول الله ﷺ من بني الحسن وبني الحسين رضي الله عنهم، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب أشراف قريش، لما عرفوه من خيرها وبرّها، ودينها وإيمانها، وصلاحها وتقواهـا، وما نشأت عليها من عبادة ربّها، وإقبالها على طلب العلم حتى ضربت فيه بسـهم

---

١. المصدر السابق.

٢. تاريخ دمشق ٢٣: ٢٩٩، خطط المقريزي ٣: ٣٣٥، الروض النضير للسياغي ١: ٩٨.

وافر، بالإضافة إلى ما حباها به الله عزّ وجلّ من حسن بارع وجمال رائع، وما امتازت به من سرى الأخلاق وكريم المناقب وحميد الشمائل، فكان أبوها يأبىٰ عليهم إجابة طلبهم، ويردّهم ردّاً جميلاً، إلى أن أتاه إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق رضي الله عنهما، وكانت دار الحسن قبالة دار جعفر الصادق، فخطبها من أبيها، فلم يردّ عليه جواباً، فقام إسحاق من عند الحسن، وفي نفسه ما فيها، وذهب توّاً إلى المسجد النبوي ودخل الحجرة الشريفة، ووقف تجاه القبر في خشوع وإجلال. فقال: «يا رسول الله، إنّي خطبت نفيسة بنت الحسن من أبيها فلم يردّ عليّ جواباً، وإنّي لم أخطبها إلّا لخيرها ودينها وعبادتها». ثم انصرف، وقد انشرح صدره واطمأنّت نفسه.

ففي تلك الليلة رأى أبوها الحسن جدّه المصطفى ﷺ في النوم، وهو يقول له: «يا حسن، زوّج نفيسة من إسحاق المؤتمن». فما أن أفاق من نومه حتى بعث إلى إسحاق يستدعيه اليه، فسارع اليه، وما أن جلس بين يدي الحسن حتى أخبره برؤياه، وما لبث أن عقد له على ابنته في حفلٍ جمع جمهرةً من آل بيت رسول الله ﷺ، وجماعةً من أشراف قريش، وكان في سنة إحدىٰ وستين ومائة[1].

وبعد أن جهّزها أبوها وجليت لزوجها، بنىٰ عليها في دار أبيه جعفر الصادق بالمدينة، وهي الدار التي كان يسقىٰ فيها الماء الذي تصدّق به جعفر عليه السلام، وكانت تلك الدار قبلاً لحارثة بن النعمان الأنصاري الخزرجي. ثم من بني النجّار، وكان من فضلاء صحابة رسول ﷺ، وقد قال ﷺ: «دخلت الجنّة فسمعت قراءةً، فقلت من هذا؟ فقيل: حارثة بن النعمان، فقال ﷺ: كذلكم البرّ»[2]، وكان برّاً بأمه، وكان قد ذهب بصره، فاتّخذ خيطاً في مصلّاه إلى باب حجرته، فكان إذا جاءه مسكين أخذ من مكتله شيئاً ثم أخذ بطرف الخيط حتّى يناوله، فكان أهله يقولون له: نحن نكفيك،

---

١. راجع خطط المقريزي ٤: ٣٢٧.

٢. مسند أحمد ٦: ٣٦.

فيقول: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مناولة المسكين تقي ميتة السوء»[١].

وكان قبالة تلك الدار في الغرب دار الحسن بن زيد، وهو أطمّ، كان الحسن قد ابتاعه فخاصمه فيه أبو عوف النجاري، فهدمه الحسن فجعله داراً مشيّدة البـنيان، عالية الأركان، تحوطها الكرامة، ويرفرف عليها الشرف والجلالة.

وبزواج السيد إسحاق من السيدة نفيسة، اجتمع في بيتها نوران، نور الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، فالسيدة نفيسة جدّها الإمام الحسن، والسيد إسحاق جدّه الإمام الحسين، لأنّ إسحاق المؤتمن هو ابن الإمام جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن أبي الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وأُمه «حميدة البربرية» وهي أُم اخوته موسى الإمام ومحمد وفاطمة الكبرى رضي الله عنهم جميعاً.

وكان إسحاق من أهل الفضل والاجتهاد، والورع والصلاح، روى عنه الكثير من الناس الحديث والآثار، وكان كاسب: يعقوب بن حميد بن كاسب المدني ـ وينسب إلى جدّه إذا ما حدّث عن إسحاق ـ يقول: حدثني الثقة الرضا، إسحاق بن جـعفر. وناهيك بابن كاسب، فقد كان محدّثاً ثقةً، مأموناً صادقاً[٢].

وفي عمدة الطالب: وأمّا إسحاق بن جعفر الصادق، ويكنّى أبا محمد، ويـلقّب بالمؤتمن، فقد ولد بالعريض، وهو وادٍ بالمدينة، وكان من أشبه الناس برسول الله ﷺ، وكان محدّثاً جليلاً، وكان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي رضي الله عنهما إذا ما روى عنه يقول: حدّثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم. وهو أقلّ المعقّبين من ولد جعفر الصادق عدداً، إذ أعقب ثلاثة رجال: محمداً والحسن والحسين، وتُعرف ذرّيته بالاسحاقيّين[٣].

---

١. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣: ٢٢٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٣: ١١٢ و ٤: ٩، وأبو نعيم فـي الحلية ١: ٣٥٦.

٢. انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ١١: ٣٣٦ ـ ٣٣٧ رقم٦٤٦.

٣. عمدة الطالب: ٤٢.

ويقول المقريزي في خططه: وتزوّج بنفيسة رضي الله عنها إسحاق بن جعفر الصادق رضي الله عنهما، وكان يقال له: إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير، والفضل والدين. روي عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول: حدّثني الثقة والرضا إسحاق بن جعفر، وكان له عقب بمصر بنو الرقي، وبحلب بنو زهرة[1].

وولدت نفيسة من إسحاق ولدين، هما: القاسم وأُم كلثوم.

وفي تهذيب التهذيب: إسحاق بن جعفر، روى عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف، وعبدالله بن جعفر المخزومي، وصالح بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، وغيرهم. وروى عنه: إبراهيم بن المنذر، ويعقوب بن حميد بن كاسب، ويعقوب بن محمد الزهري، وغيرهم ممّن قدم مصر. وهو زوج السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور رضي الله عنهم[2].

وقد ذكر في لسان الميزان: أنّه كان يقال له الحزين؛ لأنّه لم ير ضاحكاً[3].

وفي مشتركات الطوبجي: إنّه الممدوح بروايته عن أبيه، وقد مكث بعد وفاة السيدة نفيسة رضي الله عنها زمناً ليس بالكثير، ثم توفّي ودفن بمصر، وقيل: إنّه رحل وولداه القاسم وأُم كلثوم إلى المدينة وتوفّي بها، وهو الأصحّ.

نفيسة العلم

في بيت كريم، وبين أُسرة طهّرها الله سبحانه وتعالى تطهيراً وأذهب عنها الرجس، فتحت السيدة كريمة الدارين عينيها، ووعت أذناها كتاب الله العظيم، ولاشكّ أنّ الجوّ الذي كان يحيطها شجّعها على ذلك، فأب صالح وأُم عابدة، يعبدان الله سبحانه وتعالى ليل نهار، فكان طبيعياً أن تقلّدهما، ولعلّها سمعت من أبيها تاريخ جدّيها الإمامين: الحسن والحسين وأُمّهما الزهراء، وأبيهما أمير المؤمنين، وما اقتبسوا

---

١. خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

٢. تهذيب التهذيب ١: ٢٠٠ رقم ٤٢٤.

٣. لسان الميزان ١: ٣٥٩ رقم ١١٠١.

جميعاً من رسول الله ﷺ من أنوار، وما أخذوا عنه من شتّى الفضائل والمكرمات.

ولعلّ والدها تنبّأ لها بأنّها سيكون لها شأن عظيم بين الصالحين والصالحات، فقد بدأت في سنّ مبكرة في تلاوة القرآن الكريم بمفردها، ثم عملت على حفظه حتى تمّ لها ذلك في خلال سنة واحدة فقط. أمّا العبادات المفروضة فقد أُثر عنها رضي الله عنها أنّها كانت تؤدّي الصلوات الخمس بانتظام مع والديها في المسجد الحرام وهي في السادسة من عمرها[١].

ونشأت كذلك آية من آيات الله تعالى في قوة الذاكرة والحافظة، صفاء نفس ونقاء حدس، فكان طبيعياً أن تتّجه بكلّ قواها إلى كتاب الله الكريم، فألمّت بتفسيره وتأويله، فاستجلت غوامضه، وخاضت عبابه.

وأخذت وهي تنمو جسماً وعقلاً وروحاً، تقوم الليل وتصوم النهار، وتمعن في العبادة والدراسة، فاتّجهت بكلّ روحها إلى دراسة حديث جدّها، فروت منه عن أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وأخذت بحظّ وافر من الفقه والعلم، ومن هنا جاء اللقب الذي اشتهرت به: «نفيسة العلم».

شغفت بحديث جدّها المصطفى ﷺ، وروت من الحديث والآثار الكثيرة من أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وبخاصّة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه بالمدينة، وكان من عادته أن يتصدّر مجالس العلم وفي يمينه موطّؤه، وحوله العلماء وطلّاب العلم وفدوا عليه من سائر الأقطار الإسلامية، وهو ينشر العلم في أرجاء المدينة، ومن أرجائها ينساب إلى آفاق العالم المتعطّش له، وكانت أحاديث الإمام مالك علنية، وكانت أصداؤها لتصل إلى السيدة نفيسة، فتأخذ ما تضيفه إلى ما جاءت به من مكة من سائر علوم القرآن والحديث، وقد سمع عنها الحديث كثير من علماء مصر والراحلين اليها.

---

١. انظر مجموعة آل بيت النبي في مصر: ٧٩.

وقد كان ابن خلّكان يروي: أنّ الإمام الشافعي ﷺ لمّا دخل مصر حضر اليها وسمع عليها الحديث[1].

وقالت زينب بنت يحيى المتوّج، وهو أخو السيدة نفيسة رضي الله عنهم: «كانت عمّتي نفيسة تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي، وتقول: الهي وسيدي يسّر لي زيارة خليلك إبراهيم ﷺ»[2]. لأنّها كانت تعلم أنّه أبو الانبياء، أي أنّه أبو أبيها محمد رسول الله ﷺ. وخاتم الأنبياء، وأنّه بشّر به كما ورد في الأثر. وإذن فهو أبوها وجدّها. وكانت تعرف أنّ الرسول ﷺ قال: «أنا دعوة إبراهيم ﷺ، حيث يقول: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾»[3].

وحين بلغت المزار، ووقفت بين يدي جدّها خليل الله، قالت: «ما أن بلغت المقام الكريم والضريح العظيم حتى أجهشت بالبكاء، بكاء السرور لتحقيق أمنيتي في زيارة الخليل، ثم جلست في خشوع أقرأ من آيات الله ما ورد في خليل الله. وقرأت: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِي ٱلسَّمَاءِ * ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ * رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ * وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللهَ غَافِلاً عَمَّا

---

١. وفيات الأعيان ٥: ٤٢٤ رقم ٧٦٧. وذكره أيضاً المقريزي في خططه ٤: ٣٢٥.

٢. تحفة الأحباب وبغية الطلاب: ١٠٥.

٣. رواه في كنز العمال ١١: ٣٨٤ رقم ٣١٨٣٣ عن الضحاك مرسلاً. والآية: ١٢٩ من سورة البقرة.

يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۞ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۞ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۞ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۞ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۞ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۞ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۞ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۞ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٥٢].

وحجّت كريمة الدارين هي وزوجها إسحاق المؤتمن، وزارت قبر خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، كما قلت: حجّت في حياتها المباركة ثلاثين مرّة، أكثرها ماشية على قدميها[1]، وكان القدوة لها في ذلك جدّها الإمام الحسن الذي كان يقول: «إنّي لأستحي من ربّي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته»[2].

وقالت زينب بنت يحيى[3] المتوّج: خدمت عمتي السيدة نفيسة أربعين سنة، فما

---

١. انظر خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

٢. حلية الأولياء٢: ٣٧، مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٨٠، العوالم (الامام الحسن): ١٣٢.

٣. يحيى أخوها بمصر، وليس لأخيها يحيى سوى زينب التي صحبت عمّتها طوال حياتها، وقد عافت الدنيا وزهدتها، فلم تتزوّج، وكان يرىٰ على قبر يحيى نور. قال أبو الذاكر: دخلت إلى قبر يحيى، فلم أحسن الأدب، فسمعت من قبره من يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وليس بمصر من أخواتها سواه، ومشهده معروف بإجابة الدعاء، وقد دفنت زينب بنت يحيى المتوّج رضي الله عنهما بجوار قبر عمرو بن العاص، وكان أهل مصر يأتون لزيارة قبرها من كلّ فجّ، وكان الظاهر الخليفة الفاطمي يأتي إلى زيارتها ماشياً، وكان أهل مصر يجيئون إلى قبرها يستسقون، وكان النيل قد توقّف، فاستسقىٰ أهل مصر بها، وجأروا إلى ربّهم، فجرى النيل بإذن الله تعالى.

رأيتها نامت بليل ولاأفطرت بنهار، إلّا العيدين وأيام التشريق. فقلت لها: أما ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لايقطعهنّ إلّا الفائزون؟[١]

وكانت تقول: كانت عمتي تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي[٢].

وقد سمع منها الحديث وتفسيره والفقه كثير ممّن قابلوها، فقد سمع منها بمصر غير الإمام الشافعي جمهور كبير من العلماء؛ كذي النون المصري، وعبدالله بن الحكم، وولديه محمد وعبدالرحمن، وعبدالرحمن البويطي، والربيعين المرادي والجيزي، وحرملة من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنهم، وكثيرين غيرهم[٣] استفادوا ممّا أفاضه الله عليها من فيوضات ممّا سيأتي بيانه بعد قليل، وما روته من أحاديث وآثار، وفقه وعلم ومعارف نبوية. فإنّها رضي الله عنها من أهل بيت اتّقوا الله فعلّمهم الله، وأنار قلوبهم بنور عرفانه، فكانوا من حلمة العلم وحضنته، ومن ذوي الفقه والدين، والمعرفة واليقين.

وكانت السيدة الورعة زاهدة في دنياها، تؤمن بمنهج الزهد وتمارسه، وكان رائدها في طريق الزهد جدّها الأعظم رسول الله ﷺ الذي أحاطت بسيرته، وكان مرشدها هو ما قال الرسول ﷺ وما فعل، وقد مالت بطبعها من صغرها إلى حياةٍ بعيدةٍ عن زخرف الحياة وزينتها بالرغم من أنّ أباها كان أميراً للمدينة، وكان بلاشكّ يعيش عيشةً رغدة، ولكنّها ما كانت تستشرف إلى لذائذ الدنيا وشهواتها.

وفي بيت أبيها نشأت ـ برغم ما يحيط بها من مظاهر الترف ـ نشأة الزهادة والتقشّف، فمثلاً كنت قليلة الأكل، ويروى: أنّها كانت تأكل كلّ ثلاثة أيام مرّة[٤].

وتقول زينب بنت يحيى: «كنت أجد عندها ما لا يخطر بخاطري، ولاأعلم من

---

١. خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

٢. المصدر السابق.

٣. كالامام أحمد وسفيان الثوري ورابعة العدوية. انظر تحفة الأحباب للسخاوي: ١٠٧.

٤. راجع خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

يأتي به، فعجبت من ذلك، فقالت: يا زينب من استقام مع الله تعالى كان الكون بيده وفي استطاعته»[١].

وكانت تمضي أكثر وقتها في معبدها أو حرم جدّها المصطفى ﷺ، على أنّه يقال: إنّها رضي الله عنها لم تكن سلبية في زهدها، تقاطع الحياة مقاطعةً تامةً كما يفعل بعض الزهّاد، إنّما كان هجرها للدنيا واقعاً على كلّ ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته، ويعوقها عن العمل لآخرتها والتزوّد لها.

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينها، والدليل على ذلك حفرها قبرها بيدها، وقضاؤها شطراً من وقتها كلّ يوم تستلهم منه العظات، وتستوحي الصالحات.

وهي بعد ذلك زوجة مخلصة، ولم يشغلها أيّ أمر عن مسؤوليتها كزوجة، حتى فاخر بها المؤتمن الدنيا، ويذكر للناس من حوله أنّه قد وجد فيها نعمة الله عليه، فلم تقصّر في حقٍّ له أبداً، ولم يشغلها أيّ أمر عن حقوقه وواجباته.

وهي أُم ترعى الله في زوجها وولدها، تغدق بالحنان ولديها: أبا القاسم وأُم كلثوم، ترعاهما وتؤدّبهما حتى يصيرا نموذجاً صالحاً بشرف الانتساب إلى بيت النبوة.

وهي ربّة بيتٍ تشرف عليه، وهي محبّة للعلم حبّاً جعلها بحقّ نفيسة العلم.

وتجتمع بذوي الحاجات من الناس، وتستمع اليهم، ولهذا شاهد مسكنها في المدينة وفود الزوّار من كلّ بلد اسلامي، خصوصاً من القادمين في مواسم الحج والراغبين في العلم، وقد كان أكثر هؤلاء الوفود، وأشدّهم حرصاً على لقائها كانوا من مصر.

وضاقت دارها بالزائرين، كما حدث تماماً في مصر عندما طلبت الرحيل إلى الحجاز عند أهلها؛ بسبب ازدحام منزلها بالقاصدين اليها، كما سيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

فزهد السيدة نفيسة إيجابي نافع، كما كان زهد الرسول إيجابياً، مثالياً في إيجابيته.

---

١. راجع المصدر السابق.

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوامّ، وترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواصّ، وترك ما يشغل العبد عن الله، وهو زهد العارفين[١].

وهو زهد السيدة كريمة أهل الدارين، شعارها: الله أولاً، والمجتمع ثانياً. لله صلاتها ونسكها، ولله محياها، ولله مماتها.

أخلاقها

كانت رضي الله عنها وأرضاها، كريمة الخليقة، شريفة الطبع، غرّاء المكرمات، زهراء المأثرات. فقد صاغها الله من معدن كريم، وأنبتها نباتاً حسناً. فجمعت خلال الفتوّة والمروءة، فكانت معطاءة فيّاحة، فيّاضة، نفّاحة، جمّة المبرات، كثيرة الصلات، وهي مع هذا زاهدة متقشّفة.

أمّا ما برأها عليه من عزّة نفس وحميٰ أنف، تربأ بنفسها عن مواطن الذلّ والابتذال، وتتصاون عن الامتهان والهوان، وهي مع هذا، لايذهب بنفسها زهو وكبرياء، ولايخالطها تيه وعجب، بل كانت متواضعة النفس، متطامنة الجانب.

سلاسة طبع وسجاحة خلق، وبالإجمال: فأخلاقها مقتبسة من أخلاق جدّها المصطفىٰ صلى الله عليه وآله، وإنّه لعلىٰ خُلق عظيم.

وكانت المثل الأعلىٰ في الوفاء لزوجها على وجه الخصوص، وعرفان حقوقه، والقيام بواجباته، وقد ساهمته الاخلاص والودّ، وعرف فيها هذا الخلق النبيل، فكان مثال الطاعة لها فيما تسلكه وتنحيه، فما خالف لها أمراً، ولا وقف لها في سبيل رغبة، بل كان يهيّئ لها ما تبتغيه، ويسهّل لها ما تريده، ولم يبخل عليها بشيء من ماله.

وكانت عطوفة على أُسرتها، فهاهي تلك بنت أخيها زينب، وقد لمست في عمّتها

---

١. كتاب الزهد: ٤.

العطف، فتمادت في خدمتها، ونسيت نفسها في سبيل عمّتها، فلازمتها وأصبحت كظلّها، وعافت الزواج لتنفرد بخدمتها، وتسهر على راحتها، وتقضي لها حاجتها، وما رحلت عمتها نفيسة بنت زيد إلى مصر، إلّا شوقاً لبنت أخيها، وكان برّها لخادمتها «جوهرة»، ومعاملتها لها أحسن معاملة، فأشرب في قلبها حبّها، والإخلاص إليها إلى ما عرف عنها من إيثار ذويها وبرّهم، ممّا جعلها تملك قلوبهم.

وكان كثيرة الخير والبرّ، تواسي البائسين، وتسعف الملهوفين، وتفرّج كرب المكروبين، وكان لها مال كثير إلى مال زوجها، تحسن من كلّ أولئك إلى المرضىٰ والمحتاجين والناس عامةً، فما كانت تردّ سائلاً، ولاتمنع مستجدياً، وكانت تتعرّف من به حاجة، فتقضي حاجته، سخيّةً لكلّ من يتّصل بها، نديّةً لكلّ من يلوذ بها، ويحوم حول رحابها.

وهب لها أحد الأمراء مائة ألف درهم، وقال: خذي هذا المال شكراً لله تعالى لتوبتي، فأخذته وصرّته صرراً بين يديها، وفرقت الصرر عن آخرها، وكان عندها بعض النساء فقالت لها: يا سيدتي، لو تركت لنا شيئاً من هذا الدراهم لنشتري به شيئاً فنفطر عليه؟!

فقالت لها: خذي غزلاً غزلته بيدي فبيعيه بما تشتري به طعاماً نفطر عليه، فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت بما أفطرت به هي وأيّاها، ولم تأخذ من المال شيئاً[١]. فهي الجوادة بنت الجواد، وهي من قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وكانت رضي الله عنها عيوفة عزوفة، فما عرف عنها أنّها مدّت يدها لمخلوق، وما كانت تأخذ شيئاً ممّا كان يأتي اليها من منح الأُمراء والعظماء، بل أنّها كانت تبعث به إلى ذوي الحاجات، سخاء نفس وعزّة فطرة، وما كانت تنفق على نفسها وأفراد بيتها إلّا ما كان من مالها أو مال زوجها أو ما يأتيها ممّا تغزله بيدها، وكانت لا تأكل طعاماً لغير زوجها.

---

١. تحفة الأحباب: ١٠٦.

وهذا أمير مصر السري بن الحكم، فقد ألحّ عليها إلحاحاً شديداً في أن تنزل في دار له نزل عنها لها، فبعد لأيٍ وجهدٍ قبلت أن تنزل في تلك الدار التي وهبها إليها، وقد سرّه قبولها، وحمد الله تعالى على ذلك[1]. فهي من آل بيت لايرضىٰ ذووه أن يكون لأحدٍ غير الله تعالى له عليهم نعمة ولا منّة؛ شمماً وإباء نفس.

وهذا هو الأمير الذي بعث اليها بمائة ألف درهم، فلم تشأ أن تبيتها أو تدخرها، بل وزّعتها دون أن تبقي لها منها درهماً.

وكانت السيدة نفيسة رضي الله عنها كثيرة البرّ والمواساة، عطوفة رحيمة، تحنو على القوم وتتّحد بهم، فتؤويهم إلى ظلّ رحمتها، وتمهّد لهم مهاد رأفتها.

ولم يكن عطفها على ذوي قرباها بأقلّ أثراً من ذلك، فكثيراً ما نالهم برّها وشملهم خيرها. فهذه بنت أخيها السيدة زينب قد لاقت من عمّتها من الحنان والرأفة والإحسان، ما جعلها تخلص الودّ اليها، وتتفانىٰ في خدمتها، وتقوم لها بما تحتاجه من أمورها، فإنّ عمتها ملكت قلبها ببرّها وعطفها، حتّى وفت لها أربعين سنة، تنشط لخدمتها، وتسهر على حاجتها، دون سأم أو ملل[2].

وكذلك أخلصت لها خادمتها «جوهرة» لما لمسته من عطف وحنان، فعاشت في كنفها مسرورة، تفديها بنفسها، وتسارع تلبية ندائها، وقضاء حاجتها.

وهؤلاء جيرانها وقد عرفوا برّها وعطفها، فكانوا يودّونها ويثقون بها، حتى أولئك الذين كانوا يخالفونها في دينها. فهذه جارتها اليهودية لم تأمن على وحيدتها غير الشريفة السيدة نفيسة، بالرغم من وجود جمهرة من اليهود أبناء شيعتها يجاورونها، غير أنّها لم تر فيهم أحداً موضع ثقتها فتودع عنده فلذة كبدها إلى أن تعود من حمامها، فلم تجد غير تلك الأمينة العطوفة، فتركتها عندها، فنالت من بركتها ممّا سيأتي في حينه.

---

١. خطط المقريزي ٤: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

٢. المصدر السابق: ٣٢٥.

فالبرّ والعطف آيتان محبّبتان بهما، تملك القلوب، وتؤسر الأفئدة، إلى ما رأيناه من إقبال الناس عليها فوق ما لمسوه من بركاتها، وما عرفوه من نفحاتها.

من بلد الرسول محمد ﷺ إلى القاهرة

ولدت السيدة نفيسة بمكة، ثم انتقلت إلى المدينة بصحبة أبيها، ولبثت بالمدينة إلى أن روّعت بحبس المنصور لأبيها من سنة ١٥٦هـ إلى سنة ١٥٩هـ حين أخرجه المهدي من حبسه وردّ عليه ماله[١]، واستمرّت في المدينة المنوّرة، وعاشت في ظلّ أبيها قريرة مسرورة إلى أن تزوجها إسحاق المؤتمن وبنىٰ عليها في بيت أبيه بالمدينة، فعاشت ردحاً من الزمن، فكانت تشوق لزيارة قبر أبيها إبراهيم ﷺ، ثم زارت بغوطة دمشق، مقام السيدة زينب بنت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[٢]، إذ أنّها مدفونة بمغارة، وعند قبرها رخامة مكتوب عليها:

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه ... بالرغم منّي بين التراب والحجر
أُفديك فاطمة بنت ابن فاطمة ... بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر

وزارت قبر «فضّة» جارية جدّتها فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وغير أولئك.

وفي دمشق استقبلها جمهور كبير من العلماء هرعوا للتسليم عليها، والتماس دعائها وبركتها، وفي مقدّمتهم الشيخ الكبير العارف بالله أبو سلمان الداراني، وكان رجلاً صالحاً زاهداً، وله كلام رفيع في التصوّف والوعظ، ومحدّث الشام أبو العباس الوليد بن مسلم الدمشقي[٣]، وكان إماماً حافظاً، والإمام أبو بكر الدمشقي مروان بن محمد الطاطري[٤]،

---

١. انظر تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨: ٢٩٤، شذرات الذهب ٢: ٢١.
٢. انظر تحفة الأحباب: ١٠٥.
٣. الوليد بن مسلم الأموي بالولاء، الدمشقي، عالم الشام في عصره، من حفّاظ الحديث، ولد عام ١١٩هـ، وتوفّي عام ١٩٥هـ بذي المروة عند قفوله من الحج. انظر تذكرة الحفاظ ١: ٢٧٨.
٤. أبو بكر مروان بن محمد بن حسان الطاطري الأسدي، ولد عام ١٤٧هـ عام الكواكب، وتوفي عام ٢١٠هـ بدمشق، أثنىٰ عليه الإمام أحمد ويحيى لكنّه قال: كان مرجئاً. انظر تاريخ دمشق ٢٤ ـ ٢١٣.

وكان صالحاً خاشعاً عابداً. وغير أولئك من علماء الشام ومحدّثيه وصلحائه. يرجون منها دعاءها، ويلتمسون بركتها، ويسمعون منها ما تحدّث به من حديث جدّها المصطفى ﷺ[١].

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ رمضان ١٩٣هـ وصلت السيدة كريمة الدارين إلى مصر، قبل أن يقدم اليها الإمام الشافعي رضي الله عنه بخمس سنين. وكان ذلك في ولاية الحسن بن البحباح[٢] والي مصر من قبل الرشيد[٣].

وفي العريش استقبل أهل مصر السيدة نفيسة رضي الله عنها أحسن استقبال[٤]، فقد أحبّها الشعب المصري قبل قدومها إليه، سمع عن أنبائها بالمدينة بلد الرسول ﷺ، وتلقّتها النساء والرجال بالهوادج والخيول مرحّبين، يهلّلون ويكبّرون، ولم يزالوا معها إلى أن دخلت مصر، فأنزلها عنده كبير التجّار بمصر جمال الدين عبدالله الجصاص، وكان من أهل الصلاح، ومن أصحاب المعروف والبرّ والصدقة، والمحبة في الصالحين والعلماء والسادة الأشراف. فنزلت عنده في داره معزّزة مكرّمة مبجّلة، فأقامت بها عدّة شهور، والناس يفدون إليها زرافات ووحداناً، من سائر مدن القطر، ومن جميع الآفاق، يتلمسون بركتها، ويرجون دعاءها، ويرون في إشراقتها إشراقة بيت النبوّة وعترة المصطفى ﷺ.

وكانت سيدة من المصريّين تسمّى بأم هانئ، لها دار رحيبة بجهة المراغة، فرجت من السيدة نفيسة النزول في دارها، وكانت امرأة ورعة تقية صالحة، فقبلت السيدة

١. راجع كتاب الدرّة النفيسة: ٥٧ ـ ٥٨.

٢. أحد ولاة بني العباس على مصر، ولّاه الرشيد عليها سنة ١٩٣هـ وفي أيامه توفّي الرشيد، وولي الخلافة ابنه الأمين، وبعد أن ثار جند مصر قاتلهم الحسن بن البحباح ونكل بهم وأخضعهم للأمين، ثم عزله الأمين، وكانت مدّة ولايته كلّها سنة وشهرين! توفّي بعد عام ١٩٤هـ. انظر النجوم الزاهرة ٢: ٦٤١.

٣. الدرّة النفيسة: ٦٤.

٤. في قصة استقبالها رضي الله عنها من قبل المصريّين، راجع كتاب الدرّة النفيسة في ترجمة السيدة نفيسة: ١٧ ـ ٢١.

نفيسة وانتقلت إلى تلك الدار، فلم ينقطع عنها الزوّار، وانهال عليها الناس من كلّ حدب وصوب، من طلّاب الحاجات، وراغبي الدعوات، وملتمسي النفحات والبركات، ويعودون جميعاً وقد استجاب الله دعاءها، وقضىٰ لهم حاجتهم، وكشف كروبهم.

وقد كان يجاور بيت أم هانئ رجل من اليهود، يقال له: أبو السرايا أيّوب بن صابر، وله بنت مقعدة. وفي يوم من الأيام توجّهت بها أُمها إلى السيدة نفيسة واستأذنت في بقائها في حماها إلى أن تعود من حمامها، فتركتها في ردهة الدار ومضت إلى الحمّام، حتى إذا جاء وقت صلاة الظهر نهضت السيدة نفيسة لوضوئها والبنت القعيدة ترقبها، وتستشرف إلى ما تصنعه السيدة، وكان ماء الوضوء يجري في مجرىً بالردهة إلى بئر تحت عتبة الدار. فألهم الله عزّ وجلّ البنت إلى أن تزحف من مكان قعدتها وتصل إلى ذلك المجرى زاحفةً، وأخذت في تقليد السيدة فيما تفعله من غسل وجهها ويديها ورجليها، وما أن غسلت رجليها من ذلك الماء الذي يسيل في المجرى من فضل وضوء السيدة نفيسة، حتى كأنّما نشطت من عقالها، وزال عنها كساحها، وشفاها الله سبحانه وتعالى ممّا بها، فنهضت قائمةً مسرعةً في الخروج إلى الدرب، خارج الدار تلعب مع لدّاتها، والسيدة في شغل عنها بعبادتها وصلاتها.

فلمّا حضرت أم البنت إذ بها تجدها وقد زال عنها ما أقعدها وهي قائمة على قدميها، كأنّه لم يكن بها شيء، فاحتضنتها وهي نشوانة، مأخوذة ممّا رأت شفاء بنتها وعافيتها، فسألتها عن أمرها، فأخبرتها بجلية الأمر، وما كان من غسلها رجليها من فضل ماء الوضوء، فبكت الأم بكاءً شديداً، وقالت: لاريب في أنّ دين تلك السيدة الشريفة هو الدين الصحيح، ودخلت على السيدة في خشوع وخضوع، وإجلال واحترام، ووقفت بين يديها تحيّيها، ثم نطقت بالشهادتين، وأخلصت لله ربّ العالمين، وشكرت للسيدة صنيعها وجميلها، وحمدت الله عزّ وجلّ على أن أخرجها من الظلمات إلى النور، وأنقذها من الضلال إلى الهدى.

ولمّا حضر والد البنت ـ وكان من كبار قومه، وسراة عشيرته ـ ورأىٰ وحيدته

وقد تعافت، فصح جسمها، واستقام عودها، وذهبت شكاتها، فأخذته الأريحية واستطاره الفرح، فأخذ يصفّق ويرقص، ولم يلبث أن نبّأته أُمها بخبرها، وما حاطها من بركة السيدة الشريفة جارتهم، فما أن أنهت زوجته من إخباره حتى رفع بصره ومدّ يديه إلى السماء، وقال: سبحانك ربّنا تهدي من تشاء وتضلّ من تشاء، اللّهم إنّي أُشهدك أنّ هذا الدين هو الدين الحقّ، وأنّ الدين عند الله الإسلام، وأنّه لا دين غير الإسلام. ثم توجّه من فوره إلى دار السيدة نفيسة، واستأذنها في الدخول، فأذنت له، فكلّمها وهي من وراء حجاب، وبعد أن حيّاها وشكر لها صنيعها، قال: سيدتي ارحميني وتشفّعي لي، واشفعي في من هو في ضلال الكفر قد تاه، ومن الدين أبعده الكفر وأقصاه. فرفعت السيدة نفيسة بطرفها إلى السماء، ودعت الله عزّ وجلّ له بالهداية، فما أن انتهت من دعائها حتى نطق أبو السرايا بالشهادتين، وسرى الخبر في تلك الجهة فأسلم أهلها، وكانوا أكثر من سبعين بيتاً من اليهود[١].

ثم استأذن أبو السرايا من السيدة نفيسة أن تنتقل إلى دار له بدرب الكرويين المعروف الآن بالحسينية، وهذه الدار باقية للآن، وكذلك الحجرة التي كانت تتعبّد فيها باقية، وهي محلّ إجلال وإكبار، ولايدخلها إلّا من عهد إليه بنظافتها.

على أنّه ما كاد تذاع تلك الكرامة حتى هرع إليها القوم من جميع الجهات، يلتمسون بركاتها ودعواتها، فتكاثرت الجموع على بابها، وضاقت بهم الدار بما رحبت، ففكّرت ملياً في مغادرة مصر حيث تعود ثانياً إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، لتقضي بقية عمرها في هدوئها وعبادتها ومناجاة بارئها، وتلتزم حرم جدّها المصطفى صلى الله عليه وآله. فاشتدّ ذلك على أهل مصر، وشقّ عليهم أن تفارقهم، وقد لمسوا نفحاتها، وعرفوا هداها وتقواها، وما أفاضه الله تعالى عليها من فيوضات، وما يحيطه بها من تجلّيات ومشاهدات، فالتمسوا منها العدول عن عزمها، ورجوها

١. خطط المقريزي ٤: ٣٢٦، تحفة الأحباب: ١٠٥ ـ ١٠٦.

البقاء بين ظهرانيهم، فأبت عليهم طلبهم، وصارحتهم بأنّها تريد انفرادها لعبادة ربّها، ولايشغلها منهم شاغل.

ولمّا رأوا منها إصراراً على مغادرة الديار، ولّوا وجوههم نحو والي مصر السري ابن الحكم بن يوسف[١].

وكان آل السري يكبّرون السيدة نفيسة ويعظّمونها ويكثرون من زيارتها وتعهّدها، ويعرضون عليها خدمتهم إيّاها، وما أن ذهبت جمهرة من محبّيها إلى السري يخبرونه بعزمها، ويسألونه أن يتوسّل إليها في العدول عن عزمها، حتّى انتقل السري إليها يستعطفها ويرجو بقاءها بمصر.

فقالت له: إنّي كنت قد اعتزمت المقام عندكم، غير أنّي امرأة ضعيفة، وقد تكاثر الناس حولي، وأكثروا من زيارتي، فشغلوني عن أورادي، وجمع زادي لمعادي، غير أنّ منزلي هذا يضيق بهذا الجمع الكثيف والعدد الكثير، وقد زاد حنيني إلى روضة جدّي المصطفى ﷺ.

فقال لها السري: يا ابنة رسول الله، إنّي كفيل بإزالة ما تشكين منه، وسأمهّد لك السبيل، وأهيّئ لك ما فيه راحتك ورضاك، أمّا ضيق المنزل فإنّ لي داراً واسعة بدرب السباع، وإنّي أشهد الله تعالى أنّي قد وهبتها لك، وأسألك أن تقبليها منّي، ولا تخجليني بردّها عليّ.

فقالت بعد سكوت طويل: إنّي قد قبلتها منك، ثم قالت: يا سري، كيف أصنع بهذه الجموع الكثيرة، والوفود الغفيرة؟

---

١. السري بن الحكم بن يوسف، مولى بني ضبة، وأصله من بلخ، وقد ولي إمرة مصر بإجماع الجند وأهل مصر على الصلاة والخراج معاً، وذلك في مستهلّ شهر رمضان سنة مائتين بعد عزل المطلب بن عبدالله الخزاعي عنها، وقد سكن العسكر على عادة أمراء مصر. وكان السري أميراً جليلاً، معظّماً في الدول وفي الأعمال، وتنقّل في البلاد، وقد توفّي سنة خمس ومائتين، فولي ابنه محمد إمرة مصر بعد وفاة أبيه، فكان على غرار أبيه إلى أن توفّي سنة ست ومائتين، فوليها أخوه عبدالله بن السري، وقد بقي في ولايته إلى أن عزله المأمون في ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين.

فقال: تتفقين معهم على أن يكون للزوّار في كل جمعة يومان، وباقي الأسبوع تتفرغين لعبادتك وخدمة مولاك، فاجعلي يومي السبت والأربعاء للناس.

فقبلت منه ذلك، وانتقلت إلى داره، وخصّصت للزيارة يومي السبت والأربعاء من كلّ أسبوع[١].

١. خطط المقريزي ٤: ٣٢٧ ـ ٣٢٨، والدرّة النفيسة: ١١٧.

السيدة نفيسة

حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله[1]

حنفي المحلاوي

من هي

اتّفق المورّخون وكتّاب السيرة علىٰ أنّ السيدة الطاهرة كريمة الدارين، ورئيسة أهل التصوّف: نفيسة... هي ابنة السيد حسن الأنور ابن السيد زيد الأبلج ابن السيد أبي محمد الحسن السبط ابن الإمام علي، وابن السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله.

وقد أورد لنا عليّ باشد مبارك في خططه كلاماً آخر عن نسب هذه العابدة الطاهرة، فقال على لسان المؤرّخ تقي الدين المقريزي: إنّها نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأُمّها أُم ولد... تزوّجها إسحاق بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين، فولدت له ولدين هما: القاسم، وأُم كلثوم.

ولدت السيدة نفيسة بمكّة المكرمة، في شهر ربيع الأول من عام ١٤٥ هـ، وكانت خيراً على والدها السيد حسن الأنور؛ إذ اختاره أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من أهل البيت» ط. دار العلم والتراث.

العباسيّين أميراً ووالياً على المدينة المنوّرة عام ١٥٠ هـ، فصحبها والدها إلى المدينة المنوّرة، وكان عمرها آنذاك خمس سنوات، فحفظت القرآن الكريم، وأجادت تفسيره، وتفقّهت في دين الله. فأحبّها أهل المدينة حبّاً مقروناً بالإجلال والتعظيم؛ لما اشتهرت به من الزهد والتقوى والصلاح، كما كانت كثيراً ما تلازم قبر جدّها رسولنا الكريم ﷺ.

عُرفت السيدة نفيسة رضي‌الله عنها بالعديد من الألقاب، فهي «نفيسة الدارين» لعوارفها، وصنائعها، وشفاعتها يوم القيامة.

وهي «نفيسة العلم» لما استنبطته من العلم، واستجلته من غوامضه، وما نشرته على طالب الاستفادة منه.

وهي «نفيسة الطاهرة» لطهارتها وتعبّدها.

وهي «نفيسة العابدة» لعبادتها وتقواها.

وهي «نفيسة المصريّين» لحبّ أهل مصر لها[1].

ولمّا بلغت السيدة نفيسة سنّ الزواج، رغب بها شباب آل البيت من بني الحسن والحسين رضي الله عنهما، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب أشراف قريش؛ وذلك لما عرفوه من خيرها وبرّها، ودينها وصلاحها وتقواها... وكان أبوها يأبى عليهم جميعاً، ويردّهم ردّاً جميلاً، إلى أن أتاها إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق ﷺ، فخطبها من أبيها.

وبزواج إسحاق من السيدة نفيسة اجتمع في بيتها ـ على حدّ قول المؤرّخين ـ نوران: نور الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة.

وممّا ذكره المقريزي بهذا الشأن قوله: «... وتزوّج بنفيسة رضي الله عنها إسحاق بن جعفر الصادق ﷺ، وكان يقال له: إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير، والفضل والدين...»[2].

---

١. السيدة نفيسة لتوفيق أبو علم، سلسلة أهل البيت، ط. دار المعارف.

٢. خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

وقد أنجبت السيدة نفيسة من زوجها ولدين، هما: القاسم، وأُم كلثوم.

وجاءت السيدة نفيسة إلى مصر بصحبة زوجها إسحاق المؤتمن، وقد عاش من بعد رحيل زوجته لسنوات طويلة، ودُفن بعدها في مصر أيضاً.

وصلت السيدة نفيسة إلى مصر يوم السبت ٢٦ رمضان سنة ١٩٣هـ وكان ذلك قبل مقدم الإمام الشافعي إلى مصر بخمس سنوات، وعاشت السيدة نفيسة على أرضها خلال ولاية الحسن بن البحباح والي مصر من قبل الرشيد.

وفي العريش استقبلها الناس استقبالاً حافلاً حين علموا بقدومها من بلد الرسول ﷺ، وظلّت على هذه الحفاوة حتى وصلت مدينة مصر، وأقامت في بيت كبير التجّار آنذاك: جمال الدين عبدالله الجصّاص، وكان كذلك من أهل التقوى والصلاح، وظلّت السيدة نفيسة تقيم بهذه الدار المشهورة التي كانت تقع في مدينة الفسطاط فترةً من الزمن، وكان يتوافد عليها فيها الناس ترحيباً وتبرّكاً.

ثم انتقلت بعد ذلك هذه السيدة الطاهرة لتقيم في بيت أم هانئ، وكانت إحدى السيدات العابدات في مصر آنذاك، وأخيراً انتقلت للإقامة في الدار التي وهبها لها والي مصر السري بن الحكم في خلافة المأمون العباسي... وكان ذلك في عام ٢٠١هـ في ولايته الثانية.

ولمّا كثرت كرامات السيدة نفيسة، وتكاثر عليها الناس تبرّكاً... أرادت الرحيل مرة أُخرى إلى بلاد الحجاز ـ على ما رواه السخاوي في كتابه المزارات ـ فشقّ هذا الأمر على أهل مصر، وسألوها الإقامة، فأبت ذلك، فركب إليها والي مصر السري بن الحكم وسألها الإقامة، فقالت: أنا امرأة ضعيفة، وقد شغلوني عن جمع زادي لميعادي، ومكاني ضاق بهذا الجمع الكثيف...فقال لها: أمّا ضيق المكان فإنّ لي داراً واسعةً بدرب السباع، فأشهد الله أنّي قد وهبتها لك، وأسألك أن تقبليها منّي، وأمّا الجموع الوافدة فقرّري معهم أن يكون ذلك يومين في الجمعة، وباقي أيامك في

خدمة مولاك. فوافقت، وجعلت لهم يوم السبت ويوم الأربعاء، إلى أن توفّيت ودفنت بهذه الدار.

وأضاف السخاوي: إنّ السيدة نفيسة أقامت في مصر قرابة سبع سنوات...وفي شهر رجب عام ٢٠٨هـ... مرضت السيدة نفيسة، ولمّا أحسّت بدنوّ أجلها بعثت إلى زوجها إسحاق المؤتمن كتاباً، وحفرت قبرها بيدها في بيتها، وكانت تنزل وتصلّي به كثيراً[١].

وأراد زوجها بعد موتها أن يحملها إلى المدينة المنوّرة لكي يدفنها بالبقيع، فاجتمع أهل مصر إلى الوالي، واستجاروا به عن زوجها ليردّه عمّا أراد، فأبىٰ، فجمعوا له مالاً وفيراً حتى وسق بعيره، وسألوه أن يدفنها عندهم، فأبىٰ... فباتوا في ألم عظيم، فلمّا أصبحوا اجتمعوا إليه فوجدوه مستجيباً لرغبتهم، فلمّا سألوه عن ذلك قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لي: «ردّ عليهم أموالهم، وادفنها عندهم».

وعن ذلك يقول العلّامة الأجهوري: إنّ السيدة نفيسة رضي الله عنها حفرت قبرها بيدها الشريفة، أي أمرت ببنائه حال صحّتها؛ لشدّة شوقها للقاء خالقها، وعدم رغبتها في الدنيا الفانية وزينتها، وكانت ـ عليها سحائب الغفران ـ تنزل فيه للتعبّد والتذكّر بالدار الآخرة[٢].

وهناك رواية سجّلها بعض المؤرّخين على لسان ابنة أخيها... وقد وصفت فيها أحوال هذه السيدة الطاهرة بعد أن أصابها المرض وأحسّت بدنوّ أجلها... وممّا نقله هؤلاء المؤرّخون على لسانها: «تألّمت عمّتي في أول يوم من رجب، وكتبت إلى زوجها إسحاق المؤتمن كتاباً، وكان غائباً بالمدينة، تطلب إليه المجيء إليها وموافاتها؛ لإحساسها بدنوّ أجلها، وفراقها الدنيا، وإقبالها على الآخرة».

وما زالت متوعّكة إلى أن كان يوم أول جمعة من شهر رمضان، فزاد عليها الألم وهي صائمة، فدخل عليها الأطبّاء، فأشاروا عليها بالإفطار لحفظ قوتها، والتغلّب

---

١. تحفة الأحباب: ١٠٦.

٢. مشارق الأنوار من نسل النبي المختار: ٨٧.

على مرضها، فرفضت ذلك... وقالت: واعجباه! إنّ لي خمسين سنة وأنا أسأل الله عزّ وجلّ أن يتوفّاني وأنا صائمة، فأفطر؟! أعوذ بالله... فانصرف الأطبّاء وهم معجبون بقوة يقينها، وثبات عزيمتها، وسألوها الدعاء، فقالت لهم خيراً ودعت لهم.

ثم قالت زينب ابنة أخيها: ثم إنّها بقيت كذلك وقد افترسها الداء العشر الأواسط من شهر رمضان، فاشتدّ بها المرض، واحتضرت، فاستفتحت بقراءة سورة الأنعام... فلا زالت تقرأ إلى أن وصلت إلى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧] فغشي عليها.

ثم قالت زينب: فضممتها إلى صدري، فإذا بها تشهد شهادة الحقّ، وقبضت، واختارها الله لجواره، ونقلها إلى دار كرامته، وكان ذلك في سنة ثمان ومائتين، وذلك بعد موت الإمام الشافعي بأربع سنوات[١].

صفاتها وعلمها

تميّزت السيدة نفيسة رضي الله عنها كما تميّز غيرها من آل البيت بالتفاني في عبادة الله، والخوف من عذابه... فكانت ـ وهي لاتزال تقيم في المدينة، وتعيش في كنف والدها ـ دائمة العبادة... وتلاوة القرآن الكريم... وممّا يروىٰ عنها، وهي لا تزال في سنّ الخامسة من عمرها: أنّها حفظت القرآن الكريم، وأجادت تفسيره، ثم تفقّهت في الدين، ولازمت قبر جدّها المصطفى ﷺ، فأحبّها أهل المدينة حبّاً مقروناً بالإجلال والتعظيم؛ لما اشتهرت به رضي الله عنها من الزهد والتقوىٰ، وصيام النهار وقيام الليل في عبادة الله.

وكانت وهي بالمدينة تتردّد كثيراً على مكّة لأداء الحجّ، وقد أُثر عنها حين طوافها حول الكعبة: أنّها كانت تتّجه إلى الله وتقول: «إلهي وسيدي ومولاي: متّعني

---

١. السيدة نفيسة، لتوفيق أبو علم.

برضاك عنّي، فلا سبب لي يحجبك عنّي».

وكانت السيدة نفيسة كثيرة الترحال... فسافرت إلى بلاد الشام عندما بلغ عمرها ثمانية وأربعين عاماً، وهناك زارت قبر خليل الرحمن إبراهيمﷺ، ثم جاءت إلى مصر واستقرّت بها.

وكان يزورها أثناء اقامتها بمصر الكثير من العلماء والصالحين، وكان علىٰ رأسهم آنذاك الإمام الشافعي رضي الله عنهم، وقد سمع منها الحديث، وصلّىٰ بها التراويح في شهر رمضان، وكان إذا ما مرض، ولم يستطع زيارتها، أرسل لها رسولاً يبلّغها تحياته، ويسألها الدعاء له بالشفاء.

ونظراً لكثرة عبادتها وقربها من الله... فقد أصبح المكان الذي تقيم فيه، والذي دُفنت به أيضاً... تجاب فيه الدعوات إلى الله... وقد عرف المصريّون ذلك، فأصبح قبرها ومسجدها... محطّ أنظار ملايين الناس الذين يقصدونه من أجل الدعاء المبارك به، عسى الله أن يستجيب لهم، ويفرّج عنهم كروبهم.

وعشرات الكتب التي أخرجها العديد من الصالحين فيها قصص وحكايات عن كرامات مقام السيدة نفيسة رضي لله عنها.

وممّا يروىٰ عن صفاتها وكثرة إقبالها على الله... ما قصّته عنها زينب ابنة أخيها التي لازمتها أربعين عاماً... حين قالت: خدمت عمّتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت بالليل، ولا أفطرت بنهار... فقلت لها: أما ترفقين بنفسك؟! فقالت: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لايقطعها إلّا الفائزون؟!

ثم أضافت زينب: كانت عمّتي نفيسة تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرأه وهي تبكي، وتقول: إلهي وسيدي، يسّر لي زيارة قبر خليلك إبراهيم. فاستجاب الرحمن لدعاتها، وزارت هذا المقام هي وزوجها إسحاق المؤتمن.

وممّا يروىٰ كذلك عن صفات وعلم السيدة الطاهرة: أنّها كانت شغوفة بحديث جدّها المصطفىﷺ، لذلك نجدها قد روت عنه الكثير من الأحاديث، سواء عن

طريق أبيها وآل بيتها، أو من العلماء المسلمين الذين عاصرتهم، وبخاصّة الإمام مالك بن أنس بالمدينة.

لقد كانت أصداء أحاديث الإمام مالك ـ لما كان لها من صفة العلنية ـ تصل إلى السيدة نفيسة رضي الله عنها، فتأخذ منها ثم تضيف إلى ما جاءت به من مكة من سائر علوم القرآن والحديث؛ لذلك فقد سمع منها الحديث عدد كبير من علماء مصر غير الإمام الشافعي، مثل: ذي النون المصري[١]، وعبدالله بن الحكم[٢] وولديه: محمد وعبدالرحمن، وعبدالرحمن البويطي[٣]، والربيعين: المرادي[٤] والجيزي[٥]، وحرملة[٦]، وكانوا من أصحاب الإمام الشافعي.

---

١. أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميمي ذو النون المصري، أحد الزهّاد العبّاد المشهورين، نوبي الأصل، مولى، كانت له فصاحة وحكمة وشعر، وهو أول من تكلّم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، وقد أنكر عليه قوم، واتّهمه المتوكّل العباسي بالزندقة، وضيّق عليه بعد أن استحضره إليه، ثم أطلقه فعاد إلى مصر، توفّي بالجيزة سنة ٢٤٥هـ. راجع طبقات الصوفية: ١٨، والأعلام ٢: ١٠٢.

٢. أبو محمد عبدالله بن الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، فقيه مصري، ومفتي الديار المصرية، من جلّة أصحاب مالك، وقد أفضت إليه رئاسة المالكية بعد أشهب، ولد عام ١٥٥هـ بالاسكندرية، سمع الليث بن سعد ومالك وغيرهما، حدّث عنه بنوه الأئمة الأربعة: محمد وسعد وعبدالرحمن وعبدالحكم، وكان صديقاً للشافعي، توفّي عام ٢١٤هـ بالقاهرة ودفن إلى جنب الشافعي. انظر سير أعلام النبلاء ١٠: ٢٢٠ رقم ٥٧.

٣. المشهور في المصادر التاريخية أنّ ممّن أوفىٰ لها في حياتها وبعد موتها هو أبا يعقوب يوسف بن يحيىٰ البويطي، من أكبر أصحاب الشافعي من المصريّين، وهو الذي حُمل إلى بغداد أيام الواثق العباسي على بغلٍ ومقيّداً بالحديد إبّان محنة خلق القرآن، وقد سجن حتّىٰ مات بسجنه سنة ٢٣١هـ. انظر طبقات الشافعية للسبكي ٢: ١٦٢، والأعلام ٨: ٢٥٧.

٤. أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبدالجبار المرادي بالولاء، المصري، صاحب الشافعي وراوي كتبه، عمل مؤذّناً بجامع ابن طولون، وكان أول من أملىٰ الحديث فيه ولد عام ١٧٤هـ بمصر، وتوفّي فيها سنة ٢٧٠هـ. راجع طبقات الشافعية ٢: ١٣٢.

٥. الربيع بن سليمان بن داود الجيزي المصري، فقيه مصر الشافعي، روىٰ عنه أبرز أئمة الحديث كأبي داود والنسائي وغيرهما، توفّي بمصر سنة ٢٥٦هـ. راجع طبقات الشافعية ٢: ١٣٢.

٦. أبو عبدالله حرملة بن يحيىٰ بن عبدالله بن حرملة التُجيبي، مولاهم، المصري، فقيه من أصحاب الشافعي، روىٰ عنه بعض أئمة الحديث كمسلم وابن ماجة وغيرهما، توفّي سنة ٢٤٣هـ. انظر طبقات الشافعية ٢: ١٢٧.

وكانت السيدة نفيسة ـ وفقاً للإجماع ـ بالإضافة إلى علمها الغزير، زاهـدة فـي دنياها، تؤمن بمنهج الزهد وتمارسه، وكان رائدها في طريق الزهد جدّها العـظيم رسول الله ﷺ الذي أحاطت بسيرته.

وكذلك كانت تميل بطبعها منذ صغرها إلى حياةٍ بعيدةٍ عن زخرف الحياة ومباهجها، على الرغم من أنّ أباها كان أميراً للمدينة، وكان لاشكّ يعيش حياة رغدة.

في هذا البيت نشأت السيدة نفيسة نشأة زهدٍ وتقشّف، فمثلاً كانت تميل للأكل القليل... فقد روي: أنّها كانت تأكل كلّ ثلاثة أيام مرة.

كما كانت ـ فيالوقت نفسه ـ زوجة مخلصة، لم يشغلها أيّ أمر عن مسؤوليتها كزوجة، وقد أخذ زوجها المؤتمن يفاخر بها، ويذكر للناس من حوله أنّه وجد فيها نعمة الله عليه... فلم تقصّر في حقٍّ له أبداً، ولم يشغلها أيّ أمر عن حقوقه وواجباتها.

وهناك إلى جانب ذلك صفات أخرى كثيرة عُرفت بها السيدة نفيسة رضي الله عنها، فقد كانت كريمة الأخلاق، شريفة الطبع، وكانت عطوفة على أُسرتها وأهلها... كما كانت كثيرة الخير والبرّ، تواسي البائسين، وتسعف الملهوفين، وكان مالها الكثير تفرّج به عن المحتاجين من الناس.

وصف المزار

من أشهر الكتب التاريخية التي تحدّثت باستفاضة عن قبر السيدة نفيسة رضي الله عنها هو ما كتبه السخاوي في كتابه عن المزارات... حيث حدّد لنا بالضبط مكان هذا القبر، والذي أُقيم في الدار التي عاشت بها بدرب السباع، والتي منحها إيّـاها الوالي السري بن الحكم.

وممّا ذكره السخاوي في هذا الشأن قوله: ومشهد السيدة نفيسة معروف بالقرافة بالمراغة...والقبر طويل قبلي الشارع المعروف بالزرايب، وشرقي الشارع الموصل للسيدة جوهرة. على يسار من يقصد المشهد النفيسي من الجهة البحرية، تـجاه

سقاية الماء المنتهية بحوش الشيمي... وهي مدفونة هنا تحقيقاً بمحلّ سكنها الموهوب لها من عبدالله بن عبدالملك بن مروان.

وممّا ذكره ابن الزيّات أيضاً في كتابه: «الكواكب السيّارة في ترتيب الزيارة» عن هذا الضريح قوله: وأردت بذلك أن أصحّح المشاهد كما رواه العلماء رضي الله عنهم، ولم أر أحداً من أرباب التاريخ صحّح مشهداً بغير القرافة من مشاهد أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام، إلّا المشهد النفيسي؛ لأنّها أقامت به أيام حياتها، وحفرت قبرها بيدها رضي الله عنها.

كما أكّد ذلك أيضاً صاحب كتاب «الدرّة النفيسة في ترجمة السيدة نفيسة».

مرقد السيدة نفيسة[1]

د. سعاد ماهر

أمّا عن ضريح السيدة نفيسة فقد جاء في خطط المقريزي[2]: أنّ أول من بنى على قبرها عبدالله بن السري بن الحكم والي مصر من قبل الدولة الأموية، ثم أُعيد بناء الضريح في عهد الدولة الفاطمية، حيث أُقيمت عليه قبّة، وقد دوّن تاريخ هذه العمارة على لوحةٍ من الرخام وضعت على باب الضريح، جاء فيها ما نصّه: نصر مـن الله وفتح قريب، لعبدالله ووليّه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين. أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجلّ، أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين، أمتع بطول بقائه المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته وشدّ عضده بولده الأجلّ سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين، زاد الله في علائه وأمتع المؤمنين بطول بقائه في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة.

وفي عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله حدث تصدّع لقبّة المشهد النفيسي، فجدّدت، كما كُسي المحراب بالرخام، وكان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

---

١. مقتبس من كتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون».

٢. خطط المقريزي ٤: ٣٢٦.

وجاء في كتاب «المزارات»[١] للسخاوي، أنّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر سنة ٧٥٢هـ أن يتولّى النظارة على المشهد النفيسي الخلفاء العباسيون، وأنّ أول من تولّى النظر عليه هو الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر المستكفي بالله.

والخلفاء العباسيون هؤلاء هم سلالة الخلفاء العباسيين الذين هاجروا إلى مصر سنة ٦٥٦هـ، بعد أن قضى المغول على الدولة العباسية في العراق.

ويقول الجبرتي[٢]: إنّ الأمير عبدالرحمن كتخدا عمّر المشهد النفيسي ومسجده، وبنى الضريح على هذه الهيئة الموجودة، وجعل لزيارة النساء طريقاً بخلاف طريق الرجال، وذلك سنة ١١٧٣هـ، كما كتب على باب الضريح بالذهب على الرخام هذان البيتان:

عـرش الحـقائق مـهبط الأسـرار   قـبر النـفيسة بـنت ذي الأنـوار
حسن بن زيد بن الحسن نجل الإما   م علي ابـن عـم المـصطفى المـختار

وفي عام ٧٧٠هـ أقام والي مصر علي باشا الحكيم بوابةً على ساحة الفضاء أمام المسجد، وما زالت باقية حتى الآن. ثم تعرّض المسجد لحريقٍ في عام ١٣١٠هـ أتلف النصف الشرقي للمسجد، فأمر الخديوي عباس حلمي الثاني بإعادة بناء الضريح والمسجد، وافتتحه بنفسه بعد التجديد، فصلّىٰ فيه صلاة الجمعة. وأمّا المقصورة النحاسية ـ دقيقة الصنع والموجودة الآن ـ فترجع إلى عصر عباس باشا أيضاً.

وقد ذكر علي مبارك في خططه[٣] الضريح والمسجد الملحق وصفاً مستفيضاً، كما ذكر أنّه قد حُبس على المشهد أربعمائة وخمسون فداناً، وعدداً من الرباع (جمع ربع) والحوانيت للصرف عليه. هذا بالإضافة إلى ما يتجمّع في صندوق نذوره، والتي كانت تبلغ في السنة في ذلك العهد ما قيمته خمسة وعشرين ألف قرش، كما كانت نظارة الأوقاف تصرف له ثمن الزيت والحصر والبسط وملء الميضأة[٤].

---

١. تحفة الأحباب: ١٠٦. (منه)

٢. عجائب الآثار: ٨٩.

٣. الخطط التوفيقية ٥: ١١٣.

٤. تمّ توسعة المسجد مؤخّراً، وإضافة مساحات جديدة له.

٤ ـ السيدة سكينة

بنت الإمام الحسين عليها وعليه السلام

بقلم

د. حمزة النشرتي

عبدالحفيظ فرغلي

عبدالحميد مصطفى

صافيناز كاظم

حنفي المحلاوي

السيدة سكينة بنت الحسين[1]

د. حمزة النشرتي

وعبدالحفيظ فرغلي

وعبدالحميد مصطفى

أبوها الحسين بن علي سبط النبي ﷺ وحبيبه الذي قال فيه: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً»[2].

وأمّا أمّها فهي الرباب بنت امرئ القيس الكلبي.

ويذكر الرواة في قصّة زواج الحسين بالرباب قصةً طريفةً.. قالوا: قدم امرؤ القيس بن عدي بن أوس ـ سيد بني كلب بن وائل ـ على رأس وفدٍ من قومه إلى عمر بن الخطاب ﷺ في أثناء خلافته، وأعلن إسلامه هو وقومه، وعقد له عمر لواء على من أسلم من قومه. قال عوف بن خارجة المرّي: والله ما رأيت رجلاً أُمّر على جماعة من المسلمين قبل أن يصلّي ركعةً قطّ إلّا امرئ القيس.

وما كاد امرؤ القيس ينصرف حتّى لحق به عليّ بن أبي طالب فاستوقفه، وقال له:

---

١. مقتبس من كتاب «سيرة آل بيت النبي ﷺ» المجلّد ٢٣، ط. القاهرة.

٢. أخرجه الترمذي ٥: ٦٥٨ كتاب المناقب ب٣١ مناقب الحسن والحسين ﷺ حديث ٣٧٧٥، وابن ماجة ١: ٥١ ب١١ فضل الحسن والحسين ﷺ حديث ١٤٤، وأحمد ٤: ١٧٢، وانظر المصنّف لابن أبي شيبة ١٢: ١٠٣، والمستدرك للحاكم ٣: ١٧٧، واتحاف السادة المتّقين ٥: ٣٠٧.

أنا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، وهذا ابناي من ابنته فاطمة الزهراء، وأشار إلى الحسن والحسين، وقد رغبنا في مصاهرتك.

فلم يتردّد امرؤ القيس أن قال: مرحباً بكم آل بيت النبي.. ونظر إلى الحسن وقال له: قد أنكحتك يا حسن ابنتي سلمىٰ بنت امرئ القيس، والتفت إلى الحسين وقال: وأنكحتك يا حسين ابنتي الرباب بنت امرئ القيس![1و2]

وأنجبت الرباب للحسين ابنته سكينة رضي الله عنها بعد أن أنجبت له قبلها عبدالله[3].

---

١. ذكر القصة أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني ١٤: ١٥٧، وفي مقاتل الطالبيين: ٢٧١ عند ترجمة عبدالله بن الحسين.

٢. إنّ من يمحّص في هذه القصة يجدها لاتمت إلى الواقع شيئاً، وذلك لعدّة أمور، من أهمّها:

أولاً: أنّ شخصية أمير المؤمنين علي عليه السلام وولديه معروفة عند جميع المسلمين، بتحلّيها بـالأخلاق الكريمة، والتزامها بأدقّ تفاصيل الشريعة والعادات الرفيعة، فهي تأنف أن تنحدر إلى هذا المستوىٰ من الوضاعة، والجري وراء الشهوات كما تصوّرها هذه القصة!

وثانياً: أنّ ارتكاب مثل هذا السلوك لا يتّفق مع الآداب الشرعية والأعراف الجارية في مجال التزويج؛ حتّىٰ ولو كان من سوقة الناس، فكيف بمن هو مؤهّلاً للزعامة والخلافة، وأحد الراشدين من عظماء أئمة المسلمين؟!

وثالثاً: يلاحظ إهمال بعض الأمور الشرعية في مسألة الزوج، كاختيار البنت ورضاها، وتعيين المهر...الخ، وأمير المؤمنين عليه السلام ـ وهو سيد المتقين ـ بعيد منه أن يرتكب ما يخالف الشرع بأدقّ تفاصيله.

ورابعاً: لو صحّت القصة، فإنّ الرباب قد تمّ تزويجها من الحسين عليه السلام أيام خلافة عمر بن الخطاب، وعلىٰ تقدير آخر أيامه، فإنّه قُتل سنة ٢٥هـ، وولادة سكينة كان سنة ٤٧هـ. وهذا يعني أنّ الرباب كانت حائلاً عند الحسين عليه السلام لأكثر من ٢٢ عاماً على الأقلّ، أي لم تنجب طول هذه الفترة الطويلة! وهو شيء بعيد!! ولو كان كذلك لتلقّفته بنو أمية بالطعن والتشهير كما هو ديدنهم حينما يفتقرون إلى الحجة، وهو ما لم يحصل أبداً.

وخامساً: أنّ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ٨: ٢١٧ ذكر الرباب، وأنّ اسم أبيها «أُنيف» ولم ينسبه إلى أحد، كما أنّه لم يذكر هذه القصة بتاتاً.

وفي ضوء ما تقدم، نقول: لا حجّة واضحة تؤيّد هذه الرواية، أو تأخذ بنا إلى الإيمان بها، وما هي إلاّ محض اسطورة، تناقلها بعض الرواة بشكل أعمىٰ، ومن غير تمحيص.

٣. وهو الرضيع الذي استشهد بكربلاء، أثر رمية سهم غاشم رماها نحوه معسكر الأمويين وهو بين يدي أبيه يتلوىٰ عطشاً، وقد جاء به إلى القوم طالباً له ماءً.

ونشأت سكينة في حضن والديها، وكان أبوها يحبّها حبّاً شديداً، حتّىٰ لقد أُثر عنه أنّه قال فيها وفي أُمّها شعراً:

لعـمرك إنّـني لأحبُّ داراً ... تحلُّ بـها سكـينةُ والربـابُ
أُحـبّهما وأبـذل كـلّ مـالي ... وليس بلائمي فـيها عـتابُ
ولستُ لهم وإن عتبوا مطيعاً ... حياتي أو يـغيّبني التـراب[1]

ويبدو أنّ الحسين قد عوتب في شدّة إقباله علىٰ زوجته وابنته، فردّ بذلك علىٰ من يعتب عليه.

كانت ولادة سكينة حوالي سنة ٤٧هـ، وقد توفّي عمّها الحسن سنة ٥٠هـ، ولها من العمر ثلاث سنوات، وشهدت مع أبيها معركة كربلاء ولها من العمر أربع عشرة سنة[2].

سكينة في بحر الأحداث

وشهدت سكينة الأحداث الدامية التي أودت بمصرع أبيها عليه السلام في المأساة المعروفة بمأساة كربلاء، كانت في صحبته مع عمّتها زينب، وبقية أولاد الحسين وإخوته وأولاد عمومته وبعض أنصاره وشيعته.

ورأت مصارع إخوتها: عبدالله وعلي الأكبر مع أبيها، فانطبع هذا المشهد في وجدانها، ولم تنسه، فحاولت أن تتصبّر عليه بالشعر والأدب.

... لقد عُرفت سكينة بالجمال والأدب منذ صغرها، ولذلك كانت مطمح أُولي الفضل من شباب قريش، كلٌّ يريد أن يخطبها، وقد تقدّم الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم يوماً إلىٰ عمه الحسين ليخطب إليه، وكان يطمع في سكينة، ولكنّه لم يصرّح لعمه بمن يريد.

فقال له عمّه عليه السلام: اخترت لك ابنتي فاطمة، فهي أشبه النساء بأُمي فاطمة

١. زهر الآداب ١: ١٠٠. (منه)

٢. سكينة بنت الحسين، لبنت الشاطئ: ٢٢.

الزهراء، أمّا سكينة فيغلب عليها الاستغراق مع الله فلا تصلح لرجل[1].

ويدلّ هذا علىٰ أنّ نشأتها كانت متّصلة بالدين اتّصالاً وثيقاً.

واستشهد الحسين في موقعة كربلاء ولم تتزوّج سكينة بعد. وانطوت أيام من الحزن، فتقدّم مصعب بن الزبير فخطبها. وقد كان ينافسه في سبيل الظفر بها أخوه عروة بن الزبير، وعبدالله بن عمر، وعبدالملك بن مروان.

لقد كان هذا الزواج بعد مصرع أبيها، وعودتها من رحلتها التي صاحبت فيها عمتها السيدة زينب إلىٰ مصر.

لقد عادت واستقرّ بها المقام مع أخيها السجّاد زين العابدين ﷺ، وقد كانت عزفة عن هذا الزواج، بعد هذا الجرح الغائر في أعماقها بمصرع أبيها، ووفاة أُمها بعده بقليل.

ولكنّ قومها أحاطوا بها، وألحّوا عليها في الزواج؛ إبقاءً علىٰ سلالة الحسين ﷺ، فقبلت بعد إباء شديد.

وبعض الرواة يقول: إنّها تزوّجت قبل مصعب بن الزبير، وأنّ الذي تزوّجها هو ابن عمها عبدالله بن الحسن.. ولكنّه قُتل عنها مع أبيها، وكان لم يدخل بها، ولكنّها رواية لا تنبعث الدلائل علىٰ رجحانها[2].

---

١. إسعاف الراغبين للصبّان، المطبوع بهامش نور الأبصار: ٢٠٢. وانظر السيدة سكينة ابنة الإمام الشهيد أبي عبدالله الحسين ﷺ، للمقرّم: ٤٣.

٢. بل علماء النسب والتاريخ يشهدون بأنّ زوجها الأول هو عبدالله الأكبر ابن الإمام الحسن المجتبىٰ ﷺ، الذي استشهد وأخوه القاسم يوم الطفّ، ومن هؤلاء نذكرهم على سبيل المثال لا الحصر:

- النسّابة أبو الحسن العمري، من أعلام القرن السادس في كتابه «المجدي».
- أبو علي الطبرسي، من أعلام القرن السادس في كتابه «اعلام الورى».
- الشيخ محمد الصبّان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار.
- أبو الفرج الإصبهاني في كتابه الأغاني (١٤: ١٦٣).
- المدائني في كتابه «المترادفات: ٦٤».

وغيرهم كثيرون.

ولكن أغلب الروايات تشير إلىٰ أنّ حياة السيدة سكينة الزوجية بدأت بمصعب بن الزبير[١].

جاء في عيون الأخبار: اجتمع أربعة رجال بفناء الكعبة، وهم: عبدالله بن عمر، ومصعب بن الزبير، وعبدالملك بن مروان، وعروة بن الزبير.

فقال لهم مصعب: تمنّوا.

فقالوا له: ابدأ أنت.

فقال: أتمنّىٰ ولاية العراق، والتزوّج من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة. وتمنّىٰ عروة الفقه وأن يُحمل عنه الحديث. وتمنّىٰ عبدالملك الخلافة. وتمنّىٰ عبدالله بن عمر الجنة!

ومن الغريب أنّ كلّ واحد من هؤلاء تحقّقت له أُمنيته[٢].

لقد قدم مصعب مهراً لسكينة قدره ألف ألف درهم، وأعطى أخاها علياً حين حملها إليه أربعين ألف دينار.

وكانت سنّها حين زُفّت إلىٰ مصعب عشرين عاماً[٣].. وكان مصعب أمير العراق من قبل أخيه عبدالله بن الزبير.

وظلّت سكينة في بيت زوجها، تغالب أحزانها القديمة التي كانت تعاودها. إنّ مصرع أبيها وإخوتها وأبناء عمومتها يؤرقها، ويملأ حياتها حزناً. ولكنّ الزوجية لها حقوق وواجبات، وهي ذات دين وصلاح، ربّاها أبوها وأهل بيتها علىٰ وجوب معرفة حقوق الزوجية. فأصبحت تبدو وكأنّها قد نسيت أحزانها، وما نسيت، ولكنّها

---

١. يكاد ينفرد بها ابن قتيبة وصاحب وفيات الأعيان ١: ٢٩٨.

٢. عيون الأخبار ٢: ٢٥٨ ط. دار الكتب.

٣. ويذكر أنّ قصة زواج مصعب من سكينة الذي رواها ابن قتيبة تعدّ من الخيالات، إذ لم يؤيّدها فحول التاريخ وأعلام السيرة، وهي وإن أثبتها مرسلة. وأمّا ما يسندها أبو منصور البغدادي عن المدائني عن مجالد عن الشعبي في زواجها من عبدالله بن عثمان ـ كما سيأتي ـ ففيه «مجالد» الذي شهد له ابن معين ويحيى بن سعيد بالكذب والضعف والتدليس.

تتكلّف النسيان، وكم كلّفها ذلك الكثير من الجهد والمشقّة!

حتّىٰ إذا استقامت الحياة لها قليلاً، رُوِّعت بمصرع زوجها والتي أنست هي إلىٰ ظلّه، واستراحت في كنفه فترةً من الدهر.

لقد تجدّدت أحزان سكينة بوفاة زوجها في صراعه مع عبدالملك بن مروان، وغاظها أن وفد عليها الكوفيّون يعزّونها.

وقد كانت تستشعر حزناً قاسياً، فقالت لهم: «الله يعلم أنّي أبغضكم، قتلتم جدّي علياً، وقتلتم أبي الحسين، وقتلتم زوجي مصعباً، فبأيّ وجه تلقونني؟ تيتّمت صغيرة، وترمّلت كبيرة علىٰ أيديكم».

وقد أعقبت من مصعب فتاة جميلة أسمتها الرباب على اسم أُمّها، زوّجها عمها عروة بن الزبير من ابنه عثمان بن عروة، وماتت وهي صغيرة. وكانت هذه الفتاة الجميلة تفوق الدرّ جمالاً وحسناً، وكانت أُمّها تحليها بالجواهر، لا لتزيد من حسنها، بل لتفضح هي الجواهر بحسنها!

ومكثت سكينة حيناً من الزمن دون زواج، تعاني الحزن والألم ومرارة الذكريات، وتستعين على ذلك بالصبر والصلاة، كما أمر القرآن الكريم.

ثم تقدّم لخطبتها إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف الزهري، خطبها من أخيها علي زين العابدين، ولكنّها خطبة لم تتمّ.

وقيل: إنّ الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان خطبها، وكان حينئذٍ والياً علىٰ مصر، فقبلت بعد تردّد.

ولكن هذا الزواج لم يتمّ أيضاً؛ لأنّ عبدالملك بن مروان أرسل لابن أخيه يخيره بين البقاء في ولاية مصر أو الزواج من سكينة بنت الحسين، فاختار الولاية على الزواج منها.. وأرسل إلىٰ سكينة ذلك، فحمدت الله على ذلك. وبقيت سكينة في المدينة، وبقي الأصبغ في مصر محزوناً.

وتزوّجت سكينة من عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام، وهو رجل

فاضل ماجد، وتمّ الزواج الذي باركه أبو دهبل الجمحي الشاعر، بقوله:

قضت وطراً من أهل مكّة ناقتي سوى أملي في الماجد ابن حزام
تمطّت به بيضاء فرع نجيبة هجان وبعض الوالدات عزام
جميل المحيّا من قريش كأنّه هلال بدا من سدفه وظلام
فأكرم بنسلٍ منك بين محمد وبين علي فاسمعنّ كلامي
وبين حكيم والزبير فلن ترىٰ له شبهاً في منجد وتهام[1]

وأعقبت سكينة من هذا الزوج عدّة أولاد.

وما كادت سكينة تنسىٰ في ظلّ هذا الزواج أحزانها القديمة التي كانت تراودها بين الحين والحين، حتّىٰ روّعت مرّة أخرىٰ بوفاة زوجها.. فعادت صفحة الحزن تغزو حياتها من جديد.

وتعرّضت بعد ذلك سكينة لزيجة فاشلة من زيد بن عمرو العثماني.. والذي عرّض هذا الزواج للفشل هو بخل زيد الشديد الذي كان مثلاً يضرب في المدينة، وعليه كان يتندّر الناس لشدّة بخله.

قال أشعب فيما يرويه أبو الفرج في أغانيه: خرج زيد حاجّاً وخرجت معه سكينة، ومعها خمسة أجمال محمّلة بأصناف الطعام، فكلّما بلغ الركب منزلاً أمرت السيدة سكينة بالطعام وأُعدّت الأطباق، فجاء بعض القوم يسلّمون علىٰ زيد، فتعلّل بوجع خاصرته فرفع الطعام.

قال أشعب: ولبثنا حتّى انصرفوا ودخلنا، وقد هلكت جوعاً، فلم آكل ممّا اشتريته من السوق بمائة دينار أعطتني إيّاها السيدة سكينة، فلمّا كان الغد أصبحت وبي من الجوع ما الله به عليم، ودعا زيد بالطعام فأمر بإسخانه، وجاءته مشيخة قريش يسلّمون عليه، فلمّا رآهم اعتلّ بخاصرته، ودعا بالترياق والماء الحارّ، ورُفع

---

١. سكينة بنت الحسين لبنت الشاطئ: ٨٩.

الطعام، فلمّا ذهبوا أمر بإعادته، فجيء به وقد برد، قال لي: يا أشعب، هل إلىٰ إسخان هذا الدجاج سبيل؟

فقلت له: أخبرني عن دجاجك هذا، أهو من آل فرعون! فهو يعرض على النار غدوّاً وعشياً؟[١].

كان من الطبيعي أن يفشل زواج كهذا، فهو غير متكافئ بين سليلة الكرم والجود والعطاء، التي لا تنظر إلى الدنيا بأسرها إلّا علىٰ أنّها أحقر من جناح بعوضة، وبين ذلك الرجل الذي يأبىٰ أن يشاركه في طعام وشراب ضيوف هو غير متكلّف لهم.

ولقد كانت تعمل حساب ذلك قبل الزواج، فاشترطت عليه أن يطلق يدها في ماله وإلّا كانت منه خليّة، فقبل ذلك.

ولكن نفسه لم تسمح بالمال، وظلّ في تضييق حتّىٰ تحوّلت الحياة معه إلىٰ جحيم، وكان الطلاق.. ففارقته وهي غير آسفة.

سكينة الأديبة

حين نقرأ الأغاني وغيره من كتب الأدب نعثر علىٰ صفحات متعدّدة تتحدّث عن شخصية سكينة الأديبة، فهي شاعرة ناقدة، وهي قد تستقبل الشعراء لتحكم بينهم وتفاضل بين شعرهم[٢].

---

١. الأغاني ١٤: ١٦٥.

٢. إنّ ما يرويه أبو الفرج عن المدائني وعن أبي عبدالله الزبيري من أخبار الشعر واجتماع الشعراء في بيت سكينة للمفاخرة والمفاضلة ليس المقصود منها سكينة بنت الحسين كما ينقلها أغلب كتّابنا، بل هي سكينة بنت خالد بن مصعب بن الزبير، لأنّه يروي في بعض مواضع من كتابه «الأغاني» (١: ٦٧) عن رجاله أنّ سكينة بنت خالد بن مصعب بن الزبير كانت تجتمع مع عمر بن أبي ربيعة ومعهما ابنة زوجة محمد بن مصعب بن الزبير وجاريتان يغنيان عندهم... وفي موضع آخر (١: ١٥٣) يذكر أنّه تزوّج سكينة بنت خالد بن مصعب: بكير بن عثمان بن عفّان فولدت بنتاً يقال لها: أم عثمان تزوّجها عبدالله العرجي.

←

وقد كانت سكينة عاقلة لبيبة، تعرف مواقع الكلام والردود عليها.

يروي أبو الفرج في أغانيه: أنّ عائشة بنت طلحة حجّت ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحائل، وحجّت في ذلك العام أيضاً سكينة بنت الحسين ـ وكانت ضرّة عائشة ـ ولم يكن معها ذلك القدر من البغال والرحال. وأخذ حادي عائشة يحدو ويقول:

عائشُ يا ذات البغالِ الستينَ لازلت ما عشتِ كذا تحجّينِ

← كما ويذكر في موضع (١٦: ١٢) بسنده: أنّ إسحاق الموصلي غنىٰ الرشيد بقوله:

قالت سكينة والدموع ذوارف منها على الخدّين والجلباب

فغضب الرشيد حتّىٰ سقط القدح من يده ونهره ولعنه!! والحال أنّ هذا البيت مع أبيات رواها الزجّاج في أماليه:

قالت سعيدة والدموع ذوارف منها على الخدّين والجلباب

ليت المغيري الذي لم أجزه فيما أطال تصعّدي وطلابي

إلى آخر الأبيات في سعدىٰ بنت عبدالرحمن بن عوف وقال: كانت سعدىٰ بنت عبدالرحمن بن عوف جالسة في البيت الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة يطوف البيت، فأرسلت إليه: إذا فرغت من طوافك فائتنا، فأتاها فقالت: لا أراك يا بن أبي ربيعة صادراً عن حرم الله، أما تخاف الله؟ ويحك إلى متىٰ هذا السفه؟! فقال لها: دعي هذا عنك، أما سمعت ما قلت فيك؟ قال: لا، فأنشدها الأبيات.

وهذه الأبيات رواها الجاحظ أيضاً في كتابه (المحاسن والأضداد: ٢١٢) في ابنة عبدالملك بن مروان حين حجّت البيت لكن بزيادة.

هذا ورجّح العلّامة الشنقيطي في شرح أمالي الزجاج: (١٠٤ ط ٢ مصر) رواية الأغاني في سعدىٰ بنت عبدالرحمن على الرواية في سكينة بنت الحسين، وقال: «هذا هو الصحيح، وإنّما غيّره المغنّون، فجعلوا سكينة مكان سعيدة».

كما أنّ الحصري في زهر الآداب (١: ١٠١) أنكر الرواية ـ رواية الشعر ـ في سكينة بنت الحسين وقال: «كذب من روىٰ هذا الشعر في سكينة». فهذا حال ضبط أبي الفرج وهذا نقله!!

علىٰ أنّا لا نعرف هذا البيت الذي فتحته للضيافة ومفاضلة الشعر متىٰ كان؟ أفي العهد الذي كانت فيه ذات بعل فتنفق من مال أزواجها كما يزعمون، أم أنّها كانت تنفق على الأضياف وتجيز للشعراء من مالها الخاصّ الذي لم يرد به تاريخ أصلاً أو أنّ الإمام السجّاد ـ بعنوان وليّها والقائم بأمرها بعد شهادة أبيه الحسين عليه السلام ـ كان يفيض عليها المال لتنفقه على الأجانب؟!!

ثم إنّ هذه الأخلاق تتنافىٰ وربيبة أهل بيت النبوّة والعفّة الذي طهّرهم الله تطهيراً بنصّ القرآن، البيت الأجدر باتّباع تعاليم جدّهم المقدّسة؛ فكيف تتنكّر سكينة سنن جدّها الأكرم صلى الله عليه وآله وتعاليمه التي تدعو إلى الحشمة والعفّة والتأدّب بالآداب الربانية التي علّمها اياها أبوها سيد الشهداء عليه السلام؟!

وشقّ ذلك علىٰ سكينة، فأمرت حاديها أن يردّ قائلاً:

عائشُ هـذه ضـرّةٌ تشكـوك　　　لولا أبوها مـا اهـتدىٰ أبـوك

فأمرت عائشة حاديها أن يكفّ، فكفّ[١].

قال الإمام السبكي معلّقاً علىٰ هذا الخبر: فللّه درّ عائشة حيث كفّت في موضع الإكفاف أدباً مع رسول الله ﷺ! فقد كان الأمر والمفاخرة في الدنيا هزلاً، فقابلته سكينة بذكر رسول الله ﷺ جداً، فأفحمت خصمها، وأقامت عليها الحجّة، فللّه درّها من مناظرة عرفت مواقع الجدل، ودرّ عائشة من مذعنة للحقّ منقادة إلى الصدق![٢].

وشهدت سكينة يوماً مأتماً ـ فيه بنت لعثمان بن عفّان ﷺ ـ فقالت بنت عثمان: أنا بنت الشهيد ـ قالت ذلك علىٰ سبيل الفخر، وهي توجّه كلامها إلىٰ سكينة ـ علىٰ حين أمسكت سكينة صامتة، إلى أن أذّن المؤذّن من مسجد رسول الله ﷺ للصلاة، فلمّا بلغ قوله: «أشهد أنّ محمداً رسول الله» التفتت سكينة إلىٰ بنت عثمان وسألتها: أهذا أبي أم أبوك؟

فأجابت بنت عثمان في تواضع وحياء: لا أفخر عليكم أبداً[٣].

حكت صاحبة الدر المنثور قالت:

وكانت السيدة سكينة سيدة نساء عصرها، ومن أجمل النساء وأظرفهنّ وأحسنهنّ أخلاقاً، ولها نوادر وحكايات ظريفة مع الشعراء![٤].

وكانت السيدة سكينة عفيفة أريبة، ولم يكن لقاؤها بالشعراء إلّا بهدف تزجية وقتها، والتسرية عن نفسها ممّا لقيته من آلام ومحن، فإنّ حياتها كانت سلسلة من النكبات، فجعت بمصارع أحبّتها في كربلاء، وروّعت بالترمّل، ولم تصف حياتها

---

١. الأغاني ١١: ١٨٨.

٢. سكينة بنت الحسين للدكتورة بنت الشاطئ: ١٢٢، نقلاً عن طبقات السبكي: ١٦٦.

٣. الأغاني ١٤: ١٥٩.

٤. تقدّم الردّ علىٰ هذه المقولة التي تتنافىٰ وعفّة وطهارة أهل بيت النبوة الطاهر.

من منغّصات، فحاولت أن تتناسىٰ كلّ ذلك في ظلّ الأدب والشعر.

لقد اتّهمها بعض الرواة بالتبذّل، ومجالسة الشعراء والمغنيّين!، وذلك كلّه مكذوب عليها.. فما كان لمثلها التي تناوبت الأحداث عليها، واصطلحت النكبات علىٰ غزو حياتها أن يكون لديها الفراغ للتبذّل الذي حاول هؤلاء الرواة إلصاقه بها.

وقد ناقشت الدكتورة بنت الشاطئ ما ورد في سيرتها، وذلك في كتابها «موسوعة أهل البيت» قالت: إنّ كثيراً من الروايات التي تظهرها في مظهر التبذّل مختلقة مفتعلة، فقد كانت عن ذلك في شغل بمصرع والدها وإخوتها وذويها في كربلاء، وكانت قد شهدت هذه الموقعة الرهيبة.. هذا ولا يخفىٰ أنّه كان لأبيها خصوم يحاولون التنقيص من قدر أهل البيت، وذريّة علي والحسين خاصّة، حتّىٰ يغضّوا من منزلتهم في نفوس الناس. فلا يبعد أن يكون ما نسب إليها من ذلك من بعض أنصار هؤلاء الخصوم.

ويدلّ علىٰ ذلك أنّ ما ورد من شعر في «الأغاني» ممّا يتّصل بالحوار الدائر بينها وبين الشعراء مضطرب النسب إلىٰ أصحابه، كما يقول صاحب نور الأبصار[1].

ويدلّ علىٰ ذلك أيضاً قول الحصري في زهر الآداب[2]: وفي سكينة يقول عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة كاذباً عليها، ثم يورد أبياتاً. فقد وصفه الحصري بالكذب والادّعاء، ولا نبرئ ابن ربيعة الشاعر المفتون بنفسه وشبابه من الكذب والافتراء، وقد عرف النقّاد عنه رقّة دينه، وكثرة عبثه، وغلبة مجونه.

وقد انساق مع رواية هؤلاء المدّعين الدكتور زكي مبارك ـ غفر الله له ـ فذكر أنّ عمر بن أبي ربيعة قد تغزّل في سكينة بنت الحسين!! وهو كلام مردود بما قلناه، يضاف إليه أنّ الفترة التي شهدت شبيبة عمر بن أبي ربيعة كانت فيها سكينة لم تزل طفلة، وقد انشغل الحجاز بعده بالأحداث الدامية التي لم تترك فرصة لغزل متغزّل، فلمّا ترمّلت سكينة من زوجها مصعب، وكانت معه في العراق بعيداً عن الحجاز، ثم

---

١. نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي: ٣٦١.

٢. زهر الآداب ١: ١٠١.

عادت بعد ذلك إلى المدينة، كان عمر بن أبي ربيعة قد جاوز الأربعين، وأقلع عن العبث، وأقسم ألّا يقول شعراً في الغزل.

وإذن، فما ورد من شعرٍ علىٰ لسانه يتحدّث فيه عن سكينة، لا أصل له، وربّما حوّل بفعل بعض الرواة من سكينةٍ أخرىٰ إلىٰ سكينة بنت الحسين. والدليل علىٰ ذلك عدم اتّفاق الرواة في هذه الأشعار، واختلافهم اختلافاً شديداً فيما روي منها.

شجاعتها

يحدّثنا الرواة علىٰ أنّ السيدة سكينة كانت مثالاً للشجاعة والصبر.

كان ابن مطير ـ خالد بن عبدالملك بن الحارث بن الحكم المرواني ـ يذكر جدّها علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فكانت تتصدّىٰ له وتردّ عليه، فلا يملك أن يردّ عليها.

وذكر صاحب الأغاني في شجاعتها وصبرها هذه القصة العجيبة، قال: ظهرت لها سلعة[١] في أسفل عينها، ما زالت تكبر حتّىٰ أخذت جانب وجهها وعينها، وكان «درافيس» العالم بالطبّ في خدمتها، فقالت له: أما ترىٰ ما وقعت فيه؟

فقال لها: أتصبرين علىٰ ما يمسّك من الألم حتّىٰ أعالجك؟

قالت: نعم.

فشقّ جلد وجهها، وسلخ اللحم من تحتها حتّىٰ ظهرت عروقها، وكان منها شيء تحت الحدقة، فرفع الحدقة عنها، حتّىٰ جعلها ناحيةً ثم سلّ عروق السلعة من تحتها، فأخرجها أجمع، وردّ العين موضعها، وسكينة لا تتحرّك ولا تئنّ حتّىٰ فرغ ممّا أراد!

وزال ذلك عنها وبرئت منه، وبقي أثر الحزازة في مؤخّر عينها، فكان أحسن في وجهها من كلّ حلي وزينة، ولم يؤثّر ذلك في نظرها ولا عينها[٢].

---

١. السلعة: كلّ زيادة تُحدث في البدن، كالغدّة وما شابهها.

٢. الأغاني ١٤: ١٧٢.

وإنّ من شجاعتها الأدبية أنّها كانت تتحلّىٰ بالصبر علىٰ ما انتابها من أحزان وآلام، وأن تتحكّم في مشاعرها، وتقوىٰ علىٰ ضبط نفسها. واستطاعت أن تحتفظ برباطة جأشها على الرغم ممّا يعتمل في نفسها من أسىً ولوعة:

كرمها وظرفها وأدبها

وكانت كريمة سخيّة، تنفق ما لديها في سماح، وكم قصدها أصحاب الحاجات، فما ضاقت بأحد منهم ذرعاً.

وقد عرفنا أنّها ضاقت ذرعاً ببخل زوجها زيد بن عمر العثماني، حتّىٰ أدّىٰ هذا الضيق إلى الفراق.

كانت السيدة سكينة في نقدها للشعر ذوّاقة للأدب، وفي الوقت نفسه متصوّفة عفيفة.

وكانت تجيد قول الشعر، إلّا أنّ ما يؤثر عنها قليل، فمن ذلك قولها ترثي أباها ﷺ:

إنّ الحسين غداة الطفّ يرشقهُ ... ريبُ المنون فما أن يخطئ الحدقهْ

أأُمّة السوء هاتوا ما احتجاجكمو ... غداً وجلّكم بالسيف قد صفقهْ

الويل حلّ بكم إلّا بمن لحقه ... صبرتموه لأرماح العدا درقهْ

يا عين فاحتفلي طول الحياة دماً ... لا تبك ولداً ولا أهلاً ولا رفقهْ

لكن على ابن رسول الله فانسكبي ... دماً وقيحاً وفي إثريهما العلقهْ[1]

وهو شعر يتّفق مع طبيعة المرأة وأسلوبها.

أمّا في نقدها للشعر فنذكر من أمثلته ما رواه صاحب الأغاني قال: اجتمع جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب في ضيافة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما، فمكثوا أياماً، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم.

---

١. ذكر الزجاج هذه الأبيات في أماليه: ١٠٩.

ثم أخرجت وصيفة لها قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: أيّكم الفرزدق؟

فقال: هأنذا

قالت: أنت القائل:

هـما دليـاني مـن ثـمانين قـامةً كما انحط بازٌ أقتم الريش كاسره

فلمّا استوت رجلاي بالأرض قالتا أحـيٌّ يـرجـىٰ أم قـتيل نـحاذره

فقلت: ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا وأقـبلت فـي إعـجاز ليـلٍ أبـادره

أبـادر بـوابـين قـد وكـلا بـها واحمر من سـاج تـبص مسـامره

قال: نعم.

قالت: فما دعاك إلىٰ إفشاء سرّها وسرّك، هلا سترت عليك وعليها؟ خذ هـذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت علىٰ مولاتها وخرجت برسالتها، فقالت: أيّكم جرير؟

قال: هأنذا

قالت: أنت القائل:

طرقتك صـائدة القـلوب وليس ذا وقت الزيـارة فـارجـعي بسـلام

تجري السـواك عـلىٰ أغـرّ كأنّـه بـرد تـحدّر مـن مـتون غـمام

لو كـان عـهدك كـالذي حـدّثتنا لرصـدت ذاك وكـان غـير لمـام

إنّـي أواصـل مـن أردت وصـاله بـحبال لا صـلف ولا لوام

قال: نعم.

قالت: هلّا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف وفيك ضعف، خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت علىٰ مولاتها وخرجت، فقالت: أيّكم كثير؟

قال: هأنذا

قالت: أنت القائل:

وأعجبني يا عزّ منك خلائق ... كرام إذا عدّ الخلائق أربع
دنوك حتى دفع الجاهل الصبا ... ودفعك أسباب المنىٰ حين يطمع
فوالله ما يدري كريمٌ مماطلٌ ... أينساك إذا باعدت أو يتصدّع

قال: نعم.

قالت: ملحت وشكلت، خذ هذه الثلاثة آلاف والحق بأهلك.

ثم دخلت علىٰ مولاتها وخرجت، فقالت: أيّكم نصيب؟

قال: هاأنذا

قالت: أنت القائل:

ولولا أن يقال صبا نصيب ... لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كلّ مهضوم حشاها ... إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال: نعم.

قالت: ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً، خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت علىٰ مولاتها وخرجت، فقالت: يا جميل، مولاتي تقرئك السلام وتقول لك: ما زلت مشتاقة لسماع شعرك منذ سمعت قولك:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً ... بوادي القرىٰ إنّي إذن لسعيد
لكلّ حديثٍ بينهنّ بشاشةٌ ... وكلّ قتيلٍ عندهنّ شهيد

جعلت حديثنا بشاشة، وقتلانا شهداء، خذ هذه الألف والحق بأهلك[1].

وقد علّقت الدكتورة بنت الشاطئ علىٰ هذه القصة قائلة:

وليس يفوتنا ما للنصّ من دلالات، منها: أنّ أُمراء الشعر في عصرها كانوا يجتمعون في دارها، فتأذن لهم، وتجلس حيث تراهم ولا يرونها، وقد اتّخذت وصيفةً لها تنقل

---

١. الأغاني ١٤: ١٦٦. وذكر الشبلنجي بعضاً منه في نور الأبصار: ٣٥٩ ـ ٣٦١.

ما اختارته من شعر وتعليقها عليه. وقد أنكرت على الفرزدق إفشاءه سرّه وسرّ صاحبته، وأثنت علىٰ جرير لعفّة شعره وإن أنكرت ضعفه وأسلوبه في مخاطبة زائريه.

وأعجبتها أبيات «كثير» في وصف صاحبته؛ لما لمحت فيها من دقّة التعبير عن عزّة الأنثىٰ وطبيعة حوّاء[1].

ولعلّ هذا الإعجاب هو الذي دفعها إلىٰ مضاعفة عطائه.. ونضيف إلىٰ ما قالته الدكتورة بنت الشاطئ: أنّ هذه القصة تدلّ إلىٰ جانب براعتها في النقد علىٰ أريحيتها وسخائها، فهي لم تعط علىٰ مدحٍ، ولم تثب علىٰ قولٍ قيل فيها، ولكنّها أعطت برّاً ومعروفاً وسخاءً[2].

وفاتها

توفّيت السيدة سكينة بالمدينة المنوّرة سنة سبع عشرة ومائة.. ويروي أبو الفرج

---

١. سكينة بنت الحسين: ١٧٧.

٢. ذكر القصة بكاملها صاحب الأغاني، وبتفاصيل مثيرة تصلح مادةً للسمر وحديث الندماء! علىٰ أنّ المبرّد في كتابه تهذيب الكامل ٢: ١٥٠، وابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار (٤: ١٤٦) ذكرا اجتماع الشعراء هؤلاء إنّما كان عند عبدالملك بن مروان، وزاد تذاكرهم بيت نصيب:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   أوكل بدعد من يهيم بها بعدي

فأزرىٰ كلّهم علىٰ نصيب، فقال لهم عبدالملك: ما تقولون؟ فقال أحدهم: أقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   فيا ليت شعري من يهيم بها بعدي

فقال عبدالملك: أنت أسوء رأياً من نصيب. فقالوا: فما كنت تقول أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: أقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   فلا صلحت دعد لذي خلّةٍ بعدي

فقالوا: أنت أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين.

كما ويحدّث المرزباني في الموشح: ١٨٩ هذه الحكاية أيضاً عن عبدالملك بن مروان، وذكر نقده للفرزدق والآخرين.

وكان ابن كثير قد ذكر هذه الحكاية، وتفاضل هؤلاء الشعراء عند عبدالملك بن مروان وليس عند سكينة في كتابه البداية ٩: ٢٦٢.

كلّ ذلك يرشدنا إلى القول بالتشكيك في صحّة نسب القصة إلى السيدة سكينة بنت الحسين عليها السلام على ما ادّعاه وحكاه أبو الفرج في كتابه «الأغاني». وممّا يؤكّد ذلك أنّه لم يذكر ولا بيتاً منسوباً إليها في العرفان والنسك والأدب، أو في رثاء أبيها سيد الشهداء كما حفل به كتابه عن غيرها.

في أغانيه: أنّها ماتت وعلى المدينة خالد بن عبدالملك، فأرسلوا إليه فآذنوه بالجنازة، وذلك في أول النهار في حرّ شديد ـ فأرسل إليهم: لا تحدثوا حدثاً حتّىٰ أجيء فأُصلّي عليها. فوضع النعش في موضع المصلّىٰ على الجنائز، وجلسوا ينتظرون حتّىٰ حان الظهر، فأرسلوا إليه، فقال: لا تحدثوا شيئاً حتّىٰ أجيء!

فجاءت صلاة العصر، ثم لم يزالوا ينتظرونه، كلّ ذلك يرسلون إليه، فلا يأذن لهم حتّىٰ صلّيت العتمة ولم يجئ، ومكث الناس جلوساً حتّىٰ غلبهم النعاس، فقاموا فأقبلوا يصلّون عليها جمعاً جمعاً وينصرفون.

فلمّا صلّيت الصبح أرسل إليهم خالد: صلُّوا عليها وادفنوها! فصلّىٰ عليها شيبة بن النطاح[1].

المشهد الموجود بالقاهرة

يقول الشعراني: إنّ السيدة سكينة بنت الحسين هي التي بمصر، وقبرها بالقاهرة، بالقرب من السيدة نفيسة رضي الله عنها، ولكنّه قد قيل: إنّ السيدة سكينة توفّيت بالمدينة المنوّرة ودُفنت بها، وهناك قول آخر، يقول: إنّها توفّيت بمكّة يوم الخميس لخمسٍ خلون من ربيع الأول سنة ستّ وعشرين ومائة.

وإذن، فمن هي سُكينة التي يوجد مشهدها بالقاهرة؟

لقد أزال الإمام السخاوي في كتابه «تحفة الأحباب» هذا الإبهام، وحلّ هذا الإشكال، فقال: إنّ السيدة سكينة التي بمصر هي السيدة سكينة بنت الإمام علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وكان سبب قدومها إلى مصر أنّ الأُصبغ بن عبدالعزيز بن مروان خطبها، وبعث بمهرها إلى المدينة، فحملها أخوها إلىٰ مصر، فقالت له: والله لا كان لي بعلاً. فلمّا

---

١. الأغاني ١٤: ١٧٣.

وصلت إلىٰ أبواب مصر مات الأصبغ في الليلة التي وصل ركبها فيها، وماتت بكراً في مصر، وهي أقدم وفاةً من السيدة نفيسة رضي الله عنها[١].

ويفهم من ذلك أنّ الأصبغ حين حال عمّه عبدالملك بينه وبين الزواج من سكينة الكبرى بنت الحسين، أراد أن يصل نسبه بابنة أخيها سكينة الصغرىٰ، وكلتاهما يطلق عليهما بنت الحسين.

وهذا هو ما نميل إليه؛ لأنّه الذي يوافق الصواب، والله أعلم.

١. تحفة الأحباب: ٩٤.

سكينة المفترىٰ عليها[1]

صافيناز كاظم

* مشهد أول

بنات رسول الله ﷺ وأزواج أبنائه وأهل بيته، سافرات الوجوه، حاسرات الشعر، ممزّقات الثياب. يهجم الناهبون علىٰ خيامهنّ، بعد المذبحة، والتمثيل بالأشلاء التي كانت أقمار البيت النبوي.

يسرق الناهبون كلّ شيء حتّىٰ ثوب المرأة من فوق جسدها، والواحدة تصارع الناهب؛ لتبقىٰ علىٰ نفسها القليل الذي يسترها. ناهب كربلائي يبكي ويده لا تكفّ عن الانتزاع والسرقة، وتسأله السيدة زينب: «لماذا تبكي؟» فيقول في قحّة وهو مسترسل في نحيبه وسرقته: إنّما أبكي لمصابكم أهل البيت!

ومن الخارج يأتي صوت سنان بن أنس، الذي اجتزّ رأس الحسين، يغنّي فائزاً:

أوقر ركابي فضّةً وذهبا إنّي قتلت السيّد المحجبا
قتلتُ خير الناس أمّاً وأباً وخيرهم إذ ينسبون نسبا!

---

١. مقتبس من كتاب «رساليات في البيت النبوي» ط. دار الزهراء، القاهرة ١٩٨٧م.

❊ مشهد ثان

موكب السبايا الكريمات، عرض رسول الله ﷺ، يسقن إلى الكـوفة، إلىٰ بـيت الإمارة، الذي كان يسكنه الإمام علي وهو أمير للمؤمنين، وعنوان للحكم الإسلامي كما ينبغي. المسكن الذي شهد زينب عزيزة دارسة للـحكمة عـلىٰ يـد النـموذج الإسلامي الفذّ، الذي ربّاه ونشّأه الرسول المفدّىٰ بخلق القرآن، ومثل الإسلام: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في وجهه!

يجلس مكان الإمام علي بن أبي طالب ـالذي لا يخشىٰ في الله لومـة لائـم ـ أنجس أهل الأرض طرّاً: عبيدالله بن زياد. مفتون جلف، وغد مغرور، لا يرعىٰ في المسلمين إلّاً ولا ذمّة، نسي الله فأنساه نفسه، خلقه الله إنساناً، فجعل نفسه بـهيمةً لا ترىٰ إلّا شهوتها في يد صاحبها: يزيد بن معاوية، فلا تبلغ إلّا وجهته.

رأس الحسين بين يدي هذا العبيدالله بن زياد، جمار نار لم يستشعر سعيرها بعد، بل يرتاح للطمها والعبث بها! وكلمات الرسول ﷺ معلّقة بقلوب السبايا: «إيّـاكـم والمثلة ولو بالكلب العقور!».

لكن ها هو ذا الكلب العقور يمثّل بابن الرسول ﷺ!

من وجوه السبايا يبرز ـفي لقطات قريبة متعاقبة ـ وجه زينب بنت علي، أُخت الحسين، تخطّت الخمسين من عمرها، وصوت الحسين الأخير ما يزال في أذنـها: «يا أُختاه! لا تنسيني في نافلة الليل... يا أُخية: لا يذهبنّ بحلمك الشيطان!»

ثم وجه الرباب بنت امرئ القيس زوجـة الحسـين، عـلىٰ مشـارف الثـلاثين، وصوت الحسين في أذنيها: «إنّي أقسم عليك فأبري قسـمي: لا تشقّي عليَّ جـيباً، ولا تخمشي عليَّ وجهاً!»

ثم وجه كالزنبقة المتفتّحة، تخضله الدموع ويرهقه الفزع، ويـمنعه الإبـاء عـن الانكسـار أو الانهيار، هو وجه الصبية الوضيئة: سكينة بنت الحسين، فـي ربـيعها الثالث عشر، مثلها لا يراها رجل إلّا من محارمها أو زوجها، مثلها يظلّ وجها سرّاً،

يحتال عليه الواصفون فلا يعرفونه، حتّىٰ يلقى الله نقيّاً مصوناً!

بيد أنّ البدر الآن قد سرق ستره، وها هو ذا أمام الملأ مفضوح مباح، تتجوّل فيه الأعين الأجنبية براحتها، تدقّق في التفاصيل، تستوعبها وتحفظها بالذاكرة لحين تأتي لحظات الاستثمار، حين يطرح الذهب فيباع كلّ شيء، وحين تفتح الأكاذيب سوقها ويأتي موسمها، فتشتري أقداماً لتقف عليها، وتبتاع لتلفيقاتها جداراً تسند إليه!

فاليوم هو مهرجان الظلم الذي لابدّ له من غدٍ مؤثّثٍ بالافتراء!

فلتعبّ العيون إذاً من وجه سكينة وأخواتها، ولتجرّ من الرأس إلىٰ القدم، تقيس الطول والعرض، والتفاف الخصر، وتتكهّن بالاحتمالات التي سوف تنضجها سنوات الشباب الغضّ، والأُنوثة المكتملة، فهي الفرصة التي لن يتيحها الزمن القاسي ثانيةً، فلتختزن من اللحظة بذور الأقاصيص التي سوف تختلق، والأشعار التي سوف تروىٰ وتنتهك، فهناك مذبحة قادمة بعد كربلاء سوف يتمّ فيها «اغتيال الشخصية» للطاهرة النبوية، بخنجر الزور والبهتان!

ابن زياد مع الناظرين، ثم يحوّل عينيه إلىٰ التي جلست من قبل إذنه، مشيحة عنه بوجهها، ويسأل: من هذه؟

ـ زينب بنت فاطمة!

فيقول: الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم، وأذهب أُحدوثتكم!

فتردّ العقيلة المؤمنة زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه ﷺ وآله، وطهّرنا من الرجس تطهيراً.. إنّما يفضح الله الفاسق، ويكذّب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله!

فيقول: كيف رأيت صنع الله في أهل بيتك؟

فتردّ: كتب عليهم القتل فبرزوا إلىٰ مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّون إليه، فتختصمون عنده!

فيقول: لقد شفى الله نفسي من طاغيتك! والعصاة المرد من أهل بيتك!

فتردّ: لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت![1]

تتنقل عينا ابن زياد فجأةً لتقع علىٰ قمر:

ـ من هذا؟

ـ علي بن الحسين!

ـ أوَ لم يُقتل؟

ـ كان لي أخ يقال له أيضاً: علي، فقتله الناس.

ـ إنّ الله قد قتله!

ـ الله يتوفّىٰ الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله!

ـ اقتلوه!

وتهبّ زينب: يابن زياد، حسبك منّا! أما رويت من دمائنا؟

ويشاء الله أن يتوقّف ابن زياد عن القتل، ويأمر بجعل الأغلال في يد وعنق علي بن الحسين زين العابدين، الذي يقول عنه الخليفة عمر بن عبدالعزيز بعد سنوات: «سراج الدنيا وجمال الإسلام: زين العابدين!».

تلتصق سكينة بعمّتها الجليلة والإباء يضني بكاءها.

أليس هؤلاء الذين منذ قامت دولتهم، يسبّون من فوق منابر المساجد جدّها علي بن أبي طالب، وهم علىٰ وعي كامل بحديث رسول الله ﷺ: «من سبّ عليّاً فقد سبّني!»[2].

---

١. الإرشاد ٢: ١١٥ ـ ١١٦، إعلام الورىٰ ١: ٤٧١ ـ ٤٧٢، الكامل في التاريخ ٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، البداية والنهاية ٨: ١٩٣.

٢. أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٦: ٣٢٣، والحاكم في المستدرك ٣: ١٢١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٣٠، والشجري في أماليه ١: ١٣٦، وابن كثير في البداية ٧: ٣٥٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ١١: ٦٠٢ رقم ٣٢٩٠٣ كلّهم عن أمّ سلمة.

لعلّهم من أجل ذلك بالذات يسبّون علياً!

ولو قدروا علىٰ أكثر من ذلك لفعلوا، وها هم أولاء اليوم قد قدروا علىٰ أكثر ففعلوه، وسوف يقدرون غداً علىٰ أكثر وأكثر، وسوف يفعلونه!

إن كان هؤلاء يملأون أعينهم من وجه سكينة، ويفحصون في قحّة مكامن ملاحتها، فلتملأ هي قلبها بالوعي العميق بقدرة الباطل علىٰ خداع نفسه، حتّىٰ يتطاول كأنّه حقّ! ولتتفحّص بعقلها التفافات النفاق حين يتّخذ إيمانه ساتراً؛ ليصدّ عن سبيل الله!

لترى سكينة إذاً في هذا المشهد وما يليه برهان ما تعلّمته من القرآن عن الكافرين والمشركين والمنافقين، ولتتعزّ بآياته التي تتذكّر منها الآن بقوة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

* مشهد ثالث

موكب السبايا الكريمات، وبينهنّ علي بن الحسين الذي سخّر الله له المرض؛ لينجيه من المذبحة؛ ليحفظ به العترة الطاهرة من ذرّيّة الرسول ﷺ. يسير الموكب من الكوفة إلىٰ دمشق، إلىٰ حيث قصر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب.

إلّا تكن نبوّة فخلافة! هكذا صار منطقهم ليعيدوا «فرسي الرهان» إلى التوازن بين بني عبد مناف وبني أُمية!

قالها أبو سفيان صراحة عند موته: يابني أُمية تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنّ إلىٰ صبيانكم وراثة!

وها قد تمّ له ما أراد!

وما كان أفدح الثمن الذي غرمه المسلمون لتتحقّق إرادة أبي سفيان!

يدخل أهل بيت النبوة قصر يزيد، تثقلهم أغلال الأسر والسبي، فلا تتحمّل نساء

يزيد هول المشهد الفاجع؛ فيعولن نادبات منتحبات!

لا تسقط أنظار رجال يزيد عن النساء النبويات اللاتي أهتك الأسـر سـترهنّ، لا تبالي أنظار رجال يزيد جوّ الشؤم والبلاء، وتدور تتفحّص الحرمات العقائل.

يزيد مشغول بالتنقيب بين الرؤوس المقدّمة إليه، حتّىٰ يجد رأس الحسين، فـيعبث بقضيب في يده بثنايا الإمام الحسين حيث كانت قبلات الرسول المفدّىٰ لقرّة عينه.

أحد الرجال يحدق في سكينة[1] التي تعجبه، فيتقدّم ليأخذها:

ـ يا أمير المؤمنين، هب لي هذه!

في هلع تختبئ الصبية بحضن عمّتها التي تزعق:

ـ كذبت ولؤمت! ما ذلك لك ولا له!

تأخذ يزيد العزّة بالإثم:

ـ كذبت.. ووالله، إنّ ذلك لي، ولو شئت أن أفعله لفعلت!

وطأة اللؤم تشتدّ لكن زينب مستمرّة:

ـ كلا والله، ما جعل الله ذلك لك، إلّا أن تخرج من ملّتنا، وتـدين بـغير ديـننا!

فيهب زاعقاً:

ـ إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك!

ـ بدين الله ودين أبي وأخي وجدّي اهتديت يا يزيد، أنت وأبوك وجدك!

فيطير صوابه:

ـ كذبت يا عدوّة الله!

ـ أنت أمير مسلّط، تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك... إنّ الله إن أمهلك فهو قـوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً

---

١. قد ذكرت المصادر فاطمة بنت الحسين عليها السلام وليس سكينة كما في تاريخ أبي مخنف ١: ٥٠٠، الإرشاد للمفيد ٢: ١٢١، المنتظم ٥: ٣٤٣ ـ ٣٤٤. وفي البداية لابن كثير ٨: ١٩٦ ـ ١٩٧ «فاطمة بنت علي».

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك بناتك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ كالأسارىٰ، قد هتكت ستورهن!.. وتحدو بهنّ الأعادي من بلد إلىٰ بلد...، يتشوّفهنّ القريب والبعيد... تنكث ثنايا أبي عبدالله بمخصرتك غير متأثّم ولا مستعظم؟!...

أيزيد، والله ما فريت إلّا في جلدك، ولا حززت إلّا في لحمك، وسترد علىٰ رسول الله ﷺ برغمك... وستعلم أنت ومن بوّأك ومكّنك من رقاب المؤمنين، إذ كان الحكم ربّنا والخصم جدّنا، وجوارحك شاهدة عليك، أيّنا شرّ مكاناً وأضعف جنداً؟...

فلئن اتّخذتنا في هذه الحياة مغنماً، لتجدنّنا عليك مغرماً، حين لا تجد إلّا ما قدّمت يداك، تستصرخ بابن مرجانة ـ عبيدالله بن زياد ـ ويستصرخ بك، تتعاوىٰ وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زاد تزوّدت به: قتل ذرّيّة محمد ﷺ [١].

تهدأ سكينة وتقف معتدلة شامخة جوار العمّة التي أنطقها الله «برغم الموت والضرّاء والحزن»، بكلّ ألسنة البلغاء الصادقين الأباة، من بيت النبوّة؛ لتظلّ كلماتها مأثورات، تستجمع قلوب المستضعفين في قوة، لمواجهة أعتى الظالمين والمستكبرين.

ويتقدّم الفظّ بعد هذا كلّه ليلحّ علىٰ أخذ سكينة:

ـ يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية!

فيردّه يزيد في حنق:

ـ اغرب، وهب الله لك حتفاً قاضياً!

وتعود سكينة مع الركب الحزين، عائدين إلى مدينتهم، ناصرة الرسول ﷺ المدينة المنوّرة.

---

١. راجع تاريخ أبي مخنف ١: ٥٠٠ ـ ٥٠١، الإرشاد للمفيد ٢: ١٢١، المنتظم ٥: ٣٤٤، البداية والنهاية ٨: ١٩٦ ـ ١٩٧.

❁ لقطات من الماضي

❁ امرؤ القيس بن عدي بن أوس: سيد بني كلب، يدخل علىٰ عمر بن الخطاب ﷺ يعلن إسلامه ـ وكان لا يزال على نصرانيته ـ حوالي ٢٢هـ، قبل استشهاد عمر ﷺ عام ٢٣هـ. علي بن أبي طالب يلحق بامرئ القيس فور إسلامه ويطلب منه المصاهرة، فيقسم امرؤ القيس بناته الثلاث: المحيّاة لعلي، وسلمىٰ للحسن، والرباب للحسين، ومعهنّ: «مرحباً بكم آل بيت النبي ﷺ!»[١].

❁ تتأجّل الزيجات بسبب أحداث متتالية، تدخل فيها ظروف الخلافة بعد استشهاد عمر، وانشغال الحسن والحسين في الجهاد ضمن جيش الفتح الإسلامي، وخروجهما في الجيش الزاحف إلىٰ أفريقيا بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح عام ٢٧هـ في عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، ويعودان من الغزوة بعدما يزيد على العام، حين يتمكّن الحسين من الزواج من الرباب بنت امرئ القيس، بعد أن تكون قد بلغت سنّ الزواج.

❁ تكون الرباب أحبّ زوجات الحسين إلىٰ قلبه، وتكون الرباب أهنأ الزوجات بزوجها، وتلد له عبدالله، وبعده بسنوات تلد آمنة وتناديها: سكينة عام ٤٧هـ[٢].

❁ تترعرع سكينة هانئة بين أبوين متحابّين رغم خضمّ الأحداث الشرسة المائجة حول بيتها، وبين إخوة أربعة:

١ ـ شقيقها عبدالله، الذي يستشهد مع أبيه في كربلاء.

٢ ـ علي الأكبر، وأُمّه هي ليلى بنت أبي مرة: بنت أُخت معاوية بن أبي سفيان، وقد استشهد مع أبيه في كربلاء بسيوف ابن خاله يزيد!

٣ ـ علي الأصغر، وهو علي زين العابدين، وأُمّه سلافة بنت يزدجرد، آخر ملوك

---

١. تقدّم الكلام حول هذه المسألة.

٢. كتاب سكينة بنت الحسين للدكتورة بنت الشاطئ، ط. القاهرة.

فارس، وهو الوحيد الذي بقي من أبناء الحسين، يحمل ذرّيّة رسولنا المفدّىٰ، صلوات ربّي وسلامه عليه وعلىٰ آله، ولد عام ٣٨هـ، عرفه الناس في طفولته وصباه، وشبابه وكهولته، حتّىٰ وفاته وعمره ٥٧ عاماً: عابداً، زاهداً، فقيهاً، عالماً من أشهر البكّائين ـ ورعاً ـ في الإسلام.

٤ ـ جعفر وأُمّه من قبيلة بليّ.

وأخت واحدة هي فاطمة، وأُمّها أُمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله التميمي.

* تعيش سكينة السنوات العشر الأولىٰ من عمرها في بيت النبوة، تحت حكم معاوية، يكون فيها عمّها الحسن قد آثر الانقطاع للعلم والفقه، ويكون والدها الحسين قد شارك في فتح أفريقيا وطبرستان، وفي غزو القسطنطينية عام ٤٩هـ، ويكون متواصلاً مع ذلك في حلقات العلم التي يعقدها في مسجد رسول الله ﷺ، حتّىٰ ليقول معاوية وهو في دمشق لرجل من رجاله: «إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت حلقةً، فيها قوم كأنّ علىٰ رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبدالله الحسين، مؤتزراً إلىٰ أنصاف ساقيه». ويكون عمّها الحسن قد استشهد، مقتولاً بسمٍّ دسّه له معاوية ليتحلّل من عهده، ويجمع البيعة المنكرة لابنه يزيد عام ٥٠هـ، وهي لم تتعدّ الثالثة، لكنّها تستشعر طقس غضب البيت النبوي، وإحساسه المكثّف بالظلم والغدر، والتزام الحسين بمبدأ: «لا مبايعة ليزيد» انطلاقاً من التزامه بمصلحة الإسلام: ديناً، وحكومة، وحقّاً للمسلمين في عنقه.

* في تلك السنوات العشر، بل الثلاث عشرة، منذ مولدها ٤٧هـ حتّىٰ سفرها إلىٰ مكة مع الحسين في موسم الحج (١٢/٦٠هـ) قبل السير إلىٰ كربلاء، تكون سكينة، ككلّ نماذج البيت النبوي، والمسلمين الصالحين الملتزمين، قد حفظت القرآن ووعته ودرسته، وتشرّبت مبدئيات وأخلاقيات الرساليات الداعيات من بيت النبوّة، وأمامها قدوتها المثلىٰ: عمّتها زينب بنت فاطمة بنت خديجة، ذرّيّة بعضها من بعض، نشأتهنّ تربية محمد ﷺ على الزهد والتقىٰ والجهاد، والتحرّج حتّىٰ في الحلال،

بعيدات عن اللغو والتفاهة، والهذر وفتنة الدنيا، التي لا تفتأ تغالب كلّ مجتمع، حتّىٰ ولو كان مجتمعاً يحكمه الرسول ﷺ، فما بال مجتمع أغرقته ثـروات الفـتوحات، وغزته الميول والأهواء لتسحبه تدريجياً من طقس الجدّية والالتـزام، فـي عـصر الرسول ﷺ والراشدين، إلىٰ ردّة الترف والشعر العائد لمجون الجاهلية وخـمرها، ومجالس القيّان والخلاعة، وثرثرة الأخباريّين ورواياتهم المختلقة أو الحقيقية عن نوادر البيوت وفضائحها.



أينما تلّفتت سكينة في تلك المرحلة ـ الآمنة نسبياً في حياتها العاصفة ـ لم تكن لترىٰ في أبيها وعمّتها وإخوتها وأبناء عمومتها وأهلها إلّا سياجاً نورانياً، يعتصم من فتنة الدنيا بمدارسة القـرآن والحـديث، والاعـتكاف والتـهجّد والتـعبّد، والقـنوت بالأدعية الخاشعة، التي ضمتها حافظة أهل البيت، مأثورات عن جدّهم الرسول ﷺ، أو إبداعاً من دعاء قلوبهم الصافية، متوجّهاً في تسابيح لله سبحانه وتعالىٰ.

يكمل هذا الجوّ من البشر الإسلامي المحبّة والسكينة، التي كان الحسين يلمسها خاصّةً عند زوجته الرباب، التي نادت طفلتها آمنة باسم «سكينة» عنواناً لبيتها مع الحسين الذي لم يجد حرجاً في تحية أهله بأبيات تقول:

لعـــمري إنّـــني لأحبّ داراً   تكون بـها سكـينة والربـاب

أحـــبّهما وأبـذل كـلّ مـالي   وليس لعاتب عندي عتاب![1]

وإذا كان الحسين قد ملكه كلّ هذا الحبّ لسكينة وأُمّها، أفلا يعني هذا، وهو إمام المسلمين، أنّه رآهما علىٰ خير ما يودّ أن يراه في نموذج الزوجة المسلمة، والابنة المسلمة، وهو الذي «ما رئي إلّا عاكفاً علىٰ العبادة والجهاد... جهاداً مع النفس، ومع الباطل أينما كان» علىٰ حدّ قول الدكتورة بنت الشاطئ.

---

١. روىٰ ابن كثير الأبيات في البداية ٨: ٢١١ نقلاً عن الزبير بن بكّار باختلاف يسير.

ويؤكّد هذا قول الحسين للحسن المثنّىٰ ـ ابن أخيه الحسن ـ الذي ذهب إليه خاطباً واحدةً من بناته:

ـ اخترت لك ابنتي فاطمة، فهي أكثر ابنتي شبهاً بأُمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وإنّها لذات دين وجمال... أمّا سكينة، فغالب عليها الاستغراق مع الله، فلا تصلح لرجل[١].

* عودة إلى المشهد

* سكينة في المدينة عام ٦١هـ بعد المذبحة بقليل في إطار عمّتها زينب العائدة؛ لتواصل حمل راية الحسين: راوية وشاهدة، وفاضحة لحكم الفحشاء والمنكر والبغي، حتّىٰ يضجّ منها والي يزيد، ويصدر عليها الحكم بالنفي من المدينة بتُهمة «تهييج الخواطر، وإشاعة الغضب، والحض على الثورة!» فترحل زينب إلىٰ مصر في شعبان ٦١هـ، بعد ثمانية أشهر من المذبحة.

* تبقىٰ سكينة مع أُمّها الرباب التي لا تبقى طويلاً بالمدينة، بعد رحيل زينب؛ إذ يقتلها الحزن والقهر، فتلحق بالحسين وابنها عبدالله، بعد عام من استشهادهما في محرم ٦٢هـ.

* تسافر سكينة إلىٰ عمّتها بمصر لتعود بعد شهور إلىٰ المدينة مرّة أُخرىٰ، تبكي وفاة العمة في رجب ٦٢هـ.

* سكينة في الخامسة عشرة في كنف أخيها السجاد: علي زين العابدين، وعام ٦٢هـ علامة في المدينة المنوّرة، فقد استباحها جنود يزيد ثلاثة أيام، قتلوا ونهبوا واغتصبوا الحرمات، كما شاء لهم شيطانهم، وبعدها ساروا إلىٰ مكّة المكرّمة، فأحرقوا الكعبة المشرّفة بعد ضربها بالمجانيق! ولا يعود الجند إلىٰ دمشق إلّا بعد أن تأتيهم الأخبار بموت يزيد فجأة في ٦٣هـ.

---

١. إسعاف الراغبين للصبّان: ٢٠٢، وانظر السيدة سكينة ابنة الإمام الشهيد أبي عبدالله الحسين عليه السلام لعبدالرزاق المقرم: ٤٣ وما بعده.

❊ يموت يزيد، ولم يلبس الملك إلّا ما يزيد قليلاً على السنوات الثلاث، ذبح فيها ذرّيّة الرسول ﷺ، وهتك مدينته المنوّرة، وأحرق بيت الله الحرام، «ثم لم تكن عاقبة هذا كلّه علىٰ آل أبي سفيان، إلّا خروج الملك منهم، وانتقاله إلىٰ غيرهم. فقد مات يزيد... قتلته لذّته أشنع قتلة. فقد كان ـ فيما زعم الرواة ـ يسابق قرداً فسقط عن فرسه سقطةً كان فيها الموت!»[١].

❊ تعيش سكينة في هذا الإطار الدامي في كنف أخيها العابد، السجّاد، المتفرّغ للعلم والفقه، القائم ليلاً، باكياً داعياً متضرّعاً، وهي «المستغرقة في الله، فما تصلح لرجل». ومع ذلك ما نلبث أن نرى الروايات والأخبار والواصفين لسكينةٍ أُخرىٰ غريبة عن هذا كلّه، متناقضة منطقياً وفكرياً ودينياً مع عواصف حياتها، وإطار منشئها، ومبدئية دينها. واصفون لها ما عرفوا لها شكلاً ولا ملمحاً إلّا يوم كشف وجهها مع نساء أهل البيت في كربلاء وسقط حجابها، فاستبيح جلال جمالها بالتحدّث عنه والتغزّل فيه والافتراء عليها.. إيذاء في قالب تمجيد ومباهاة!

❊ الافتراءات

بينما تأخذنا الصفات لنرىٰ: خديجة السكن، وفاطمة الزهراء والبتول، وزينب العقيلة الهاشمية، نجد سكينة وقد ألحقوا بها: الغادة الهاشمية! أو الحسناء القرشية! أو صاحبة الطرّة السكينية! بزعم أنّها كانت لها أساليبها وأفانينها في التأنّق في الملبس وتصفيف الشعر! فتأخذ الصفات صورة «المستغرقة في الله فما تصلح لرجل» لتحيلها إلىٰ صورة المفتونة بالدنيا المقبلة عليها، المشاركة في تدعيم فتنتها!! حتّىٰ يتمهّد الطريق ليصبح ـ فيما بعد ـ معقولاً، أن نرىٰ سكينة وقد شغلت عن قضية الحسين، لتنغمس حتّىٰ أذنيها في قضايا عمر بن أبي ربيعة الماجنة، أو نراها وقد

---

١. طه حسين «إسلاميات، الفتنة الكبرىٰ، علي وبنوه» ط. دار الآداب، بيروت: ١٠٣١.

انتزعت من إطار أخيها سراج الدنيا وجمال الإسلام علي زين العابدين، لتصبح طرفاً في نوادر أشعب الطفيلي الجشع، ومقابلات المغنية «عزة الميلاء»، بل وناهية المغنّي ابن سريج عن التوبة والإياب إلىٰ حظيرة الورع الإسلامي!!

من رواية يقولها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني:

«كان ابن سريج قد أصابته الريح الخبيثة، وآلىٰ يميناً ألّا يغنّي، ونسك ولزم المسجد حتّىٰ عوفي. ثم خرج وفيه بقيّة من العلّة، فأتىٰ قبر النبي ﷺ وموضع مصلّاه. فلمّا قدم المدينة نزل علىٰ بعض إخوانه من أهل النسك والقراءة، فكان أهل الغناء يأتونه مسلّمين عليه، فلا يأذن لهم بالجلوس والمحادثة، فأقام بالمدينة حولاً، حتّىٰ لم يعد يحسّ من علّته بشيء، وأراد الشخوص إلىٰ مكّة، وبلغ ذلك سكينة بنت الحسين عليه السلام، فاغتمّت اغتماماً شديداً، وضاقت به ذرعها.

وكان أشعب يخدمها، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره. فقالت لأشعب: ويلك!.. إنّ ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول، ولم أسمع من غنائه قليلاً ولا كثيراً، ويعزّ ذلك عليّ، فكيف الحيلة في الاستماع منه ولو صوتاً واحداً؟ فقال لها أشعب: جعلت فداك، وأنّىٰ لك بذلك، والرجل اليوم زاهد ولا حيلة فيه؟ فارفعي طمعك وامسحي بوزك تنفعك حلاوة فمك! فأمرت بعض جواريها فوطئن بطنه حتّىٰ كادت أمعاؤه أن تخرج..

وتستمرّ الرواية في هذا النهج من السرد الفظّ البذيء، تحكي فيه كيف أرغمت بنت الحسين أشعب على الذهاب لابن سريج المغنّي التائب ليقنعه بالغناء عندها، والمغنّي يقول: كلّا والله، لا يكون ذلك أبداً بعد أن تركته! حتّىٰ يصل الأمر بأن يهدّده أشعب بالصراخ والافتراء عليه بأبشع التهم الأخلاقية، حتّىٰ يرضخ المغنّي، ويذهب إلى سكينة التي تضحك من فعل أشعب اللاأخلاقي، وتأمر له بدنانير وكسوة!!!

ثم تقسم علىٰ المغنّي قائلة: برئت من جدّي إن برحت داري ثلاثاً، وبرئت من جدّي إن أنت لم تغنّ إن خرجت من داري شهراً، وبرئت من جدّي إن أقمت في

داري شهراً إن لم أضربك في كلّ يوم فيه عشراً، وبرئت من جدّي إن حنثت في يميني أو شفعت فيك أحداً! حتّىٰ صاح المغنّي التائب مستسلماً: واذهاب ديناه!.. وافضيحتاه! ثم اندفع يغنّي!

وتستمرّ الرواية في حديث الإفك هذا ـ الذي يحمل وزره العظيم صاحب الأغاني ومن استأجره ومن صدّقه ـ تحكي عن سوار الذهب، الذي أرغمت سكينة الرجل علىٰ لبسه، وكيف أرسلت بعد ذلك إلىٰ المغنّية «عزّة الميلاء» لتأتي وتغنّي مع ابن سريج، الذي منع عن التوبة؛ ليكتمل مجلس الغناء[١] في بيت حفيدة رسولنا المفدّىٰ ﷺ![٢].



كان المقصود، بمثل هذه الروايات ـ وهناك ما هو أفحش وأبشع منها ـ وبمثل إقحام اسم سكينة زوراً إلى أبيات الغزل لعمر بن أبي ربيعة، أن ترفع الرهبة، وتسقط

---

١. تسالمت كلمات أهل السيرة والتاريخ على أنّ السيدة سكينة بنت الحسين عليها السلام قد عاشت بعد مقتل أبيها عليه السلام ورجوع القافلة الحسينية من عند يزيد إلى المدينة، عاشت في بيت أخيها الإمام زين العابدين عليه السلام الذي عُرف بالزهد والورع والتقوى والعبادة والبكاء. هل يمكن تصوّر هذا المشهد الذي ينقله أبو الفرج في بيت هذا السيد الزاهد العابد الحزين؟!!

هذا ويضاف إليه تضافر الآثار وكلمات كثير من أئمة المسلمين وفقهائهم علىٰ حرمة الغناء. بل عن التتارخانية: حرمته في جميع الأديان. وقال شيخ الإسلام المرغيناني: لا تقبل شهادة المغنّي في كتابه الهداية (٣: ٩٠). وحكى ابن تيمية عن ابن المنذر أنّه نقل الاتفاق علىٰ حرمة الغناء مطلقاً، وإبطال إجارة المغنية (مختصر الفتاوى الكبرىٰ: ٣٨٨). وحكي القاضي عياض الإجماع على كفر مستحلّه (الفروع ٣: ٩٠٣). وفي مفتاح الكرامة، فصل المكاسب المحرّمة عند ذكر حرمة الغناء قال: وردت خمسة وعشرون رواية صحيحة. وفي جواهر الكلام: أنّها متواترة عن الإمام السجاد وابنه الباقر والصادق عليهم السلام دالّة علىٰ حرمة الغناء مطلقاً وإن لم يقترن بمحرم.

فإذا كان الحال هذه، فكيف يسوغ للإمام السجاد زين العابدين عليه السلام أن يجيز لأخته سكينة ان تقيم حفلتها الغنائية في بيته؟!! إلّا أن يكون ذلك افتراءً عليه وعلى السيدة النبيلة عليها السلام.

غير أنّ الناظر في أحاديث الغناء التي سجّلها أبو الفرج على هذه الحرّة العفيفة الطاهرة مروية عن آل الزبير الذين عرفت عداوتهم لآل علي عليه السلام، كما هو مشهور.

٢. نصّ الرواية مذكور بكامله عند الدكتورة بنت الشاطئ، سكينة بنت الحسين، دار الهلال: ١٤٣ ـ ١٤٦.

الحرمة، وتُستباح سيرة العقيلة النبوية، مثلما استبيحت المدينة، وأُحرقت الكعبة، من قوم لايتأثّمون ولايستعظمون من الاجتراء علىٰ حدود الله، حتّىٰ يتمّ تجريد جمهور المسلمين من عزّة مقدّساته، وحتّىٰ تتحطّم قياداته وتتهاوىٰ قدواته.

فالطعنة بهذا البهتان لم تكن تعني سكينة بنت الحسين وحدها، بل كانت في صميمها مذبحة أُخرىٰ ـ ككربلاء ـ معنوية وأدبية، تغتال فيها شخصية أهل البيت، لتنتزع بالافتراء قيادتها الروحية، كما انتزعت من قبل بالغدر والذبح قيادتها الحكومية، ولا أقول: السياسية؛ إذ أنّ هذه القيادات السياسية والروحية لأهل البيت لم تسقط عنهم أبداً، في أيّ يومٍ من الأيام، علىٰ مدى الزمن الإسلامي، علىٰ الرغم من الجهد الهائل للباطل وأعوانه في كلّ زمانٍ ومكان!

* المشهد الختامي

كانت سكينة منذ حداثتها صاحبة مصحفٍ وذكرٍ وثقافةٍ نبوية، تعكسها في ذكاء وإبداع، ورثت عن أبيها وجدّها البلاغة، وعن عمّتها الطلاقة والمبادرة بردّ الإساءة في شجاعة ورقي، وعن أُمّها قول الشعر الذي تمحور حول رثاء الحسين:

إنّ الحسين غداة الطفّ يرشقه ريب المنون فما أن يخطئْ الحدقهْ
بكفّ شرّ عباد الله كلّهم نسل البغايا وجيش المرق الفسقهْ![1]

ظلّت سبع سنوات، بعد كربلاء، رافضة للزواج، والمعروف شعبياً أنّها كانت مخطوبة للقاسم ابن عمها الحسن[2]، الذي استشهد في السابع من محرّم عام ٦١هـ،

---

١. من أبيات رثت بها أباها الشهيد عليه السلام، يحكيها الزجاج في أماليه: ١٠٩ ط ٢ ـ مصر.

٢. تقدّم الكلام بأنّ حديث تزويج القاسم منها محض قول عارٍ عن الصحة، لعدم الشاهد له، بل العكس ـ كما ذكرنا ـ أنّ علماء النسب والتاريخ يؤكّدون بأنّ زوجها الأول هو عبدالله الأكبر، أخو القاسم، ابنا الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام، منهم النسّابة أبو الحسن العمري، والعلّامة الطبرسي، والشيخ الصبّان وأبو الفرج والمدائني.. وغيرهم. وكذلك لأنّ القاسم آنذاك لم يدرك الحلم كما نصّ عليه أهل التاريخ والمقاتل.

وكان من أوائل شهداء كربلاء، ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة.

ثم زوّجها أخوها الإمام علي زين العابدين من مصعب بن الزبير أخي عبدالله بن الزبير، المنافس لبني أُمية بعذ الحسين. وكان مصعب قد تولّىٰ إمارة البصرة والعراق من قبل أخيه، وعندما تزوّجته سكينة عام ٦٧هـ، وهي في العشرين من عمرها، عادت معه إلى العراق مسترجعة سبع سنوات مضت علىٰ وقفتها العزلاء في أسر عبيدالله بن زياد.

كانت إقامة مصعب بالعراق إقامة قلقة مضطربة، خاض فيها حرباً ضدّ المختار بالكوفة، بعد أن جاوز الحدّ في بغيه علىٰ أهلها، مستتراً تحت شعار: «الثأر للحسين!» وقتل مصعب المختار، دفاعاً عن أهل الكوفة، وبقيت أمامه المواجهة التي حفّزه إليها تربّص عبدالملك بن مروان به.

وحين جاءت لحظة خروجه للحرب ثقل علىٰ سكينة وداعه، وألمّ بها دوار فأمسك بها مصعب يشجّعها:

ـ ما ترك أبوك يا سكينة لابن حرّ عذراً.

فقالت: واحزناه عليك يا مصعب!

وكانت المرة الأُولى التي تصرّح فيها بحبّها لزوجها.

فالتفت إليها: أكان كلّ هذا لي عندك؟

فقالت: وما أُخفي أكثر!

فقال وقد أزفت لحظة الرحيل: لو كنت أعلم، لكان لي ولك ياسكينة شأن آخر! ومشىٰ يردّد:

وإن الألىٰ بالطفّ من آل هاشم تأسّوا فسنّوا للكرام التآسيا![1]

وقُتل مصعب بغدرٍ من الكوفيّين عام ٧٠هـ. وجاء المعزّون إلىٰ قصر الإمارة

---

١. مذكور باختلاف عند الدكتورة بنت الشاطئ في كتابها «سكينة بنت الحسين: ٨٦».

بالكوفة لتواجههم سكينة من جديد. وما أشبه الليلة ببارحة ٦١هـ، لكنّها الآن في الثالثة والعشرين تنهض ظلّاً وامتداداً لزينب، لتواجه أهل الكوفة، ناظرة إليهم في تعب وملل، وهي تقول في حزن هادئ جليل:

والله يعلم أنّي أبغضكم! قتلتم جدّي علياً، وقتلتم أبي الحسين، وزوجي مصعباً، بأيّ وجه تلقونني؟ أيتمتموني صغيرة، وأرملتموني كبيرة!.. وأشاحت بوجهها.

وخرجت من الكوفة، ومن العراق!

وظلّت بالمدينة، مجلس علم وفقه، وثقافة نبوية حتّىٰ توفّاها الله تعالى عام ١١٧هـ، وهي في السبعين من عمرها[١].



١. وهذا هو المشهور والمحكي في كتب التاريخ، مثل: تاريخ الطبري ٨: ٢٢٨، وتاريخ ابن الأثير ٥: ٧١، ووفيات الأعيان ضمن ترجمتها، وكذلك في مرآة اليافعي. وبه قال النووي في تهذيبه ١: ١٦٣، وابن عماد في شذراته ١: ١٥٤.

هذا ويحكي النووي في تهذيب الأسماء ١: ١٦٣ أنّ وفاتها في الشام بعدما رجعت إليه، وأنّ قبرها هنالك. وبه قال صاحب ثمار المقاصد في ذكر المساجد: ١٠٦.

ويذهب الشعراني إلى وفاتها بمراغة من أرض مصر، وأنّ قبرها بالقرب من قبر السيدة نفيسة. انظر لواقح الأنوار ١: ٢٣.

هذا ويذكر ياقوت الحموي في المعجم ٦: ٢٦ أنّ أهل طبرية يزعمون أنّ بظاهرها قبر سكينة بنت الحسين عليه السلام. كما أنّ صاحب نور الأبصار يزعم أنّها توفّيت بمكة! وحيث إنّ أغلب المؤرّخين على أنّ قبرها بالمدينة، فهو بالصحة أجدر.

السيدة سكينة

بنت الإمام الحسين عليها وعلىٰ أبيها السلام[1]

حنفي المحلاوي

من هي

أكّد العديد من المؤرّخين ورواة التاريخ: أنّ السيدة سكينة رضي الله عليها ابنة الإمام الحسين بن علي عليه السلام. ومن أشهر هؤلاء المؤرّخين: ابن خلّكان والسخاوي والصبان والشعراني وآخرين[2].

والسيدة سكينة ـ وفق ما نقله هؤلاء ـ اسمها الحقيقي آمنة بنت الحسين رضي الله عنها، وأُمّها هي الرباب ابنة امرئ القيس بن عدي بن أوس سيد بني كلب.

وكانت ولادتها ـ علىٰ أشهر الروايات ـ في عام٤٨هـ. واختار لها أبوها الإمام الحسين اسم «آمنة» علي اسم جدّتها أُم النبي صلى الله عليه وآله ثم لقّبتها أُمّها بسكينة[3]؛ وذلك

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت».

٢. راجع وفيات الأعيان ١: ٢٩٨، تحفة الأحباب: ٩٣، إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ٣٥٩، وانظر: المترادفات للمدائني: ٦٤، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢: ٢٥٧، والأغاني ١٤: ١٦٣ وما بعده.

٣. قال الصبّان: المشهور على الألسنة في اسمها أنّه مكبّر بفتح السين وكسر الكاف. (إسعاف الراغبين: ٢٠٢) لكن المحكي عن شرح أسماء رجال المشكاة أنّه مصغّر، أي بضمّ السين وفتح الكاف، ومثله في القاموس.

لأنّ نفوس أهلها وأُسرتها كانت تسكن إليها من فرط فرحها ومرحها وحيويتها. كما قيل عن سبب ذلك أيضاً: ما لاح منها وهي طفلة من أمارات الهدوء والسكينة، وقد غلب هذا اللقب على اسمها الحقيقي: آمنة[١].

نشأت السيدة سكينة وتربّت في أحضان والدتها الرباب، بإشراف والدها الإمام الحسين عليه السلام بالمدينة[٢].. فسلكت طريق الصلاح والتقوىٰ.. وكان الإمام الحسين عليه السلام يحبّ فتاته سكينة، كما كان يحبّ أُمّها رباب حبّاً جمّاً، وروي عنه أنّه لمّا رأى الأهل يلاحظون عليه ذلك أنشدهم هذا الشعر:

لعمرك إنّني لأحبّ داراً ... تحلّ بها سكينة والرباب

أُحبّهما وأبذل فوق جهدي ... وليس لعاذل عندي عتاب

ولست لهم وإن عتبوا مطيعاً ... حياتي أو يغيّبني التراب[٣]

وبدأت شخصية السيدة سكينة تظهر حين كانت تعيش في مكّة.. ولمّا بلغت الثالثة عشرة من عمرها أصبحت قبلة الأنظار لحسنها، وظرف حديثها، وأناقتها، وسحرها، حتّىٰ صارت مثلاً يحتذىٰ.

علىٰ أنّ مرحها وأناقتها لم تلهها عن التعبّد الذي كان يصل إلىٰ حدّ الاستغراق. وقد شهدت السيدة سكينة معركة كربلاء في عام ٦٠ هـ، عندما خرجت مع والدها الإمام الحسين لملاقاة جيش يزيد بن معاوية، وعندما قُتل الإمام الحسين في هذه

---

١. وهو المشهور عند المؤرّخين، وتؤكّده رواية أبي إسحاق المالكي عنها عليها السلام قولها: «إنّكم سميتموني باسم جدّتي أمّ رسول الله صلى الله عليه وآله: آمنة بنت وهب». انظر: النجوم الزاهرة ١: ٢٧٦، والكواكب الدرّيّة للمناوي ١: ٥٨. بينما يحكي أبو الفرج القول بأنّ اسمها: أمينة وأُميمة.

٢. صحّ أن ولادتها بالمدينة، ووفاتها فيها أيضاً، لكن لم يتّضح دقيقاً سنة ولادتها ولا مقدار عمرها سلام الله عليها، وإن أمكننا القول بأنّها قاربت السبعين، بعد ملاحظة سنة وفاتها يوم الخميس لخمسٍ خلون من ربيع الأوّل سنة ١١٧ هـ، وكونها يوم الطف بالغة مبلغ النساء. انظر: تهذيب الأسماء ١: ١٦٣، نور الأبصار ١٦٠، وترجمتها في معارف ابن قتيبة وتذكرة الخواص ووفيات الأعيان.

٣. روى الأبيات في زهر الآداب ١: ١٠٠ باختلاف في بعض اللفظ.

المعركة، سيقت السيدة سكينة مع السبايا والأسرىٰ إلى دمشق، وذلك مع كلّ آل البيت. وبعد فترة إقامتها بدمشق سمح لها يزيد بن معاوية أن ترجع إلى المدينة المنوّرة في صحبة عمّتها السيدة زينب.. وهناك أقامت مع أُمّها الرباب حتّىٰ توفّيت، فأقامت السيدة سكينة مع أخيها زين العابدين حتّىٰ تزوّجت.

وقد اختلف الرواة والمؤرّخون في عدد أزواج هذه السيدة الطاهرة، فقيل: إنّها تزوّجت اثنين، وقيل: واحداً. علىٰ أنّ جمهور الروايات تجمع علىٰ أنّهم ثلاثة، وهم: مصعب بن الزبير، ثم عبدالله بن عثمان بن عفان، ثم يزيد بن عثمان بن عفّان، وقال ابن خلّكان: إنّها تزوّجت من الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان[١].

وإذا كانت السيدة سكينة قد عاصرت مقتل والدها الإمام الحسين في معركة كربلاء، فكذلك عاصرت مصرع زوجها مصعب بن الزبير الذي تولّىٰ إمارة المدينة عام٦٥هـ من قبل أخيه عبدالله بن الزبير بن العوّام.. فبعد أن رُزق مصعب بابنته من زوجته السيدة سكينة استشهد بالعراق في عام ٧٢هـ ضدّ جيش عبدالله بن مروان القادم من الشام.

وبعد رحيل زوجها لازمت السيدة سكينة طاعة الله بالصيام نهاراً وقيام الليل، والبرّ بالمساكين والفقراء، حتّى اختارها الله إلىٰ جواره في اليوم الخامس من شهر ربيع الأول عام ١١٧هـ عن عمرٍ يناهز السبعين عاماً.

صفاتها وعلمها

أجمع المؤرّخون وكتّاب سيرة أهل البيت رضوان الله عليهم أنّ السيدة سكينة ابنة الإمام الحسين رضي الله عنهما كانت كلّما كبرت في سنّها من بعد مولدها، كلّما كانت تزداد تأدّباً مع نفسها ومع الآخرين، ثم مع الله.. هذا الأمر جعلها قد اشتهرت

---

١. يكاد ينفرد به ابن خلّكان. وقد تقدّم الحديث عن هذه المسألة.

بين نساء آل البيت بالذكاء وحدّة الذهن، وسرعة الخاطرة، وقوّة الحجّة. ويضربون لذلك العديد من الأمثال.. وممّا يروونه في هذا السياق: أنّ هذه السيدة الطاهرة سكينة ابنة الإمام الحسين رضي الله عنهما كانت تحضر في يوم من الأيام مجتمعاً لمثيلاتها من الشابات، كنّ يتحدّثن فيه عن فضل الشهداء، ودرجاتهم عند الله، أمثال أمراء المؤمنين: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، وعلي بن أبي طالب، وابنه الإمام الحسين، مستشهدات بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

وكان في هذا المجتمع إحدىٰ بنات سيدنا عثمان ﷺ، فقالت مفتخرة بأبيها: إنّها بنت الشهيد الثاني، وفهمت السيدة سكينة بذكائها أنّ ابنة عثمان كانت تقصد بكلامها هذا أنّ أباها استشهد قبل استشهاد كلّ من الإمام علي جدّ السيدة سكينة، والإمام الحسين والدها.

وكان ذلك قبيل دخول وقت من أوقات الصلاة، فسكتت السيدة سكينة حتّىٰ أذّن المؤذّن، وذكر اسم جدّها محمد ﷺ عقب ذكر اسم الله تعالى، حيث قال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله.. فاتّجهت السيدة سكينة إلى ابنة سيدنا عثمان وقالت: هذا جدّي، ذاك أبوك. فقالت ابنة سيدنا عثمان: من الآن لا أفتخر عليكم أبداً.

ولمّا بلغت السيدة سكينة رضي الله عنها الثالثة عشرة من عمرها، كان جسمها نامياً كأنّها بنت العشرين.. وكانت مضرب الأمثال في العفّة والإيمان، مع رفعة مكانتها من البيت النبوي الكريم.

وقد عاشت أُخريات أيامها حيث لازمت طاعة الله بصيام النهار وقيام الليل، والبرّ بالفقراء والمساكين، حتّىٰ رحلت إلىٰ جوار ربّها.

وهناك من الرواة من ينسب إليها الكثير من الأعمال والأقوال، وقد شكّك في ذلك فريق آخر من هؤلاء الرواة، ونحن ننقل هنا ما قيل بشأن هذه وذاك. فقد ذكرت بعض كتب هؤلاء الرواة أنّ السيدة سكينة رضي الله عنها كانت تصفّف شعرها،

أي جمتها ـ قصّتها ـ تصفيفاً لم ير أحسن منه حتّىٰ ضُرب بها المثل، فقيل «جمّة سكينة» و«طرّة سكينة»[١]! وذلك يقتضي قضاء بعض الوقت في تصفيف شعرها لتجعل منه طرّةً جميلة، يستحسنها كلّ من يراها.

وردّاً علىٰ ذلك ذكر الشيخ محمد عثمان في أحد كتبه: أنّ هذه القول يناقض قول الحسين للمثنّىٰ ـ ابن أخيه الحسن السبط ـ حينما جاء ليخطبها، فقال له عمه: إنّ سكينة مستغرقة في الله، تصوم النهار وتقوم الليل، فهي لا تصلح لرجل..[٢] وزوّجه أُختها السيدة فاطمة النبوية.

كذلك قالوا عن السيدة سكينة: إنّ الشعراء يجتمعون في دارها.. وقد اجتمع لديها ذات يوم خمسة من فحول الشعراء، منهم: جرير بن عطية والفرزدق وآخرون، وقد عرضوا عليها أشعارهم، فكانت تعلّق علىٰ شعر كلٍّ منهم بما اقتنع به صاحبه، كما قدّمت لكلٍّ منهم ألف دينار! إلّا جميل بثينة فأعطته ثلاثة آلاف دينار!

---

١. وحكاية تصفيف الشعر واشتهاره كحديث أنّها كانت برزة من النساء، تجالس الأجلّة، يحكيها أبو الفرج في كتابه الأغاني ١٤: ١٥٩ عن الزبير بن بكار عن عمه مصعب، وهما معروفان بعداوتهما لأبناء علي عليه السلام على ما نبّه إليه المرزباني فقال: «انحراف الزبير بن بكار عن أهل البيت ظاهر، فلا يقبل ما جمعه من سرقات كثير الشاعر لتشيّعه وهجائه لآل الزبير» (الموشح: ١٥٤ ـ ١٥٥).

ولعلماء الرجال والتراجم كلمتهم في هذين الرجلين تبيّن للقارئ ماهما عليه من مستوى في مقام النقل والحديث.

يقول ابن الأثير: «كان مصعب بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوّام منحرفاً عن علي» (الكامل ٧: ١٩ ضمن حوادث سنة ٢٣٦هـ).

ويقول ابن حجر: «لم يعتمد أحمد بن علي السليماني على روايات الزبير بن بكار؛ لإكثاره الرواية عن الضعفاء» (تهذيب التهذيب ٣: ٣١٣).

ويقول ابن النديم: «كان مصعب الزبيري وأبوه عبدالله من شرار الناس، متحاملين على ولد علي» (الفهرست: ١٦٠).

وذكر الشيخ المفيد أنّه لم يكن الزبير بن بكار مأموناً في الحديث ولا موثوقاً في النقل فيما يرويه من القذائف في حقّ أهل البيت عليهم السلام. (المسائل السروية: ٦١ مسألة رقم (١٠).

٢. إسعاف الراغبين: ٢٠٢.

وصف المقبرة

على الرغم من أنّ بعض الرواة والمؤرّخين قد شكّكوا في إقامة السيدة سكينة بالحجاز، ومع ذلك هناك فريق آخر من هؤلاء الرواة والمؤرّخين من الذين أكّدوا إقامتها بمصر، حين قدمت مع عمّتها السيدة زينب بعد معركة كربلاء، وظلّت تعيش في دارٍ بالقرب من دار عمّتها السيدة زينب حتّىٰ توفّيت ودُفنت بها؛ وبالتالي أُقيم في هذه الدار ضريحها الموجود حالياً بالمسجد الذي يحمل اسمها.

وممّا قيل في هذا السياق.. إنّها من بعد وصولها إلىٰ مصر في عام ٦١هـ خطبها الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان أمير مصر، وبينما هي في طريقها إلى مصر بلغها بغي الأصبغ وفجوره، فأقسمت ألّا تكون زوجةً له، فاستجاب الله لدعائها.. فلم تصل إلى مصر حتّىٰ كان الأصبغ قد مات.

ويشكّك الشيخ محمد عثمان في كتابه «في البيت النبوي».. في هذه الرواية.. بل وفي علاقتها بالأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان من أصله.. فيقول عن ذلك مستنداً علىٰ ما جاء في كتاب «النجوم الزاهرة» من أنّ الأصبغ المذكور، لم يلِ إمارة مصر إلّا نيابةً عن والدها في مدّةٍ وجيزةٍ من سنة ٧٥هـ، قضاها والده بدمشق عند أخيه عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي الخامس، فيعلم من ذلك أنّ الأصبغ لم يمت سنة إحدى وستين، وأنّه لم يكن أميراً علىٰ مصر في تلك السنة، وأنّه في سنة إحدى وستين المذكورة تزوّج بالسيدة سكينة مصعب بن الزبير، وكان مقيماً بالمدينة المنوّرة، ثم أسندت إليه إمارتها سنة خمس وستين هجرية[1].

---

١. حكاية أخرىٰ من جملة الحكايات التي ينقلها أبو الفرج الإصفهاني في كتابه «الأغاني» الذي لم تكن غايته من تأليفه إلّا إمتاع النفوس والقلوب والاذواق كمّا صرّح هو بنفسه في مقدّمته، فكتابه لا يعدو كونه مجموعة نافعة لأندية الفناء، ومجتمعات اللهو والطرب ومغاني الشرب والسمر على حدّ قول الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني ١: ٢٣٥ وما بعده. فكتاب الأغاني ما هو إلّا سجلّ للهو والسمر يدور حول ←

ومن الذين أيّدوا مقدمها إلىٰ مصر، وإقامتها فيها حتّىٰ وفاتها، الإمام الشعراني في طبقاته، حيث قال: إنّها مدفونة في مصر بالقرافة، بالقرب من السيدة نفيسة رضي الله عنها. وكذلك في طبقات المناوي والحلبي. كما أكّد ذلك أيضاً ابن زولاق فقال: إنّ أول من دخل مصر من ولد علي كرّم الله وجهه سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم، وذلك أنّها حُمِلت إلى الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان ليدخل بها، فوجدته قد مات، فخرجت إلى المدينة المنوّرة.. وكذلك النسّابة العبيدي الذي قال: إنّ السيدة سكينة صحبت عمّتها السيدة زينب في خروجها إلىٰ مصر حين أدرك الخليفة يزيد مقامها بالمدينة، فأمر أن يفرق بينها وبين الناس حتّىٰ لا تكون فتنة.

وللدكتورة «بنت الشاطئ» رأي أوردته الدكتورة سعاد ماهر في كتابها عن المساجد والأولياء، فيما يخصّ مكان ضريح السيدة سكينة.. وممّا قالته عن ذلك: إنّ هذا الضريح ربّما كان من أضرحة الرؤيا، وليس على سبيل اليقين.. هذه الأضرحة التي كانت تقام وقت الشدّة والحروب.. فعندما كان أحد أولياء الله الصالحين يشاهد رؤيا في منامه بخصوص إقامة مسجد أو ضريح لأحد أهل البيت، فكان عليه أن يقيم ذلك الضريح باسم من رآه في منامه![1].

وبشكل عام فقد قدّم لنا العديد من رجال التاريخ ومن رجال الآثار عدّة

← الطرائف وقصص الملوك أيام الجاهلية بأسلوب لا يخلو من الخيال والمرح وجذب القلوب.

وأمّا من الجانب الآخر فلا يشتمل على حقائق تاريخية يمكن الاطمئنان إليها وإن ضمّ أسانيد في رواياته وحكاياته، وبذلك فلا يمتلك قيمة علمية ولا تاريخية يمكن الاستناد إليها.

وممّا يجدر ذكره أنّه من يراجع معجم الأدباء لياقوت ٥: ١٦٠ وهو يروي قصةً عن أبي الفرج نفسه في إحدىٰ سلوكياته الماجنة، يكتشف مستوىٰ هذا الرجل وتوجّهاته في حياته، ودرجة الشناعة التي بلغها في ذوقياته!!

١. هذه نظرية ضعيفة جداً، فلا يعقل أن يقوم جمع من العلماء والعقلاء ببناء مسجد وضريح لمجرّد الرؤيا! ومن الصحيح أن نقول: إنّه كانت بأيديهم وثائق وأدلّة، لم تصل لأيدينا، ومن ثم فلابدّ أن نتابع الأمر، حتّىٰ نصل إلى الحقيقة التاريخية لكلّ ضريح ومقبرة ومسجد بُني باسم الأولياء أو آل البيت في مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية.

دراسات عن هذا الضريح، وصفوا فيها مكانه وتطوّره عبر الزمان.

فقد أشار إليه علي باشا مبارك في خططه، فقال: إنّه أُقيم بحي الخليفة عن شمال الذاهب إلى القرافة الصغرىٰ.. وكان في بدايته زاوية صغيرة، ثم أُلحق بالضريح مسجد أقامه الأمير عبدالرحمن كتخدا عام ١١٧٤م، ثم أجرىٰ فيه عباس باشا عمارة، وله ثلاثة أبواب غير الميضأة، اثنان على الشارع، مكتوب علىٰ وجه أحدهما:

حرم به بنت الحسين مورّخ   بسكينة تصب المواهب كلّها

وعلىٰ وجهه الآخر:

ذا مسجد يا آل طه مؤرّخ   شمس هدىً بنت الحسين سكينة

والثالث: الباب المقبول في الجهة القبلية، ويفتح علىٰ درب الأكراد، مكتوب:

لك مظهر بنت الحسين مؤرّخ   لج ههنا التابوت فيه سكينة

وهذا المسجد تقام فيه الشعائر، ويشتمل علىٰ ستة أعمدة من الرخام، ومنبر من الخشب النقي، ودكّة، وفيه خلوتان، يسكنهما الخَدَمة، ومدفن قديم لصاحب البحر وأخيه صاحب النهر الحنفيَّيْن المشهورَيْن. وبجوار القبّة شبّاك مطلّ علىٰ ضريح السيدة سكينة رضي الله عنها، وهو ضريح مجلّل بالبهاء والنور، عليه تابوت من الخشب من داخل مقصورة كبيرة من النحاس الأصفر متقن الصنع، من إنشاء المرحوم عباس باشا.

ويحيط بذلك قبّة جميلة مرتفعة، بها أربعة أعمدة من الرخام، وإيوان صغير يجلس عليه القرّاء في ليالي الحضرة، وبأسفلها إزار من خشب ارتفاعه نحو متر، وبأعلاها نقوش، وعلىٰ وجه بابها: «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنّه حميد مجيد» وحضرتها كلّ ليلة خميس، ولها مولد كلّ سنة قبل مولد السيدة نفيسة رضي الله عنها[1].

---

١. راجع الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك، المجلد الخامس.

وكان ضريح السيدة سكينة قبل عهد الخديوي عباس الثاني منخفضاً عن سطح الأرض، فرفع الضريح إلى ما يقرب من مستوى سطح المسجد، وأُحيط بمقصورة من النحاس شبيهة بالموجودة في مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها.. كما جـدّد الخديوي عباس ذلك الضريح ومسجد السيدة نفيسة، وما زالت تـلك التـجديدات موجودة إلى الآن، ثم قامت وزارة الأوقاف بآخر عمارة للمسجد وللضريح، على الشكل الذي نراه عليه الآن.

مرقد السيدة سكينة

بنت الإمام الحسين عليه السلام[1]

الدكتورة سعاد ماهر

أمّا عن ضريح السيدة سكينة الذي يقع بحيّ الخليفة بالقاهرة، بالشارع المسمّىٰ باسمها، فقد اختلف المؤرّخون في صحّة وجودها به، والذين يقولون بوجودها بمصر يعتمدون على القصة التالية: خطبها الأصبغ بن عبدالعزيز والي مصر من قبل الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، فكتبت إليه تقول: «إنّ أراضي مصر وخمة» فبنىٰ لها «مدينة الأصبغ»، ولكنّ هذا الأمر لم يرق في عين الخليفة، فحسده وكتب إليه: أن تأخذ ولاية مصر أو سكينة! فكفّ عن زواجها.

وقال ابن زولاق: إنّ أول من دخل مصر من ولد علي كرّم الله وجهه سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم، وذلك أنّها حُمِلت إلى الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان ليدخل بها، فوجدته قد توفّي، فرجعت إلى المدينة، وقيل غير ذلك.

ويقول النسّابة العبيدي: إنّ السيدة سكينة صحبت عمّتها السيدة زينب في خروجها إلىٰ مصر حين أدرك الخليفة يزيد خطر مقامها بالمدينة، فأمر أن يفرّق

---

١. مقتبس من كتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون».

بينهما وبين الناس حتّىٰ لا تكون فتنة[1].

وتعلّق الدكتورة بنت الشاطئ علىٰ ذلك فتقول: وإذا صحّت هذه الرواية، فلعلّ السيدة سكينة قد عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمّتها زينب سنة ٦٢هـ[2].

وعلىٰ أيّة حال، فقد ظهر في العصور الوسطىٰ، وخاصّةً في أوقات المحن والحروب التي لاتجد فيها الشعوب مَن تلوذ به غير الواحد القهّار، أن يتلمّسوا أضرحة آل البيت والأولياء للزيارة والبركة والدعاء؛ ليكشف الله عنهم السوء ويرفع البلاء، ومن ثم ظهر ما يعرف باسم أضرحة الرؤيا، فإذا رأىٰ ولي من أولياء الله الصالحين في منامه رؤيا مؤدّاها أن يقيم مسجداً أو ضريحاً لأحدٍ من أهل البيت أو الولي المسمّىٰ في «الرؤيا» فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمه[3].

والمسجد الموجود حالياً يرجع إلىٰ عهد عبدالرحمن كتخذا سنة ١١٧٣هـ، ثم جدّدته بعد ذلك وزارة الأوقاف في القرن الثالث عشر الهجري، وعلىٰ باب المقصورة النحاسية نجد لوحةً تذكاريةً مؤرّخة سنة ١٢٦٦هـ.

---

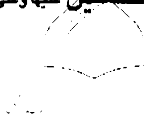
١. سكينة بنت الحسين لبنت الشاطئ: ٣٥ ـ ٣٦.

٢. المصدر السابق.

٣. كما سبق أن أشرنا: أنّ هذه نظرية غير صحيحة، ولايمكن قبولها، فلابدّ أن ندرس الأمور أكثر وأكثر؛ حتّىٰ نجد الوثائق والأدلّة الصحيحة المعقولة الموجودة عند الناس الذين قاموا ببناء هذه الأضرحة والمساجد والمشاهد، ولا يجوز أن نكتفي بنظرية «الرؤيا»!! فقط.

٥ ـ السيدة فاطمة

بنت الإمام الحسين عليها وعلى أبيها السلام



بقلم

مجدي فتحي السيد

حنفي المحلاوي

فاطمة بنت الحسين عليها السلام [1]

مجدي فتحي السيد

حفيدة من حفيدات الرسول صلى الله عليه وآله، روت عن جدّتها مرسلاً وأبيها حسين بن علي، وعمتها زينب بنت علي، وأخيها علي بن الحسين، وعبدالله بن عباس، وعائشة أم المؤمنين، وأسماء بنت عميس، وبلال المؤذّن مرسلاً[2].

وروى عنها بنوها: عبدالله، وإبراهيم، والحسن، وأُم جعفر بنو الحسن بن الحسن، ومحمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، وأُم هشام بنت زياد، وأم الحسن بنت جعفر بن الحسن.

وتعدّ من التابعيات الراويات للحديث النبوي[3]، وكانت مع أبيها أثناء مقتله في كربلاء، ثم أُتي بها إلىٰ دمشق مع أخوتها، ثم خرجت إلى المدينة.

وفاطمة بنت الحسين أُمّها: أمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله التيمي، تزوّجها ابن عمّها حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، فولدت له عبدالله، وإبراهيم، وحسناً، وزينب.

---

١. مقتبس من سيرة آل بيت النبي الأطهار، ط. المكتبة التوفيقية، القاهرة ٢٠٠١م.

٢. انظر الذريّة الطاهرة للدولابي: ١٢٦ وما بعده و١٣٥ و١٤٤ وما بعده، وأعلام النساء لابن عساكر: ٢٧٤ ترجمة رقم (٢٠٢).

٣. أعلام النساء لعلي محمد علي دخيل: ٣٦٣.

ثم مات عنها، فخلف عليها عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، زوّجها إيّاه ابنها عبدالله بن حسن بأمرها، فولدت القاسم ومحمداً، الملقّب بالديباج، وقد لُقِّب بذلك لجماله، ورقية بني عبدالله بن عمرو، وكان يقال لعبدالله بن عمرو: المطرف؛ لجماله، فمات عنها.

واستعمل عبدالرحمن بن الضحّاك بن قيس الفهري على المدينة، فخطب فاطمة بنت الحسين فقالت: والله ما أُريد النكاح ولقد قعدت علىٰ بنيَّ هؤلاء.

وجعلت تحاجره، وتكره أن تباديه لخوفها إيّاه، وألحّ عليها، فقال: والله لئن لم تفعلي لأجلدنّ أكبر ولدك في الخمر! يعني عبدالله بن الحسن.

فبينا هي كذلك، وكان علىٰ ديوان المدينة ابن هرمز، قال: فكتب إليه يزيد بن عبدالملك أن يرتفع إليه للمحاسبة، فدخل علىٰ فاطمة يودّعها، فقال: هل من حاجة؟ فقالت: تخبر أمير المؤمنين ما ألقىٰ من ابن الضحّاك، وما يعترض به منّي.

وبعثت رسولاً بكتاب إلىٰ يزيد تذكر قرابتها ورحمها، وما ينال ابن الضحّاك منها، وما يتوعّدها به.

فقدم ابن هرمز فأخبر يزيد، وقرأ كتابها، فنزل من أعلىٰ فراشه فجعل يضرب بخيزرانة في يده، وهو يقول: لقد اجترأ ابن الضحّاك، من رجل يسمعني صوته في العذاب، وأنا علىٰ فراشي؟ ثم دعا بقرطاس فكتب إلىٰ عبدالواحد بن عبدالله النصري، وهو يومئذٍ بالطائف: قد ولّيتك المدينة، فأغرم ابن الضحّاك أربعين ألف دينار، وعذّبه حتّىٰ أسمع صوته، وأنا علىٰ فراشي[١].

---

١. نقل الحكاية ابن سعد في طبقاته ٨: ٤٧٤ وعمر رضا كحالة في أعلام النساء ٤: ٤٧. وهذا يعدّ من الخيال المفرط!! أو يقرب من قصص ألف ليلة وليلة. إذ كيف يقدم ابن الضحّاك وبهذه الضراوة علىٰ خطبة بنت الحسين، العدوّ اللدود لبني أُمية، وهو عامل لهم على المدينة، وأحد الأفراد الذين لا يتوانون في فعل أيّ شيء من أجل كسب رضا الخليفة؟! والأغرب من هذا غيرة يزيد المعروف عنه بهتك الحرمات.. على فاطمة إحدىٰ بنات الرسالة اللاتي ذقن الأمرّين إبان الأسر والقهر والتطواف في البلدان بعد كربلاء!!

وبلغ ابن الضحّاك الخبر فهرب إلى الشام، فلجأ إلى مسلمة بن عبدالملك، فاستوهبه من يزيد فلم يفعل، وقال: قد صنع ما صنع وأدعه؟!!

فردّه إلى النصري إلى المدينة، فأغرمه أربعين ألف دينار، وعذّبه، وطاف به في جُبةٍ من صوف.

وهذا جزاء من استعلىٰ وتكبّر، وافترىٰ وتبختر على الصالحات التقيّات، نساء آل البيت رضي الله عنهنّ أجمعين.

وقد كان لها كثير من الحكم والمواعظ، فمن كلامها: «ما نال أحد من أهل السفه بسفههم شيئاً، ولا أدركوا من لذّاتهم شيئاً، إلّا وقد ناله أهل المروءات، فاستتروا بجميل ستر الله».

ووقع ذكرها في صحيح البخاري، في كتاب الجنائز، قال البخاري ﷺ: لمّا مات الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، ضربت امرأته القبّة ـ الخيمة ـ علىٰ قبره سنة، ثم رُفعت، فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا[1].

قال ابن المنير: إنّما ضربت الخيمة هناك للاستمتاع بالميّت بالقرب منه؛ تعليلاً للنفس، وتخييلاً باستصحاب المألوف من الأنس، ومكابرة للحسّ، كما يتعلّل بالوقوف على الأطلال البالية، ومخاطبة المنازل الخالية، فجاءتهم الموعظة علىٰ لسان الهاتفين بتقبيح ما صنعوا، وكأنّهما من الملائكة، أو من مؤمني الجنّ.

وإنّما ذكره البخاري لموافقته للأدلّة الشرعية.

ولعلّ من أشدّ المواقف تأثيراً في حياة فاطمة بنت الحسين: موقف مقتل والدها في أرض كربلاء شهيداً.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه ١: ٤٤٦ كتاب الجنائز ب٦٠ ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، وابن عساكر في أعلام النساء: ٢٧٨ برقم ٢٠٢ ترجمة فاطمة بنت الحسين عليهما السلام عن المغيرة بن شعبة.

فاطمة بنت الحسين ومقتل الحسين

يروي عوانة بن الحكم فيقول: لمّا قُتل الحسين، وجيء بالأثقال والأُسارىٰ حتّىٰ وردوا بهم إلى الكوفة إلىٰ عبيدالله بن زياد، فبينا القوم في الحبس، إذ وقع حجر في السجن، معه كتاب مربوط، وفي الكتاب: خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلىٰ يزيد بن معاوية، وهو سائر كذا وكذا يوماً، وراجع في يوم كذا وكذا، فإن سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل، وإن لم تسمعوا تكبيراً فهو الأمان إن شاء الله.

قال: فلمّا كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة إذا حجر قد أُلقي في السجن، ومعه كتاب مربوط وموسىٰ، وفي الكتاب: أُوصوا واعهدوا، فإنّما ينتظر البريد يوم كذا وكذا.

فجاء البريد ولم يُسمع التكبير، وجاء كتاب بأن سرِّح الأسارى إليَّ، قال: فدعا عبيدالله بن زياد محفز بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن، فقال: انطلقوا بالثقل والرأس إلى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية.

قال: فخرجوا حتّىٰ قدموا علىٰ يزيد، فقام محفز بن ثعلبة[1] فنادىٰ بأعلى صوته: جئنا برأس أحمق الناس وألأمهم!!

فقال يزيد: ما ولدت أم محفز ألأم وأحمق، ولكنّه قاطع وظالم.

قال: فلمّا نظر يزيد إلىٰ رأس الحسين، قال:

يفلقنَ هاماً من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما[2]

ثم قال: أتدرون من أين أُوتي هذا؟ قال: أبي عليٌّ خيرٌ من أبيه، وأُمي فاطمة خيرٌ من أُمّه، وجدّي رسول الله ﷺ خير من جدّه، وأنا خير منه، وأحقّ بهذا الأمر منه. فأمّا قوله: أبوه خير من أبي، فقد حاجّ أبي أباه، وعلم الناس أيّهما حكم له.

---

١. اختلف أهل التاريخ في من قاد ركب العترة الطاهرة إلى الشام ومنها إلىٰ يزيد، والأسماء التي عثرنا عليها كالآتي: مخفر بن ثعلبة وشمر، مخفر بن ثعلبة وشمر، مجفر بن ثعلبة العائذي وشمر، زحر بن قيس مع محقن بن ثعلبة وشمر، زفر بن قيس وأبو بردة بن عوف الأزدي وطارق بن ضبان وغير ذلك. انظر: تاريخ أبي مخنف ١: ٤٩٧، الأخبارالطوال: ٢٦٠، المنتظم ٥: ٣٤١، البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٩٣.

٢. البيت من الطويل للحصين بن الحمام المري. راجع البداية والنهاية ٨: ١٩٣.

وأمّا قوله: أُمّي خير من أُمّه، فلعمري فاطمة ابنة رسول الله ﷺ خير من أُمّي، وأمّا قوله: جدّي خير من جدّه، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرىٰ لرسول الله ﷺ فينا عدلاً ونداً، ولكنّه إنّما أتىٰ من قبل فقهه، ولم يقرأ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] [آل عمران: ٢٦].

ثم أدخل نساء الحسين علىٰ يزيد، فصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية، وأهله، وولولن، ثم إنّهنّ أُدخلن علىٰ يزيد، فقالت فاطمة بنت الحسين ـ وكانت أكبر من سكينة ـ: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟!

فقال يزيد: يا ابنة أخي، أنا لهذا كنت أكره. وفي رواية أخرىٰ قال: بل حرائر كرام، ادخلي علىٰ بنات عمك تجدين قد فعلن ما فعلت.

قالت: والله ما ترك لنا خرص[٢].

قال: يا ابنة أخي! ما آتٍ إليّ أعظم ممّا أُخذ منك، ثم أُخرجن فأُدخلن دار يزيد بن معاوية، فلم تبق امرأة من آل يزيد إلّا أتتهنّ، وأقمن المأتم، وأرسل يزيد إلىٰ كلّ امرأة ماذا أُخذ لك؟ وليس منهنّ امرأة تدّعي شيئاً بالغاً ما بلغ إلّا قد أضعفه لها[٣].

فكانت سكينة تقول: ما رأيت رجلاً كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية!

ثم أدخل الأسارىٰ إليه، وفيهم علي بن الحسين، فقال له يزيد: إيه يا علي؟!

فقرأ علي من كتاب الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

---

١. ذكر الخبر الطبري في التاريخ ٤: ٦٥٧ ـ ٦٥٨، وابن الأثير في الكامل ٣: ٢٩٩، وابن الجوزي في المنتظم ٥: ٣٤٣.

٢. الخرص: حلقة القرط، أي: ما تُرك لنا صغيرة ولا كبيرة إلّا انتهبوها منّا.

٣. انّ أدنىٰ ملاحظة أو متابعة لأخلاق يزيد هذا، كما يحكيه تاريخه وسيرته، تجد خلاف هذا الذي يرويه ابن كثير في البداية ٨: ١٩٧ ـ ١٩٨ وهو يعزيه إلى القيل.

وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فقرأ يزيد عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ثم جهّزه، وأعطاه مالاً، وسرّحه إلى المدينة [١].

وفي رواية أخرىٰ قال علي بن الحسين: أما والله لو رآنا رسول الله ﷺ مغلولين لأحبّ أن يحلّنا من الغلّ.

قال يزيد: صدقت، فحلّوهم من الغلّ.

قال: ولو وقفنا بين يدي رسول الله ﷺ علىٰ بُعدٍ لأحبّ أن يقرّبنا.

قال: صدقت، فقرّبوهم، فجعلت فاطمة وسكينة تتطاولان ليريا رأس أبيهما، وجعل يزيد يتطاول في مجلسه ليستر عنهما رأس أبيهما، ثم أمر بهم فجهّزوا، وأصلح إليهم، وأُخرجوا إلى المدينة [٢].

وفاطمة بنت الحسين دخلت مع قواعد قومها علىٰ هشام بن عبدالملك ـ قدمته المدينة ـ فقال للأبرش الكلبي: كان عندي البارحة قواعد قومي، فما كان فيهنّ أخفر ولا أحيا من فاطمة بنت الحسين، وأمّها أُم إسحاق بنت طلحة، وكانت قبله عند الحسن بن علي، فولدت له طلحة.

فلمّا حضرت حسناً الوفاة قال لأخيه حسين: يا أخي، لا تخرجن أم إسحاق من دوركم، فخلف علىٰ أُم إسحاق الحسين بن علي بن أبي طالب.

مواقف عطرة من سيرة فاطمة بنت الحسين

وعاشت فاطمة بنت الحسين حتّىٰ زوّجت ابنتها رقية من هشام بن عبدالملك،

---

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٦٤، وانظر: الكامل في التاريخ ٣: ٢٩٩، وإعلام الورىٰ ١: ٤٧٤.

٢. أعلام النساء لابن عساكر: ٢٧٦ برقم ٢٠٢ ترجمة فاطمة بنت الحسين عليها السلام. وانظر: تاريخ أبي مخنف ١: ٥٠٠، والإرشاد ٢: ١٢٢، وفي سمط النجوم العوالي ٣: ١٨٣ تعليق بعد أن يذكر الخبر.

ودخلت هي وسكينة عليه، فقال هشام لفاطمة: صفي لنا يا بنت حسين ولدك من ابن عمك، وصفي لنا ولدك من ابن عمنا.

فبدأت بولد الحسن، فقالت: أمّا عبدالله فسيّدنا وشريفنا، والمطاع فينا. وأمّا الحسن فلساننا ومدرهنا[١]. وأمّا إبراهيم فأشبه الناس برسول الله ﷺ شمائل وتقلّعاً ولوناً، وكان رسول الله ﷺ إذا مشى تقلّع، فلا تكاد عقباه تقعان بالأرض[٢].

وأمّا اللذان من ابن عمكم، فإنّ محمداً جمالنا الذي نباهي به، والقاسم عارضتنا التي نتمتّع بها، وأشبه الناس بأبي العاص بن أُمية عارضةً ونفساً!

فقال: والله لقد أحسنت صفاتهم يا ابنة حسين، ثم وثب، فجبذت سكينة بنت الحسين بردائه، وقالت: والله يا أحول، لقد أصبحت تتهكّم بنا، أما والله ما أبرزنا لك إلّا يوم الطفّ.

قال: أنت امرأة كثيرة الشرّ[٣].

وأعطت فاطمة بنت حسين ولدها من حسن بن حسن مورثها من حسن بن حسن، وأعطت ولدها من عبدالله بن عمرو مورثها من عبدالله بن عمرو، فوجد ولدها من حسن بن حسن في أنفسهم من ذلك؛ لأنّ ما ورثت من عبدالله بن عمرو أكثر، فقالت لهم:

يا بني، إنّي كرهت أن يرىٰ أحدكم شيئاً من مال أبيه بيد أخيه فيجد في نفسه، فلذلك فعلت ذلك[٤].

---

١. دَرَه عن القوم: إذا تكلّم عنهم ودافع.

٢. رويت الأخبار التي تروي صفة مشي رسول الله ﷺ وانّه كان يتقلّع في مشيه، أي: كأنّه ينحدر. يريد قوة مشيه، وأنّه ﷺ كان يرفع رجليه من الأرض إذا مشىٰ رفعاً بائناً بقوة، لا كمن يمشي اختيالاً وتنعمّاً كما عليه النساء. انظر: روايات مشيه ﷺ في سنن أبي داود ١: ٣٦ حديث ١٤٣، ومسند أحمد ٤: ٣٣ و٢١١، ودلائل النبوة للبيهقي ١: ٢٥٢.

٣. أعلام النساء لابن عساكر: ٢٧٨.

٤. المصدر السابق: ٢٧٩.

ويحدّث محمد بن عبدالله بن عمرو فيقول: جمعتنا أُمّنا فاطمة بنت الحسين فقالت: يا بني.. إنّه والله ما نال أحد من أهل السفه بسفههم، ولا أدركوا ما أدركوه من لذّاتهم، إلّا وقد أدركه أهل المروءات بمروءاتهم، فاستتروا بستر الله[١].

ولمّا جاءه نصيبها من الخُمس، وقد نالت خمسين ديناراً، فدعت يحيىٰ بن أبي يعلىٰ وقالت له: اكتب، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم لعبدالله عمر أمير المؤمنين، من فاطمة بنت الحسين.. سلامٌ عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد.. فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه علىٰ ما ولّاه، وعصم له دينه، فإنّ أمير المؤمنين كتب إلىٰ أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتيبة، ويتحرّىٰ بذلك ما كان يصنع من قبله من الأئمة الراشدين المهديّين، فقد بلغنا ذلك وقسّم فينا، فوصل الله أمير المؤمنين، وجزاه من والٍ من خير ما جزىٰ أحداً من الولاة، فقد كانت أصابتنا جفوةٌ واحتجنا إلىٰ أن يعمل فينا بالحقّ، فأقسم لك بالله يا أمير المؤمنين، لقد اختدم من رسول الله ﷺ من كان لا خادم له، واكتسي من كان عارياً، واستنفق من كان لايجد ما يستنفق.

وبعثت إليه رسولاً. قال: فأخبرني الرسول قال: فقدمت عليه، فقرأ كتابها، وإنّه ليحمد الله ويشكره، وأمر لي بعشرة دنانير، وبعث إلىٰ فاطمة بخمسمائة دينار، وقال: استعيني بها علىٰ ما يعروك، وكتب إليها يذكر فضلها، وفضل أهل بيتها، ويذكر ما أوجب الله لهم من الحقّ. قال: فقدمت عليها بذلك المال[٢].

وفاة فاطمة بنت الحسين

عاشت فاطمة بنت الحسين، وعمرت حتّىٰ ماتت، وقد قاربت التسعين سنة،

---

١. تاريخ بغداد ٥: ٣٨٦، أعلام النساء لابن عساكر: ٢٧٩.

٢. أعلام النساء: ٢٧٩.

واختلف في سنة وفاتها، فقيل: سنة عشر ومائة، وقيل: وأربع عشرة، وقيل: سنة سبع عشرة، وقيل: سنة ثماني عشرة[١].

ورجّح كثيرون أنّها توفّيت في سنة عشر ومائة[٢]، وكان ذلك في خلافة هشام بن عبدالملك. فرحمها الله رحمةً واسعة.

وذكرت فاطمة بنت الحسين عند عمر بن عبدالعزيز، وكان لها معظّماً، فقيل: إنّها لا تعرف الشرّ. فقال عمر: عدم معرفتها الشرّ جنّبها الشرّ.

فرضي الله عن فاطمة بنت الحسين في عداد بنات حول الرسول ﷺ.



١. راجع أعلام النساء لابن عساكر: ٢٨٠.

٢. نور الأبصار: ٣٨٥.

السيدة فاطمة

بنت الإمام الحسين عليها وعلىٰ أبيها السلام[1]

حنفي المحلاوي

من هي

إنّها السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الحسين ابن الإمام علي كرّم الله وجهه، وهي لذلك أُخت السيدة سكينة من أبيها الإمام الحسين رضى الله عنهما، وأُمّـها ـكـما أجمعت علىٰ ذلك معظم المصادر التاريخية الإسلامية ـ هي أُمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله القرشي، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة.

ولدت السيدة فاطمة النبوية في عام ٤٥هـ، وذلك قبل مولد أُختها السيدة سكينة بنحو سنتين، وقد نشأت وترعرعت في حجر والدها الإمام الحسين عليه السلام، وورثت عنه التقوىٰ والصلاح.

ولمّا بلغت السيدة فاطمة مبلغ النساء، واشتهرت بين مثيلاتها من النساء بالزهد والعفاف، والجمال والكمال، حضر إلىٰ والدها الإمام الحسين ابن عمها الحسن بن الإمام الحسن السبط ـوكلمة «سبط» هنا تعني الأمة، وقيل: ولد البنت، والحـفيد،

---

١. مقتبس عن كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت».

ولد الولد، والجمع: حفدة ـ وذلك لخطبة إحدىٰ بنات عمه: فاطمة أو سكينة. فأدخله عمّه بيته وخيّره بينهما، فاستحيا أن يختار إحداهما دون الأخرىٰ، فأخبره عمّه بأنّ سكينة مستغرقة في صوم النهار وتقوم الليل؛ ولذلك فهي لا تصلح له حالياً زوجة، وقد اخترت لك فاطمة؛ لأنّها تكبر سكينة، كما أنّها كثيرة الشبه بجدّتها فاطمة الزهراء، وبالتالي فقد زوّجها إياه، ثم رزق منها بابنهما عبدالله ولقِّب بالمحض، أي: الخالص، ثم رزق منها بولدين آخرين، هما: إبراهيم القمر، والحسن المثلث[١].

علىٰ أنّ أهمّ الأحداث السياسية التي عاصرتها هذه السيدة الطاهرة فاطمة النبوية كانت معركة كربلاء، عندما قُتل والدها الإمام الحسين عليه السلام، وبعد المعركة سيقت السيدة فاطمة النبوية مع الأسرىٰ والسبايا إلىٰ دمشق حيث مقرّ الخليفة يزيد بن معاوية، ثم أُعيدت مع نساء آل البيت إلى المدينة المنوّرة مع عمّتها السيدة زينب وأُختها السيدة سكينة بالمدينة، حيث لازمت صيام النهار وقيام الليل، والعطف على الفقراء والمساكين، حتّىٰ توفّيت في عام ١١٠هـ؛ وبالتالي دُفن جسدها الطاهر بالبقيع «جبّانة» مدينة جدّها المصطفىٰ صلى الله عليه وآله.

صفاتها وأخلاقها

ومن أهمّ ما اتّصفت به السيدة الطاهرة فاطمة النبوية صاحبة المقبرة أو الضريح بمدينة القاهرة.. أنّها كانت تشبه جدّتها لأُمها فاطمة الزهراء صغرىٰ بنات الرسول صلى الله عليه وآله وزوجة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كذلك كانت السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الحسين عليه السلام إحدى بنات هذا الإمام الشهيد التي حضرت مع والدها معركة كربلاء، وهي الفتاة الوضيئة التي كان سيطمع فيها أحد جلساء يزيد بن معاوية حين عرض عليه رأس أبيها الإمام الحسين بدمشق في الشام.

---

١. نقلاً عن كتاب «في البيت النبوي الكريم» للشيخ محمد عثمان، سلسلة كتب اسلامية ط. القاهرة.

وممّا يحكىٰ عن وفاء وإحسان السيدة فاطمة النبوية: أنّه بعد مقتل أبيها، وإرسال الرأس إلىٰ يزيد.. وبعد قرار الخليفة إرسال السيدات إلى المدينة بحراسة رجل أمين من أهل الشام، ولمّا وصلن إلىٰ هناك بسلام، أشارت السيدة فاطمة علىٰ أُختها السيدة سكينة بأنّه ما دام هذا الحارس الأمين قد أحسن إليهنّ، فلابدّ من أن نمنحه شيئاً.. فقالت السيدة سكينة: ما معي إلّا سواران، فأخذتهما السيدة فاطمة وقدّمتهما إلىٰ هذا الحارس، فردّهما بأدب شديد وتواضع، وقال: لو كان ما صنعته رغبةً في الدنيا ما كنت اكتفي بهذا.. والله ما فعلته إلّا لله، ولقرابتكم من رسول الله ﷺ، فشكرن له هذا الجميل، ودعون له بالخيرات[1].

وقد ظلّت حتّىٰ أُخريات أيامها تعيش مع الله.. في عبادته دائمة، كانت تصوم النهار وتقوم الليل.. كما كانت كثيراً ما تعطف من مالها الخاصّ على المساكين ممّن كانوا حولها[2].

زهدها وقربها من الله

السيدة زينب عمّتها، والتي تولّت تربيتها من بعد رحيل والدها الإمام الحسين عليه السلام.. هذه السيدة الطاهرة التي عاشت كلّ أيامها تتقرّب إلى الله بالنوافل.. سواء وهي تعيش في المدينة أو حين مقدمها إلىٰ مصر.. وقد تركت آثار زهدها وقربها من الله داخل نفس كلٍّ من السيدة فاطمة النبوية وأُختها السيدة سكينة، حيث تولّت تربيتهما بعد رحيل والدهما وأُمهما أيضاً.

وصف الضريح

فإنّ ضريح ـ أو مقبرة ـ السيدة فاطمة النبوية والذي ينسب إليها بالقاهرة الآن

---

١. البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٩٧، الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور: ٣٦١.

٢. انظر نور الأبصار: ٣٨٣ فصل في مناقبها.

عليه خلاف... ففي الوقت الذي أشار فيه بعض المؤرّخين إلىٰ أنّها دفنت بـالبقيع بالمدينة.. أشار عدد آخر لابأس به إلىٰ أنّ جسدها الطاهر هو المدفون في مقبرتها الموجودة بالضريح الملحق حالياً بمسجدها الموجود بالدرب الأحمر.

وقد استند أصحاب هذا الرأي إلىٰ أنّ السيدة فاطمة النبوية قد قدمت إلىٰ مصر مع عمتها السيدة زينب وأُختها السيدة سكينة، من بعد إبعادهما من المدينة من قبل يزيد بن معاوية، ولذلك فقد ظلّت تعيش بمصر حتّىٰ توفّيت في عام ١١٠هـ، ودفنت في المكان الموجود به الضريح الآن.

ومن أشهر المؤرّخين الذين ذكروا ذلك: العلّامة الأجهوري في كتابه «مشارق الأنوار» حيث قال: إنّ السيدة فاطمة ابنة الإمام الحسين عليه السلام مدفونة خلف الدرب الأحمر، بزقاق يُعرف باسم فاطمة النبوية، في مسجدها الجليل، ومقامها العـظيم.. وعليه من المهابة والجلالة والوقار ما يسرّ قلوب الناظرين.. أمّا ما اشتهر مـن أنّ السيدة فاطمة النبوية مدفونة بدرب سعادة فهو غير صحيح.

وأضاف الأجهوري تعليقاً علىٰ هذا القول: وعلىٰ تقرير صحّة ذلك يحتمل أن يكون معبدها، ويحتمل أن تكون فاطمة النبوية أُخرىٰ من بيت النـبوة. ثـم أكّـد ذلك أيضاً الشيخ الصبّان.. وقال: إنّ ضريحها موجود بمصر، وفي الموضع الموجود به حالياً[١].

وبعد فترة زمنية غير معروفة أُلحق بالضريح مسجدٌ، وهو المسجد المعروف الآن باسم مسجد النبوية الموجود بالدرب الأحمر.

وقد أُنشئ في عام ٢٦٦هـ، بالجهة القبلية من ذلك الضريح، وفي العام نفسه رُكّب على الضريح مقصورة نحاسية في غاية الروعة. وفي عام ١٩٣٠م... تـمّ تـجديد محراب المسجد، وكُسي بطبقة من القيشاني علىٰ أشكال زخرفية بديعة.

---

١. إسعاف الراغبين: ٢٠٢.

٦ـ السيدة رقيّة

بنت الإمام علي عليها وعلى أبيها السلام



بقلم

د. حمزة النشرتي

حنفي المحلاوي

السيدة رقيّة

بنت الإمام علي عليها وعلى أبيها السلام[1]

حمزة النشرتي

من هي

يقول بعض الرواة: إنّ السيدة رقيّة التي يقع مشهدها بين مشهدي السيدتين نفيسة وسكينة هي بنت الإمام علي كرّم الله وجهه، وإنّ أُمّها هي أمّ حبيب الصهباء التغلبية، كانت أم ولد، تزوّجها علي عليه السلام، فولدت له رقية وعمر الأكبر[2]، قيل: كانا توأمين، وعاش عمر خمساً وثمانين سنة[3].

وقال الليث بن سعد: إنّ رقيّة هذه بنت علي من فاطمة الزهراء رضي الله عنها[4].

وبعضهم يقول: إنّها بنت الإمام علي الرضا، وهناك علىٰ باب ضريحها يوجد بيت من الشعر يشير إلىٰ ذلك، هو:

بـقعة شُـرِّفت بآل النـبي وببنت الرضا علي رقـيّة[5]

---

١. مقتبس من كتاب «سيرة آل بيت النبي صلى الله عليه وآله» المجلّد الثالث، ط. القاهرة.

٢. مروج الذهب ٢: ٩٢، نور الأبصار: ٣٦٣، أعيان الشيعة ٧: ٣٤.

٣. الفصول المهمة لابن الصباغ: ١٨٨، نور الأبصار: ٣٦٣.

٤. حكاه الشبلنجي في نور الأبصار: ٣٦٣ عن الليث والدارقطني.

٥. ذكر البيت الشبلنجي في كتابه: ٣٦٣، لكنّه ينسبها إلى الإمام علي عليه السلام، نقلاً عن الشعراني في الباب ←

وربّما كان هذا أقرب إلى الصواب.

ولنقرأ معاً هذا التقرير الذي كتبه الأستاذ أحمد أبو كف في كتابه القيّم «آل بيت النبي في مصر» عن هذا الموضوع... وهو يسمّىٰ هذه المنطقة التي يوجد بها المشهد المذكور ببقيع مصر الصغير. وسمّىٰ هذه المنطقة بهذا الاسم؛ نظراً لوجود عدّة أضرحة منسوبة لأهل البيت فيها.

وهو يقول عن ضريح السيدة رقيّة: إنّ علي مبارك في خططه التوفيقية أشار إلىٰ أنّ هناك تكية معروفة بتكية السيدة رقية، وهي غاية في الخفّة والنورانية، وبداخلها ضريح السيدة رقيّة، ويعلوه قبّة لطيفة، وبقربه عدّة أضرحة.

ثم يتحدّث بعد ذلك عمّا قرأه في المصادر المختلفة حول السيدة رقيّة ووجودها في مصر، فيقول: يذكر الحافظ السلفي وفاة سيدنا علي بن أبي طالب، وعدّ له من الأولاد ثلاثين ولداً، وعدّ رقيّة منهم، وقال: رقيّة هذه من الصهباء[1].

ويؤيّد ذلك ما جاء في كتاب الرياض النضرة في مناقب العشرة الذي ذكر أنّ السيدة رقيّة من بنات سيدنا علي عليه السلام[2].

وفي الباب العاشر من منن الشعراني، يقول حول وجود السيدة رقيّة بمصر: وأخبرني سيدي علي الخواص: أنّ رقيّة بنت الإمام علي كرّم الله وجهه، في المشهد القريب من جامع دار الخليفة، ومعها جماعة من أهل البيت، وهو معروف بجامع شجرة الدر، وهذا الجامع علىٰ يسار الطالب للسيدة نفيسة، المكان الذي فيه السيدة رقيّة عن يمينه، وقيل: إنّ للسيدة رقيّة ضريحاً بدمشق[3].

← العاشر من منته قال: أخبرني يعني الخواص: أنّ رقيّة بنت الإمام علي كرّم الله وجهه..الخ غير أنّ المصنّف سيأتي على ذكر هذا الرأي قريباً.

١. الصهباء أمّ حبيب بنت عباد بن ربيعة بن يحيىٰ بن العبد من سبي اليمامة أو سبي عين التمر، اشتراها أمير المؤمنين عليه السلام فأولدها عمر الأطرف ورقيّة عليهما السلام.

٢. الرياض النضرة ٢: ٢١١.

٣. حكاه الشبلنجي في نور الأبصار: ٣٦٣.

أمّا ابن عين الفضلاء صاحب كتاب «مصباح الدياجي» فيقول: قال عبيدالله بن سعيد: بعث لي الحافظ عبدالمجيد في الليل، فجئت مع الذي دعاني له، فقلت: ما تريد؟ فقال: رأيت مناماً، فقلت: ما هو؟ قال: رأيت امرأةً متلفّفةً، فقلت: من أنت؟ قالت: بنت علي ـ رقيّة ـ فجاءوا بنا إلىٰ هذا الموضع، فلم نجد به قبراً. فأمر ببناء هذا المشهد، فبُني. وهو مكان معروف بالدعاء.

وربّما يقصد صاحب «مصباح الدياجي» هنا أنّ أول من بنىٰ مشهداً علىٰ قبر السيدة رقيّة، هو الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله عام ٥٢٤هـ ـ ٥٤٤هـ.

ويؤيّد ذلك النصّ في كتاب ابن محمود السخاوي «تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات» حيث يقول: «وبنىٰ هذا المشهد تميم، المكنّىٰ بأبي تراب الحافظي»[1] أقول: كان في آخر مدّة الفواطم.

والحافظ المنسوب إليه تميم المذكور، كانت وفاته بعد الأربعين والخمسمائة، وقد بنىٰ هذا المحلّ سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف الأمير عبدالرحمن كتخدا، وهو مشهد مقصود بالزيارة، له مولد كلّ سنة.

ويقول الشيخ الأجهوري حول مجيء السيدة رقيّة إلىٰ مصر: إنّ السيدة رقيّة لمّا جاءت من المدينة، اعترضها شخص من خصوم أبيها وأراد قتلها، فوقفت يده في الهواء وسقط ميّتاً[2].

ولكن هذا يخالف ما ذكره صاحب كتاب «العدل الشاهد في تحقيق المشاهد» نقلاً عن كتاب الشيخ محمد الصبّان «إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وأهل بيته الطاهرين» حيث يقول: وأمّا السيدة رقيّة رضي الله عنها فإنّها ماتت قبل البلوغ، ومحلّها بعد السيدة سكينة بشيءٍ يسير.

وواضح في المصادر إذاً الاختلاف على السيدة رقيّة.

---

١. تحفة الأحباب: ٢٤٦.

٢. نقل عنه هذه الكرامة الشبلنجي في نور الأبصار: ٣٦٤.

مصادر تقول: إنّ أُمها هي السيدة فاطمة الزهراء، وأخرىٰ ترىٰ أنّها ليست أُمّها، وإنّما أُمّها أُم حبيب الصهباء التغلبية، من سبي الردّة. والبعض الثالث يرىٰ أنّ هناك رقيّة صغرىٰ، ورقيّة كبرىٰ، وأنّ رقية التي في مصر هي بنت أسماء بنت عميس الخثعمية.

وهناك من المصادر من يقول: إنّ السيدة رقيّة ماتت دون البلوغ. وهناك من يرىٰ رأياً آخر يقول: إنّ للسيدة رقيّة ضريحاً بدمشق الشام.

وجمهور المؤرّخين وأصحاب السير يجمعون علىٰ أنّ للإمام علي رقيّة واحدة، من غير السيدة فاطمة الزهراء، ولكن يخالفهم في ذلك الليث بن سعد، الذي قال: إنّ السيدة رقيّة من السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ[١].

وكما يوجد الاختلاف علىٰ من هي رقيّة المدفونة في مصر، فهناك خلاف حول أُمّها، وخلاف حول موتها.

البعض يقول: إنّها جاءت إلىٰ مصر مع السيدة زينب بنت علي أُختها بعد معركة كربلاء. والبعض لا يرىٰ هذا الرأي.

وهناك رأي له بعض المنطق، يقول: إنّ السيدة رقيّة ليست بنت الإمام علي بن أبي طالب، وليست السيدة فاطمة الزهراء أُمّها.. بمعنىٰ أنّها ليست أُخت الحسن والحسين رضي الله عنهما، بل يقولون: إنّ السيدة رقيّة المدفونة في مشهدها في شارع الخليفة هي بنت الإمام علي الرضا ابن الإمام الحسين بن علي[٢].. ذكر ذلك في أحد الأبحاث للشيخ محمد زكي إبراهيم، وهو من العلماء الأفاضل ورئيس جماعة العشيرة المحمدية.

وتأسيساً علىٰ هذا الرأي فإنّ السيدة عائشة بنت جعفر الصادق الراقدة في مشهدها القريب من السيدة رقيّة تعتبر عمّتها؛ لأنّ السيدة عائشة أُخت الإمام موسى الكاظم المولود في عام ١٢٨هـ. كما أنّ السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور تعتبر زوجة عم

---

١. راجع نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار: ٣٦٣ فصل في ذكر مناقب السيدة رقيّة.

٢. لا يخفىٰ أنّ الإمام علي الرضا من أبناء الإمام أبي الشهداء الحسين بن علي عليه السلام، فهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام، فهو إذاً أحد أجداده الطاهرين، وليس أباه.

السيدة رقيّة. وهو إسحاق المؤتمن.

وتأسيساً على التأسيس ـ كما يقول المناطقة ـ فإنّه ربّما يكون هناك خلط جرىٰ بين تاريخ وحياة السيدة عائشة، وبين تاريخ وحياة السيدة رقيّة... أقول: ربّما يكون هناك خلط بين الاثنين، فهناك تشابه غريب في وفاتهما.

فالمؤرّخون يرون أنّ السيدة عائشة ماتت دون البلوغ، تماماً مثلما يقولون عن السيدة رقيّة. وهذا ما نتركه للعلماء والباحثين في تاريخ آل البيت في مصر وفي غير مصر ليقولوا رأيهم، وإن كنّا نحن نميل إلى الرأي القائل بأنّ السيدة رقيّة هي بنت الإمام علي الرضا ابن موسى الكاظم، وهي ليست بالقطع بنت الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء.

علىٰ أنّ ذلك ينقلنا إلىٰ قضية أخرىٰ، بمعنى أنّ السيدة رقيّة إذا ثبت أنّها بنت الإمام علي، فهي من مواليد الربع الأول من القرن الأول الهجري، وإذا ثبت أنّها بنت الإمام علي الرضا فتكون من مواليد النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وبالطبع شتّان ما بين التاريخين من سنوات وأحداث بالنسبة لآل البيت.

لكن ـ وبلاشكّ ـ فسواء كانت السيدة رقيّة تنتمي للقرن الأول الهجري، أو القرن الثاني الهجري، فهي بالتأكيد أيضاً تنتمي لآل البيت، وهي درّة من درره النفيسة. وعلىٰ أيّة حال، فالثابت أنّ السيدة رقيّة تنتمي لآل البيت، وأنّها تنتمي إلى السيدة فاطمة الزهراء، وأنّ الزهراء رضي الله عنها جدّتها، وليست أُمّها.

ويقوّي من رأينا ويدعمه ما قالته الدكتورة سعاد ماهر عميدة كلّية الآثار، وأستاذة العمارة الإسلامية فيها، وهي مهتمة بتاريخ آل البيت في مصر، تقول: فمشهد السيدة رقية يعتبر من المشاهد الفاطمية البارزة والباقية في مصر حتّى الآن، بجانب مشهدين فاطميين آخرين، هما مشهد السبع بنات في مصر القديمة الفسطاط والذي شُيّد عام ٤٠٠هـ، والمشاهد الفاطمية في جبانة أسوان، والتي يرجع تاريخ معظمها إلى القرن الخامس الهجري.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ مشهد السيدة رقيّة يشبه أحلىٰ وأرقّ الآثار الفاطمية في حي النحّاسين بالأزهر، وأقصد الجامع الأقمر، خاصّةً واجهته الغربية، والجامع الأقمر بُني في عصر الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله عام ٥١٩ هـ. إنّه يشبه تماماً في واجهته الغربية مشهد السيدة رقيّة، وهذه الواجهة الغربية تعتبر من أجمل واجهات المساجد في مصر، للنقوش والكتابات المزهرة عليها، وكلّها منحوتة في الحجر، بالإضافة إلى تلك العقود والحنيات المجوّفة والمقرنصات التي تتوسطها دوائر، كُتب عليها: محمد وعلي... كما توجد دائرة كبيرة فوق الباب كُتب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والذي نريد أن نقوله: إنّ أغلب ما في واجهة الأقمر، يوجد مثله في مشهد السيدة رقيّة وفي محاريبه الثلاثة، حتّىٰ إنّ الناظر إليهما، والمقارن بينهما، يظنّ أنّ الجامع الأقمر، ومشهد السيدة رقيّة عُملا في وقتٍ واحد.. ولكنّ الثابت أنّ الذي بنىٰ مشهد السيدة رقيّة هو الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله، ثامن الخلفاء الفاطميّين، بينما الجامع الأقمر أُنشئ في عهد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله.

وممّا يثبت أنّ السيدة رقيّة من آل البيت، وأنّ جدّتها السيدة فاطمة الزهراء، ما قيل من أنّ الفاطميّين بالذات كانوا من الحرص بحيث لا يبنون مشهداً علىٰ قبر، إلّا بعد تأكّدهم من أنّ صاحبه أو صاحبته من آل البيت، ومن سلالة فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب بالذات.

ونحن لو عرفنا أنّ في مصر يزيد عدد المشهور من الأضرحة والمشاهد على الألف، فإنّ اهتمام الفاطميّين ببعض هذه الأضرحة والمشاهد ـ ومنه مشهد السيدة رقيّة ـ دليل دامغ علىٰ أنّها في مصر. وإذا كان بناء القبّة في مصر قد تطوّر ـ من خلال العمارة الإسلامية ـ وصار لها وظيفة مهمة هي تغطية المساحات المربّعة ـ وفضلاً عن الإشارة إلىٰ أهمية هذا الجزء ـ فإنّ قبّة السيدة رقية قد بُنيت لتقول: هنا ترقد السيدة الشريفة رقيّة رضي الله عنها.

المشاهد التي بجوارها

هذا بالنسبة للسيدة رقيّة، الراقدة في مشهدها ـ أو ضريحها ـ في شارع الخليفة. وليس هناك اختلاف بين المشهد والضريح، وإنّما الشيعة يطلقون على القبّة اسم «المشهد»، وأهل السنّة يطلقون عليه «الضريح»، بمعنىٰ أنّ المشهد والضريح اسمان لمسمّىً واحد.

ولكن ماذا عن الأضرحة أو المشاهد الموجودة في رحاب السيدة رقيّة أو في تكية السيدة رقيّة، كما يسمّيها علي باشا مبارك، في إطار بقيع مصر الصغير؟!

* مشهد السيد محمد المرتضىٰ

أول هذه المشاهد إلى يمين الداخل لمشهد السيدة رقيّة، هو قبر السيد محمد الشهير بمرتضىٰ، وقبر زوجته السيدة زبيدة... يقابل ذلك علىٰ يسار الداخل قبرٌ يحمل اسم السيدة أسماء، وعلىٰ بُعد عدّة أمتار قبّتان أثريتان من نفس طراز قبة السيدة رقية لضريحين: أحدهما للسيدة عاتكة، والآخر للسيد علي الجعفري...

ولنتحدّث عن هذه الأسماء التي ذكرناها:

* مشهد أسماء

ونبدأ بالسيدة أسماء. فالذين يرجّحون أنّ السيدة رقية هي بنت الإمام علي بن أبي طالب، يرون أنّها أسماء بنت عميس الخثعمية، زوجة الإمام علي، وبذلك يقولون: إنّ القبر هو قبر والدة السيدة رقيّة: السيدة أسماء، أمّا هؤلاء الذين يرون أنّ السيدة رقيّة من بنات علي الرضا، فيقولون عن أسماء: إنّها كانت خادمة السيدة رقيّة ودفنت بجوارها.

ونحن نميل إلى الرأي الذي يقول: إنّ قبر السيدة أسماء هو قبر لخادمة السيدة رقيّة.

* مشهد السيدة زبيدة

ونثنّي بقبر السيدة زبيدة، والسيد محمد الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي،

والمعلومات عنهما وفيرة. وجدنا بعضها في الجبرتي، وبعضها في بقيع علي مبارك.

والسيد محمد الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي، كما يصفه الجبرتي هو: «الفقيه المحدّث، اللغوي النحوي، الأصولي، الناظم الناثر، أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق، الشهير بمرتضى الحسيني الحنفي... جاء إلى مصر في تاسع صفر سنة سبع وستين ومائة وألف... درس في مصر حتّىٰ راج أمره وترونق حاله، واشتهر ذكره عند الخاصّ والعام»[١].

والواقع أنّ الشيخ عبدالرحمن الجبرتي قد أفاض في سيرة الشيخ مرتضى الحسيني، وأفرد له كثيراً من السطور والصفحات[٢]. كما أنّ هذه الشخصية فرضت نفسها على الكتّاب والأُمراء وذوي السلطان في عصرها، وهو القرن الثاني عشر الهجري، وكما كان هذا الشيخ مشهوراً في مصر، كان أيضاً من المشهورين في المغرب.. يقول الجبرتي: وله عند المغاربة شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة[٣].

هذا بالرغم من أنّ أصله من زبيدة اليمن.

أمّا عن زوجته السيدة زبيدة ـ فقد ذكر أنّها ماتت في سنة ستّ وتسعين ومائة وألف ـ فحزن عليها حزناً كبيراً، ودفنها عند المشهد المعروف بمشهد السيدة رقيّة، وعمل علىٰ قبرها مقاماً ومقصورة، وستوراً وفرشاً وقناديل، ولازم قبرها أياماً كثيرةً، وكان يجتمع عنده الناس والفقراء والمنشدون، ويعمل لهم الأطعمة والثريد والقهوة[٤].

ويقول علي باشا مبارك: إنّ السيد محمد الشهير بمرتضىٰ، اشترىٰ مكاناً بجوار مقبرة زوجته، وعمّره بيتاً صغيراً، وفرشه، وأسكن فيه أُمّها ـ أي أمّ زوجته ـ وكان يبيت به أحياناً. كما كان يقصده الشعراء بالمراثي، فيقبل منهم ذلك ويجيزهم عليه،

---

١. تاريخ عجائب الآثار ٢: ١٠٣ و١٠٤ .

٢. من ص١٠٣ إلى ص١١٤ من المجلّد الثاني من تاريخه.

٣. المصدر السابق: ١٠٤.

٤. المصدر نفسه: ١٠٩.

ولحبّه الشديد لزوجته رثاها بجملة قصائد ذكرها الجبرتي.

وقد مات السيد مرتضىٰ بالطاعون، ودفن في القبر الذي أعدّه لنفسه بجوار زوجته بمشهد السيدة رقيّة[1].

وقد عدّد علي باشا مبارك مؤلّفات الشيخ مرتضىٰ، فذكر منها الكثير، فبجانب شرح القاموس، وشرح الإحياء له كتب أخرىٰ منها: كتاب الجواهر المنيفة في أصول أدلّة مذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ، وله أيضاً: كتاب العقد الثمين في طريق الإلباس والتلقين، وحكمة الإشراق إلىٰ كتاب الآفاق، وإعلام الأعلام بمناسك حجّ بيت الله الحرام، ورشف سلاف الرحيق في نسب حضرة الصديق، والقول المثبوت في تحقيق لفظ التابوت، ومنح الفيوضات الوفية فيما في سورة الرحمن ومن أسرار الصفة الإلهية، وترويح القلوب بذكر ملوك بني أيّوب، وكثير من الكتب والمؤلّفات ذكرها الشيخ الجبرتي[2]، ولا نستطيع حصرها في هذه السطور.

مشهد عاتكة والجعفري

وأخيراً نأتي إلىٰ مشهدين: للسيدة عاتكة، وللسيد علي الجعفري. فبالنسبة للسيدة عاتكة فالعامة يقولون: إنّها السيدة عاتكة عمّة الرسول ﷺ. ولكنّ الحقيقة أنّ القبر والقبّة هما للسيدة عاتكة بنت شرحبيل، زوجة محمد بن أبي بكر، كان من المتشيّعين لعلي كرّم الله وجهه، وله موقف ضدّ الأمويّين.

وقد ولد محمد بن أبي بكر في سنة حجّة الوداع. ولموقف محمد بن أبي بكر من الأمويّين، ووقوفه ضدّهم بعد التحكيم معروف، وبعد قتل الإمام علي رحل إلىٰ مصر، خاصّةً وأنّ مصر كانت تلعب دوراً خطيراً في سياسة دولة الإسلام منذ أن دخلت الإسلام.

وثابت أنّ السيدة عاتكة كانت مع زوجها محمد بن أبي بكر في مصر، وأنّها دفنت فيها،

---

١. المصدر: ١١٣.

٢. المصدر المتقدم: ١١١.

لكنّ تاريخها لا يزال يحتاج إلىٰ إماطة اللثام عنه وعن زوجها محمد بن أبي بكر الصدّيق.

أمّا الضريح الثاني لسيدي علي الجعفري، فليس لصاحب الضريح ترجمة فيما تيسّر من المصادر وإن كانت الصفة التي يحملها اسمه تدلّ علىٰ أنّه ينتسب للإمام جعفر الصادق، لكن وجود هذا الضريح قرب ضريح السيدة رقيّة يدعم الرأي الذي يرىٰ أنّ السيدة رقيّة هي بنت الإمام علي الرضا. ويجوز أن يكون سيدي علي الجعفري واحداً من أُسرتها، بل ربّما كان شخصية مهمة من أبناء جعفر الصادق، تحتاج من المؤرّخين لآل البيت إلىٰ وقفة[1].



تعليق:

أمّا الدكتورة سعاد ماهر فتذكر ما يأتي بالنسبة لمشهدي السيدة عاتكة والجعفري: مشهد الجعفري هو مشهد محمد الجعفري، لا علي الجعفري[2]، وهو المعروف بمحمد الديباج ابن جعفر الصادق الذي سبق الحديث عنه.

وأمّا مشهد عاتكة فتقول عنها: هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية، عاصرت الرسول ﷺ وهاجرت إلي المدينة، وكانت شاعرة حسناء، تزوّجها عبدالله بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما، وقد شغلته بجمالها عن الجهاد، فأمره أبوه أن يطلّقها، فطلّقها وأنشد يقول:

يقولون طلّقها وخيم مكانها ... مقيماً تمني النفس أحلام نائم
وإنّ فراق أهل بيت جمعتهم ... علىٰ كبر منّي لإحدىٰ العظائم
أراني وأهلي كالعجول تروحت ... إلىٰ بوّها قبل العشار الروائم[3]

---

١. كتاب «آل بيت النبي في مصر» لأحمد أبو كف.

٢. ولكنّه يوجد في اللوحة علىٰ الباب: «هذا مقام سيدي علي الجعفري ابن جعفر الصادق» وليس محمداً الجعفري!

٣. أُسد الغابة ٧: ١٨٣. والعجول من النساء والإبل: الوالدة التي فقدت ولدها، الثكلىٰ لعجلتها في ذهابها وإيابها جزعاً. والبوّ: ولد الناقة.

ودخل عليه أبوه يوماً وهو ينشد:

أعاتك قلبي كلّ يوم وليلة إليك بما تُخفي النفوس معلّق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير جرم تطلّق
لها خلقٌ جزلٌ ورأي ومنصب وخلقٌ سوىٰ في الحياء ومصدّق

فرقّ له أبوه وأمره أن يراجعها، فراجعها وقال:

أعاتك قد طلّقت في غير ريبة وروجعت للأمر الذي هو كائن
كذلك أمر الله غادٍ ورائح على الناس فيه أُلفة وتباين

وأُصيب عبدالله بن أبي بكر بسهمٍ في حصار الطائف، استشهد منه بعد عودته إلى المدينة، وحزنت عليه عاتكة حزناً شديداً، ثم تزوّجها عمر بن الخطاب واستشهد عنها، ثم تزوّجها الزبير بن العوّام فمات عنها في موقعة الجمل، ثم تزوّجت محمد بن أبي بكر الذي تولّىٰ إمرة مصر من قبل الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا قُتل بمصر رثته عاتكة بقولها:

إنْ تقتلوا وتمثّلوا بمحمدٍ فما كان من أجل النساء ولا الخمر

وخطبها علي بن أبي طالب بعد مقتل محمد بن أبي بكر، فقالت: إنّي أضنّ بك يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله على القتل.

لقد علمت أنّ كلّ من يتزوّجها يُقتل، حتّىٰ أصبح المسلمون يتندّرون قائلين: من أحبّ الشهادة فليتزوّج عاتكة!

وقيل: إنّ الحسن بن علي تزوّجها، جاء ذلك في كتاب «الاستيعاب» لابن عبدالبر، ولم يذكر أنّ محمد بن أبي بكر تزوّجها، وجاء في كتاب «الأغاني» أنّ آخر أزواجها الحسين بن علي رضي الله عنهما[1].

---

١. راجع مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٢: ١١٧ ـ ١١٨.

السيدة رقيّة

من آل بيت النبوة[1]

حنفي المحلاوي

من هي

ممّا لاحظناه ـ ونحن في سبيل البحث عن معلومات موثّقة عـن هـذه السـيدة الطاهرة السيدة رقيّة رضي الله عنها... بمناسبة الحديث عن ضريحها ـ وجود خلاف واضح وكبير بين عدد من المؤرّخين في من تكون هذه السيدة صاحبة الضريح؟!

وقد انقسم المؤرّخون حيال ذلك إلىٰ فريقين... فريق يرىٰ: أنّ الضريح الموجود بالقاهرة هو للسيدة رقيّة بنت رسولنا الكريم ﷺ، وفريق ثانٍ يرىٰ أنّه للسيدة رقيّة ابنة الإمام علي عليه السلام.

كما لاحظنا في الوقت نفسه وجود خلاف كبير بين طائفة ثالثة من المؤرّخين حول الضريح نفسه.. فمنهم من قال: إنّ به جثمان السيدة الطاهرة رقيّة... ومنهم من قال: إنّ السيدة رقيّة ـ سواء ابنة الرسول ﷺ أو ابنة الإمام علي ـ قد دفنت بأرض البقيع بالمدينة المنوّرة... وعلىٰ ذلك فإنّ الضريح الموجود حالياً باسمها هو ضريح قد أُقيم ضمن أضرحة الرؤيا.

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت».

ومن أجل حسم هذا الخلاف وجدنا من الضروري التعريف بكلٍّ من السيدة رقيّة ابنة الرسول ﷺ والسيدة رقيّة ابنة الإمام علي عليه السلام.

أمّا بخصوص حديث التعريف بالسيدة رقيّة ابنة رسولنا الكريم ﷺ فتقول عنها كتب التاريخ: إنّها إحدىٰ بنات الرسول ﷺ من زوجته السيدة خديجة، وهي تصغر أُختها السيدة زينب بثلاث سنوات... زوّجها النبي ﷺ من عتبة بن أبي لهب، وأقامت عنده إلىٰ أن نزلت الآية الكريمة من سورة المسد ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فقال أبو لهب لولده: يهجوني محمد وابنته عندك؟! رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد! ففارقها، فتزوّجت من بعده عثمان بن عفّان ﷺ، فهاجر بها إلى الحبشة، وكانت بارعة الجمال!

وولدت السيدة رقيّة لعثمان بن عفّان: عبدالله، وبه يكنّىٰ، وقد عاش هذا الولد ستّة أعوام، ثم مات بعدها. ولمّا عاد عثمان بن عفّان بزوجته من الحبشة إلى مكّة، فرحت السيدة رقيّة بلقاء أبيها ﷺ، إلّا أنّها حزنت لمّا علمت بأنّ أُمها السيدة خديجة قد توفّيت في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة عشر من مبعثه ﷺ وعمره خمسون عاماً.

ولمّا هاجر النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة... لحقت به ابنته السيدة رقيّة بصحبة زوجها عثمان بن عفّان. ولمّا خرج الرسول الكريم ﷺ لغزوة بدر سنة اثنتين كانت السيدة رقيّة قد مرضت بالحصبة؛ ممّا تسبّب في تخلّف عثمان بن عفّان عن الخروج في معركة بدر! وظلّت علىٰ مرضها حتّىٰ أوائل شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة حتّىٰ توفّيت، ونقل جثمانها الطاهر إلىٰ أرض البقيع لتدفن بجوار الشهداء والصالحين[١].

وجاء في كتاب البستان ـ كما ذكرت الدكتورة سعاد ماهر ـ أنّ السيدة رقيّة ماتت

١. راجع طبقات ابن سعد ٨: ٣٦ ـ ٣٧، نساء حول الرسول ﷺ: ١٦٢ وما بعده القسم السادس: بنات النبي ﷺ. إعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ للطبرسي: ١٥٣ ـ ١٥٤ وفيه: «فطلّقها عتبة قبل أن يدخل بها، ولحقها منه أذىً، فقال النبي ﷺ: اللّهم سلّط على عتبة كلباً من كلابك، فتناوله الأسد من بين أصحابه...»، ربيع الشيعة لابن طاوس: ٩٨، أعيان الشيعة ٧: ٣٤ ـ ٣٥.

بعدما خرج الرسول ﷺ إلىٰ بدر، ولمّا عاد وجدها قد ماتت، فتزوّج عثمان بن عفان أُختها أم كلثوم رضي الله عنها.

وأمّا بالنسبة لحديث المعرفة عن السيدة رقيّة ابنة الإمام علي عليه السلام، فممّا ذكر عنها قول المؤرّخين ـعلى لسان الحافظ السلفي ـ أنّ سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام أنجب أطفالاً، كان من بينهم السيدة رقيّة رضي الله عنها، كما ذكر ذلك أيضاً الشيخ علي الخوّاص حيث قال: إنّ رقية بنت الإمام علي كرّم الله وجهه.

والغريب أنّنا قد عثرنا في هذا السياق علىٰ قولٍ ثالث يخصّ سيدة أُخرىٰ واسمها رقيّة أيضاً... وهي رقية بنت الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام الباقر ابن الإمام زين العابدين ابن الإمام عبدالله الحسين رضي الله عنهم أجمعين، ووالدها بناءً علىٰ ذلك هو الإمام علي الرضا الذي ولد بالمدينة في عام ١٤٨هـ. ثم اختاره الخليفة المأمون العباسي وليّاً لعهده عام ٢٠١هـ، ثم توفّي عليه السلام في آخر صفر عام ٢٠٣هـ، ودفن بجوار قبر هارون الرشيد بمدينة طرطوس بالعراق[١].

صفاتها وأخلاقها

ولمّا كان هناك خلاف كبير بين المؤرّخين في من تكون السيدة رقيّة صاحبة هذه المقبرة الموجودة في مصر حالياً.. فقد آثرنا التوقّف عند حدود هذه الكلمات... الخاصة بالصفات والأخلاق.. وأخصّ ما نقوله في هذا الموضوع: إنّ صاحبة هذا المقام الشريف.. تنتسب إلىٰ آل البيت، سواء كانت هي السيدة رقيّة ابنة المصطفى ﷺ أم كانت رقيّة غيرها... ذلك ووفقاً لما أشارت إليه الدكتورة سعاد ماهر بقولها: إنّ

١. هذا خطأ، والصواب أنّ الإمام الرضا دفن في خرلسان أو طوس بإيران. وقد أُطلق علىٰ موقع مدفنه اسم مدينة مشهد. وهناك يوجد بجواره قبر هارون الرشيد... ومدينة مشهد معروفة عند الجميع، يفد إليها ملايين من الناس من كلّ العالم الإسلامي لزيارة ضريح الإمام الرضا عليه السلام.

صاحبة هذا المشهد لابدّ وأن تكون من آل البيت، وإلّا لما أقام الخليفة الحافظ القبّة الفاطمية التي ترجع إلىٰ سنة ٥٢٦هـ عليها... وأضافت الدكتورة سعاد قولها: لذلك فإنّني أرجّح أن تكون صاحبة هذا المقام هي السيدة الفاضلة رقيّة بنت الرسول ﷺ، وشقيقة السيدة فاطمة الزهراء التي تنتسب إليها الدولة الفاطمية.

لقد أكّدت معظم كتب التاريخ التي تناولت المشاهد والأضرحة... أنّ ضريح السيدة رقيّة رضي الله عنها، والموجود حالياً بشارع الخليفة، إنّما هو من مشاهد الرؤيا، والتي لا يوجد بها جثمان صاحبة المقام، وقد استند هؤلاء الذين أشاروا إلىٰ ذلك إلىٰ رواية ذكرها أحد السلف الصالح ويدعىٰ عبدالله بن سعيد.. وجاء فيما رواه: أنّ الحافظ عبدالمجيد طلبه في الليل، فلمّا جاءه أخبره بأنّه رأىٰ مناماً... فقلت له: ما هو؟ قال: رأيت امرأةً ملثّمةً، فلمّا سألتها: من أنت؟ قالت: بنت الإمام علي.. رقيّة! لقد جاءوا بنا إلىٰ هذه المواضع فلم نجد بها قبراً... فأمر ببناء هذا المشهد، فبني، وهو مكان معروف بالدعاء[١].

وقد أكّدت هذا المعنى الدكتورة سعاد ماهر حين قالت: وعلىٰ أيّة حال، فسواء أكان هذا المشهد للسيدة رقيّة صاحبة السيرة العطرة، أم رقية غيرها من آل البيت، فهي من مشاهد الرؤيا كما أجمع علىٰ ذلك كلّ المؤرّخين، مثل ابن الزيّات والسخاوي.. وغيرهما[٢].

وصف الضريح

ويقع ضريح السيدة رقيّة في الربع الكبير الذي يفصل بينه وبين شارع الخليفة أو بينه وبين جامع شجرة الدرّ المقابل باباً من الحجارة، محفوراً في أعلاه بيت يقول:

---

١. راجع عواصم مصر الإسلامية لحسن البزّاز ٦: ٢٤١ (كتاب الشعب).

٢. انظر مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١: ٢٨٧.

بقعة شُرِّفت بآل النبي وبنت الرضا علي رقيّة

وعن ذلك الموقع يقول علي باشا مبارك: يقع مشهد السيدة رقية بجوار البوّابة الموصلة إلى السيدة نفيسة، بالقرب من جامع شجرة الدرّ علىٰ يمين الذاهب من السيدة سكينة طالباً المشهد النفيسي.

كما يوجد ذلك المشهد داخل أسوار تحيط به مجموعة من الغرف، كان يطلق عليها في العصر العثماني اسم «التكية»، ويمكن الدخول إلى المشهد عن طريق سقيفة تتقدّمه، لها ثلاث فتحات معقودة، يبلغ طول هذه السقيفة ١٢/٥ متر، وعرضها ٢/٥ متر.

أمّا ضريح السيدة رقيّة فهو يتكوّن من مستطيل يتوسّط ضلعه الغربي المدخل، وعلى جانبيه محراب، يعلو كلّاً منهما شكل محّارة تتفرّع فصوصها من الوسط، كما ينقسم الضريح إلى ثلاثة أقسام: المتوسّط منها مربع يبلغ طوله خمسة أمتار، أمّا القسمان الجانبيان فيبلغ مساحة كلٍّ منهما ٢/٨٥×٥ أمتار، وقد غطّىٰ سقف القسمين الجانبيين، وكذا السقيفة التي تتقدّم الضريح سقف خشب مسطّح. أمّا القسم المتوسط حيث توجد المقبرة فتغطّيها قبّة.

أمّا عن تاريخ عمارة هذا الضريح فقد نسبه المقريزي إلى الأميرة «علم الآمرية»[١]، حيث ترجع أقدم النصوص المؤرّخة في هذا الضريح إلىٰ عام ٥٢٧هـ/١١٣٢م، في شريط يدور حول رقبة القبّة، إضافة إلىٰ كتابةٍ أثريةٍ أخرىٰ بالخطّ الكوفي علىٰ التابوت الخشبي، تحمل تاريخ عام ٥٣٣هـ[٢].

---

١. عَلَم، جهة مكنون، زوجة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، عرفت بالاحسان لسكّان مصر، وترميم وبناء أماكن العبادة، من آثارها مسجد الأندلس شرقي القرافة الصغرىٰ بالقاهرة، ورباط الأندلس بجانب المسجد. وأمّا أنّها عُرفت بجهة مكنون لاختصاص القاضي مكنون بخدمتها، توفّيت نحو عام ٥٤٥هـ. راجع خطط المقريزي ٢: ٤٤٦، ٤٥٤، والأعلام للزركلي ٤: ٢٤٨.

٢. الآثار الإسلامية في مصر للدكتور عبدالله شيحة.

والسيدة «علم الآمرية» هي زوجة الخليفة الآمر بأحكام الله... وقد أمرت القاضي مكنوناً الحافظي ببناء هذا الضريح.

هذا وتحتوي قبّة الضريح علىٰ ٢٤ ضلعاً، وترتكز علىٰ مثمّنة تقوم بدورها علىٰ دلايات في أركان المربّع، ويرجع تاريخ إنشاء ذلك المشهد أو ضريح السيدة رقية، اعتماداً على المحراب الخشبي المتنقل والموجود بمتحف الفن الإسلامي، إلىٰ عام ٥٢٨هـ/١١٣٤م.

واستطاع الأستاذ «كزويل» العثور علىٰ تاريخ ذلك المشهد على القبة مع كتابات قرآنية باللون الأزرق علىٰ أرضية بيضاء. هذه الكتابات جاء في بعضها أنّ القاضي مكنوناً الحافظي، الذي كان يعرف بأبي تراب، هو الذي بنىٰ هذا المسجد بما فيه الضريح.

وأبو تراب هذا هو أبو تميم تراب الحافظ، الذي بلغ منصب الوزارة في أيام الحافظ الفاطمي.

٧ـ إبراهيم ابن الإمام الحسن عليه السلام

بقلم

د. سعاد ماهر

مرقد إبراهيم بن الحسن عليه السلام[1]

د. سعاد ماهر

لقد تعدّدت أسماء هذا المسجد، فقد عُرف قديماً بمسجد التبر، ومسجد الجميزة، ومسجد التبريز. وتسمّيه العامة: مسجد التبن، أمّا الاسم الذي يعتمد علىٰ أسانيد تاريخية صحيحة، فهو مسجد تبر أو مسجد إبراهيم.

أمّا بالنسبة لإبراهيم المقصود بالذكر هنا، فهو إبراهيم الجواد ابن عبدالله الملقّب بالكامل ابن الحسن المثنّىٰ ابن الإمام الحسن السبط ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ويقول المقريزي: «إنّ الخليفة المنصور قتله سنة خمس وأربعين ومائة، وأرسل رأسه إلىٰ مصر، فنصبت في المسجد الجامع العتيق (جامع عمرو)[2].

ويضيف أبو المحاسن: «أنّ إبراهيم عليه السلام، كان ضحية الطمع والجشع، نشأ في بلدة «باغمرى» من أعمال الكوفة». ويصف كيف جاءت الرأس إلى مصر، فيقول: «وبينما الناس في ذلك قدم يزيد برأس إبراهيم بن عبدالله، فنُصب في المسجد أياماً،

---

١. مقتبس من كتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» مطبوع في خمسة مجلّدات، ط. المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ـ القاهرة.

٢. خطط المقريزي ٤: ٢٧١.

ثم طيف به، ودُفن في الضاحية التي تُعرف بمنية مطر»[١].

وكذلك أورد القضاعي هذه الرواية، إذ يقول: «مسجد تبر بُني علىٰ رأس إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أنفذه المنصور، فسرقه أهل مصر ودفنوه هناك»[٢].

وجاء في كتاب الولاة والقضاة: «ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في ذي الحجّة سنة خمس وأربعين ومائة لينصبوه في المسجد الجامع، وقامت الخطباء فذكروا أمره»[٣].

وقد حقّق الشيخ الشبلنجي الاسم في كتابه «نور الأبصار في مناقب آل البيت» وانتهىٰ إلىٰ أنّه هو إبراهيم بن عبدالله المحض أخو محمد المهدي، وكان مرضي السيرة، من كبار العلماء، وروىٰ أنّ الإمام أبا حنيفة بايعه، وأفتى الناس بالخروج معه ومع أخيه محمد. قال أبو الحسن المعمري: قُتل إبراهيم في ذي الحجّة سنة خمس وأربعين ومائة، وهو ابن ثماني وأربعين سنة، وحمل ابن أبي الكرام رأسه الشريف إلى مصر[٤].

وجاء في حوادث سنة ١٤٥هـ في كتاب «العبر في خبر من غبر»: «فيها ظهر محمد بن عبدالله بن حسن، فخرج في مائتين وخمسين نفساً بالمدينة، فندب الخليفة المنصور لحربه ابن عمه عيسى بن موسى يدعوه إلى الإنابة، ويبذل له الأمان، فلم يسمع، ثم أنذر عيسى أهل المدينة ورغّبهم ورهّبهم أياماً، ثم زحف على المدينة، فظهر عليها، وبادر محمداً وناشده الله، ثم قُتل في المعركة وبُعث إلى المنصور»[٥].

---

١. ابن تغري بردي ٣: ١٣٦.

٢. راجع تاريخ القضاعي: ١٢٢ ـ ١٢٣، وذكره الشبلنجي في نور الأبصار: ٤٠٦.

٣. الولاة والقضاة للكندي: ٥٧، نور الأبصار: ٤٠٦.

٤. نور الأبصار: ٤٠٦.

٥. العبر ١: ١٩٩ ـ ٢٠٢ وقد أورده المؤلّف بتصرّف واختصار.

ويضيف الذهبي فيقول: وفيها (أي سنة ١٤٥هـ) خرج أخوه إبراهيم بن عبدالله بن حسن بالبصرة، وكان قد سار من الحجاز إلى البصرة، فدخلها سرّاً في عشرة أنفس، ولمّا بلغ المنصور خروجه تحوّل فنزل الكوفة حتّىٰ يأمن غائلة أهلها، وألزم الناس بلبس السواد، وجعل يقتل كلّ من اتّهمه أو يحبسه، وتهاون متولّي البصرة في أمر إبراهيم حتّى اتّسع الخرق، فجهّز المنصور لحربه خمسة آلاف، فكان بين الفريقين عدّة وقعات، وقُتل خلق من أهل البصرة وواسط. وبقي إبراهيم سائر رمضان يفرّق العمال على البلدان ليخرج على المنصور من كلّ جهةٍ فتقاً، فأتاه مصرع أخيه بالمدينة قبل الفطر بثلاثة أيام، فلم يبرح أن ردّ المنصور من المدينة عيسى بن موسى فوجّهه لحرب إبراهيم[1].

ولعلّ استطرادنا في سرد تفاصيل الحوادث التي دارت بين المنصور وإبراهيم ما يبرّر جزّ المنصور لرأس إبراهيم والطواف به في الأمصار؛ ليكون عبرةً لمن تحدّثه نفسه من العلويّين للخروج عليه أو على غيره من آل العباس، فقد جاء في أحداث سنة ١٤٥هـ أنّ المنصور مكث لا يقرّ له قرار، فجهّز العساكر، ولم يأو إلىٰ فراشٍ خمسين ليلة. وكلّ يوم يأتيه فتق من ناحية[2].

ويضيف الحافظ الذهبي: ولولا السعادة لثلّ عرشه بدون ذلك، فلو هجم إبراهيم بالكوفة لظفر بالمنصور، ولكنّه كان فيه دين، قال: أخاف إن هجمتها أن يستباح الصغير والكبير. وكان أصحابه مع قلّة رأيه يختلفون عليه[3].

وأخيراً استطاع جيش عيسى بن موسى أن يحيط بجيش إبراهيم، وحمل علىٰ عسكره فوقعت الهزيمة على أصحاب إبراهيم حتى بقي سبعون، واشتدّ القتال حتّى تفانىٰ خلق تحت السيف طول النهار، وجاء سهم غريب لا يدرىٰ من رمىٰ به في

---

١. تاريخ الإسلام ٩: ٣٦ وما بعده، العبر في خبر من غبر ١: ١٩٩.
٢. العبر في خبر من غبر ١: ٢٠٠، وانظر تاريخ الإسلام ٩: ٣٨.
٣. العبر ١: ٢٠١.

حلق إبراهيم، فأنزلوه وهو يقول: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً، أردنا أمراً وأراد الله غيره»، واجتمع أصحابه يحملونه. وأنكر عيسى اجتماعهم وحمل عليهم، فتفرّقوا عن إبراهيم، فنزل جماعة واجتزّوا رأسه وبعثوا به إلى المنصور، وذلك في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وعمره ثماني وأربعين سنة[١].

أمّا عن أثر هذه الأحداث في مصر، وكيف جاء رأس إبراهيم إليها، فيحدّثنا ابن ظهيرة في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» فيقول: وفي أيام يزيد بن حاتم والي مصر من قبل الخليفة المنصور، ظهرت بمصر دعوة بني الحسن بن علي بن أبي طالب، وتكلّم بها الناس، وبايع كثير منهم لبني الحسن في الباطن، وماجت الناس بمصر، وكاد أمر بني الحسن أن يتمّ، والبيعة كانت باسم علي بن محمد بن عبدالله.

وبينما الناس في ذلك قدم يزيد برأس إبراهيم بن عبدالله بن علي بن أبي طالب في ذي الحجّة سنة خمس وأربعين ومائة، فنُصب في المسجد أياماً[٢].

وممّا يدلّ علىٰ تحرّج الحالة في مصر، كما يقول ابن ظهيرة: «إنّ يزيد قد منع أهل مصر من الحجّ؛ بسبب خروج العلويّين بالمدينة، فلمّا قُتل إبراهيم أذن لهم»[٣].

ولابن ظهيرة في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» رأي آخر عن مكان دفن رأس إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، إذ يقول: «مسجد البئر والجميزة في طريق الجب، بُني علىٰ رأس إبراهيم بن عبدالله، أرسله أبو جعفر المنصور إلى الأمصار، فأخذه أهل مصر، ودفنوه في هذا الموضع».

وفي تفسيره لمكان البئر والجميزة يقول: «هما العريش»[٤].

---

١. المصدر السابق: ٢٠٢.

٢. الفضائل الباهرة: ٨٧.

٣. المصدر السابق: ٨٩.

٤. المصدر نفسه.

أمّا عن السبب في تسمية المسجد باسم مسجد تبر، فيرجع كما يقول المقريزي: نسبة إلى «تبر»، أحد الأمراء الأكابر في أيام الأستاذ كافور الأخشيدي، فلمّا قدم جوهر القائد من المغرب بالعساكر ثار تبر الأخشيدي هذا في جماعة من الكافورية والأخشيدية وحاربه، فانهزم بمن معه إلىٰ أسفل الأرض، فبعث جوهر يستعطفه، فلم يجب، وأقام على الخلاف، فسيّر إليه عسكراً حاربه بناحية صهرجت، فانكسر وصار إلىٰ مدينة صور التي كانت علىٰ ساحل البحر، فقبض عليه بها وأُدخل إلى القاهرة، فسجن إلىٰ صفر سنة ستين وثلاثمائة. فاشتدّت المطالبة عليه، وضُرب بالسياط، وقُبضت أمواله، وحُبس عدّة من أصحابه بالمطبق من القيود إلى ربيع الآخر، ثم خرج وأقام أياماً مريضاً ومات[1].

ويضيف المقريزي: فسُلخ بعد موته وصُلب عند كرسي الجبل، ويقول ابن عبدالظاهر: إنّه حُشي جلدة تبناً وصُلب، فربّما سمّت العامة مسجده بذلك![2]

وجاء في «تحفة الأحباب وبغية الطلّاب» للسخاوي[3]: وقد ظلّ هذا المسجد يعرف باسم مسجد تبر إلىٰ عهدٍ بعيد، ثم تحوّل إلى زاوية صغيرة، ثم اندثرت المباني وبقيت التربة فقط. ومن عهد قريب تطوّع الأهالي ببنائه، فأُعيد إلى شبه حالته سنة ١٩٢٢م. وهو باقٍ إلى الآن بالمطرية بشارع البرنس «ماهر حالياً» يُعرف بجامع سيدي إبراهيم، وعليه ضريح يُزار، لكن بعض العامة تقول: إنّه إبراهيم الدسوقي! وهذا خطأ بطبيعة الحال.

وتوجد زاوية سيدي إبراهيم في شارع ماهر «البرنس سابقاً» وعلىٰ ناصية حارة سيدي إبراهيم، وتتكوّن من مبنىً مستطيل الشكل، مدخلها في الجهة الجنوبية، حيث يوجد بابان داخل حنيتين، يعلوهما عقد ذو ثلاثة فصوص، ويعلو الباب نافذة

---

١. خطط المقريزي ٤: ٢٧١ ـ ٢٧٢، وأورده عنه الشبلنجي في نور الأبصار: ٤٠٧.

٢. المصدران السابقان.

٣. تحفة الأحباب: ٢٢.

صغيرة معقودة، والجدران الخارجية مزخرفة بطلاء جيري مخطّط باللون الأحمر والأبيض، وتبدو وكأنّها أبلق.

أمّا داخل الزاوية فبسيط جدّاً، ويتكوّن من ستة أروقة موازية لحائط القبلة، وبكلّ رواق أربعة أعمدة. وبالرواق الثاني وأمام المحراب توجد قبّة بها ثماني فتحات، القصد منها الإنارة.

وقد اقتطع من الزاوية مستطيل في الركن الشمالي الغربي، توجد في جزء منه مقبرة سيدي إبراهيم، وهي عبارة عن حجرة مربّعة، غُطِّيت بقبّة تقوم علىٰ رقبة مثمّنة، بكلّ ضلع منها نافذة، وفوقها تقوم قبّة مدبّبة. أمّا جدران المستطيل فقد فُتحت في كلٍّ من الضلع الشرقي والغربي نافذتان قنديليتان. وفي الجهة الغربية من الزاوية توجد الميضأة ودورة المياه.

ولعلّ السبب في اختيار جهة المطرية لتكون مقرّاً لرأس إبراهيم، هو إبعاد الناس عن زيارة المقبرة حتّىٰ تخمد الثورة، وتضعف الدعوة للعلويّين. فقد كانت منطقة المطرية في ذلك الوقت مهجورة غير مسكونة، لبُعدها عن العاصمة، وهي الفسطاط ثم العسكر، كما أنّ مقابر المسلمين في ذلك الوقت كانت عند جبل المقطم. وممّا ينهض دليلاً علىٰ أهمية هذه المقبرة في تلك المنطقة النائية ـ وأعني بها المطرية ـ هو اهتمام الأمير «تبر» ببناء مسجد بجوارها.

٨ـ الإمام حسن الأنور

حفيد الإمام الحسن بن علي عليه السلام

بقلم

أحمد أبو كف

الإمام حسن الأنور

والد السيدة نفيسة، وشيخ بني هاشم في عصره[1]

أحمد أبو كف

هذا الذي حدث منذ سنوات، ما زال في ذاكرة الناس وكأنّه حدث بالأمس؛ في منتصف إحدى الليالي، وكان بعض عمّال المعمار يجدّدون القبلة، فتح ملاحظ المسجد باب الغرفة التي تضمّ ضريحي سيدي حسن الأنور وأبيه سيدي زيد الأبلج، وفاجأ الملاحظ ضوء باهر، كأنّه نور الشمس يتجمّع ويسلّط على العمامة فوق غطاء ضريح سيدي حسن الأنور، وأجفل الملاحظ عبدالوهاب حسن وأغمض عينيه، ثم أغلق الباب ثانية، وتمتم بآيات الله البيّنات.

ولاحظ العمّال ما حدث، فاعتقدوا أنّه من الكهرباء! لكن أنوار المسجد أُطفئت كلّها، لتظلّ بقعة الضوء في الضريح تخرج إشعاعاتها من تحت عقب الباب، وسط الظلام الشديد.

ويتوقّف العمّال، بعد أن تأكّدوا وشاهدوا بأنفسهم الأنوار الربانيّة، ويذهبون إلىٰ مقاوليهم، وفجأة يأتي الصباح الجديد، ويشتري المقاولون علىٰ حسابهم كميات

---

١. مقتبس من «سيرة آل بيت النبي ﷺ في مصر» ط. دار المعارف، القاهرة.

من مواد البناء من أجل أن يتجدّد المسجد كلّه، وتتضاعف مساحته، من أجل هذا القطب من آل بيت رسول الله ﷺ.



هذه الشخصية الكريمة من آل بيت النبي ﷺ لها في نفوس المؤمنين بمصر الشيء الكثير، فهي قد أنجبت الدرّة النفيسة من درر آل البيت علىٰ أرض الكنانة. وأقصد بها السيدة نفيسة التي أجمع المؤرّخون ـ ولم يختلف منهم أحد ـ علىٰ أنّها مدفونة في مسجدها في حي الخليفة بالقاهرة. والشخصية الكريمة بالطبع هي سيدي حسن الأنور ابن زيد الأبلج ابن حسن السبط ابن علي بن أبي طالب عليه السلام. وهذه الشخصية النبوية الكريمة تعتبر من أهمّ شخصيات آل البيت في القرن الثاني الهجري، بل هي أهمّها جميعاً.

إنّ سيدي حسن الأنور ـ رغم تلك الشذرات المتناثرة حوله من المخطوطات والكتب ـ من القلائل من آل البيت الذين لعبوا دوراً مهماً في العصر العباسي الأول. فقد كان والياً على المدينة المنوّرة، وهذه ـ كما أرىٰ ـ تعتبر استثناءً لكلّ من يتتبّع تاريخ آل البيت بعد كربلاء وفي أيام الأمويّين، بل هي استثناءً كذلك في عهد العباسيّين، الذين سرعان ما تنكّروا لآل بيت النبي، وفعلوا مع أبناء عمومتهم ما فعله الأمويون من قبل، بل وأشرس ممّا فعلوا.

وحتّىٰ سيدي حسن الأنور الذي تولّىٰ إمارة المدينة وعمره ٦٧ سنة من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور، وظلّ فيها حوالي ستّ سنوات من عام ١٥٠ إلىٰ ١٥٥ هجرية، لم ينج من اضطهاد العباسيّين، رغم أنّه ـ كما تذكر بعض الكتب، ومنها ما جاء في ديوان ابن هرمة ـ دون بقية آل البيت، أول من لبس السواد شعار العباسيّين[١]؛ تأييداً لهم، وتدعيماً لقيام دولتهم، والسواد بالطبع جاء سنّة عن رسول الله ﷺ،

---

١. راجع عمدة الطالب: ٧.

واعتبره العرب رمزاً للقوة كما يقول كتاب «سمط الدرر العوالي»، فالرسول ﷺ لبس عمامة سوداء وهو يفتح مكّة.

لقد عُزل الحسن الأنور فجأة من ولاية المدينة المنوّرة وأُلقي في غياهب السجن عام ١٥٦هـ، إلىٰ أن ولي المهدي العباسي فأخرجه منه[١]؛ لأنّ هذا الخليفة كان يعرف أقدار الأشراف من آل البيت، وكان فاضلاً حتّىٰ إنّ ابن طباطبا في كتابه الفخري في الآداب السلطانية، وصف المهدي قائلاً: كان شهماً كريماً، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة، ولا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم، وكان يجلس في كلّ وقت للمظالم، كما كان ذكياً فصيحاً بعيد الهمّة، شديد الرأي، ثاقب الفكر، قوي البيان، فصيح اللسان، عالماً بضروب السياسة وفنونها؛ ممّا أهّله لأن يلي الأمور[٢].

ونحن لو عرفنا أنّ المهدي تولّى الخلافة ابتداءً من عام ١٥٨ الهجري، فإنّ سيدي حسن الأنور قضىٰ في سجن المنصور سنتين أو يزيد[٣].

وكانت العلاقة بين بني هاشم ـ آل البيت ـ من علويّين وعباسيّين ـ كما يقول د. حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام السياسي ـ تقوم على الودّ والصفاء أيام كان البيتان متّحدين على العدوّ المشترك وهو بني أُمية، ولكن ما أن قام البيت العباسي، وسلس له قيادة الخلافة الإسلامية، حتّىٰ تنكّر العباسيون لآل البيت[٤].

والواقع أنّ العلويّين لم ينسوا حقّهم في الخلافة بعد كربلاء، بل كانت هي شغلهم الشاغل. فإنّهم ما فتئوا في كلّ أدوار حياتهم يطلبون حقّهم بكلّ وسيلة، فإذا ما وجدوا الفرصة سانحة لإعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها، ولم يدعوها تمرّ،

---

١. انظر تفصيله في تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩ وما بعده، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨: ٢٩٤، وشذرات الذهب ٢: ٢١.

٢. الفخري في الأنساب السلطانية: ١٤٢.

٣. انظر: تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩، تهذيب التهذيب ٢: ٢٧٩، المشجر الكشّاف عن أصول السادة الأشراف: ٧٦، أعيان الشيعة ٥: ٧٥.

٤. تاريخ الإسلام ٢: ١١.

وإذا آنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا مكتفين بلقب الإمام، وقرابتهم من الرسول ﷺ وآثروا المعيشة الهادئة والاشتغال بالتجارة، والانصراف إلى العبادة على الاشتغال بالسياسة والحرب، اللّهم إلّا في أواخر الدولة الأموية، حين قام والد سيدي حسن الأنور، وهو الإمام زيد بن علي زين العابدين، وابنه يحيى، في عهد هشام بن عبدالملك، الخليفة الأموي مطالبين بحقّهم في الخلافة. وهنا لاقوا عسفاً واضطهاداً، بل شدّةً وقتلاً وصلباً.

وعلى العموم، فقد عاش العلويون عيشةً هادئةً، إلىٰ أن تجدّدت الدعوة لآل البيت علىٰ أيدي العباسيّين. لكن لمّا ظفر العباسيون بالخلافة دونهم نابذوهم العداء، ونظروا إليهم كما ينظرون إلى الأمويّين من قبل.

وهكذا صار اضطهاد آل البيت قضية العباسيّين[1]، خاصّةً في عصر الهادي العباسي، الذي تولّى الخلافة عام ١٦٩هـ، وكان الهادي كما وصفه المسعودي في مروج الذهب: قاسي القلب، شرس الأخلاق، صعب المراس[2]. وممّا يؤخذ عليه تنكيله بالعلويّين، كما أنّ عصر الهادي شاهد ثورةً أخرىٰ للعلويين قادها الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكانت موقعة فخّ[3].. التي وصفت بأنّها لم تكن مصيبة بعد كربلاء، أشدّ وأفجع من فخّ.

---

١. حتى قيل لأبي جعفر المنصور: لقد هجمت بالعقوبة حتّىٰ كأنّك لم تسمع بالعفو! فقال: لأنّ بني مروان لم تبل رممهم بعد، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء، فليس تتمهّد مصيبتنا في نفوسهم إلّا بنسيان العفو واستعمال العقوبة!! انظر: تاريخ دمشق ٣٢: ٣٣١، سير أعلام النبلاء ٧: ٨٥.

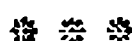
٢. مروج الذهب ٣: ٣٣٥.

٣. وفخّ موضع يبعد عن مكّة ستة أميال. وحدثت الواقعة سنة ١٦٩هـ يوم التروية، وهو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة، وكان على رأس الجيش العباسي موسى بن عيسى الذي جاء برأسه إلى الخليفة الهادي ليقبض جائزته، لكنه رأىٰ السخط عليه وكأنّه لم يرسله لمحاربته، وبدلاً من ذلك قبض الخليفة أمواله ليرى للناس أنّه لم يرض بصنع ابن عيسى هذا! وذكر المسعودي أنّه أقاموا ثلاثة أيام لم يواروا القتلى حتّىٰ أكلتهم السباع والطير! انظر مروج الذهب ٣: ٣٣٦.

وكان من أوائل العلويين المطالبين بحقّهم في الخلافة أيام العباسيين: محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[١]، وأخوه إبراهيم[٢]. واستمرّت سلسلة اضطهادات آل البيت أيام العباسيّين.

لقد وصف الحسن الأنور ـ كما يذكر الشيخ أحمد فهمي في كتابه «كريمة الدارين، الشريفة الطاهرة السيدة نفيسة بنت الحسن رضي الله عنها» ـ بأنّه كان شيخ بني هاشم في زمنه من بني الحسن، حتّىٰ إنّ رئاسة البيت الهاشمي انتهت إليه في عصره.

وكما في تهذيب التهذيب عن ابن سعد في طبقاته: كان أبو محمد الحسن الأنور عابداً ثقةً، وكان إماماً عظيماً من كبار آل البيت، وكان مجاب الدعوة[٣]، بل إنّ الزبير بن بكّار وصفه بأنّه كان فاضلاً شريفاً.



ولد الحسن الأنور لأبيه زيد بن الحسن السبط عام ٨٣هـ. وكما في خطط المقريزي: «أنّ أُمّه أُمّ ولد»[٤]. وأُمّ الولد هي الجارية التي يعتقها سيدها ويتزوّجها علىٰ عادة العرب. وقد نشأ الحسن في بيت شريف، وفي رحاب أبيه زيد في المدينة، وتربّىٰ تربيةً إسلاميةً جليلة.

---

١. ومحمد هذا هو الملّقب بالأرقط وبالمهدي وبالنفس الزكية، كان أحد الأشراف من الطالبيين، ولد بالمدينة سنة ٩٣هـ. فلمّا قامت الدولة العباسية لم يبايع السفاح وتوارىٰ، فطلبه المنصور خوفاً على عرشه، وقبض على أبيه واثني عشر من أهل بيته وعذّبهم، فماتوا بحبسه بعد سبع سنوات! فلمّا علم محمد بموت أبيه خرج ثائراً، فغلب علىٰ مدن كثيرة، ثم حدثت بينه وبين جيش المنصور وقعة علىٰ أبواب المدينة، فقُتل فيها سنة ١٤٥هـ. انظر الأعلام ٦: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

٢. وأخوه إبراهيم المعروف بقتيل باخمرىٰ، وكان على شاكلة أخيه محمد في الدين والعلم والشجاعة والثورة علىٰ الظلم، بايعه أربعة آلاف مقاتل، فاستولىٰ على البصرة فهزم المنصور منها إلى الكوفة، واستولىٰ على بلاد كثيرة أخرىٰ، وجرت وقائع مع المنصور حتّىٰ انتهت باستشهاده. انظر مقاتل الطالبيين: ٢١٠ ـ ٢٥٦.

٣. تهذيب التهذيب ٢: ٢٧٩. وانظر المشجر الكشّاف عن أُصول السادة الأشراف: ٧٦.

٤. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

ويروىٰ: أنّه كما كان سيدي حسن الأنور يأخذ ابنته نفيسة، ويدخل معها حجرة الرسول ﷺ، ويقول: يا رسول الله أنا راضٍ عن ابنتي نفيسة. فقد كان الإمام زيد والد سيدي حسن الأنور يأخذ ابنه، حتّىٰ رأى النبي ﷺ في المنام يقول له: «يا زيد إنّني راضٍ عن ابنك حسن برضاك عنه، والحقّ سبحانه وتعالىٰ راضٍ عنه برضاي عنه»[١].

وقد توفّي الإمام زيد ـ كما يقول الشبلنجي في نور الأبصار[٢] ـ في عام ١٢٠هـ، أي أنّه توفّي والحسن الأنور في السابعة والثلاثين من عمره، وترك والده عليه ديناً مقداره، كما يحدّده الخطيب البغدادي في كتاب تاريخ بغداد[٣]: أربعمائة دينار، فحلف الحسن ـ كما في خطط المقريزي[٤] ـ ألّا يظلّ رأسه تحت سقف إلّا سقف مسجد جدّه الرسول ﷺ، أو رجل يكلّمه في حاجةٍ حتّىٰ يقضي ما علىٰ أبيه من دين، وكان أن وفى الدين[٥].

والواقع أنّ سيدي حسن الأنور قد نشأ في رحاب جدّه الرسول ﷺ، يقرأ القرآن الكريم، ويكثر العبادة والقيام والصيام، مع زهدٍ وورعٍ، وتقوىً وصلاح.

وقد صقلته هذه الحياة، وفتح الله عليه بالعلم والبيان والثراء، حتّىٰ صار إماماً عالماً، وله تلاميذ ومريدون، وحمل الكثير من الألقاب التي ذُكرت في كثير من الكتب، جمعنا منها هذه الألقاب، وهي: شيخ الشيوخ، شيخ بني هاشم، من كبار آل البيت، أبو محمد المدني الأنور، التابعي، النابه، عالم، عابد، فاضل، شريف، علوي.

وقد صار ثقةً في رواية الأحاديث، ومن تلاميذه الإمام مالك بن أنس، ومحمد بن إسحاق، ومحمد بن أبي ذئب المحدّث الجليل، وأبو أُويس، ووكيع.

---

١. نور الأبصار: ٢٣٧.

٢. المصدر السابق.

٣. تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩.

٤. خطط المقريزي ٤: ٣٢٦.

٥. راجع المنتظم لابن الجوزي: ٢٩٤.

أمّا عن شيوخه ـ كما جاء في تهذيب التهذيب لابن حجر[١] ـ فمنهم: أبوه الإمام زيد، وابن عمه عبدالله بن الحسن، وعكرمة، ومعاوية بن عبدالله بن جعفر، وغيرهم[٢].

ولذا صار سيدي حسن الأنور قطباً وإماماً، وكان ـ كما يقول كتاب مصباح الدياجي لمجد الدين بن الناسخ ـ يقصده الناس من القرىٰ والبلاد، وكان يعدّ بألف من الكرام[٣].

والواقع أنّ حياة الإمام حسن الأنور التي امتدّت ٨٥ عاماً دارت في عدّة محاور، أهمها:

أولاً: المحور الديني والعلمي: ويكفيه تربيته للسيدة ابنته. وكذلك ابنه إسماعيل العالم العابد الناسك. وكان سيدي حسن الأنور متشدّداً وحازماً في المسائل الدينية، والأخذ علىٰ أيدي الناس بآداب الإسلام. ومن يقرأ كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة يجد فيه الكثير.

ثانياً: المحور السياسي: وقد استطاع الحسن الأنور أن يعيش نافذ الرأي، متقلّداً لمنصب الولاية في دولةٍ تضطهد العلويّين وتتوجّس منهم.

ثالثاً: المحور الاقتصادي: فهو رغم علمه وتقواه، اشتغل بالتجارة؛ ليصبح ذا ثروة كبيرة، أغنىٰ بها الحياة، وأمسك نفسه عن أن يردّ طالب حاجة.

الحياة الدينية والعلمية

من الأحاديث المنسوبة إلى سيدي حسن الأنور في ابن حبّان[٤] عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه احتجم وهو صائم، ومعنى الاحتجام، أي استخراج الدم من الجبهة. وهذا دليل إجازة الحجامة في الصيام. وهذا الحديث موجود في كتاب الذهبي «ميزان الاعتدال»[٥].

---

١. تهذيب التهذيب ٢: ٢٧٩.

٢. هذا وعدّه الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

٣. انظر خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

٤. انظر الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤: ١٥٦ باب حجامة الصائم، وذكره عنه الذهبي في الميزان ١: ٤٩٢.

٥. ميزان الاعتدال ١: ٤٩٢ رقم ١٨٥٠.

وفي أمالي المرتضىٰ[١] عن «الفرائد ودرر القلائد» نسب للإمام حسن الأنور، أنّه رأىٰ رجلاً محرماً في مكة المكرمة، وعلىٰ صلعته الغالية ـ وهي نوع من الطيب كالعجين ـ ولم يعترض الإمام الحسن الأنور على ذلك، وهذا يعني أنّ الطيب قبل الإحرام جائز شرعاً.

وفي كتاب «الكامل»[٢] للمبرد: أنّ سيدي حسن الأنور ذهب للحجّ، فلفت نظره شخص يزاحم الحجيج، فأشار إليه بيده ـ فعل الغازلة، أي مثل التي تغزل صوفها ـ وقال: «خرقاء وجدت صوفاً!» بمعنىٰ أنّ المزاحمة والسرعة في الحجّ تضرّ أكثر ممّا تكسب من الإيمان.

وهذا كما يقولون يقترب من حديث رسول الله ﷺ: «إنّ المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقىٰ»[٣]، أي: أنّ المنقطع عن الرفقة، أي المتخلّف عن الركب بسبب السرعة يجهد دابّته، فتعجز عن مواصلة الطريق.

أمّا في معجم البلدان[٤] لياقوت الحموي، فقد روىٰ أنّ سيدي حسن الأنور عزل عبدالله بن مسلم بن جندب الهزلي عن إمامة الصلاة في مسجد الأحزاب.

فقال له: لِمَ تعزلني عن منصب أبي وأجدادي؟

فردّ عليه حسن الأنور قائلاً: إنّما عزلك عنه يوم الأربعاء! وكان هذا اليوم مسموحاً فيه للنساء بالصلاة في المسجد، وقد تعرّض الرجل لبعض النساء بأبيات غزلية، لم يحملها سيدي حسن الأنور محمل العفو. وهذه الواقعة تدلّ علىٰ شدّة سيدي حسن الأنور في الدين، كما تدلّ أيضاً على أنّه كان ناقداً للشعر، متذوّقاً، وحافظاً له.

لقد وصف الحسن وهو والي المدينة المنوّرة بأنّه: «كان ذا حزم في ولايته، وعزم

---

١. أمالي المرتضىٰ ٢: ١٨٦.

٢. الكامل ٤: ٢٢١.

٣. أخرجه البيهقي في السنن ١: ١٩.

٤. معجم البلدان ٥: ٨٦ ـ ٨٧.

في إمرته، وشدّة في أخذ الناس بالحدود وحرمات الله، لا تأخذه رأفة في دين الله، ولا توقفه رحمة عن إقامة حدوده».

والأمثلة علىٰ حزم سيدي حسن الأنور كثيرة: فلقد كان للحسن شاعر مشهور من أصفيائه ومواليه يسمّى ابن هرمة، وله معه أحاديث ظريفة وذكريات ممتعة، فلمّا صار الحسن والياً على المدينة المنوّرة، جاء بهذا الشاعر وقال له بحزم، بعد أن سمع أنّه يشرب الخمر: أنا لست كمن باعك دينه رجاء مدحك، أو خوفاً من ذمّك، فقد رزقني الله عزّ وجلّ بولادة نبيه الممادح، وجنّبني المقابح، وأنّ من حقّه علـيَّ ألّا أغضىٰ عن تقصير في حقّ ربي. وأنا أقسم بالله لئن أوتيت بك سكراناً لأضـربنّك حدّاً للخمر وحدّاً للسكر، ولأزيد لموضع حرمتك بي، فليكن تركك لها لله تعالى، تعن عليها، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم[1].

وشاعر آخر اسمه ورد بن عاصم، جاءت قصّته مع الإمام حسن الأنور في عيون الأخبار[2]. هذا الشاعر هجا الحسن أثناء ولايته للمدينة لتشدّده في إقامة الحدود، فلمّا سمع الحسن هجاءه طلب الشاعر، لكنّه خاف وهرب، إلىٰ أن مثل بين يديه، واعتذر للحسن بتقصيره، وهنا يعفو عنه ويصله بمال.

ومع الحزم كان العطف، فقد جيء إليه بشاب ذي حسب ونسب هو سكران، فقال الشاب: يابن رسول الله ﷺ لا أعود، وقد قال الرسول ﷺ: «أقيلوا ذوي الهـيئات عثراتهم»[3]، وأنا ابن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، وكان أبي مع أبيك.

فقال الحسن للشاب: صدقت، هل أنت عائد؟

قال الشاب: لا والله. فأقاله الحسن، وأمر له بخمسين ديناراً، وكان الحسن يبرّه دائماً[4].

---

١. خطط المقريزي ٤: ٣٢٦.

٢. عيون الأخبار ٢: ١٦١.

٣. رواه الإمام أحمد في المسند ٦: ١٨١، وأبو داود في السنن ٤: ٣٣ حديث ٤٣٧٥.

٤. راجع خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

علىٰ أنّه مع الشدّة، كان التواضع الجمّ لسيدي حسن الأنور. ونذكر هنا حادثةً جاءت في كتاب «حسن المحاضرة»[١]. فقد دخل على الحسن الأنـور وهـو والي المدينة المنوّرة أحد الشعراء لينشده قصيدةً مطلعها:

الله فرد وابن زيد فرد

وبسرعة يردّ عليه الحسن قائلاً:

بفيك الأثلب! ألا قلت:

لله فرد وابن زيد عبد

وينزل الحسن من علىٰ كرسي الإمارة، أو سرير الإمارة كما يسمّىٰ، ويلصق خدّه بالأرض، ويمرّغ وجهه في التراب، ويسبّح الله العلي القدير، ويستغفره ويبكي[٢].



حياة الحسن الأنور السياسية

إنّه رغم القرابة بين سيدي حسن الأنور والعباسيّين، بل المصاهرة، فإنّ ابنته أُمّ كلثوم ـ أخت السيدة نفيسة ـ كانت متزوّجة من أبي العباس السفّاح، أقول رغم ذلك فلم يشفع هذا القطب آل البيت في زمنه عند المنصور العباسي الذي أقـصاه عـن الولاية، وصادر ممتلكاته، وألقاه في غياهب سجنٍ مظلم.

ولاشكّ أنّ العباسيّين كانوا يتوجّسون من آل البيت، ويرصدون عليهم العيون في كلّ مكان، حتّىٰ من كسب ثقتهم، ربّما لاعتقاد العباسيّين من جهة أنّـهم اغـتصبوا الخلافة من مستحقّيها، ولإيمان العلويّين من جهة أخرىٰ بـحقّهم المـغتصب الذي ينبغي أن يعود إليهم. وهذا ما جعل العباسيّين يأخذون بالوشايات، بل لا يتحقّقون كثيراً فيما إذا كانت هذه الوشاية صحيحة أم دسيسة.

---

١. حسن المحاضرة في أحوال القاهرة: ٢٣٢.

٢. ذكره الشبلنجي في نور الأبصار: ١٣٧.

ونحن قد بحثنا في الماوردي «الآداب السلطانية» عن مهام الولاية، أيام الحسن الأنور، والذي كان نقيباً للأشراف كذلك، فاتّضح أنّ الوالي كان مسؤولاً عن أخلاق الناس وأمنهم، كما كان مسؤولاً عن تدبير أمر الجيوش، وكذلك إمامة الصلاة، وتعيين الائمة، وإقامة الحدود، لكنّ الملاحظ أنّ العباسيّين حين ولّوا سيدي حسن الأنور، أعفوه من مهمّة تدبير أمر الجيوش حتّىٰ لا يقوى الولاة من آل البيت، ويخرج أحدهم على الخلافة!

والوشاية جاءت من شخص مقرّب للإمام حسن الأنور، واسمه ابن أبي ذئب محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة، وهذا ذهب إلى المنصور العباسي وأخبره أنّ الحسن الأنور «يطمح للخلافة، ويتشوّف نسيمها، ويعمل علىٰ عودها للعلويّين».

وهذا الواشي ـ رغم قربه من الإمام حسن الأنور ـ غلب علىٰ ظنّه طماحية آل البيت للخلافة، ولذلك أسرع إلى المنصور العباسي، وكان الواشي نفسه ـ كما يقولون ـ يؤمن في قرارة نفسه أنّ الخلافة حقّ للعلويّين، رغم أنّ عمله كان عيناً للعباسيّين علىٰ سيدي حسن الأنور.

ونتيجة لذلك، يظلّ الحسن الأنور سجين العباسيّين أكثر من سنتين، حتّىٰ يتولّى المهدي الخلافة، الذي كان يقدّر في سيدي حسن الأنور علمه واعتداله وزهادته، فأمر بإخراجه من السجن، وردّ عليه ما أخذ من ماله، لكنّه من الثابت أنّ المهدي لم يعد الحسن إلى ولايته، رغم أنّ البعض يقول: إنّه بعد الإفراج عنه عاد الحسن إلى منصبه والياً على المدينة، بل إنّ هناك رأياً يرىٰ أنّ المنصور نفسه والذي أمر بالحبس، هو الذي أخرج سيدي حسن الأنور من السجن لمّا ظهر له كذب الواشي، لكنّ هذا الرأي أضعف من أن يقف مع ما أجمع عليه الطبري وابن كثير والزركلي وغيرهم[١].

---

١. كالخطيب البغدادي وابن حجر وابن الجوزي والسيد محسن الأمين.

الحياة الاقتصادية

أمّا ثالث المحاور فهو الجانب الاقتصادي، فقد كان الحسن كريماً غاية الكرم، وكان معطاءً. وفي الأغاني[١] لأبي الفرج الأصفهاني أنّه كان لسيدي حسن الأنـور قصور في بطحاء ابن أزهر في المدينة المنوّرة، وكان الناس يقصدون سيدي حسن من كلّ مكان طمعاً في كرمه ونواله. فقد كانت له تجارة رابحة، حتّىٰ إنّه أراد توسيع جامع الرسول ﷺ علىٰ نفقته، لكنّ المنصور العباسي عارض هذا الأمر.

وهناك قصّة تدلّ علىٰ كرم سيدي حسن الأنور، رواها ابنه سـيدي إسـماعيل، وجاءت في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي[٢]. فلقد أتاه في الصباح الباكر مصعب بن ثابت الزبيري وابنه عبدالله، أتياه وهو يهمّ بالركوب إلى ماله ـأملاكه ـ بالغابة في الطريق إلى مكة المكرّمة، استجارا به حتّىٰ يدفع عنهما ديناً، فأرسل الحسـن إلى صاحب الدين واسمه ابن ثوبان فسأله، فقال: على الشيخ سبعمائة، وعلى ابنه مائة! وهنا يقضي الدين عن الرجل وابنه، بل زاد وأعطاهما مائتي دينار.

لقد اشتهر الحسن الأنور بالعطاء، ولم يكن يردّ صاحب حاجة، بل إنّه كان يصل أعداءه، وربّما لأنّ أباه مات وهو عليه دين، فقد نذر أن يدفع دين كلّ من يلجأ إليه، وكان يؤمن بأنّ المال مال الله، وأنّه يجب أن يصرف في سبيل الله.



كيف لاقى الحسن وجه ربّه؟ وأين دُفن؟ وما هي حكاية مشهده بالقرب من سور مجرى العيون أو سور القاهرة القديم؟

خلال الخمسة والثمانين عاماً التي عاشها سيدي حسن الأنور، عاش حياةً واسعةً ثريةً متعدّدة الجوانب، وأنجب أحد عشر ولداً تسعة ذكور[٣]، واثنتين من الأُناث هما:

---

١. الأغاني ١٤: ١٦١.

٢. تاريخ بغداد ٧: ٣١٠ ـ ٣١١.

٣. وقد ذكر صاحب عمدة الطالب: ٧١ أنّه أعقب سبعة ذكور وليس تسعاً، وهم: القاسم وعلي وزيد وإبراهيم وعبدالله وإسحاق وإسماعيل.

نفيسة و أم كلثوم، وكما يقول الشبلنجي في «نور الأبصار»: إنّ أُمّهم جميعاً هي أُمّ سلمة زينب بنت الحسن المثنّىٰ ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب[1].

لكنّ الخلاف كثير حول موت الحسن الأنور، وحول دفنه. فقد ذكر ابن خلّكان في وفيات الأعيان[2]: أنّه مات بمصر، لكنّه غير مشهور. وقيل: إنّه توفّي ببغداد ودُفن في مقبرة الخيزران[3]، ويرىٰ ابن خلّكان[4] أنّه مات بالحاجر، أثناء حجّة المهدي سنة ثمان وستين ومائة، وهو ابن خمس وثمانين سنة[5].

أمّا الشيخ عبدالخالق سعد في كتابه «الجواهر النفيسة» فيؤكّد أنّه جاء مصر مع ابنته نفيسة، بعد ما زار معها قبر الخليل إبراهيم، وأنّه عاش في مصر القديمة بدءاً من يوم السبت السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائة من الهجرة. وهذا الرأي بالطبع يحتاج إلىٰ تمحيص، إذا عرف أنّ المراجع أجمعت علىٰ أنّ الحسن الأنور مات سنة ١٦٨هـ، أو ١٨٦هـ كما تقول مراجع قليلة. فالسيدة نفيسة جاءت لتعيش في مصر في التسعينيات من القرن الثاني الهجري، وتوفّيت عام ٢٠٨هـ، فلربّما جاء الحسن الأنور مع ابنته وهو في أُخريات أيامه.. ونحن بالطبع لا نميل إلىٰ هذا الرأي.

لكنّ الملاحظ أنّ أُسرة سيدي حسن الأنور فيها الكثيرون الذين دفنوا بمصر، بل البعض يؤكّد أنّ سيدي زيداً مدفون في ضريح ابنه سيدي حسن الأنور... الذي مات عن تسعين عاماً.. والبعض يقول: إنّ الضريح ليس لسيدي زيد الأبلج، وإنّما هو

---

١. نور الأبصار: ٣٢٨.

٢. وفيات الأعيان ٢: ٢٦٨.

٣. ذكر الخطيب عن محمد بن خلف وكيع أنّه مات ببغداد، ودفن في مقابر الخيزران، لكنّه لم يقوّيه. راجع تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩.

٤. وفيات الأعيان ٥: ٤٢٣ عند ترجمة السيدة نفيسة برقم (٧٦٧).

٥. وهو قول أغلب النسّابة. انظر عمدة الطالب: ٧٠، والمنتظم ٨: ٢٩٤. وحاجر: موضع يبعد عن المدينة مسافة خمسة أميال باتجاه مكّة.

لزيدبن حسن الأنور، كما يقولون: إنّ السيدة نفيسة بنت زيد الأبلج، عمّة السيدة نفيسة بنت الحسين أيضاً مدفونة في مصر. كما أنّ سيدي محمداً الأنور أخا سيدي حسن الأنور، مدفون في مشهده القريب من مسجد السيدة سكينة على يمنة الذاهب إلى السيدة رقيّة والسيدة نفيسة.. كما يؤكّد ذلك كتاب «العدل الشاهد في تحقيق المشاهد».

والسؤال ما زال مطروحاً: هل الحسن الأنور مدفون في مصر؟!

يؤكّد لي فضيلة الشيخ عبدالغفور محمود جعفر شيخ جامع سيدي حسن الأنور، والذي يبحث دائماً في تاريخه، أنّ هناك مخطوطاً ينقل عن ابن النحوي قصةً طويلةً مفادها: أنّ السيد حسن الأنور توفّي في ريف مصر، وأنّه إن صحّ هذا الكلام، فقد نقل رفات الحسن الأنور إلى مسجده الحالي.

ويتّفق مع رأي الشيخ ما أورده الشيخ الصبّان في كتابه «إسعاف الراغبين»[١] نقلاً عن الشعراني[٢] في منته: «أنّ الإمام حسن الأنور والد السيدة نفيسة في التربة المشهورة قريباً من جامع القرّاء، بين مجراة القلعة وجامع عمرو». وأنّ الذي أشهر هذه التربة وبنى عليها قبةً ـ كما يرى علي مبارك[٣] ـ حضرة عبدالرحمن كتخدا أحسن الله إليه، وأسبل سرادقات لطفه عليه.

من هذا يتّضح اختلاف الكتّاب حول دفن الحسن الأنور في مصر وإن كان الإمام الشعراني يرى أنّ الروح في البرزخ كمن يسبح في نهرٍ جارٍ، يطف في أيّ مكان، أيّ يظهر في أيّ مكان وهذه ـ كما يقول البعض ـ مظاهر شوهدت، أو ظهر فيها الروح، بل إنّ هناك من الصوفية يعتقدون أنّ هناك نقلاً باطنياً، فبعد أيام قليلة من دفن القطب، يفتحون القبر، فلايجدون به شيئاً، وإنّما يوجد في مكان آخر.

---

١. إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ٢٣٨، وأنظر لواقح الأنوار في طبقات الأخيار ٢: ٢٧١.

٢. انظر لواقح الأنوار ٢: ٢٧٠.

٣. الخطط التوفيقية ٥: ٢٧١ ـ ٢٧٢.

والواقع أنّ هناك شواهد كثيرة تدلّ علىٰ وجود لآل البيت في مصر، خاصّةً الذين ثار حول دفنهم الخلاف. والحسن الأنور ـ من خلال ضريحه ومسجده ـ في التاريخ والمعمار تجعلنا نقول: إنّ إثبات دفنه أو نقل جسده الطاهر إلىٰ مصر يحتاج إلىٰ أبحاث المجتهدين.



إنّ أقدم تاريخ عثرت عليه لجامع سيدي حسن الأنور، منذ أيام دولة المماليك البحرية، في القرن الثامن الهجري، وفي عصر الناصر محمد بن قلاوون، أي منذ حوالي ستة قرون. وليس معنىٰ ذلك أنّ الجامع قد بدأ بناؤه في هذا التاريخ، وإنّما قبل ذلك. يدلّ علىٰ ذلك ما ورد في خطط علي مبارك، إذ يقول: عمّره القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله، ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون، وانتهت عمارته سنة ٧١٢هـ، وأُقيمت فيه الجمعة حينئذٍ، وله أربعة أبواب، وفيه ١٣٧ عموداً، وذرعه أحد عشر ألف ذراع وخمسمائة ذراع، بذراع العمل، وما برح من أحسن المنتزهات إلىٰ أن خرب ما حوله[1].

لكن لسبب أو لآخر، فإنّ ما أقامه قلاوون سقط أيضاً، مع أنّ الجامع كما يقول الشعراني: «كانت مساحته كبيرة، وكان حوله بساتين من أجمل المنتزهات..» ويؤكّد ذلك علي مبارك حين يقول: «.. ثم زالت آثاره بالكلية، وقيل ـ أي الجامع ـ : كان محلّ السبع سواقي ذات البناء الضخم بجوار فم الخليج، التي تنقل الماء من النيل إلىٰ مجراة القلعة. ويدلّل على ذلك ما اشتهر من أنّ الفرنساوية زمن دخولهم مصر وجدوا هناك كثيراً من العمد الرخام الضخمة، وأحجاراً، ونحو ذلك»[2].

لكن عمارة المماليك سرعان ما انهارت هي أيضاً، بعد حوالي أربعة قرون ونصف.

---

١. الخطط التوفيقية ٥: ٢٧٥.

٢. المصدر السابق: ٢٧٨.

وظلّ الجامع متخرّباً حتّىٰ تجدّد في عام ١٢٨٠هـ-وكما جاء في علي مبارك-علىٰ يد ناظره الشيخ أبي زيد إسماعيل كما هو مرقوم بأعلىٰ بابه الغربي، عليه قبّة حديثة، وتحت تابوته حجر من الرخام مكتوب عليه اسم سيدي حسن الأنور، وبجوار هذا الضريح ضريحان: أحدهما لسيدي زيد الأبلج، واسمه منقوش علىٰ قطعة حجر تحت تابوته، والآخر لسيدي جعفر، ولا يعرف من هو سيدي جعفر حتّى الآن.

لكن هذا التجديد لا ينفي أنّ الأمير عبدالرحمن كتخدا في القرن الثاني عشر الميلادي كان قد بنىٰ قبةً علىٰ ضريح سيدي حسن الأنور، كما سبق أن أسلفنا.

وكما هو ظاهر فإنّ المسجد الحالي بمقارنته بما في أوراق الأوقاف، فإنّ مساحته قلّت كثيراً، بل إنّه الآن ليس حوله خضرة سوىٰ نخلة واحدة، رغم ما يقوله علي مبارك من أنّه كان «بجوار ميضأته شجرتان من اللبخ ونخلات»، وحتّىٰ الخمسينيات من القرن العشرين وصل المسجد إلى حالةٍ يرثىٰ لها؛ ممّا دفع بعض أهل الحي إلى الاشتراك في تجديده وتوسيعه.

وهكذا تبدو أهمية جامع سيدي حسن الأنور، وأهمّيته تكمن بالطبع في الضريحين الموجودين به لسيدي حسن الأنور ووالده اللذين ينتميان للحسن السبط، وهو فرع كثير من أوراقه المضيئة على تراب مصر.



يقع ضريح حسن الأنور في المنطقة التي تسمّىٰ بخرطة أبي السعود بمصر القديمة، من جهة سور القاهرة، في الطريق إلىٰ مسجد عمرو بن العاص.

وقد حدّثوا عنه أنّه كان تقياً ورعاً مجاب الدعوة، وكان إماماً عظيماً عالماً، من كبار أهل البيت، معدوداً من التابعين.

وكان أبوه زيد الأبلج ﷺ جليل القدر كريم الطبع، يتّصف بالصفات الكريمة، وكان يتولّى أمر صدقات رسول الله ﷺ، وكان يقصده الناس فيبرّهم ويكرمهم، ويفد

إليه الشعراء فيمدحونه وينالون عطاءه، فكان ذلك سبباً في إيغار صدر سليمان بن عبدالملك عليه، فكتب إلىٰ عامله بالمدينة يقول له: أمّا بعد، فإذا جاءك كتابي هذا فاعزل زيد بن حسن عن صدقات رسول الله صلى الله عليه وآله وادفعها إلى رجلٍ ـ سمّاه ـ من ذوي قرابته..

ولكن عمر بن عبدالعزيز حينما تولّى الخلافة ردّه عليها.

ومن الشعر الذي امتدح به زيد قول محمد بن بشر الخارجي:

وزيد ربيع الناس في كلّ شتوة ... إذا اختلفت أبراقها ورعودها

حمول لأشتات الديات كأنّه ... سراج الدجىٰ قد قارنتها سعودها

وحينما مات بكىٰ عليه الناس كثيراً، ورثاه الشعراء، ومن ذلك قول قدامة بن موسى الجمحي:

فإن يك زيد غالت الأرض شخصه ... فقد كان معروف هناك وجود

وأن يك أمسي رهن رمسٍ فقد ثوى ... به وهو محمود الفعال حميد

هذا هو والد الحسن الأنور الذي كان زعيم البيت النبوي في حياته.

أمّا ابنه حسن الأنور، فقد سار علىٰ نهج أبيه، وصار علماً من أعلام التقىٰ والصلاح والنور...

حسن الأنور والولاية

جاء أبو جعفر المنصور فولّىٰ حسن بن زيد إمارة المدينة ـ ولعلّه أراد أن يستلّ بذلك سخائم أهل البيت ـ وقرّبه وكرّمه، وقد انتهت إلى حسن الأنور بعد أبيه رئاسة بني الحسن، وقصده الشعراء يمدحونه. وكان كريماً متواضعاً.

ومن الشعر الذي امتدح به الحسن، ما يرويه الحصري في زهر الآداب[1] قائلاً: كان أبو عاصم الأسلمي قد هجا الحسن بن زيد قبل تولّيه الإمارة، فلمّا ولي المدينة

---

١. زهر الآداب وثمر الألباب ١: ١٢٣ وما بعده.

جاءه متنكّراً في زي الأعراب، فقال:

سنأتي مدحتي الحسن بن زيد | وتشهد لي بصفين القبور
قبور لم تزل منذ غاب عنها | أبو حسن تعاديها الدهور
قبوراً لو بأحمد أو علي | يلوذ مجيرها حمى المجير
هما أبواك من وضعا فضعه | وأنت برفع من رفعا جدير

فقال الحسن: من أنت؟

قال: أنا الأسلمي.

قال: إذن حباك الله، وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وكان كريماً سخيّاً، يطمع فيه الطامعون، حدّث الحصري أيضاً قال: أتىٰ الغاضري المتطفّل يوماً إلى الحسن بن زيد، فقال: جعلت فداك، إنّي عصيت الله ورسوله.

قال: بئسما صنعت، وكيف ذلك؟

قال: إنّ رسول الله ﷺ قال:، «لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» وأنا أطعت امرأتي، فاشتريت غلاماً فهرب منّي.

قال الحسن: فاختر واحدةً من ثلاث: إن شئت فثمّن الغلام وخذ ثمنه.. وإن شئت..

قال الغاضري: بأبي أنت، قف عند هذه ولا تتجاوزها.

قال الحسن: أعرض عليك الخصلتين.

قال: لا، حسبي هذه[١].

وكان عفوّاً متسامحاً، محسناً إلى من أساء إليه.. ففي أثناء ولايته على المدينة أحسن إلى رجلٍ فقير وقرّبه، يقال له: ابن أبي ذئب حتّى كثر ماله، وقدّمه إلى المنصور.

ولكن هذا الرجل قابل الإحسان بالإساءة، فقد سعى بالحسن إلى المنصور، وما زال به حتّى أوغر صدره عليه وتنكّر له، فعزل المنصور الحسن عن ولاية المدينة.

---

١. المصدر السابق: ١٩٨.

وبعد فترةٍ تبيّن للمنصور كذب هذا الساعي، فردّ الحسن إلى عمله، وأحسن صلته، واعتذر إليه، وردّ عليه أمواله التي صادرها[١].

وأبى الحسن مع ذلك أن يعاتب ابن أبي ذئب، وكان قد قصده، فعفا عنه وأمدّه بمال وأهداه، وهذه طبيعة هذا البيت الكريم[٢].

ويقال: إنّ الذي ردّ للحسن بن زيد اعتباره وأعاده إلى عمله هو المهدي، وليس المنصور، وكان ذلك في اعتذار طويل له[٣].

وقد تولّى الأنور المدينة وعمره ١٧ سنة، وظلّ فيها ستّ سنوات، من عام ١٥٠ إلى عام ١٥٥هـ، ثم لم ينجُ من اضطهاد العباسيّين، فعُزل عن الولاية، وأُودع السجن سنة ١٥٦هـ إلى أن ولي المهدي الخلافة فأخرجه من السجن عام ١٥٨هـ[٤].

وكان والد الحسن ـ الإمام زيد ـ قد توفّي وترك ديناً قدره أربعة آلاف دينار، فحلف الحسن ألّا يظلّ رأسه سقف، إلّا سقف مسجد رسول الله ﷺ أو بيت رجل يكلّمه في حاجة، حتّىٰ يقضي دين أبيه[٥]. ووفّى بيمينه، وأدّىٰ دين والده.

ذرّية الحسن

وقد أعقب الحسن الأنور من الذرّية الكثير من الأبناء البررة.. وهم كما يسمّيهم الأستاذ صلاح عزّام[٦]: أبا القاسم، ومحمداً، وعلياً، وإبراهيم، وزبيراً، وعبدالله، ويحيى،

---

١. والمشهور أنّ المنصور لم يردّه ويعيد إليه أمواله، بل حبسه ما يقارب السنتين، وضيّق عليه حتّى وفاته، فلمّا ولي المهدي الخلافة قام بإخراجه من السجن، وقرّبه وأعاد إليه أمواله. راجع: تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩، تهذيب التهذيب ٢: ٢٧٩، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨: ٢٩٤، أعيان الشيعة ٥: ٧٥.

٢. راجع خطط المقريزي ٤: ٣٢٦.

٣. نفيسة العلم والمعرفة لصلاح عزام: ١٩.

٤. انظر كتاب السيدة نفيسة لتوفيق أبو علم: ٥٨ وما بعده، من تحقيقنا، طبع ونشر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

٥. راجع خطط المقريزي ٤: ٣٢٥.

٦. نفيسة العلم والمعرفة: ٢٥.

وإسماعيل، وأسماء، وأم كلثوم، ونفيسة. وكلّهم من أُمّ سلمة، وهي زينب ابنة عمّه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وكان الحسن محبّاً لها، مهتمّاً بأمرها.

وقد كانت شغله الشاغل في معتقله علىٰ عهد المنصور، فكان يسأل عنها، ويتابع ما حفظت من كتاب الله وعلوم دينها.

منزلته العلمية

كان الحسن عالماً عاملاً بعلمه، وقد ورث عن أبيه كثيراً من العلوم، وأصبحت له ألقاب تشير إلى منزلته العلمية، فكان يقال له: شيخ أهل البيت، وشيخ الشيوخ، والعابد، والفاضل، والشريف.

كما كان ثقةً راوياً، ومن تلاميذه: الإمام مالك بن أنس، ومحمد بن إسحاق، ومحمد بن أبي ذئب المحدّث الجليل ـ وهو غير ابن أبي ذئب الذي وشىٰ به ـ ومن تلاميذه أيضاً: أبو أُويس ووكيع.

وشيوخه: منهم أبوه الإمام زيد، وابن عمه عبدالله بن الحسن، وأخذ عن عكرمة، ومعاوية بن عبدالله بن جعفر.

وجاء في كتاب الكامل[1] للمبرّد: أنّ حسن الأنور ذهب إلى الحجّ فلفت نظره شخص يزاحم الحجيج، فأشار إليه وقال: خرقاء وجدت صوفاً. ومعنىٰ ذلك أنّه يفعل فعلاً يضرّ أكثر ممّا ينفع، وكأنّه بذلك يفسد حجّه؛ لأنّ المزاحمة في الحج مكروهة.

تشدّده في إقامة معالم الدين

وكان الحسن في أثناء ولايته مثالاً في إقامته الحدود، ومراعاة الآداب الدينية والشرعية. وحدث أنّ عزل عبدالله بن مسلم بن جندب الهزلي عن إمامة الصلاة في مسجد الأحزاب.

---

١. الكامل ٤: ٢٢١ وقد تقدّم ذكره.

فقال له: لم تعزلني عن منصب أبي وأجدادي؟

فقال: إنّما عزلك يوم الأربعاء.

وكان هذا اليوم مسموحاً فيها للنساء بالصلاة في المسجد، وقد تعرّض هذا الرجل لبعض النساء بأبيات غزلية، فعاقبه الأنور عليها بالعزل[١].

وكان هناك شاعر اسمه ابن هرمة له مع الحسن أحاديث ظريفة، فلمّا ولي الحسن إمارة المدينة قال له: أنا لست كمن باعك دينه رجاء مدح، أو خوفاً من ذمّ، فقد رزقني الله عزّ وجلّ بولادة نبيّه الممادح، وجنّبني المقابح، وإنّ من حقّه عليّ ألّا أغضي عن تقصير في حقّ ربّي، وأنا أقسم بالله لئن جيء بك سكران لأضربنّك حدّاً للخمر وحدّاً للسكر، ولأزيدنّ لموضع حرمتك بي، فليكن تركك لها لله تعالى، تعن عليها، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم[٢].

كرمه

وكان كريماً سخياً معطاءً. حكى الخطيب البغدادي قال: جاءه في الصباح الباكر مصعب بن ثابت الزبير ومعه ابنه عبدالله، وكان الحسن يهمّ بالركوب إلى مالٍ له بالغابة في الطريق إلى مكّة، واستجارا به حتّى يدفع عنهما ديناً مستحقّاً. فأرسل الحسن إلى صاحب الدين واسمه ابن ثوبان، فسأله، فقال: على الشيخ سبعمائة، وعلى ابنه مائة[٣]. فقضىٰ عنهما الدين، وأعطاهما مائتي دينار.. وهذا مجرّد مثل من أمثلة كثيرة.

وفاته

عاش الأنور حياةً مديدةً، تقدّر بخمسة وثمانين عاماً... ويذكر الرواة في مكان وفاته أقوالاً متعدّدة.

---

١. معجم البلدان ٥: ٨٦ ـ ٨٧.

٢. خطط المقريزي ٤: ٣٢٦.

٣. تاريخ بغداد ٧: ٣١٠ ـ ٣١١.

فقد قال ابن خلّكان: مات بمصر، لكنّه غير مشهور[١]. وقيل: إنّه توفّي ببغداد ودُفن في مقبرة الخيزران[٢]. وقيل: مات بالحاجر أثناء حجّه مع المهدي عام ثمانية وستين ومائة[٣].

ويذكر ابن إياس في تاريخه: أنّ السيدة نفيسة دخلت مصر مع أبيها الأمير حسن في بعض الأقوال[٤].

ويؤكّد الشيخ عبدالخالق سعد في كتابه الجواهر النفيسة: أنّ الإمام الأنور جاء مصر مع ابنته نفيسة بعدما زارا معاً قبر الخليل إبراهيم، وعاش في مصر القديمة بدءاً من السبت السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائة.

إلّا أنّ هذا التاريخ ليس دقيقاً؛ لأنّ الأنور مات قبل ذلك بكثير.. ويقول: لكن الملاحظ أنّ أسرة سيدي حسن الأنور فيها الكثيرون الذين دفنوا بمصر.

بل إنّ البعض يقول: إنّ زيداً مدفون في ضريح ابنه سيدي حسن الأنور.. الذي مات عن تسعين عاماً.. والبعض يقول: إنّ الضريح ليس لزيد الأبلج، وإنّما هو لزيد بن حسن الأنور.

كما يقولون: إنّ السيدة نفيسة بنت زيد الأبلج مدفونة في مصر، كما أنّ محمداً الأنور أخا حسن الأنور، مدفون في مشهده القريب من مسجد السيدة سكينة، على يمنة الذاهب إلى السيدة رقيّة، والسيدة نفيسة.. كما يؤكّد ذلك كتاب العدل الشاهد في تحقيق المشاهد.

والسؤال ما زال مطروحاً: هل الحسن الأنور مدفون في مصر؟!

---

١. وفيات الأعيان ٢: ١٦٨.

٢. قاله محمد بن خلف وكيع. راجع تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩.

٣. وهو القول المشهور بين أصحاب التراجم والنسّابة. راجع تاريخ بغداد ٧: ٣٠٩ و٣١٣، عمدة الطالب: ٧٠، المنتظم ٨: ٢٩٤.

٤. تاريخ ابن إياس: ٢١ و٢٣ ط. الشعب، وابن إياس ينقل ذلك عن وفيات الأعيان لابن خلّكان.

يؤكّد فضيلة الشيخ عبدالغفور محمود جعفر ـ شيخ جامع حسن الأنور، والذي يبحث دائماً في تاريخه ـ أنّ مخطوطاً ينقل عن ابن النحوي قصةً طويلةً مفادها: أنّ السيد حسن الأنور توفّي في ريف مصر، وإن صحّ هذا الكلام فقد نقل رفاة الحسن إلى مسجده الحالي.

ويتّفق مع رأي الشيخ ما أورده الشيخ الصبّان في كتابه «إسعاف الراغبين»[١] نقلاً عن الشعراني في مننه: من أنّ الإمام حسن الأنور والد السيدة نفيسة في التربة المشهورة قريباً من جامع القرّاء بين مجراة القلعة وجامع عمرو. وأنّ الذي أشهر هذه التربة وبنىٰ عليها قبّةً ـ كما يرىٰ علي مبارك[٢] ـ حضرة عبدالرحمن كتخدا، أحسن الله إليه، وأسبل سرادقات لطفه عليه.

من هذا يتّضح اختلاف الكتّاب حول دفن الحسن الأنور في مصر، وإن كان الإمام الشعراني يرىٰ «أنّ الروح في البرزخ كمن يسبح في نهرٍ جارٍ، يطفو في أيّ مكان» أي يظهر في أيّ مكان.

والواقع أنّ هناك شواهد كثيرة تدلّ على وجود لآل البيت في مصر، خاصّةً الذين ثار حول دفنهم الخلاف. والحسن الأنور من خلال ضريحه ومسجده في التاريخ والعمار، تجعلنا نقول: إنّ إثبات دفنه أو نقل جسده الطاهر إلى مصر يحتاج إلى أبحاث المجتهدين.

إنّ أقدم تاريخ عُثر عليه لجامع الإمام حسن الأنور، منذ أيام دولة المماليك البحرية، في القرن الثامن الهجري، وفي عصر الناصر محمد بن قلاوون، أي منذ حوالي ستة قرون، وليس معنىٰ ذلك أنّ الجامع قد بدأ بناؤه في هذا التاريخ، وإنّما قبل ذلك. يدلّ على ذلك ما ورد في خطط علي مبارك[٣]، إذ يقول: «... عمّره القاضي

---

١. إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ٢٣٧، وانظر لواقح الأنوار ٢: ٢٧١.

٢. الخطط التوفيقية ٥: ٢٧١ ـ ٢٧٢.

٣. المصدر السابق: ٢٧٥.

فخر الدين محمد بن فضل الله، ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون، وانتهت عمارته سنة ٧١٢هـ، وأُقيمت فيه الجمعة حينئذٍ، وله أربعة أبـواب، وفـيه ١٣٧ عموداً، وذرعه أحد عشر ألف ذراع وخمسمائة ذراع، بذراع العمل، وما برح من أحسن المنتزهات إلى أن خرب ما حوله».

لكن لسببٍ أو لآخر، فإنّ ما أقامه قلاوون سقط أيضاً، مع أنّ الجامع كما يقول الشعراني: «كانت مساحته كبيرة، وكان حوله بساتين مـن أجـمل المـنتزهات...» ويؤكّد ذلك علي مبارك حين يقول: «... ثم زالت آثاره بالكلّية، وقيل: إنّ الجامع كان محلّ السبع سواقي ذات البناء الضخم بجوار فم الخليج، التي تنقل الماء من النيل إلى مجراة القلعة. ويدلّ علىٰ ذلك ما اشتهر من أنّ الفرنسيين زمن دخولهم مصر، وجدوا هناك كثيراً من العمد الرخام الضخمة وأحجاراً ونحو ذلك»[1].

لكن عمارة المماليك سرعان ما انهارت هي أيضاً بـعد حـوالي أربـعة قـرون ونصف، وظلّ الجامع متخرّباً حتّىٰ تجدّد في عام ١٢٨٠هـ ـ وكما جاء في خـطط علي مبارك[2] ـ على يد ناظره الشيخ أبي زيد إسماعيل ـ كما هو مرقوم بأعلىٰ بابه الغربي ـ عليه قبّة حديثة، وتحت تابوته حجر من الرخام مكتوب عليه اسم: سيدي حسن الأنور، وبجوار هذا الضريح ضريحان: أحدهما لزيد الأبلج، واسمه منقوش على قطعة حجر تحت تابوته.. والآخر لجعفر. ولا يُعرف من هو جعفر حتّى الآن.

لكن هذا التجديد لا ينفي أنّ الأمير عبدالرحمن كتخدا في القرن الثـاني عشـر الميلادي قد بنىٰ قبّة على ضريح سيدي حسن الأنور، كما سبق أن أسلفنا.

وكما هو ظاهر فإنّ المسجد الحالي بمقارنته بـما فـي أوراق الأوقـاف... فـإنّ مساحته قلّت كثيراً، بل إنّه الآن ليس حوله خضرة سوىٰ نخلة واحدة، بالرغم ممّا

---

١. المصدر السابق: ٢٧٨.

٢. المصدر نفسه: ٢٧٩.

يقوله علي مبارك من أنّه كان «بجواره شجرتان من اللبخ ونخلات». وحتى الخمسينيات من القرن العشرين وصل المسجد إلى حالةٍ يرثىٰ لها؛ ممّا دفع بعض أهل الحي إلى الاشتراك في تجديده وتوسيعه.

وهكذا تبدو أهمّية جامع الأنور.. وأهمّيته تكمن بالطبع في الضريحين الموجودين به لحسن الأنور ووالده، اللذين ينتميان للحسن السبط، وهو فرع كثير من أوراقه المضيئة علىٰ تراب مصر.

٩ ـ الإمام زيد
ابن الإمام علي زين العابدين عليه السلام

بقلم

حنفي المحلاوي

د. سعاد ماهر

الإمام زيد بن علي زين العابدين عليه السلام[1]

حنفي المحلاوي

من هو

حين يأتي الحديث عن الإمام زيد بن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين رضي الله عنهم أجمعين، لابدّ وأن نقترب بذات الحديث من والده الإمام علي زين العابدين... وذلك لعدّة أسباب، أولها: أنّ المقبرة أو الضريح أو المشهد الموجود بالقاهرة الآن... يُعرف باسم ضريح زين العابدين ابن علي.. وقد نسب إليه حي بأكمله يقع بالقرب من حي السيدة زينب. أمّا السبب الثاني والرئيسي فهو أنّ الإمام علي زين العابدين، هو الابن الذي نجّاه الله ربّ العالمين من بين يدي يزيد بن معاوية... وعن طريقه زادت ذرّية الإمام الحسين عليه السلام، وأنارت الدنيا بأخلاقها وعلمها وصفاتها الطيّبة.

وبطبيعة الحال فإنّ الحديث عن الأب لاشكّ سوف يقرّبنا كثيراً من الابن، وبالتالي التعريف به..

وكما هو معروف تقريباً ـ وفق الإجماع ـ فإنّ الإمام علي زين العابدين قد ولد

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت».

في المدينة، وفي بيت جدّته السيدة فاطمة الزهراء، وذلك في يوم الخميس السابع من شعبان في السنة السابعة والثلاثين من الهجرة[١]

وقد علّمه والده الإمام الحسين علوم الدين وهو طفل، فنما والدين يملأ عقله وقلبه، وكما مرّ علينا من قبل، فقد شاء القدر أن يسافر مع والده الإمام الحسين ليشهد موقعة كربلاء، واستشهاد أبيه، بل كان هو نفسه قاب قوسين أو أدنىٰ من الموت لولا موقف عمّته السيدة زينب رضي الله عنها.

اشتغل الإمام علي زين العابدين بالتجارة، ففاضت عليه بالرزق الوفير... وقد خصّص جانباً كبيراً من ماله لتحرير الموالي، الذي كان يشتريهم ويؤدّبهم بأدب الإسلام، ثم يعتقهم لوجه الله.

والغريب أنّ الإمام الشعراني قد ذكر في طبقاته أنّ علياً زين العابدين، عندما مات نقل جثمانه الشريف إلى القاهرة في عام ٥٢٩ هـ[٢]. بل وهناك رواية أُخرىٰ تقول: إنّه وفد إلىٰ مصر بصحبة عمّته السيدة زينب![٣].

هذا عن الأب.. أمّا عن زيد بن علي زين العابدين، فقد ولد عام ثمانين من الهجرة[٤]،

---

١. الإجماع علىٰ محلّ ولادته عليه السلام وهي المدينة، أمّا تاريخ ولادته عليه السلام فهناك اختلاف فيه بين العلماء، فقيل: الخامس من شعبان، وقيل: السابع منه، وقيل: التاسع منه، وقيل: بل النصف من جمادى الأولى. وهكذا في سنة ولادته، فقيل: ٣٦هـ وقيل: ٣٧ وقيل: ٣٨. راجع سيرة المعصومين: ٢٦ والأنوار البهية: ١٠٧.

٢. كذا.

٣. والمشهور أنّه توفّي عليه السلام بالمدينة يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ٩٤ أو ٩٥ للهجرة وله يومئذ ٥٦ أو ٥٧ سنة ودفن بالمدينة، وقبره في البقيع في القبة التي فيها العباس وعمه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. وقد سمّيت سنة وفاته بسنة الفقهاء؛ لكثرة من مات فيها من العلماء والفقهاء، حيث مات بعده: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير.. راجع ارشاد المفيد: ٢٥٤، توضيح المقاصد: ٣ وما بعده، تاج المواليد: ٣٨، نور الأبصار: ٢٨٦، مسار الشيعة: ٤٥، تذكرة الخواص: ٣٣٢، الأنوار البهية: ١٢٧.

٤. اختلفت الأقوال في سنة ولادته، فقيل: ولدٰ سنة ٥٧هـ، وقيل: ٦٦ أو ٦٧هـ، وقيل: ٧٨هـ، وقيل: ٨٠هـ كما في تقريب التهذيب لابن حجر. لكن رواية شراء المختار لأمه وبعثه إياها إلى أبيه علي بن
←

وأُمه أُم ولد... وهي امرأة كانت مملوكة لأبيه، وإليه تنسب طائفة الزيدية، وهي إحدى الطوائف الشيعية، وأكثرها اعتدالاً وقرباً إلىٰ أهل السنّة.

وكان خلفاء بني أُمية يهابون زيد بن علي زين العابدين ويخشونه، ويقولون عنه: إنّ له لساناً أحدّ من السيف، وكلاماً أبلغ من السحر[1].

وعندما نقرأ سيرة هذا الإمام الذي ينتسب إلىٰ آل البيت... نجد أنّه حاول في مسيرته نحو تحقيق حلم الخلافة اتّباع خطوات جدّه الإمام الحسين.. ثم جدّه الأعلى الإمام علي رضي الله عنهم أجمعين.

وقد بدأ تحقيق أولىٰ خطوات الحلم بتكوين جيش صغير من مجموعة من أتباعه... ثم ثار بعد ذلك إلى الكوفة، ولكنّه همّ بالرجوع إلى المدينة المنوّرة، فتتبّعه أهل الكوفة وأقنعوه بالبقاء لمحاربة بني أُمية، وتحقيق حلمه وحلم أجداده!!

والغريب فيما يرويه التاريخ: أنّ أهل الكوفة قد أعطوه ميثاقاً... رغبةً منهم في أن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أُمية، وما زالوا علىٰ ذلك حتّىٰ أعادوه إلى الكوفة... وهم في ذلك قد اتّبعوه معه نفس ما اتّبع مع جدّه المباشر الإمام الحسين، وجدّه الأكبر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولمّا علم بذلك الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك[2]... حدّث في شأنه أمير

← الحسين عليه السلام. والحديث الحاكي عن سبب تسميته بزيد يدلّان على أنّها علقت به في السنة التي بعثها المختار إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، والمختار ـ كما هو معروف ـ قُتل سنة ٦٧هـ، فلا يمكن والحال هذه أن تكون ولادته في سنة ٨٠هـ ولا سنة ٧٥هـ كما يرويها صاحب الحدائق الوردية، ولا سنة ٧٨هـ كما في تاريخ ابن عساكر.

١. انظر زهر الآداب وثمرة الألباب ١: ٧٢، والروض النضير ١: ٧٢ ـ ٧٣.

٢. هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، من ملوك الدولة الأموية، ولد في دمشق ٧١هـ، وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ. نشبت في ايامه حروب هائلة، خصوصاً مع خاقان الترك فيما وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان والاستيلاء على بعض بلاده، فاجتمع في خزائنه من المال ما لم يجتمع في خزانة أحد من ملوك بني أمية، توفي بدمشق سنة ١٢٥هـ. (اعلام الزركلي ٨: ٨٦)

الكوفة التابع له... يوسف بن عمر الثقفي[١]، الذي أعدّ بدوره جيشه لملاقاة زيد ابن الإمام علي زين العابدين، وجرىٰ بين هذين الفريقين قتال[٢] تفرّق فيه أصحاب زيد، وبقي منهم فئة قليلة من أهله يقاتلون معه قتالاً شديداً، حتّى سقط هو الآخر شهيداً... وكان ذلك في شهر صفر عام ١٢٢هـ، وقيل: ١٢١هـ.

ووقع له ما وقع لجدّه الإمام الحسين... حيث قطعوا رأسه وأرسلوا به إلى الخليفة في دمشق!. وقد دُفن جسده في الكوفة بعد انتهاء المعركة..

أمّا رأسه الشريفة قد اختلف الرواة في مكان دفنها، فقيل: إنّ هذه الرأس حملت إلى الكوفة ثم أُحرقت، وذُري رمادها في الفرات![٣]. وقيل أيضاً: إنّه قد بعث بها إلىٰ

---

١. يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي، من جبابرة الولاة في العهد الأموي، ولي اليمن لهشام سنة ١٠٦هـ، ثم نقله هشام إلى ولاية العراق سنة ١٢١هـ، وما لبث أن أضاف إليه إمرة خراسان، فأقام بالكوفة بعد أن قتل سلفه في الإمارة خالد بن عبدالله القسري تحت العذاب واستمر حتّى أيام يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فعزله أواخر سنة١٢٦هـ وقبض عليه فحبسه بدمشق، ولبث إلى أن أرسل إليه ابن خالد القسري من قتله بالسجن ثأراً لأبيه. كان شديداً ظلوماً، يضرب بالتيه والحمق (وفيات الأعيان ٢: ٣٦٠، الاعلام ٨: ٢٤٣).

٢. فقد جرت جملة معارك انتهت أخيراً باستشهاده. وكان قد بايعه أربعون ألفاً، ولم يبق معه سوىٰ ثلاثمائة رجل، حتّىٰ إذا كان عند جنح الليل رُمي زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرىٰ، فنزل السهم في الدماغ. راجع حوادث سنة ١٢١هـ من كتب التاريخ: الطبري وابن الأثير والمسعودي.

٣. روى الصدوق في أماليه من المجلس (٦٢) حديث ٢ بسنده إلى محمد بن أبي عمير عن حمزة بن حمران قال: دخلت إلى الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقال لي: يا حمزة من اين أقبلت؟ قلت: من الكوفة، فبكى حتّى بلت دموعه لحيته، فقلت: يا بن رسول الله ما لك أكثرت البكاء؟ قال: ذكرت عمي زيد وما صنع به فبكيت، فقلت له: وما الذي ذكرت منه؟ فقال: ذكرت مقتله، وقد أصاب جبينه سهم فجاء ابنه يحيىٰ فانكبّ عليه، وقال له: ابشر يا أبتاه، فإنّك ترد علىٰ رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم، قال: أجل يا بني، ثم دعي بحداد فنزع السهم من جبينه، فكانت نفسه معه، فجيء به إلى ساقية تجري عند بستان زائدة، فحفر له فيها ودفن، وأُجري عليه الماء، وكان معهم غلام سندي لبعضهم، فذهب إلىٰ يوسف بن عمر من الغد فأخبره بدفنهم إياه، فأخرجه يوسف فصلبه في الكناسة أربع سنين، ثم أمر به فأُحرق بالنار وذري في الرياح.

وبنحوه ذكر أبو الفرج في المقاتل، والمسعودي في مروج الذهب.

هشام بن عبدالملك فنصبها على باب دمشق ثم أرسلها إلى المدينة[١].. أمّا الكندي فيؤكّد قدوم الرأس إلى مصر، كما قيل في شأن هذه الأمر في كتاب «الجوهر المكنون» أنّه بعد قدوم رأسه إلى مصر، طيف بها، ثم نصبت على المنبر الجامع بمصر أي «جامع عمرو» في سنة ١٢٢هـ، فسُرقت ودُفنت في هذا الموضع، إلى أن ظهرت وبُني عليها مشهد في الدولة الفاطمية.

صفاته وبلاغته

كان من شأن شخصية فريدة مثل شخصية زيد بن علي زين العابدين، أن تتأثّر كثيراً في صفاتها وأخلاقها بما كان عليه والده علي زين العابدين الذي أُطلق عليه هذا اللقب؛ نظراً لأنّه كان يصوم النهار ويقوم الليل، أي يتعبّد آناء الليل وأطراف النهار.. كما لقّب والده أيضاً بشيخ الساجدين؛ لأنّه كان يطيل السجود لله تعالى، وكذلك لقّب بشيخ البكّائين؛ لأنّه كان يبكي حتّى تخضلّ لحيته بالدموع.

وقد قدّم لنا وللتاريخ أبو إسحاق وصفاً فريداً للإمام زيد، قال فيه: «رأيت زيد بن علي فلم أر في أهله مثله، ولا أعلم منه ولا أفضل من زيد بن علي، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد ولا أبين قولاً، لقد كان منقطع القرين..»[٢].

وتنسب إليه طائفة الزيدية، وهي من أكبر فرق الشيعة وأكثرها اعتدالاً[٣].. ولعلّ

---

١. الخطط المقريزي ٣: ٣٣١، النفحة العنبرية: ٧٣.

٢. القول منسوب إلى أبي حنيفة. راجع تاريخ دمشق ٢٣: ٢٩٩، خطط المقريزي ٣: ٣٣٥، الروض النضير للسياغي ١: ٩٨.

٣. وهي الطائفة القائلة بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في وقته، ثم ابنه يحيىٰ بن زيد بعده. تشتمل على جملة عقائد وأحكام تميّزت بطابع خاصّ بها ميّزها عن غيرها من الطوائف الأخرىٰ. ففي التوحيد تقول هو عدم شرك الغير بالله تعالىٰ، وتقول: إنّه ليس المراد من الوحدة العددية التي يتركب بها الأعداد، ويعلّلون ذلك بقولهم: إنّ البرهان قام عن طريق التفكير والتدبير، كما أنّ معرفة الله هو اليقين ←

ذلك يرجع في الاساس إلىٰ إمامها زيد بن علي، الذي تتلمذ عليه واصل بن عطاء، فتأثّر به في علمه، وقوة حجّته، وسلامة حكمه. والطائفة الزيدية الشيعية هذه[1]... قد انتشرت في طبرستان واليمن.

وسبق أن أوضحنا كيف كان الأمويون يخشون علىٰ أنفسهم من لسانه لفصاحته، وممّا يروىٰ في هذا السياق... تلك المحاورة التي وقعت بين الخليفة الأموي هشام

← عليه، ويكون على وجهين: إثبات ونفي معاً. فالاثبات هو اليقين به والاقرار به، والنفي هو نفي التشبيه عنه. وأمّا في العدل فتقول: إنّ الله لا يفعل القبيح، ولذا فهو لايعذّب أحداً إلّا على ذنب ارتكبه أو جرم اقترفه، وهو لايحب الفساد، ولايخلق أفعال العباد، كذلك فهو لايثيب أحداً إلّا بعمله. وتقول أيضاً بالوعد والوعيد، وأنّه لايخلف وعده. وتؤمن بالمنزلة بين المنزلتين. وأمّا الإمامة فعندها من أفرض الفرائض وأوكدها، وهي نوع من النبوة، وهي تأتي على طريقين:

١ ـ اليقين: وهي لاتكون إلّا في أهل البيت.

٢ ـ والترشيح: بمعنى أن يختار من آل البيت ممّن تتوفّر فيه شروط الإمامة. وآل البيت سواء من نسل الحسن أو الحسين واحد. ولا تشترط في الإمامة العصمة، ولا أفضل أهل زمانه، وانّما شرطه أن يكون من ولد فاطمة، وأن يكون شجاعاً عالماً، يخرج بالسيف. وبعض الزيدية أجاز الإمامة في غير الفاطميين من ولد علي عليه السلام وهو من أقوالهم الشاذة.

هذا ويذكر أنّ الزيدية تعتقد بإمامة علي بن أبي طالب، إلّا أنّ اسامته لم تكن عن طريق نصّ الرسول صلى الله عليه وآله، بل تراه إماماً حين دعا إلى نفسه، فهو بالانتخاب والوصف إمام لا بالنصّ. وأمّا فقههم فيأخذونه من فقه زيد الذي هو قريب من فقه الأئمة المشهورين في وقته، فلم تخرج عن فقهاء الأمصار، ومنهاجهم في الاستنباط لايبعد عن مناهج الأئمة المعاصرين كأبي حنيفة وابن أبي ليلىٰ والزهري. فهم يأخذون بالكتاب ثم السنّة. وعندهم نصوص الكتاب مراتب وكذلك السنّة. فإن لم يكن فالقياس، ويدخلون الاستحسان والمصالح المشتركة في القياس، ويتمسّكون بفتح باب الاجتهاد. ولايقولون بالتقية بمكان. وبذلك يتبين أنّ الزيدية ليسوا من الشيعة. كما أنّهم ليسوا من السنّة ولا من الخوارج، بل هم طائفة مستقلة بين الشيعة والسنّة. راجع معجم الفرق الاسلامية شريف يحيىٰ الأمين ١٢٧ ـ ١٢٩، وتاريخ الفرق الاسلامية للعلّامة محمد خليل الزين ١٧٧ ـ ١٨١.

١. تقدّم في الهامش السابق بأنّ الزيدية ليست من الشيعة؛ لأنّهم لايوجبون النصّ على الإمام، ولايشترطون الإمامة من ولد الحسين عليه السلام، ويجيزون تقديم المفضول، كما أنّهم ليسوا من السنّة، لأنّهم حصروا الإمامة في ولد فاطمة الحسن والحسين، ويعتقدون بإمامة علي بن أبي طالب، فليسوا اذاً من الخوارج. هذا إلى أنّهم يأخذون بفقه أبي حنيفة، وأنّ فقههم أقرب إلى الفقه الحنفي منه إلى الامامي.

بن عبدالملك وبين الإمام زيد. فقد حدث أن اجتمع الخليفة بالإمام زيد، فـقال له هشام: بلغني أنّك تريد الخلافة، وأنت لاتصلح لها؛ لأنّ أُمك أُم ولد!

فردّ عليه زيد قائلاً: كان لنبي الله إبراهيم ولدان، أحدهما: إسماعيل من هاجر، وهي أمة، أي: مملوكة، وإسحاق من حرّة، وهي سـارة، فأخـرج الله مـن صـلب إسماعيل خير ولد آدم، وهو جدّنا محمد صلى الله عليه وآله.

فقال له هشام: قم.

فقال زيد بن علي زين العابدين: إذن لاتراني إلّا حيث تكره![1].

رحم الله الإمام زيد بن علي زين العابدين، فقد لاقىٰ مثل ما لاقاه جدّه الإمام الحسين، وجدّه الأعلىٰ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وكان هذا الإمام العابد ـ ومنه ما أكّده عبدالرحمن الشـرقاوي فـي كـتابه عـن الأئمة ـ يدعو دائماً إلى إعمال العقل، فالعقل وحده هو الذي يحكم على الأفـعال بالحسن أو بالقبح، وكان الحكّام آنذاك يـحاولون أن يـخنقوا الفكـر والرأي، وأن يعطّلوا العلم والعقل؛ ليفرضوا على الأمة قبول ما يفعلون.

وبقدر ما كانت الأمة تحتقر صنّاع الزيف من أشباه الفقهاء، كانت تكـبِّر كـبار الفقهاء والعلماء الشرفاء، والمفكّرين الأحرار؛ لذلك كان الخليفة هشام بن عبدالملك بن مروان وعمّاله على الأمصار يتربّصون بهؤلاء الشرفاء.. وقد خافوا ذلك وابتعدوا عن السياسة.. ولكن الإمام زيد بن علي زين العابدين، قد سلك طريقاً آخر.. طريق البحث عن الحقيقة.. وأعلن أنّه لايحقّ لمسلمٍ أن يقبل هديةً أو عطاءً من حاكمٍ ما لم يكن عادلاً يحقّق مصالح الأمة... ثم أذن في الناس بأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي، وأصل من أصول الدين... كما كان يصرّح في مجالسه

---

١. روى تفصيل القصة ابن عساكر في تاريخه ٢١: ٣٣٣ ـ ٣٣٤، والمسعودي في مروج الذهب ٣: ٢٠٦، وابن حجر في الصواعق: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

كثيراً برأيه في شروط الخلافة.. وجاهر بأنّ الخليفة لايكون خليفة لرسول الله ﷺ وأميراً للمؤمنين إلّا في ضوء هذه الشروط[١].

وصف المشهد

هناك اتّجاه عام لدى العديد من المؤرّخين... بشأن جثمان كلٍّ من الإمام علي زين العابدين، ورأس ابنه زيد... إذ أكّد معظم هؤلاء أنّ المقام أو الضريح أو المشهد الموجود حالياً بحيّ زين العابدين بالسيدة زينب، إنّما يحوي جثمان كلٍّ من الإمام زين العابدين ورأس ابنه زيد.. وقد أكّد ذلك الكاتب الصحفي الإسلامي الراحل عبدالمنعم قنديل في كتابه حياة الصالحين عندما قال: «وحين يدخل الزائر إلىٰ مقامه يجد عمامتين على المقام.. الأولى تشير إلىٰ زين العابدين، والثانية إلى ابنه زيد الذي قُتل في الكوفة ونقل رأسه إلى القاهرة».

وممّا يقال بشأن مقبرة زيد ابن الإمام علي زين العابدين... إنّ والي مصر حنظلة بن صفوان هو الذي دفن الرأس الشريف بالمكان الذي يُعرف الآن بمشهد الرأس بحيّ زين العابدين بالقاهرة.

هذا المشهد أُنشئ في بادئ الأمر داخل بناء قديم لم يبق منه الآن إلّا مدخله بالواجهة القريبة في الفتحة الصغيرة، المركّب فوقها مصراع واحد من الجرانيت، ومحاط بحلقٍ من الجرانيت أيضاً. ويوجد بالطرقة الداخلية للمشهد عقد فاطمي علىٰ يمين الداخل للمصلّىٰ والمسجد الحالي... عدا بقايا المبنى القديم.

هذه المقبرة أو هذا المشهد ـكما يحلو لرجال الآثار تسميته ـ يوجد الآن بحيّ زين العابدين، نسبة إلى العصر الإسلامي باسم «الحمراء القصوىٰ» ـوفق ما أورده المقريزي في خططه ـ هي منطقة تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط ـمصر

---

١. تقدّم آنفاً الكلام حول هذه الشروط.

القديمة الآن ـ وعليها أسّس العباسيون مدينة العسكر ثانية عواصم مصر الإسلامية.

أمّا المسجد الملحق به المقبرة، والمعروف باسم مسجد زين العابدين، فيرجع تاريخه إلىٰ أوائل القرن التاسع عشر، حيث جدّده وأعاد معظم مبانيه عثمان أغا مستحفظان.. وقد بنىٰ له وللسيدة حرمه حفيظة هانم مقبرةً بالمسجد، حيث دفن بها بعد وفاته عام ١٢٣١هـ/١٨١٦م.. كما لحقته زوجته بعد وفاته، حيث توفيّت عام ١٢٤١هـ/١٨٢٦م... وذلك كما هو واضح ممّا كُتب علىٰ قبر كلٍّ منهما.

أمّا العمارة الفاطمية لهذا المسجد ولهذه المقبرة فلم يتبقّ منها إلّا لوحة تذكارية مثبتة علىٰ مدخل المسجد القديم بالواجهة الغربية، وقد كُتب عليها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا مشهد الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، صلوات الله عليهم أجمعين، في سنة ٥٤٩هـ».

أمّا القبّة التي تعلو المقبرة فترجع إلى العصر المملوكي... حيث شُيّدت في القرن الثامن الهجري، وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري شيّدت مقصورة جديدة للضريح، وهي تعتبر ـ علىٰ حدّ قول الدكتورة سعاد ماهر ـ نموذجاً لصناعة الحديد المزخرف في مصر... كُتب عليها: «أنشأ هذه المقصورة سعادة محمد قفطان باشا سنة ١٢٨٠هـ، وهو الذي كسا عتبة باب القبّة ببلاطات من القيشاني الأزرق العثماني الجميل».

ويؤكّد الكاتب الإسلامي الراحل عبدالمنعم قنديل في حديثه عن الإمام علي زين العابدين علىٰ أنّ الزائر حين يدخل إلى المقام يجد عمامتين على المقام.. الأولى تشير إلى الإمام علي زين العابدين... والثانية تشير إلىٰ زيد ابنه الذي قُتل في الكوفة ونقل رأسه إلى القاهرة.

وكان لايمكن لنا أن نترك البحث عن هذه المقبرة دون أن نذكر ما جاء في كتاب خطط المقريزي، تحت عنوان: «ذكر المشاهد التي تتبرّك الناس بزيارتها»[1] وممّا

١. خطط المقريزي ٣: ٣٣٨.

ذكره المقريزي في هذا الشأن قوله: هذا المشهد فيما بين الجامع الطولوني ومدينة مصر، تسمّيه العامة مشهد زين العابدين وهو خطأ، وإنّما هو مشهد رأس زيد بن علي المعروف بزين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب حين أنفذه هشام بن عبدالملك إلىٰ مصر، ونصب على المنبر بالجامع، فسرقه أهل مصر ودفنوه في هذا الموضع.

وقال الكندي في «كتاب الأمراء»: وقدم إلىٰ مصر في سنة اثنتين وعشرين ومائة أبو الحكم بن أبي الأبيض القبس خطيباً برأس زيد بن علي رضوان الله عليه، يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة، واجتمع الناس إليه في المسجد.



مرقد زين العابدين[1]

د. سعاد ماهر

يوجد هذا المشهد في الحي المعروف الآن بحي زين العابدين، وكان يُعرف في أوائل العصر الإسلامي باسم «الحمراء القصوىٰ»، وتقع هذه المنطقة إلى الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط ـ مصر القديمة الآن ـ وعليها أسّس العباسيون مدينة العسكر، ثاني عواصم مصر الإسلامية.

والمسجد الموجود حالياً يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، فقد جدّده وأعاد معظم مبانيه عثمان آغا مستحفظان، أمّا عمارة الدولة الفاطمية فلم يبق منها سوىٰ عقد واحد يوجد بالطرق الداخلية، علىٰ يمين الداخل إلىٰ رواق القبلة، كما توجد لوحة تذكارية مثبتة علىٰ مدخل المسجد القديم بالواجهة الغربية، كُتب عليها مايلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا مشهد الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين في سنة ٥٤٩هـ».

أمّا القبّة التي تعلو الضريح فترجع إلى العصر المملوكي في القرن الثامن الهجري، وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري عملت مقصورة جديدة للضريح تعتبر نموذجاً

---

١. مقتبس من كتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون».

لصناعة الحديد المزخرف بمصر، كُتب عليها: «أنشأ هذه المقصورة سعادة محمد قفطان باشا سنة ١٢٨٠هـ»، كذلك كسا عتب باب القبّة ببلاطات من القيشاني الأزرق العثماني الجميل[١].

---

١. المرقد الآن تحت التجديد والتوسعة، ويقول بعض المؤرّخين: إنّ هذا المرقد مقبرة للإمام زيد ابن الإمام علي زين العابدين عليه السلام، وقد نقلنا آراءهم في هذا الكتاب.

١٠ ـ محمد الجعفري
ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام

بقلم

حنفي المحلاوي

الإمام محمد الجعفري

ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام[1]

حنفي المحلاوي

من هو

وتتوالىٰ فيوضات آل البيت الذين اختاروا مصر مقاماً لهم... بعدما وجدوا فيه الأمان في الحياة وفي العبادة... وقد سكنها ـكما سبق وبيّنا ـ ثمانية من هؤلاء الأشراف من الذين قدموا إلى مصر؛ للمقام بها في الدنيا وفي الآخرة!

هذا، ويحتلّ الإمام محمد الجعفري ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام مرتبةً متقدّمةً في أشراف آل البيت الذين عاشوا في مصر، ودُفنوا تحت ترابها وينسب الإمام محمد إلى والده الإمام جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام... وممّا يقال في هذا السياق: إنّ الإمام جعفراً قد أنجب من الأولاد غير ما هو معروف الكثير[2]، وهم: موسىٰ، وإسماعيل.. ومنهم

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت».

٢. ذكر صاحب المجدي في أنساب الطالبيّين: ٩٦ وما بعده؛ أنّه ولد اثنىٰ عشر ذكراً وأربع عشرة امرأة، ←

عبدالله الأفطح، ومحمد الديباج المعروف باسم محمد الجعفري... صاحب المقبرة الموجودة حالياً في القاهرة[١].

وقد ذكر أبو الحسن النوبختي في كتابه «فرق الشيعة»: أنّ فريقاً من هؤلاء ذهب إلى أنّ الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه محمد، أخو موسىٰ وإسحاق![٢].

وقبل الاسترسال في الحديث عن سيرة هذا الإمام... رأينا ضرورة أن نُعرّف الذين يتابعون معنا هذه الرحلة فوق هذه الأوراق... بجعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن علي زين العابدين، وأخي الإمام زيد رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أشهر الكتب الحديثة التي تناولت حياة هذا العبد الصالح، ما كتبه الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوي في كتابه المهم «أئمة الفقه التسعة» وممّا قاله عن الإمام جعفر الصادق: «إنّه لم يجمع الناس علىٰ حبّ أحد في عصره كما أجمعوا علىٰ حبّ الإمام جعفر ابن الإمام محمد، الذي اشتهر فيهم باسم جعفر الصادق... وهو من العترة الطاهرة، عترة رسول الله ﷺ إذ كان جدّه لأمه هو أبو بكر، وجدّه لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب... وهو نسب لم يجتمع لأحدٍ غيره»[٣].

ولد الإمام جعفر الصادق في المدينة سنة ٨٠هـ، ومات فيها سنة ١٤٨هـ، وخلال هذا العمر المديد.. أغنى الحياة والفكر، بحسن السيرة والعلم الغزير.

← وهنّ: خديجة وحكيمة وزينب وأسماء وفاطمة وعالية وريطة وأم كلثوم وأم محمد ولبابة ومليكة وعشيرة وبريهة ورقية. وأمّا الرجال: إسحاق وعبيدالله وعبدالله وجعفر والحسن الأكبر والأصغر، وإسماعيل والحسين ومحمد وعلي والعباس وموسىٰ.

١. المشهور بين المصادر أنّه توفّي في ايران، منهم من قال: توفّي بخراسان، وإنّ المأمون بنفسه حمله من سريره ووضعه في لحده. راجع مقاتل الطالبيّين: ٣٦٠. ومن علماء الإمامية أنّه مات بجرجان بعدما أُخرج من خراسان. راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٠٧ حديث ٨، بحار الأنوار ٤٩: ٣٢، موسوعة الإمام الصادق عليه السلام ٢: ١٨٨.

٢. فرق الشيعة: ٧٦.

٣. أئمة الفقه التسعة لعبدالرحمن الشرقاوي، ط. القاهرة (منه).

وقد حفظ القرآن الكريم وهو صبي، كما أخذ يتقن تفسيره، ويحفظ الأحاديث والسنّة من أوائق مصادرها عن آل البيت.

وكان عصر ذلك الإمام قد شهد التوتر والنزاعات السياسية التي راح ضحيتها العديد من آل البيت. كما كانت الدولة الأموية تضع العيون والجواسيس على آل البيت منذ استشهاد الإمام الحسين، فقد كانت تضطهدهم، وتخشىٰ أن ينهض واحد منهم لينتزع الخلافة.

وكان الإمام جعفر، منذ رأىٰ بطش الحكّام بآل البيت وأنصارهم، وبالباحثين عن الحقيقة، وبمقاومي الاستبداد، قد أخذ بمبدأ التقية، فلم يجهر بالعداء لبني أُمية؛ اتّقاء شرّهم، وحذر الفتنة. ورأىٰ أنّ خير ما يقاوم به البغي هو الكلمة المضيئة التي تنير للناس طريق الهداية.

وكان قد اختار العراق مقاماً له بعد ما ترك المدينة؛ أملاً في توصيل علمه وأفكاره إلىٰ قطاع عريض من المسلمين هناك، وللبلاد التي حولها.

ولكن هذه الأفكار لم ترق لخلفاء بني العباس... فطلب منه الخليفة المنصور ـ وهو الخليفة الثاني من خلفاء الدولة العباسية ـ أن يغادر البلاد! فتركها وهو في سنّ الخامسة والستين من عمره إلى المدينة... حيث عاش حتّى مات ودفن هناك. وقد اعتبره المؤرّخون إمام الشيعة وشيخ أهل السنّة، لما تركه وراءه من ثروة من الفقه والعلم والتأمّلات[1].

وإذا كان ما سبق ومرّ علينا من كلمات هي بحقّ تعبير عظيم عن إمام اجتهد كثيراً في الله، بما أُوتي من علم وفقه حتّى صار أحد أئمة الفقه الإسلامي..

---

١. والحديث في هذا الموضوع يتطلّب المجلّدات، ولعلّ خير ما اختصر ذلك الأستاذ المستشار عبدالحليم الجندي في كتابه «الإمام جعفر الصادق عليه السلام» حيث أشار بعناية إلى نبوغ الإمام في زمانه، ومدرسته الكبرىٰ، وأهم ملامح منهجه العلمي والاقتصادي والاجتماعي وربما السياسي. وهو كتاب يجدر مطالعته بعدما تمّ تحقيقه وطبعه ونشره بأجمل حلله على يد المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

هذا الإمام كان حفيّاً به أن ينجب إماماً آخر من الأئمة، ومن العلماء الذين واصلوا العطاء.. حتّى صار ينسب إليه معظم فرق الشيعة... وهو الإمام محمد الجعفري صاحب المقام والمقبرة التي هي حديث الأوراق.

ولد محمد الجعفري من أم ولد يقال لها: حميدة، وكان محمد منذ نعومة أظفاره وقوراً، يترفّع عن الصغائر، ولايجاري أترابه في لعبهم ولهوهم.

وكان هذا الصبي قريباً إلىٰ قلب والده الإمام جعفر لشدّة شبهه بالوالد، وبرسول الله ﷺ[١].

وعن هذا الحبّ الخالص بين الأب وابنه أورد المؤرّخون الكثير من الحكايات، منها: أنّ محمداً دخل علىٰ أبيه جعفر يوماً وهو صبي، فعدا نحوه، فكبا في قميصه ووقع لحرّ وجهه، فقام إليه جعفر وقبّله، ومسح التراب عن وجهه، ووضعه علىٰ صدره، وقال: سمعت أبي يقول: إذا ولد لك ولد يشبهني فسمّه باسمي، فهو شبيهي وشبيه رسول الله ﷺ وعلىٰ سنّته.

ويضيف النوبختي علىٰ ذلك فيقول: لذلك فقد جعل جماعة من الشيعة الإمامة لمحمد بن جعفر وولده من بعده فرقة، وهذه الفرقة تسمّى «السمطية» التي تُنسب إلى رئيس لهم، يقال له: يحيى بن أبي سميط![٢].

ودعوة محمد بن جعفر الصادق الشيعية في الإمامة، لم تمت بموته كما أقرّ ذلك كلّ مؤرخي الشيعة، حيث ذكر ذلك المؤرّخ يحيى بن الحسين في كتابه المهمّ «تاريخ الأئمة السادة علىٰ مذهب الزيدية» وممّا قاله في السياق: وقد كاتبه أهل البصرة والأهواز، وحثّوه على الظهور، فاتّصل خبره بمسامع الخليفة! فأمر بالتشديد في طلبه... فلم يطب للقاسم المقام في مصر، فعاد إلى الحجاز، ومنها إلى تهامة.

ولحق به جماعة من بني عمه وغيرهم... فبثّوا الدعوة باسمه في بلخ والبلقان

---

١. الرواية ينقلها النوبختي في كتابه فرق الشيعة: ٧٦ ـ ٧٧ سيذكرها المؤلّف بلفظها.

٢. المصدر السابق: ٧٧.

ومرو، وغيرها... فذاع خبره، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه، فاختفىٰ في حيٍّ من بدو كثيف، فانتقض عليه أمره، وذلك عام ٢٢٠هـ.

صفاته وعلمه

نظراً لاحتلال الإمام محمد الجعفري هذه المكانة الدينية داخل عقول وقلوب أصحاب مذهب الشيعة، فقد حظي بالكثير من الدراسات التي قدّمت لنا وصفاً له ولغزارة علمه.

فقد وصفه المؤرّخ محمد بن الحسن الطوسي في كتابه «فهرست كتب الشيعة»، فقال عن مرحلة رجولته: وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب، يقرأ عليهم العلم، روىٰ عن أبيه رضوان الله عليه علماً جمّاً، فمكث بمكة مدّة[1].

أمّا الفخري فقال عنه في كتابه «الآداب السلطانية» وذلك عند حديثه عن خلافة المأمون: وفي أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق رضوان الله عليهما بمكة، وبويع خليفة، وسمّوه أمير المؤمنين، وكان بعض أهله قد أحسن له ذلك حين رأىٰ كثرة الاختلاف ببغداد، وما بها من فتن وخروج الخوارج. وكان الغالب على أمر محمد ابنه وبعض بني عمه، فلم يحمد سيرتهما، وأرسل المأمون إليهم عسكراً، فكانت الغلبة له، وظفر به المأمون، وعفا عنه[2].

وصف المقبرة

نحن نقدّم من خلال هذه الإطلالة السريعة وصفاً للمقبرة التي قيل: إنّ الإمام محمد بن جعفر الصادق المعروف باسم محمد الجعفري، قد دُفن بها، رغم ما قيل ويقال عن هذه المقبرة أو هذا المشهد، من أنّه ينتمي إلى مشاهد الرؤيا التي أُقيمت بدون أحداث!

ولقد أقرّت هذه الصفة الدكتورة سعاد ماهر في كتابها عن المساجد والأضرحة،

---

١. فهرست كتب الشيعة وأصولهم: ٤٤٦.

٢. الآداب السلطانية: ٢١٨.

ولأجل تأكيد ما توصّلت إليه روت قصةً، ثم أردفتها بتعليق سوف نقف عنده كذلك.

وتفاصيل هذه القصة تقول علىٰ لسان يحيىٰ بن الحسن عن خادم القاسم بمصر: ضاقت بالإمام القاسم الممالك، واشتدّ الطلب، ونحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف يقطن قرب مشهد السيدة نفيسة، فنودي نداء يبلغنا صوته: برئت الذمّة ممّن أوى القاسم بن إبراهيم، وممّن لايدلّ عليه، ومن دلّ عليه فله ألف دينار، ومن البز كذا وكذا.. والإسكاف يسمع ويعمل ولايرفع صوته، فلمّا جاءنا قلنا له: أما ارتعت؟ قال: من لي، وما ارتياعي منهم... ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله ﷺ حتّى في وفايتي لولده بنفسي؟!

أمّا بالنسبة للتعليق الذي ذكرته الدكتورة سعاد ماهر، تأكيداً لكلامها السابق عن مقبرة الإمام الجعفري.. فقالت له: إنّنا نستطيع أن نستنتج من هذه القصة نقطتين هامتين بالنسبة لموضوع مشهد الجعفري الذي ينسب إلى الإمام محمد بن جعفر الصادق:

أولاهما: أنّ المكان الذي اختبأ فيه أخوه القاسم عند الإسكافي كان بالقرب من ضريح السيدة نفيسة.

وثانيتهما: أنّه من المرجّح أنّ المصريّين قد اعتزّوا بهذا المقام الذي سكنه أحد أفراد آل البيت، وأقاموا مكانه زاويةً أو مسجداً أعاد بناءه خلفاء الدولة الفاطمية، أو لعلّه من الأضرحة أو مشاهد الرؤيا التي كثر بناؤها في العصور الوسطىٰ، وخاصّةً لآل البيت[1].

وقد اهتمّ رجال الآثار، بتقديم وصف شكلي لهذا المشهد أو لمقبرة الإمام محمد الجعفري.. وممّا قالوه في هذا السياق: إنّه يتكوّن من شكل مربّع يبلغ طول ضلعه ثلاثة أمتار وثمانين سنتيمتراً، وسمك الحائط سبعون سنتيمتراً.

---

١. ليس من المعقول أن يقوم الناس العقلاء، ومعهم العلماء الأزهريّون، ببناء ضريح أو مسجد كبير، لأيٍّ من الأولياء أو آل البيت لمجرّد الرؤيا!! فلاشكّ أنّه كانت هناك وثائق وأدلّة دامغة لأجل بناء الأضرحة والمقابر لآل البيت والأولياء في مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية، لم تصل بأيدينا، وكانت عند الذين قاموا ببناء هذه المشاهد المشرفة، ولنا أن ندرس ونحقّق أكثر فأكثر، حتّىٰ نصل إلى واقع الأمر وحقيقة التاريخ.

وكان باب المشهد أو هذه المقبرة يوجد بالجهة المقابلة للقبلة، أو الجهة الغربية، ولكنّه سُدَّ وبُني مشهد السيدة عاتكة ملاصقاً لمشهد الجعفري في تلك الجهة، حيث حلّ محراب مشهد السيدة عاتكة محلّ باب مشهد الجعفري، وهذا يدلّ علىٰ أنّ مشهد الجعفري أسبق تاريخياً من مشهد السيدة عاتكة.

لذلك فمن المرجّح أن يكون تاريخ حفر هذه المقبرة عام ٥١٣هـ، لأنّ مشهد السيدة عاتكة أُقيم عام ٥١٥هـ.

وهناك من رجال الآثار، من جمع في حديثه عن مقبرة الإمام محمد الجعفري بين ما تضمّنته هذه المقبرة وبين ما يوجد بمشهد السيدة عاتكة.. باعتبار وجود المقبرتين في مكانٍ واحدٍ تقريباً.

وممّا ذكره الدكتور مصطفى شيحة أستاذ ورئيس قسم الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة عن هذين المشهدين، قوله: توجد هذه المجموعة بشارع الأشرف علىٰ مقربةٍ من جامع أحمد بن طولون، حيث يضمّهما بقعة واحدة، يتمّ الدخول إليهما بواسطة فتحة مدخل معقودة يعلوها عتب منقوش عليه بحران من الكتابة النسخية، تقرأ: بقعة شُرِّفت بآل البيت.

هذا المدخل يفضي إلى دهليز مستطيل ممتدّ، ويعلوه جزء من سقف خشبي، وبالجهة الجنوبية الشرقية منه مشهد السيدة رقيّة، وينكسر هذا الدهليز في نهايته جهة اليمين حيث يؤدّي إلى قبّتي عاتكة والجعفري[1].

وقبة الجعفري حالياً مجدّدة، ويقع مدخلها في الضلع الشمالي الشرقي، وتقوم على بناءٍ مربّع، وبصددها تجويف المحراب الخالي من الزخارف.



---

١. كُتب على باب مرقد محمد بن جعفر: «هذا مقام سيدي علي الجعفري بن جعفر الصادق» انظر ملحق الصور في آخر الكتاب.

١١ ـ السيدة عائشة
بنت الإمام جعفر الصادق عليه السلام

بقلم

حنفي المحلاوي

د. سعاد ماهر

السيدة عائشة

بنت الإمام جعفر الصادق عليها وعلى أبيها السلام[1]

حنفي المحلاوي

من هي

من أشهر الأضرحة أو المقابر الموجودة في مصر الآن، ومنذ زمن بعيد... ضريح السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين رضي الله عنهم جميعاً.

وقد تحدّثت كتب السيرة وكتب التاريخ باستفاضة عن صاحبة هذا الضريح، وعن مدىٰ تفانيها في العبادة، شأنها في ذلك شأن سيّدات آل البيت من الأهل والأحفاد، ولقد قدمت السيدة عائشة إلى مصر وعاشت بها طويلاً حتّى توفّيت، ودُفنت بأرض مصر، وفي المنزل الذي كانت تُقيم فيه.. وحدث ذلك في عام ١٤٥هـ.

وممّا جاء في الأثر عن هذه السيدة العابدة القول بأنّها وفق النسب السابق تعدّ من آل البيت، حيث أبوها جعفر الصادق الذي كان إماماً نبيلاً، أخذ الحديث عن

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت».

أبيه، وعن جدّه لأمه: القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعروة وعطاء ونافع والزهري[1].

وجاءت السيدة عائشة إلىٰ مصر في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور فراراً من بطشه، وقد سبقها إلى ذلك معظم آل البيت من الذين فرّوا إلى المغرب طلباً للأمان، وكان في صحبة السيدة عائشة في رحلتها إلى مصر: إدريس بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكعادة أهل مصر فقد لاقت السيدة عائشة حفاوةً بالغةً حين عرفوا بمقدمها الشريف... وقد عرفها كلّ من كانوا حولها بلقب «أم فروة»، كما تزوّجت من عمر بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، والذي تولّىٰ إمارة المدينة.

عُرفت السيدة عائشة رضي الله عنها بزهدها وعبادتها الخالصة لله تعالى[2]... وكانت تدرك تماماً أنّ الخوف من الله يعني الهروب إليه... من هنا اكتسب ضريحها ومسجدها شهرةً كبيرةً، خاصّةً لدى مريديها من أهل الله الذين يحتفلون بمولدها كلّ عام في الفترة من ٩ إلى ١٤ شعبان.

ويجمع المؤرّخون ممّن تناولوا سيرة أهل البيت بالبحث والدراسة علىٰ أنّ السيدة عائشة رضي الله عنها قد شرّفت أرض مصر، وأقامت بها حتّى توفّيت في عام ١٤٥هـ. وقد جاء في كتاب تحفة الأحباب[3] للسخاوي.. أنّه رأىٰ قبراً للسيدة عائشة... وقد ثبت به لوح رخامي مكتوب عليه: «هذا قبر السيدة الشريفة عائشة من أولاد جعفر الصادق ابن الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه».

---

١. يقول المستشار عبدالحليم الجندي في كتابه عن الصادق عليه السلام ما نصّه: «ولقد كان علم أهل البيت حسبه ـ حيث تلقّىٰ من أبيه كلّ ما وعاه قلبه ـ فكيف إذا اجتمع إليه علوم هؤلاء، ليملأ بالفقه الشيعي وبالفقه المقارن مدينة الرسول، من يوم مات أبوه وهو بعد في ثلاثيناته؟!» الإمام الصادق عليه السلام: ١٨٤ الفصل الثاني: إمام المسلمين.

٢. نور الأبصار: ٣٨٦ نقلاً عن الشعراني في طبقاته.

٣. تحفة الأحباب: ٥٥١.

صفاتها وعلمها

ومن أخصّ صفات السيدة عائشة رضي الله عنها، وفق الإجماع: الورع والتقوىٰ.. إذ كانت بحقّ من السيدات العابدات القانتات المؤمنات برضا الله عنهنّ... لذلك يؤثر عنها أنّها حين كانت تتعبّد، كانت تتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بقولها: وعزّتك وجلالك، لئن أدخلتني النار لأخذت توحيدي بيدي وأطوف به على أهل النار وأقول: وحّدته فعذّبني![1]

كما كانت رضي الله عنها، تدرك من كثرة ورعها: أنّ الخوف من الله يعني الهروب إليه وحده[2].

وحتّى عندما جاءت إلى مصر واستقرّ بها المقام فيها، ظلّت على تقواها وورعها، تعيش في رحاب الله وعبادته إلى أن توفّيت ودُفنت حيث كانت تقيم.

وممّا لاحظنا، ونحن ننقب في آثار هؤلاء العظماء من آل البيت: أنّ هناك نوعاً من الندرة المعلوماتية فيما يخصّ مناقب وصفات السيدة الطاهرة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق، وقد قرأنا في أحد المصادر أنّ ذلك ربّما يرجع في الأساس إلى حياتها القصيرة! إذ عاشت فقط حوالي عشرين عاماً، وكلّ ما قيل ويقال عنها في هذا السياق هو ارتباطها فقط بآل البيت من ناحية جدّها الإمام الحسين عليه السلام، وذلك في تصورنا يكفيها شرفاً ما بعده شرف. وقد ذكره حسن الرزّاز في موسوعته المصوّرة «عواصم مصر الإسلامية».

وصف المقبرة

أشار العلّامة شمس الدين بن محمد في كتابه «الكواكب السيّارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرىٰ والصغرىٰ» إلى ضريح السيدة عائشة رضي الله عنها،

---

١. نور الأبصار: ٣٨٦ نقلاً عن طبقات الشعراني والمناوي.

٢. المصدر السابق.

وذكر الإمام الشعراني أنّ أستاذه علي الخوّاص أخبره أنّ السيدة عائشة رضي الله عنها بنت الإمام جعفر الصادق دُفنت بباب القرافة بحي الرميلة بالقلعة، وقد دُفنت السيدة عائشة رضي الله عنها بالدار التي تُقيم بها منذ أن قدمت إلى مصر.. وكانت تلك الدار تقع في الطريق الموصل إلىٰ جبل المقطم ناحية القلعة، وهو مكان الضريح حالياً، ومكان مسجدها أيضاً.

هذا الضريح كان في البداية مزاراً صغيراً وبسيطاً حتّى القرن السادس الهجري... وكان في بدايته يتكوّن من حُجرة مربّعة الشكل، تعلوها قبّة ترتكز علىٰ صفّين من المقرنصات.

وهناك العديد من المصادر التاريخية التي أشارت إلى موضع مقبرة السيدة عائشة رضي الله عنها، كما ذكرها علي باشا مبارك في خططه حين قال: إنّه يوجد خارج «ميدان محمد علي» بالقرب من قرّة ميدان، شمال الذاهب إلى القرافة الصغرىٰ من بوابة حجّاج، في خطٍّ يُعرف بها الآن.. والضريح أو مقبرة السيدة عائشة يتبع الآن «حي الخليفة»[١].

وقد اهتمّ الفاطميون ثم الأيوبيون بهذا الضريح، حيث أنشأوا بجوار قبر السيدة عائشة مدرسةً لتحفيظ القرآن الكريم، في الوقت نفسه الذي أحاط فيه الناصر صلاح الدين الأيوبي عواصم مصر الإسلامية الأربع «الفسطاط ـ العسكر ـ القطائع ـ ثم القاهرة» بسور ضخم طوله ١٥ كيلومتراً، ولمّا فصل هذا السور قبّة السيدة عائشة عن باقي القرافة... فُتح في سور القاهرة باب يسمّىٰ «باب عائشة» والمعروف الآن بباب القرافة.

ويؤكّد الآثري حسن عبدالوهاب: أنّ هناك العشرات من الأدلّة علىٰ وجود ضريح السيدة عائشة في المكان الموجود به حالياً... ومن هذه الأدلّة أنّ ابن الزيات

---

١. الخطط التوفيقية ٥: ٦٢١.

ـوهو خير من ألّف في أعلام القرافتين الكبرىٰ والصغرىٰ ـ قد أكّد ذلك عند ذكره لمشاهد باب القرافة، فقال: وأصحّ ما بالحوامة مشهد السيدة عـائشة، ولهـا نسب متّصل بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب. ثم تبعه السخاوي في كتابه «تحفة الأحباب» فقال: إنّ السيدة عائشة مدفونة بمصر، وإنّه عاين قبرها في تربةٍ قديمة، علىٰ بابها لوح رخامي مدوَّن عليه حسبها ونسبها، وقد توفّيت في عام ١٤٥هـ[١].

وقد أُلحق بهذا الضريح مسجد يعرف الآن بمسجد السيدة عائشة، وهو الموجود بشارع السيدة عائشة عند بداية الطريق إلى المقطم، وقد تهدّم المسجد القديم وتمّ إعادة بنائه في عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م علىٰ يد الأمير عبدالرحمن كتخدا.

ويتكوّن هذا المسجد من مربّع يتوسّطه صحن تحيط بـه الأروقـة.. كـما أُقـيم بداخله الضريح الذي تأكّد منه المرحوم أحمد باشا زكي، فكتب عن ذلك يقول: «إنّ المشهد القائم جنوب القاهرة باسم السيدة عائشة النبوية، هو حقيقة متشرّف بضمّ جثمانها الطاهر، وفيه مشرق أنوارها، ومهبط البركات بسببها».

ولمسجد السيدة عائشة واجهة غربية شملت بابين فوقهما منارة، والموجود منها الآن دورتها الأولىٰ، ومن هذا الباب يتمّ الوصول إلىٰ داخل المسـجد، أمّـا البـاب الثاني فتوجد على يساره المنارة، وهو يؤدّي إلى طرقة، على يسارها باب له عقد تحيط به كرانيش متعرّجة، ويؤدّي أيضاً إلى المسجد، ثم إلى باب القبّة.

ويؤكّد الأثري حسن عبدالوهاب أنّه من المرجّح وجود حجرة تـحت أرضـية القبلة الموجودة الآن، وتضم تابوتاً أثرياً، كما هو مألوف في كثير من المشاهد.

هذا وقد تمّ هدم المسجد في عام ١٩٧١م، وتمّ إعادة بنائه على ما هو عليه الآن، وتبلغ مساحته الكلّية حوالي ٦٦٠ متراً.



---

١. تحفة الأحباب: ٥٥٢.

مرقد السيدة عائشة
ابنة الإمام جعفر الصادق عليها وعلى أبيها السلام [1]

د. سعاد ماهر

يقع المسجد بشارع السيدة عائشة، عند بداية الطريق إلى مدينة المقطم، وقد تهدّم المسجد القديم وأعاد بناءه الأمير عبدالرحمن كتخدا في القرن الثامن عشر.

ويتكوّن المسجد من مربّع يتوسّطه صحن، وتحيط به الأروقة. وممّا يسترعي النظر في رواق القبلة أنّ المحراب لايتوسّط جدار القبلة، وإنّما يقع في الركن الجنوبي الشرقي للجدار.

ومثل هذه الظاهرة وجدناها في مشاهد الموصل، التي بُنيت في العصر السلجوقي، ويوجد بالواجهة الغربية للمسجد بابان، بينهما المئذنة التي لم يبق منها سوى الدورة الأولى، وقد كتب على الباب البحري ما نصّه:

مسجد أمة التقى فتراه كبدورٍ تهدي بها الأبرار
وعباد الرحمن قد أرّخوه تلألأ بحبّه الأنوار

وكُتب على الباب القبلي ما نصّه:

---

١. مقتبس من كتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون».

بـمقام عـائشة المـقاصد أرّخت   سل بنت جعفر الوجيه الصـادق

وقد كُتب على باب القبّة ما نصّه:

لعائشة نـورٌ مـضيٌ وبـهجةٌ   وقبّتها فيها الدعـاء يـجاب

١٢ ـ السيدة كلثوم
حفيدة الإمام جعفر الصادق عليه السلام

بقلم

حنفي المحلاوي

السيدة كلثوم بنت القاسم
ابن محمد بن جعفر الصادق عليه السلام [1]

حنفي المحلاوي

من هي

وخير ختام لجولتنا وسط مقابر ومشاهد المشاهير من آل البيت... أن نتوقّف عند مقبرة السيدة كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب... وهي أخت السيد يحيى الشبيه.

وعلى الرغم من شهرة هذه السيدة؛ لما اتّصفت بـه مـن الورع والتـقوى، هـذا بالإضافة إلى كونها من آل البيت، إلّا أنّهم لم يزيدوا عن قولهم: وشهرتها تغني عن الإطناب في مناقبها.

ويقال عن هذه السيدة العظيمة ـ رغم قـلّة المـعلومات المـدوّنة عـنها ـ: إنّـها تزوّجت وأقامت في مصر... كما أنجبت عدداً مـن الأولاد لم يُـذكر عـددهم ولا أسماؤهم، ويفهم من العبارات التي تواترت عنها في كتب المـؤرّخين أنّ أولادهـا ماتوا جميعاً دون أن تترك ذرّية!

---

١. مقتبس من كتاب «مقابر المشاهير من آل البيت» ط. القاهرة.

وقد أكّد ذلك كتاب «الكواكب السيارة» لابن الزيّات عندما قال: إنّها تزوّجت وحصل لها أولاد، وقد انقرضت ذرّيتها، وقيل: إنّ معها في قبرها جماعة أولادها، وقيل: لم يكن بالمشهد غيرها.

توفّيت السيدة كلثوم بعد والدها القاسم الطيّب، وذلك في نهاية القرن الثالث الهجري.

علمها وورعها

لقد تربّت هذه السيدة صاحبة هذا المقام المنير في حجر والدها القاسم الطيّب... الذي قيل: إنّه كان أحفظ الناس لحديث رسول الله ﷺ، كما كُتب عنه أربعمائة محبرة، وتأثّراً وتأسّياً بوالدها العالم والتقي الجليل القاسم الطيّب فقد حفظت السيدة كلثوم كلّ ما كُتب عن والدها، وكانت تحدّث به بعد وفاته، وقد ذكر الإمام الرازي: أنّ أتباع القاسم كانوا يعرفون بالطهّارة.. أمّا الأسعد النسّابة فقال كذلك: كانوا يعرفون بالكلثميّين، نسبةً إلى هذه السيدة الطاهرة.

أمّا المقريزي[١] فقد وصفها في كتابه بأنّها من السيدات الزاهدات العابدات، وقد اختلط الأمر على بعض كتّاب السير والتراجم بين السيدة كلثوم والسيدة أم كلثوم ابنة الإمام محمد بن جعفر الصادق عليه السلام؛ ذلك لأنّ الأخيرة مدفونة بمشهد آخر يُعرف بمشهد الضياء... والسبب في هذا الخلط ـ كما تؤكّد ذلك الدكتورة سعاد ماهر[٢] ـ أنّ كلاً من هذين المشهدين موجود بطريق الإمام الليث بن سعد.

وصف المشهد

ذكر الإمام تقي الدين المقريزي في كتابه عن خطط القاهرة[٣]: أنّ مقبرة أو مشهد

---

١. خطط المقريزي ٤: ٤٦٣.

٢. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون: ٣٧٨.

٣. خطط المقريزي ٢: ٢٠٧ وما بعده.

السيدة كلثوم إنّما هو الموجود بموضع يعرف بمقابر قريش بجوار الخندق... أمّا بالنسبة لتحديد مكانه في العصر الحديث، فهو يقع بمنطقة القرافة بالقرب من مشهد يحيى الشبيه.

ويرجع بناء هذا المشهد فوق مقبرة السيدة كلثوم إلى عام ٥١٦هـ/١١٢٢م. كما يبعد هذا المشهد كذلك مقدار مائة ياردة عن ضريح أبي منصور الثعالبي[١].

ويتكوّن المشهد حالياً من زاوية بسيطة مغطّاة بسقفٍ خشبي، يتوسّطها الضريح، ويعلو المحراب الرئيسي طاقية على شكل محارة، وهي تعتبر الأُولىٰ من نوعها في مصر، وتشمل هذه الزاوية إلى جانب الضريح مساحة مستطيلة يتوسّطها أربعة أعمدة، يعلوها كمر خشبي يحمل السقف الذي بُني حديثاً، ويتوسّط هذه الأعمدة مقصورة خشبية تحيط بالتركيبة التي تعلو قبرها.

أمّا محراب الزاوية فهو مجوّف من الحجر المنحوت، وبه زخارف حجرية منحوتة أيضاً... وعلىٰ يسار هذا المحراب محرابان صغيران لايوجد بهما زخارف. كما يوجد شاهد مثبّت على الجدار في موضعٍ رأسي، تحته مباشرة شاهد آخر مثبّت أُفقياً.

وعلى الشاهد الأول، نقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تشهد به فاطمة بنت يحيى، تشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدىٰ ودين الحقّ، وأنّ الله باعث من في القبور، على ذلك حيت، وعليه ماتت، وعليه تُبعث إن شاء الله، غفر الله ذنبها، وفسح لها في قبرها، وألحقها بنبيّها محمد صلى الله عليه وآله. توفّيت في شهر المحرّم سنة اثنتين ومائتين».

أمّا الشاهد الثاني، فيتكوّن من سبعة أسطر، ويبدأ بالبسملة، فسورة الإخلاص، ويحمل اسم نصر الله، لأربعة خلون من شوّال سنة أربع وخمسين!

---

١. أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، من أئمة اللغة والأدب، ولد في نيسابور عام ٣٥٠هـ، وكان فرّاءً يخيط جلد الثعالب، فنُسب إلى صناعته، واشتغل بالأدب والتاريخ فنبغ، وسافر وصنّف كتباً كثيرة، أشهرها: يتيمة الدهر وفقه اللغة وطبقات الملوك والأمثال... وغيرها، توفّي عام ٤٢٩هـ. (وفيات الأعيان ١: ٢٩٠، الأعلام ٤: ١٦٣ ـ ١٦٤).



زيارة قبور أهل البيت عليهم السلام

بقلم

النبوي جبر سرّاج

زيارة قبور أهل البيت عليهم السلام[1]

النبوي جبر سرّاج

لم يختلف العلماء في نفع الدعاء للأموات، لثبوته بنصّ القرآن الكريم، في قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أمّا العبادات، فقد اختلف العلماء في وصول ثواب من يؤدّيها بنيّة وصول ثوابها للموتىٰ، وكذلك تلاوة القرآن وإهدائه للموتىٰ، فهم ما بين معترض ومؤيّد، فيما عدا فريضة الحجّ، غير أنّه ورد أنّ الصحابة كانوا يعتمرون ويهدون ثواب العمرة لرسول الله ﷺ، ومنهم ابن الموفّق وابن عمر أيضاً، كما ورد أنّ رجلاً يسمّىٰ السراج ختم عشرة آلاف ختمة قرآن، وأهدىٰ ثوابها لرسول الله ﷺ.

ويرى العلماء أنّه يفضّل لمن يتصدّق نفلاً، أن ينوي بصدقته جميع المؤمنين والمؤمنات، فإنّ ثوابها يصل إليهم، ولايُنقص من ثوابه شيء.

ومن العلماء من ردّ علىٰ منكري زيارات قبور الأولياء والصالحين بحجّة وقوع

١. مقتبس من كتاب «أحفاد النبي ﷺ» ط. مكتبة طاهر للتراث ـ القاهرة ٢٠٠١م.

بعض المنكرات، فقالوا في ردّهم: لايجب أن تترك القربات والأعمال الصالحة لمثل هذه الأسباب، كاختلاط الرجال بالنساء عند القبور، لكنّ الواجب أن يؤدّي الإنسان الزيارة وهو ينكر ما يراه منكراً، فإنّ زيارة القبور مندوبة، والرحلة إلى المندوب مندوبة كذلك، وقد قال رسول الله ﷺ:

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنّها تذكّركم بالآخرة».

الحديث عن ابن مسعود[1].

ولقد شرّعها رسول الله ﷺ؛ لأنّها تذكّر بالآخرة، وتحثّ على الزهد في متاع الدنيا، وعدم الاغترار بها، والإقبال على الآخرة.

هذا مع ملاحظة أنّ قبر رسول الله ﷺ يزيد في فضله على ذلك، فالزائر يرجو شفاعة رسول الله ﷺ، فتحصل للزائر منفعة عظيمة إذا شملته شفاعة رسول الله ﷺ، فقد قال ﷺ:

«من زار قبري وجبت له شفاعتي».

والحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما[2].

---

١. ولفظ رواية ابن مسعود: «فانّها تزهّد في الدنيا، وتذكّر الآخرة». وفيها زيادة بعد «زيارة القبور»: «وأكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث، وعن نبيذ الأوعية...». أخرجه عنه الحاكم في المستدرك ١: ٣٧٥. وفي الباب عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وأنس بن مالك وأم سلمة وبريدة بألفاظ متقاربة. انظر كنز العمال ١٥: ٦٤٦ رقم ٤٢٥٥١ إلى ٤٢٥٥٩. وراجع تاريخ البخاري ٢: ٢٨٧ و٦: ٢٤٧، وسنن البيهقي ٤: ٧٧ و٨: ٣١١، واتحاف السادة المتقين ١٠: ٣٦٣.

٢. أخرجه بهذا اللفظ الدارقطني في السنن ٢: ٢٧٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤: ٢. وأمّا في الترغيب والترهيب ٢: ٢٢٤ بلفظ: «من زار قبري كنت له شفيعاً وشهيداً». عنه في كشف الخفا ٢: ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

وفي المصادر الإمامية عن طريق أهل البيت عليهم السلام عن علي عليه السلام عنه ﷺ قال: «من زارني بعد وفاتي كمن زارني في حياتي، وكنت له شهيداً وشافعاً يوم القيامة» رواه ابن قولويه في كامل الزيارات: ٤٥ رقم ١٧، بحار الأنوار ١٠٠: ١٤٢. ورواية السدوسي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاني زائراً كنت له شفيعاً يوم القيامة» المصدر السابق رقم ١٨.

←

ولاشكّ أنّ أولياء الله هم أقرب الناس إلىٰ خالقهم بعد الأنبياء، وهم في درجات عليا عند ربّهم ﴿لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤]. والناس حين يثقون في ولاية واحد من أهل الله المتّقين، فإنّهم يعتقدون فيه البركة التي ينالونها علىٰ يديه في حياته، متمثّلة في دعائه وفي خيره الذي يصلهم بواسطته من عند الله تعالىٰ، ولم تكن هذه الثقة قد جاءتهم إلّا بعد ممارسات وتجارب أكّدت لهم أنّ له عطاءً من عند الله يستفيد منه أهل محبّته، ويستشفع به عند الله في حسن ظنٍّ به، ولم تنقطع هذه البركة بعد وفاته.

والذي ثبت أنّ زوار أهل البيت والأولياء الصالحين في أضرحتهم، ليسوا جميعاً من العوام الذين لاتكتمل الثقة في رواياتهم، بل المشهور أنّ هؤلاء المتردّدين على المزارات من أهل العلم والثقافة، ومن أهل الثقة الذين لايشكّ في رواياتهم، وهذا يدلّ على أنّ الذين يذوقون حلو الزيارة، ويشعرون بجمالها، يلزمون أنفسهم المداومة عليها، وينشدون الراحة النفسية والسكينة في هذه الرياض الطيّبة.

فقد وصلوا إلى حدّ الاعتقاد بأنّ الضريح في مكانٍ طاهرٍ يستجاب فيه الدعاء، وهذا الأمر مجرَّب لديهم، ومن يأتي إلى مكانٍ طاهرٍ كهذا فإنّه يكون في حالة قربٍ من الله تعالى، فالملائكة ترفرف حول الطهارة والتقوىٰ، وبإذن الله تقضي حاجات الزائرين، ويستجاب دعاؤهم عندها.

وإن قيل: إنّ الإنسان بعد الموت يبلىٰ! ألا يعلم أنّ الروح موصولة بالجسد، تحوم حوله؟ وإلّا فما فائدة قراءة السلام على الأموات عند القبور؟ وما فضل دعاء الولد الصالح لأبيه وهو في قبره؟

← ويروي الشيخ الطوسي في التهذيب ٦: ٢٠ والشيخ المفيد في المقنعة: ٧٢ وابن قولويه في كامل الزيارات: ٣٩ رقم ١ حديثاً مسنداً عن عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام قال: «بينما الحسين بن علي عليه السلام في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله إذ رفع رأسه فقال له: يا أبه ما لمن زارك بعد موتك؟ فقال: يا بني، من أتاني زائراً بعد موتي فله الجنّة، ومن أتىٰ أباك زائراً بعد موته فله الجنّة، ومن أتىٰ أخاك زائراً بعد موته فله الجنّة، ومن أتاك زائراً بعد موتك فله الجنّة».

وقد سنّ رسول الله ﷺ لنا ذلك، وأمرنا القرآن بذلك ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤].

ولقد جاء في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» بضرورة الحرص على زيارة الأضرحة وتذكّر يوم الحساب، وهي عامة في كلّ الأيام عند الحنابلة، وعند الشافعية من عصر يوم الخميس إلى طلوع يوم السبت، وعند المالكية والحنفية تكون الزيارة أيام الخميس والجمعة والسبت، كما اهتمّ أئمة المذاهب بزيارة قبور الصالحين؛ لأنّ هذه الأماكن تأنس لها الملائكة، ويستجيب الله فيها الدعاء، فإنّ الصالحين كانت لهم أعمال وأنوار من الله، ونور الله لايُحجب عنهم: أحياء وميّتين[١].

وإذا كان هناك من ينهىٰ عن زيارة الأضرحة من باب سدّ الذرائع، فهذا قياس مع الفارق؛ لأنّ الذين كانوا يتّجهون إلى الأصنام، كانوا كفّاراً مشركين يعبدونها، بينما هؤلاء مسلمون موحّدون يحبّون أصحاب القبور، وفرق بين المحبّة والعبادة، بدليل أنّ الزائر المسلم يصلّي لله ويعبده في نفس المكان، ولايصلّي إلّا لله قبل الزيارة.

ولقد كان الأئمة والصالحون حريصين علىٰ زيارة أضرحة أهل البيت، ومنهم الإمام الشعراني رضي الله عنه ـ وكان شيخاً للأزهر ـ يقول في كتابه «المنن»: وممّا منّ الله تعالى به عليّ: زيارتي بين فترة وأخرىٰ لآل البيت الذين دفنوا في مصر، كلّهم أو

---

١. فالقبور تضمّ أجساد الأنبياء والمرسلين الذين حملوا على عاتقهم رسالات السماء وبلّغوها الناس، وتضمّ أيضاً أبناءهم وأحفادهم الذين عُرفوا بالتقوىٰ والإيمان والورع والصلاح، فكانوا محطّ أنظار الناس واحترامهم، ثم على الامتداد من العلماء والفقهاء الورعين الذين عاشوا حياة الزهد والحرمان وطلب العلم ونشر الدين والأخلاق الكريمة بصورة كتابات جليلة وآثار رائعة جذبت قلوب وعقول الناس. والناس يزورون هؤلاء باستمرار، ويذرفون الدمع الغزير، ويستذكرون تضحياتهم، ويستمدّون منهم روح الصبر والتقرّب إلى الله تعالى، وامتثال أوامره.

إنّ زيارة قبور الأولياء والصالحين والشخصيات العظيمة هي ـ بالحقيقة ـ نوع من الوسائل التي تدفع الإنسان إلى الميل باتجاه الدين والخلق الكريم من جهة، ومن جهة أخرىٰ إعلام للأجيال المتلاحقة بأنّ هذا جزاء الذين يسلكون دين الحق وطريق الهدىٰ والفضيلة، وكلاهما يصبّ في خدمة دين الله. وليس فيهما محذور.

بعضهم، حيث أزورهم في السنّة ثلاث مرّات بقصد صلة رحم رسول الله ﷺ، ولم يكره ذلك أحد إلّا لقلّة فهمه وإدراكه لمنزلتهم، أو لعدم ثبوت دفنهم في قبورهم المقامة، وهذا جمود، فإنّ الظنّ يكفينا في كلّ خير.

وإنّ المؤمنين لايلجأون إلى قبور الأولياء الصالحين وآل البيت المطهّرين إلّا حبّاً فيهم، واتّعاظاً وتأسّياً بأخلاقهم، وكذا ترحّماً واستغفاراً من الزائر للمزور، ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب خيرٌ للاثنين، وكلّ من تُرجىٰ بركته في الدنيا تُرجىٰ بركته كذلك في الآخرة، فإنّ للصالحين شفاعة لإخوانهم عند الله تعالىٰ.

كما أنّ لروح الميّت تعلّقاً شديداً بجسده، وعندما يقف الزائر عند القبر ـ وخاصّةً قبور الصالحين ـ تتلاقى الأرواح، فيسلّم الزائر وتردّ روح المزور السلام، ومن هنا تكون الزيارة سبباً لراحة الزائر والمزور، ولهذا شرّعت الزيارة، كما أنّ اتّصال أرواح الأموات بالأحياء ثابت بالسنّة.

وإذا كان البعض يخشىٰ على الزائر الوقوع في الشرك، فلينظر إلى الزائر وهو يتوجّه إلى القبلة يدعو الله؛ ليقينه أنّ المعبود هو الله، وأنّ المتوجّه إليه بالدعاء هو الله سبحانه وتعالى لا غير، وليس هناك بين الزائر والمزور إلّا علاقة اتّصال روحي تسري بينهما.

وفي الأثر: أنّ الملكين الموكلين بالعبد في الدنيا يقولان عندما يموت العبد: «يا ربِّ مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء، فيقول الله تعالى: إنّ سماواتي مملوءة من ملائكتي يسبّحونني، فيقولان: ربّنا نقيم في الأرض، فيقول الله تعالى: إنّ أرضي مملوءة من خلقي يسبّحونني، فيقولان: يا ربِّ فأين نكون؟ فيقول الله تعالى: كونا علىٰ قبر عبدي فكبّراني وهلّلاني وسبّحاني، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة» (القرطبي).

ومع هذا فإنّ هناك من يرفض الزيارة وحتّى الصلاة في هذه المساجد، متعلّلاً بمفهومه من الحديث الشريف «لاتشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصىٰ»[1].

---

١. أخرجه مسلم ٢: ١٠١٤ حديث ٥١١، وأحمد ٢: ٢٧٨ عن أبي هريرة.

غير أنّ الواضح من معنى الحديث: أنّ هذه الصيغة لاتفيد المنع من الرحلة إلى مساجد غير المذكورة، بل تفيد التفضيل لثواب الصلاة في هذه المساجد على غيرها، فقد كان رسول الله ﷺ ومن بعده الصحابة الكرام يشدّون الرحال للصلاة في مسجد قباء بضواحي المدينة المنوّرة. ومن هنا فإنّ شدّ الرحال إلى بيوت الله غير ممتنع، ولكن ثوابها أقلّ من شدّها إلى هذه المساجد الثلاثة المذكورة في الحديث الشريف[١].

كما أنّ التضييق على المسلمين في زيارة الأولياء في قبورهم وأضرحتهم بعد الصلاة لله في هذه المساجد الملحقة بها أضرحتهم يمنع خيراً عن المسلمين. ولقد بلغت المغالاة في النهي بالبعض إلى إبطال الصلاة إذا كانت نيّة المصلّي بعدها هي الزيارة! فتلك دعوىً فيها تضييق، وتعطّل بيوت الله، بينما قال رسول الله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[٢] وقال: «ألا وقد نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها»[٣].

---

١. وثمة ردّ آخر يورد على ما ذهب إليه البعض استدلالاً بهذا الحديث، وهو أنّ تقدير المستثنى منه يكون في صورتين: الأولى: لاتشدّ إلى مسجد من المساجد إلّا ثلاثة مساجد.... والثانية: لاتشدّ إلى مكان من الأمكنة إلّا إلى ثلاثة مساجد.... فإذا كان على التقدير الأول كان معنى الحديث: عدم شدّ الرحال إلى أيّ مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة المذكورة، ولو سلّم فهو لايعني عدم جواز شدّ الرحال إلى أيّ مكان آخر حتّى لو لم يكن مسجداً. فلا يشمل النهي من شدّ الرحال لزيارة الأنبياء والأئمة الطاهرين والاولياء الصالحين.

وأمّا على التقدير الثاني فلازمه النهي عن شد الرحال إلى كل بقاع العالم ما عدا المساجد الثلاثة المذكورة، أي حرمة شدّ الرحال إلى كلّ مكان سوى المساجد الثلاثة، وفيه ما فيه، إذ المسلمون طالما شدّوا الرحال في موسم الحج للسفر إلى عرفات والمشعر ومنى.... وشدّ الرحال لطلب العلم في بغداد أو بخارى أو جبل عامل أو.... وهكذا لطلب الجهاد في سبيل الله في الثغور وغيرها. انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٢: ٢٤٧ آداب السفر، وكذلك الفتاوى الكبرى ٢: ٢٤.

٢. أخرجه الترمذي ٢: ١٣١ ذيل حديث ٣١٧، والنسائي ٢: ٥٦، وابن ماجة ١: ١٨٧ حديث ٥٦٧، والصدوق في الخصال: ٢٠١ بلفظ «فضّلت بأربع: جُعلت لي الأرض...» وفي الفقيه ١: ١٥٥ حديث ٧٢٤ «أعطيت خمساً لم يعطها أحد قبلي: جعلت لي الأرض...».

٣. نقلته كتب الحديث بأسانيد صحيحة وبألفاظ متقاربة عن ابن مسعود وأنس وابن عباس وزيد وأبي هريرة وبريدة وأم سلمة وعائشة. راجع سنن النسائي ٤: ٨٩، مستدرك الحاكم ١: ٣٧٤ و٣٧٥، سنن ابن ماجة ١: ٤٧٦، مسند أحمد ١: ٤٤١، سنن أبي داود ٢: ٧٢، سنن البيهقي ٤: ٧٦.

وكلمة أخيرة نقولها لمن يقاطع زيارة أهل البيت والأولياء الصالحين، ويتشكّك في الصلاة في المساجد المسمّاة بأسمائهم أو التي تضمّ قبورهم وأضرحتهم: إذا كان الهجر لكلّ مسجد فيه قبر، لهُجر مسجد رسول الله ﷺ، ففيه دُفنت إلى جوار رسول الله ﷺ السيدة فاطمة الزهراء، ودُفن سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وبعض الصحابة رضي الله عنهم، ويزور المسلمون والسلف الصالح القبر الشريف، ويسلّمون على فاطمة، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم بعد أداء واجب العبادة لربّ العالمين، بل إنّ الصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة فيما سواه، ولما قال رسول الله ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنّة»[1]

وقياساً على ذلك قال الإمام النووي: يسنّ الإكثار من زيارة القبور، والإكثار من الوقوف عند قبور أهل التقوى والصلاح.

كما قال ابن الحاج في مدخله: ما زال العلماء كابراً عن كابر، مشرقاً ومغرباً، يتبرّكون بزيارة قبور الصالحين، فإنّ بركتهم جارية بعد موتهم كما كانت في حياتهم.

وإنّ السفر لأجل العبادة يدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين، وسائر العلماء والأولياء.

فما القول بعد ذلك في زيارة أضرحة أهل البيت، الذين وصّانا رسول الله ﷺ بمودّتهم، وحدّث عن فضلهم؟

فمن اعتقد خلاف ذلك فهو المحروم؛ ولذلك تبارى أهل المحبّة في الحديث عن فضل زيارة أهل البيت، أحفاد النبي ﷺ خاصةً في كلّ عصر وزمان.

وما أصدق المحبّ شاعر الأولياء الشيخ علي عقل حين أنشد:

يقولون من هم قلت آل محمد ... همو ثقتي روحي لهم تتبتّلُ

---

١. أخرجه مسلم ٢: ١٠١٠ حديث ٥٠٠ و٥٠١ و٥٠٢، وأحمد ٣: ٦٤. والصدوق في معاني الأخبار: ٢٦٧ حديث ١، وفي الفقيه ٢: ٣٤١ حديث ١٥٧٣ و١٥٧٤ و١٥٧٥، وفي الكافي ٤: ٥٥٤ حديث ٣ و٥ بلفظ «بيتي» بدل: «قبري».

وحبّهمو فرض على الكلّ واجب بنصّ حديثٍ للبرية يشملُ
ومعناه أنّي تارك فيكم الهدىٰ كتابي وأهلي وعترتي فهو أشملُ
إذا اتّخذت جاه الملوك وسيلةً فإنّي بأهل المصطفىٰ متوسّلُ
على بابهم ما دمت حيّاً وإن أمت يؤانسني منهم ضياء مجمّلُ
وآتي بأصحابي إلى باب عزّهم يقال لنا تحت الستار ألا ادخلوا
فأعتابهم من فوق رأسي نسيمها كأنّي بدار الخلد إذ أنا أنهلُ

ويدعو الولي الشيخ صالح الجعفري ﷺ الزائر إلى تطهير قلبه بتلاوة القرآن، وبالصلاة على رسول الله ﷺ، لكي ينال بركة الزيارة، وتكون نافعة بإذن الله، فيقول:

نحن آل البيت يا من جئتنا طهِّر القلب إذا ما زرتنا
واذكر المختار طه جدّنا واقرأ القرآن تلقىٰ ودّنا

وقال العارف بالله أحمد الحلواني في قصيدته «الحلواء» في مدح أبناء الزهراء رضي الله عنهم أجمعين:

بنفسي أفدي الزهر من بضعة الزهرا وإن هم رضوا نفسي فقد عظمت قدرا
هم الدين والدنيا لعمري هم هم فقل ما شئت فيهم لاترهبن نكرا
وعال بهم من شئت إن ذكروا العلا وفاخر بهم من شئت إن ذكروا الفخرا
بدور سمت عن شمس أكرم مرسل أناروا دياجي الكون بالطلعة الغرّا
وبالحلم والندىٰ وبالبرّ والتقوىٰ وبالعلم والفتوىٰ وبالذكر والذكرىٰ
ومن ذا يداني أو يقارب بضعةً بهم تنتهي العلياء والرتبة الكبرىٰ
محبّتهم باب الرضا ورضاهمو يسام بأرواح المحبّين لو يشرىٰ
فيا من يواليهم ويحفظ ودّهم ويكرم مثواهم هنيئاً لك البشرىٰ
فلابدّ يوم العرض تسمع قائلاً تفضّل تفضل فادخل الجنّة الخضرا

وربّما يكون صاحب «الكشّاف» قد أوضح المقصود بآل البيت في تعليقه على حديث رسول الله ﷺ: أنه لمّا نزلت الآية: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي

الْقُرْبَى﴾ سئل رسول الله ﷺ: من قرابتك هؤلاء يا رسول الله الذين وجبت علينا مودّتهم. فقال: «علي وفاطمة وابناهما»[١] أي الحسن والحسين.

فثبت أنّ هؤلاء الأربعة هم أخصّ أقاربه ﷺ، وهو المخصوصون بمزيد من الفضل. ويستدلّ على ذلك بأنّ رسول الله ﷺ كان يحبّ فاطمة رضي الله عنها؛ لقوله: «فاطمة بضعة منّي، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها» (أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه)[٢].

كما ثبت بالنقل المتواتر أنّه ﷺ كان يحبّ علياً، فقد تولّى تربيته، وعاشره معاشرة الأب والأخ، وكذلك الحسن والحسين، فقد دعا لهما وأشهد الناس على حبّه لهما، وما دام ذلك قد ثبت، فقد أصبح لزاماً على الأمة محبّة هؤلاء الأربعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ويدلّ كذلك على لزوم ووجوب محبّة آل البيت: هذا الدعاء لهم في التشهدّ في

---

١. الكشاف ٤: ٢١٩ ـ ٢٢٠ ضمن تفسير الآية: ٢٣ من سورة الشورى. وقد أخرج الحديث الطبراني في الكبير ٣: ٣٩ و١١: ٤٤٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧: ١٠٣، وابن كثير والقرطبي في تفسيرهما عند تفسير الآية: ٢٣ من سورة الشورى.

٢. مسند أحمد ٤: ٣٢٣، مستدرك الحاكم ٣: ١٥٨. ويذكر أنّ الخبر متواتر وبألفاظ مقاربة، فمنها: «مضغة منّي» ومنها: «شُجنة منّي»، ومنها زاد: «فمن أغضبها فقد أغضبني» ومنها: «يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها»، والبضعة والمضغة واحد، وهو القطعة من اللحم. راجع صحيح البخاري بحاشية السندي ٢: ٥٥٠ حديث ٣٧٦٧ باب مناقب فاطمة و٢: ٥٣٨ حديث ٣٧١٤ باب: مناقب قرابة الرسول، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٧: ٤٧٧ وقال: أخرجه الترمذي وصحّحه، مصابيح السنّة ٢: ٤٥٥ حديث ٢٧١٢، شرح السنّة للبغوي ٨: ١٢٠ حديث ٣٩٥٦ وقال: هذا حديث صحيح، المعجم الكبير ٢٠: ٢٥ حديث ٣٠ و٢٢: ٤٠٤ حديث ١٠١٢ و٤٠٥ حديث ١٠١٤، مصنف ابن أبي شيبة ١١: ١٨٤ حديث ٣٢٨٠٨، السنن الكبرى للنسائي ٥: ٩٧، كشف الخفا للعجلوني ٢: ٨٠ حديث ١٨٢٩ وقال: رواه الشيخان عن المسوّر، ورواه أحمد والحاكم والبيهقي، فيض القدير ٤: ٥٥٤ حديث ٥٨٣٣ وقال: استدلّ به السهيلي على أنّ من سبّها كفر؛ لأنّه يغضبه ﷺ، فضائل الصحابة: ٧٨، سبل الهدى ١٠: ٣٢٧ وقال: وهو يقتضي تفضيل فاطمة على جميع نساء العالم، ومنهنّ: خديجة وعائشة وبقية بنات النبي، فضائل الصحابة لأحمد ٢: ٧٥٥ حديث ١٣٢٤، وغيرها.

كلّ صلاة: «اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد»، وهذا دعاء لهم بالصلاة التي هي الرحمة من الله تعالى عليهم.

ولهذا، فقد أظهرت مصر تعاطفاً كبيراً مع أهل البيت أيام كربلاء وبعدها، فأحسنت استقبال السيدة زينب ومن معها من آل البيت حين اختارت مصر مقاماً لها عقب مقتل الحسين عليه السلام، ومع أنّ الخلفاء العباسيّين حاولوا فيما بعد إخماد شعلة التعاطف لدى المصريّين مع آل البيت، إلّا أنّ المصريّين ازدادوا تعاطفاً وحبّاً لهم، ويشهد على ذلك كثرة الأضرحة التي تضمّها مصر لآل بيت النبي ﷺ، ولإيثارهم الإقامة فيها دون غيرها من الأمصار الإسلامية.

رغم أنّ بعض الحكّام في الشام وفي العراق كانوا يرسلون رؤوس القتلى من آل البيت إلى مصر؛ لتخويف أهلها من الالتفاف حول آل البيت والتعاطف معهم، لكنّ ظلّ المصريون أكثر الناس حبّاً لهم، مع أنّه كانت ظاهرة التنكيل بالعلويّين من ذرّية الإمام علي على امتداد العصرين: الأموي والعباسي، فيما عدا بعض الخلفاء الذين عرفوا حقّ آل البيت ومنزلتهم، مثل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، الذي لم يكن يخاف على ملكه وسلطانه مثل باقي الخلفاء الأمويّين، ومثل الخليفة العباسي المأمون، الذي كان بطبيعته يميل إلى أهل البيت، فقد قرّب الإمام علي الرضا منه، ثم ولّاه العهد في حياته، ووصّىٰ له بالخلافة، غير أنّه لم يتمّ له تولّي الخلافة.

ولقد عرفت مصر حبّ آل البيت المحمدي منذ عرف أهلها حبّ رسول الله ﷺ، آخذاً من توجيه الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، ومن توجيه رسول الله ﷺ: «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعم، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا آل بيتي لحبّي لهم»[1] (عن ابن عباس رواه الترمذي والحاكم).

---

١. أخرجه الترمذي ٥: ٦٦٤ حديث ٣٧٨٩، والطبراني في الكبير ٣: ٤٦ حديث ٢٦٣٩، وأبو نعيم في الحلية ٣: ٢١١، والخطيب في التاريخ ٤: ١٦٠، والحاكم في المستدرك ٣: ١٤٩، والشيخ الطوسي في الأمالي: ٢٧٨ حديث ٥٣١ المجلس (١٠).

وإن كان هناك من يشكّك في سكنىٰ آل البيت أضرحتهم في مصر، فنحن نعلم أنّ تاريخ الإسلام بصفةٍ عامة كتبه رجال ثقات، ومنهم المقريزي الذي عرض لموضوع رأس الحسين، فقال في خططه: «وبنى الصالح طلائع الوزير مسجداً للرأس خارج باب زويلة من جهة الدرب الأحمر، وهو المعروف بجامع الصالح طلائع، فغسل الرأس في المسجد المذكور على ألواح الخشب». ثم قال كذلك، وهو المؤرّخ الثقة: «ثم نقلت رأس الحسين عليه السلام من عسقلان إلى القاهرة في يوم الأحد ثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة»[١]

وكذلك جاء في كتاب «العدل الشاهد في تحقيق المشاهد»: أنّ عبدالرحمن كتخدا لمّا أراد توسيع المسجد المجاور للمسجد الشريف سنة خمس وسبعين ومائة وألف للهجرة، قيل له: إنّ هذا المشهد لم يثبت فيه دفن رأس الحسين، فأراد التحقّق من ذلك، فكشف المشهد الشريف بمحضرٍ من الناس، ونزل به العالمان الجليلان: الشيخ الجوهري الشافعي والشيخ الملوي المالكي، فشاهدا ـ كما ذكرا بعد أن خرجا ـ كرسيّاً من الخشب الساج، عليه طست من الذهب، فوقه ستارة من الحرير الأخضر، تحتها كيس من الحرير الأخضر الرقيق داخله الرأس الشريف».

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ الإمام ابن الجوزي قال في هذا المقام: «ففي أيّ مكان كان رأس الحسين أو جسده، فهو ساكن في القلوب والضمائر، قاطن في الأسرار والخواطر».

ولهذا نقول: إنّ حبّ آل البيت، وحسن الظنّ بأماكن أضرحتهم، خير من الإعراض عن زيارتهم بحججٍ لايقين معها، وصدق المحبّ القائل:

لاتطلبوا المولى الحسين ... بأرض شرقٍ أو بغربِ
وذروا الجميع ويمّموا ... نحوي فمشهده بقلبي

ومن هنا فإنّ الزائر مُثاب علىٰ قراءة شيءٍ من القرآن والدعاء لواحدٍ من

---

١. خطط المقريزي ٢: ١٨١.

المسلمين، ومثاب على نيّته بصلة رحم رسول الله ﷺ.

ومن العجيب أنّ أناساً قد حرموا أنفسهم من نعمة حبّ آل البيت، لقصور فهمهم لدلالة الآية الكريمة التي تقول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ولم يفطنوا إلى كلمة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ في الآية تشير إلى العبادة بما فيها من ركوع وسجود! نقول لهم: فرق كبير بين العبادة والمحبّة، فأحباب أهل البيت يقولون: نحن نحبّهم طاعةً لوصيّة رسول الله ﷺ، وبعد أن نصلّي لله ونركع ونسجد خشوعاً وخضوعاً؛ إقراراً بأنّنا عبيد لله تعالى، وبعد أن نؤدّي واجب الطاعة نؤدّي واجب المحبّة بالدعاء لأهل البيت؛ إظهاراً لمكانتهم في قلوبنا. فالمعبود هو الله ولا أحد غيره، والمحبّة له سبحانه ولرسوله ﷺ ولآل بيته، كما وصّانا بذلك ﷺ: «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نِعَم، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا آل بيتي لحبّي»[١] (عن ابن عباس رواه الترمذي والحاكم).

فلايجب أن تكون الغيرة الخاطئة سبباً في قطع رحم رسول الله ﷺ، فحتّى الرجل العامّي حين يدخل مسجداً فيه ضريح، يبدأ بأداء واجب الطاعة وهي تحيّة المسجد بالصلاة، ثم يزور الوليّ ويدعو له، ويقرأ ما تيسّر من القرآن صلةً وهديةً له، وهذا العمل إنّما يؤدّي إلى شيوع المحبّة بين المسلمين، كما أنّه اقتداء بالصالحين، وبيان منزلة أولياء الله الصالحين في قلوب الناس[٢].

والإمام الشافعي ﷺ يقول: من لم يصلِّ على الآل في التشهّد تبطل صلاته، فقال في هذا المعنى:

يا آل بيت رسول الله حبّكمُو ... فرضٌ من الله في القرآن أنزله
يكفيكمُو من عظيم الفضل أنّكمُو ... من لم يصلِّ عليكم لا صلاةَ له

---

١. تقدم تخريجه آنفاً.

٢. سبق أن ذكرنا أنّ لزيارة أضرحة الأنبياء والأولياء والصالحين، وعظماء التاريخ من المؤمنين، أهدافاً وآثاراً أخرى كثيرة تؤدّي بمجموعها إلى بثّ روح الدين بين الناس، وتكريس احترام الآخرين فيهم، وتعزيز التمسّك بالأخلاق الحميدة. وكلّها فضائل يطلبها الإسلام ويدعو إليها.

ومعلوم أنّ رسول الله ﷺ لايزيد في الدين شيئاً من عنده، بل لابدّ أنّ الله تعالى أوحى إليه أن يعلّم المسلمين الصلاة والدعاء لآل البيت في التشهّد، أن يقولوا في التشهّد: اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. والمعنى كما ذكره سيدي محيي الدين ابن عربي: «اللّهم صلِّ على سيدنا محمد من حيث ما له آل، كما صلّيت على سيدنا إبراهيم من حيث ما له آل، وحيث إنّ آل سيدنا محمد ليس فيهم نبيّون؛ لأنّ النبوة والرسالة خُتمت بسيدنا محمد ﷺ، فالمعنى ينصرف إلى آله ﷺ؛ ليكونوا في الفضل كآل سيدنا إبراهيم الذين فيهم أنبياء كسيدنا إسماعيل وسيدنا يوسف ﷺ، فالرفعة لآل سيدنا محمد لا له ﷺ؛ لانّ مقامه معروف عند ربّه، وهو أسمىٰ مقام، وإنّما الدعاء والصلاة في التشهّد لآل البيت، وكلّ مسلم يفعل ذلك. ويدلّ ذلك على أنّهم مكرَّمون من الله تعالى، ومن يحبّهم يكرَّم بكرامتهم، ويحشر معهم إن شاء الله».



...وهذا الكتاب أيها القارئ الكريم هو كتاب محبّة، ودعوة من القلب إلى القلب لمحبّة أهل البيت، بأداء واجب المودّة التي هي وصيّة رسول الله ﷺ بآل بيته وذرّيته من باب الوفاء له ﷺ، وقد دلّت أفعالهم وأحوالهم على أنّهم استحقّوا شرف الانتساب لأكرم خلق الله، فلهم جهاد في سبيل الحقّ، ولهم مواقف كريمة، ولهم كلام نافع، شهد لهم العلماء بذلك؛ لذلك كانت لهم منزلتهم الكريمة عند السلف الصالح، وخاصّةً الخلفاء الراشدين، فكان سيدنا أبو بكر ﷺ يقول: «لصلة رحم رسول الله ﷺ أحبّ إليَّ من صلة رحمي»، كما تزوّج سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بالسيدة أم كلثوم بنت الإمام علي؛ لتكون له صلة بذرّية المصطفىٰ ﷺ، كما أخبر بذلك، ثم سار على ذلك أهل الصلاح وكلّ المحبّين لرسول الله ﷺ.

وأحفاد رسول الله ﷺ الذين يحدّثك عنهم هذا الكتاب، هم المطهّرون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، لشرف انتسابهم إلى أحبّ أحبابه ﷺ،

ولتمسّكم بأخلاقه وبسلوكه، واهتدائهم بهداه، فاستحقّوا محبّة الناس الذين وصف محبّتهم، فقال أحدهم:

فإن كان ذنبي أنّ قلبي يحبّهم   فإنّ ذنوبي لن تلمّ بها حصرا

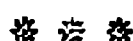
ومن هنا، فإنّ محبّة آل البيت أحفاد النبي ﷺ، ليست إلّا تعويضاً لهم عن معاناة وآلام تحمّلوها صابرين، لا لذنبٍ اقترفوه، وإنّما لسوء ظنّ الحكّام بهم، كما خذلهم بعض أعوانهم، الذين قالوا لهم: قلوبنا معكم، ولكن سيوفنا على رقابكم!! نكثاً للعهد، وخوفاً من بطش السلطان.

فما أحوجهم إلى نفحة الحبّ والمودّة! فهم نماذج إسلامية رائعة، يلزم أن تعرف الأجيال عنهم مواقفهم ومبادئهم الكريمة، وسلوكهم الطيّب المهتدي بسلوك المصطفى ﷺ، فلهم واجب المودّة التي يعبّر عنها بزيارتهم في أضرحتهم والدعاء لهم، وأنّ أرواح الصالحين لتتعارف مع أرواح الزوّار، وخاصّةً في أماكن جرّب الناس عندها استجابة الدعاء، ونزول السكينة والرحمة، بشرط أن يكون بنيّة الزائر الالتزام بالآداب الشرعية لزيارة أحدٍ هؤلاء الأحفاد في المسجد أو المزار المنتسب إليه، والذي يحمل اسمه.

وقد تكون المساجد والمزارات التي تسمّىٰ بأسماء أحفاد المصطفىٰ ﷺ مثل: مسجد السيدة سكينة، والسيدة فاطمة النبوية، قد شيّدها بعض الصالحين الذين نذروا لله أن يبنوا مسجداً يحمل اسماً شريفاً من آل البيت، تيمّناً وتبرّكاً وإحياءً لذكرى أهل البيت الذين لهم في قلوب الناس المنزلة الكبيرة والمحبّة.

كما قد يكون المسجد قد بُني بسبب رؤيا منامية لأحد الصالحين، يُفهم منها أن يقيم بيتاً لله يحمل اسماً شريفاً من أسماء آل البيت، وهذه البيوت تُعرف بمشاهد الرؤيا.. وهي منتشرة في كثيرٍ من البلاد الإسلامية، ومصر خاصّةً لها النصيب الأكبر من هذه المساجد والزوايا والمشاهد والأضرحة، وكلّها معدّة للصلاة والعبادة، وتلاوة القرآن وذكر الله في كلّ وقت، فهي بيوت أذن الله أن تُرفع لذكره.

وإذا اختلف المؤرّخون في من دُفن في القبر الذي بجوار المزار أو المسجد، فإنّ ذلك لايقلّل من ثواب المصلّي لله في بيتٍ من بيوت الله، كما يصل منه الثواب لمن سُمّي باسمه من الأحفاد كهديةٍ من المصلّي له من قراءة قرآن ودعاء، فضلاً عن التأسّي بأخلاق هؤلاء الذين دعا لهم رسول الله ﷺ ووصّانا بمحبّتهم ومودّتهم، وما يُعرف بالضريح تسميةٌ أطلقها أهل السنّة، وما يُعرف بالمشهد تسميةٌ أطلقها الشيعة، وكلاهما يعني القبر الذي غالباً ما يعلوه قبّة دُفن تحتها رجل مسلم أو امرأة مسلمة من الأحفاد الذين يُعتقد في صلاحهم وتقواهم، كالمشهد الحسيني، والمشهد الزينبي، وضريح الإمام الشافعي، في مصر وفي كثيرٍ من بلاد المسلمين.



خاتمة

من بين كتابات كثيرة عن أهل البيت في مصر، تمّ انتخاب هذه الفصول التي حواها هذا الكتاب..

ومثل هذه الكتابات إنّما تعكس مدىٰ عمق حالة العشق التي يعيشها المصريون مع أهل البيت عليهم السلام، وهي تبرهن من جانبٍ آخر علىٰ قيمة أهل البيت وعظمتهم في نفوس المصريّين من أهل الفكر وعامة الناس.

وهذا الكتاب ليس فقط مجرّد عرض لسيرة أهل البيت، ومشاهد أبناء الرسول صلى الله عليه وآله في مصر، بل هو بالإضافة إلى ذلك، بمثابة مرشدٍ ودليلٍ لكلّ من يريد التعرّف علىٰ مراقد أهل البيت وتاريخها وحالتها المعمارية، فهو يحوي وصفاً مجملاً لهذه المراقد، وما فيها من زخارف وفنون، وما لعبه الأُمراء والتجّار وكبار البلد من دور في رعاية هذه المراقد، وتوفير الخدمات الخاصّة بها، في شتّى العصور الإسلامية حتّى عصرنا الحاضر.

إنّ وجود أهل البيت في مصر، متنفّس كبير للمصريّين على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، فإنّ بركاتهم وكراماتهم دائمة، ومستمرّة علىٰ مصر وأهلها.

ولقد طغى الواقع على القلم، فقدّم الوقائع والشواهد وشتّى الأدلّة الملموسة التي

تجري طوال العام بلا انقطاع حول مراقد أهل البيت عليهم السلام، والتي هي أبلغ من القلم، وأشدّ تأثيراً من الكتب.

والرموز التي خطّت فصول كتابنا هذا قد عبّرت أصدق تعبير عن أهل البـيت، بحيث لايجد القلم مجالاً للتعليق والإضافة سوىٰ أن يبارك هـذا الجـهد، ويـدعو لأصحابه بدوام التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

سيد هادي خسروشاهي ـ القاهرة

١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م

ملاحق الكتاب

ملحق (١)

كتاب
أخبار الزينبات

تأليف

العلّامة الجليل أبي الحسين يحيىٰ بن الحسن بن
جعفر الحجّة ابن عبيدالله الأعرج ابن الحسين
الأصغر ابن الإمام السجّاد

قدّم له

سيد هادي خسروشاهي

مقدّمة

وثيقة تاريخية حول مرقد السيدة زينب عليها السلام

وقع بين أيدينا كتاب تاريخي قيّم، من نفائس المخطوطات القديمة، يطلّ علينا لأول مرّة، وهو كتاب «أخبار الزينبات» الذي قام بتأليفه علّامة عصره أبو الحسين يحيىٰ بن الحسن بن جعفر الحجّة ابن عبيدالله الأعرج... وينتهي نسبه إلى الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام وكان يعتبر من أفاضل العلماء في علم الأنساب، بل كان من أصحاب الشأن، وأهل العلم والمعرفة والتاريخ في عصره.

جاء في ترجمته في كتاب: «الثبت المصان» لابن الأعرج الحسيني الواسطي، و«بحر الأنساب» للشريف الأزورقاني، و«نسب الطالبيّين» لتاج الدين الحسيني: «أنّه يحيىٰ بن الحسن بن جعفر الحجّة ابن الأمير عبيدالله الأعرج ابن الحسين الأصغر ابن الإمام علي زين العابدين.

قال الحسيني في أنسابه: «هو أول من جمع الأنساب بين دفتّين، وكان إلى بنيه إمارة المدينة، وهي في عقبه إلى يومنا هذا، صنّف كتاب نسب آل أبي طالب، ابتدأ فيه بولد أبي طالب، ثم بولدهم بطناً بعد البطن إلى قريب زمانه، وهو كتابٌ حسنٌ، ما رأيت في مصنّفات الأنساب أحسن ولا أعدل ولا أنصف ولا أرضىٰ منه».

وقال ابن الأعرج في «الثبت المصان» بعد ذكر نسبه: «وله من التآليف: أخبار المدينة، أخبار الزينبات، وكتاب النسب. سكن مدينة سيدنا رسول الله ﷺ، ووليها بعد أبيه وجدّه، ولازالت الإمارة في عقبه إلى عصرنا هذا. وكان سيدنا عظيم القدر، جليل الشأن، مشكور الطريقة، ولد في المحرّم سنة ٢١٤ هـ بالمدينة بالعقيق في قصر عاصم، وتوفّي بمكة سنة ٢٧٧ هـ عن ٦٣ عاماً».

وفي «أُقنوم الآثار في الكشف عن الكتب والأسفار» لأبي يعقوب الأزموري الأمغاري: «أخبار الزينبات رسالة للعبيدلي يحيىٰ بن الحسن شيخ الشرف، أولها: بحمد الله وثنائه نستفتح أبواب رحمته... وله غيرها تآليف حسنة، منها: كتاب النسب، وله أخبار المدينة، وأنساب قبائل العرب... توفّي بمكّة في ذي القعدة عام ٢٧٧ عن ٦٣ عاماً وصلّىٰ عليه أميرها...».

وله مؤلّفات أُخرىٰ، منها: كتاب المناسك، كتاب المسجد، كتاب الفواطم، رسالة الخلافة وغيرها...

وقد قام آية الله المرحوم السيد شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي، الذي لاتزال آثاره وبركاته ومكتبته العامرة المليئة بالمخطوطات (أكثر من اثنين وثلاثين ألف مجلّد في أكثر من ستين ألف عنوان ٦٠٪ منها باللغة العربية) بتحقيق هذه الرسالة المخطوطة بعدما فتّش عنها لمدة طويلة، وأخرجها إلى النور مع مقدّمةٍ مفصّلةٍ في تاريخ حياة المؤلّف وآثاره، بعد أن كانت طوال قرون متمادية محجوبة عن الأبصار، مع الحاجة الماسّة إليها لحسم الخلاف في مسألة مكان مرقد السيدة زينب عليها السلام.

وتعدّ هذه الرسالة وثيقةً تاريخيةً معتمدةً عن حياة السيدة زينب الكبرىٰ بنت الإمام علي عليه السلام، وأنّها دخلت مصر بعد إجبارها على الخروج من المدينة، وتوفّيت في مصر ودُفنت بها. أمّا السيدة زينب المدفونة بالشام، هي زينب الوسطىٰ بنت الإمام علي عليه السلام، المكنّاة بأم كلثوم.

ويكفي في هذا الموضوع، اعتماد آية الله المرعشي لهذه الوثيقة التاريخية، ودعوته إلى نشرها، فإنّ من شأنها أن تحسم الخلاف المستمرّ حول مكان مرقدها المبارك.

وها نحن ننشر هذه الرسالة الوثيقة، بتوفيقٍ من الله سبحانه وتعالىٰ كملحقٍ لهذه الطبعة من كتاب «أهل البيت في مصر» عسىٰ الله أن ينفع به الجميع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

سيد هادي خسروشاهي

القاهرة ـ ١٤٢٣هـ

تصدير

السيدة زينب رمز الحقّ والفضيلة

إنّ اشتهار فضائل السيدة زينب، والآثار المرويّة فيها وعنها في كتب التاريخ، ليغني عن التوسّع في ترجمتها الشريفة، وبوجه إجمالي فهي ينبوع فضائل باقية الذكر، ولا عجب أن عدّت المثل الأعلىٰ لرمز الحقّ ومثال الفضيلة، وشأن الحقّ أن يستمرّ، والفضيلة أن تشتهر.

وقد طبّع آل علي عليه السلام على الصدق، حتّى كأنّهم لايعرفون غيره، وفطروا على الحقّ فلايتخطّونه قيد شعرة، فهم مع الحقّ، والحقّ معهم، يدور حيثما داروا.

ولقد كانت حركة أخيها الحسين عليه السلام المظهر الأتمّ للحقّ، وكانت هي في هذه النهضة داعيةً للحقّ، هاتفةً باسمه، ونور الحقّ لايُطفأ، وروح الصدق لاتبيد.

ولقد كانت مواقفها بين أُمراء الظلم أُمثولة الحقّ والعدل، حيثما كانت مواقف الظَلَمة أُمثولة العسف والجور، فكانت تحارب القوم بكلّ ثبات وجسارة وإقدام، الأمر الذي لم يقم به أحد من البشر غيرها، فإنّه لمّا أُحيط بها وهي في هذا الموقف الرهيب، ناداها منادي الحقّ، فهتفت باسمه، وأجابت تلبيته، وحينئذٍ قالت تخاطب يزيد:

«صدق الله يا يزيد! ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾ [الروم: ١٠].

أظننت يا يزيد! أنّه حين أُخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الأسارىٰ، أنّ بنا هواناً على الله، وأنّ بك عليه كرامة؟ وتوهّمت أنّ هذا العظيم خطرك، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفيك جذلان فرحاً، حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأُمور متّسقة عليك؟ إنّ الله إن أمهلك فهو قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أمن العدل يا بن الطُلقاء تخديرك بناتك وإمائك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ كالأُسارىٰ؟! قد هُتكت ستورهنّ، وأصحلت أصواتهنّ، مكتئبات تجري بهنّ الأباعر، وتحدو بهن الأعادي، من بلدٍ إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوّفهنّ القريب والبعيد، ليس معهنّ قريب من رجالهن! وكيف يستبطأ في بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنان، والأحن والأضغان؟ أتقول: ليت أشياخي ببدر شهدوا؟! غير متأثّم ولا مستعظم، وأنت تنكث ثنايا أبي عبدالله بمخصرتك؟! ولم لا تكون كذلك وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة بإهراقك هذه الدماء الطاهرة، دماء نجوم الأرض من آل عبدالمطلب، ولتردن على الله وشيكاً موردهم، وعند ذلك تودّ لو كنت أبكم أعمىٰ وأنّك لم تقل: لأهلّوا واستهلّوا فرحاً.. اللّهم خذ بحقّنا، وانتقم لنا ممّن ظلمنا.

يا يزيد، والله ما فريت إلّا في جلدك، ولا حززت إلّا في لحمك، سترد علىٰ رسول الله ﷺ برغمك، ولتجدن عترته ولحمته من حوله في حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم من الشعث: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وستعلم أنت ومن بوّأك ومكّنك من رقاب المؤمنين، إذا كان الحكم ربّنا، والخصم جدّنا، وجوارحك شاهدة عليك، فبئس للظالمين بدلاً! هنالك تعلم أيّنا شرّ مكاناً وأضعف جنداً! مع أنّي والله أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، غير أنّ العيون عبرىٰ، والصدور حرّىٰ، وما يجزي ذلك أو يغني وقد قُتل أخي الحسين.

ألا إنّ حزب الشيطان يقرّبنا إلى حزب السفهاء؛ ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاك محارم الله، فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، وهذه الأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان الفلوات. فلئن اتّخذتنا في هذه الحياة مغنماً، لتجدنّنا عليك مغرماً حين لاتجد إلّا ما قدّمت يداك، تستصرخ بابن مرجانة ويستصرخ بك، وتتعاوىٰ وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زادٍ تزوّدت به: قتل ذرّية محمد ﷺ! فوالله ما اتّقيت غير الله، وما شكوت إلّا لله. فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لايرحض عنك عار ما أتيت إلينا أبداً».

جثمان السيّدة في مصر

لم أقصد بوضعي هذه الرسالة التي تضمّنت كثيراً من أخبار هذه البضعة النبوية، إقامة الحجّة على من يستبعد وجود جثمانها الشريف في مصر، وخاصّةً في هذا الموضع التي تُزار به الآن، إذ التواريخ[1] لم ترو لنا ذلك، ولم يرد فيها تفاصيل ثابتة تؤيّد هذا القول. ورواية أهل الكشف في هذا الخصوص تتعلّق بشخصياتهم؛ إذ هي من قبيل المشاهدات الروحية، وليس لها في بحثنا هذا مجال، والمقصود: الوقوف مع الحقائق الثابتة المؤيّدة بأدّلة علمية.

فلهذا كنت قد اعتزمت علىٰ أن لا أخوض هذا البحث؛ حيطةً من الوقوع فيما لم يرد به نصّ ثابت، فاقتصرت على ما أوردته من أخبارها التي تضمّ بين دفّتيها أُسلوباً من البلاغة العربية، والتي تمثّل سلسلة فضائل يتّخذ منها أُنموذجاً ترتكز عليه شعور الأُمم الحيّة، الأمر الذي جعل هذه السيدة الطاهرة في مصافّ شهيرات النساء.

فلمّا أتممت ما قصدت، وألممت بما إليه أشرت، مع ما اندرج في طيّ ذلك من المناسبات بقدر ما وصل إليه علمي، خطر لي أن أطرق باب البحث مرّةً ثانيةً لعلّي

---

١. المتناول منها كالمطبوع وبعض المخطوط، وهي أقلّيّة سحيقة بالنسبة لما أُلّف منها في كلّ عصر.

أصل إلى نتيجةٍ تقضي على هذا الخلاف، لاسيّما ما هو واقع لبعض معاصرينا. فعبثاً حاولت، وما كنت لأملّ أو أشعر بالملل ولي شغف باستجلاء مثل هذه الآثار، فتماديت في أبحاثي طويلاً. فأسفرت لي هذه البحوث عن وجود حقائق غامضة لابد وأن يكون وراءها نتائج حسنة، وعزّزت ذلك بما ظهر لي من تضارب أقوال المؤرّخين واضطراباتهم الكثيرة، فكلّفت نفسي بعناء البحث، فصادفتني عقبات كثيرة، وكأنّي بدور الكتب المصرية الغاصّة بمئات الألوف من الكتب والأسفار لم يرق في نظري منها شيئاً، إذ ما أتطلبه منها مفقود.

كلّ هذه العقبات لم تثنِ من عزمي شيئاً، فزاولت مهنتي التي كرّست حياتي من أجلها، فتصادف أن ابتاعني بعض الكتبيّين مجموعةً من الكتب، فجلتُ بنظري في بعضها، فإذا بي أجد من بينها رسالةً صغيرة الحجم مخطوطةً، عنوانها: «الرسالة الزينبية لشمس الدين أبي الخير السخاوي المصري» وكنت أحسبها لأول وهلة رسالة السيوطي[١]، فإذا بي أرىٰ اسم مؤلّف آخر، فتصفّحتها فإذا هي تفوق رسالة السيوطي؛ لتضمّنها ترجمة السيدة مع إثبات شرف فروعها، وأنّهم يحوزونه ويمتازون به كبقية طوائف الأشراف، فكأنّها زادت علىٰ رسالة السيوطي بإيراد شذرةٍ من ترجمة السيدة علىٰ نهجٍ مختصرٍ، وقف فيها على استقرار السيدة في المدينة بعد تجهيزها من الشام عقب محنة أخيها الحسين، ولم يزد على ذلك، فهي وإن كانت جديرة بالعناية فليست بشيء، إذ ينقصها بحثي، فأهملتها.

ثم بعد مرور فترة من الزمن كتبت إلى بعض أصدقائي بالشام، وهم من الذين اعتمد عليهم في حلّ مثل هذه المشاكل، فكتب إليّ يخبرني أنّ المؤرّخ «ابن طولون الدمشقي» له رسالة في ترجمة السيدة زينب، وأنّها محفوظة بخزانة بعض أصدقائه

---

١. «المجاجة الزرنبية في السلالة الزينبية» منها مخطوط بدار الكتب المصرية. وطُبعت بفاس على القاعدة المغربية. واختصرها هو بنفسه بعض الاختصار في كتابه «الحاوي في الفتاوي» وأورد معظمها العدوي في «النفحات الشاذلية» و«مشارق الأنوار».

بنابلس، وعدني بأن يكتب إليه ويستعيرها منه ويرسلها إليّ، فلم يمض وقت طويل إلّا وجاءتني هذه الرسالة، فإذا هي في نحو كراسة ونصف ترجم فيها الشقيقة صاحبة الترجمة، السيدة زينب الوسطىٰ المكنّاة بأُم كلثوم، وقال: إنّها المدفونة بالشام، وكانت قد قدمت إليها في وقعة الحرّة، وترجم لأُختها عرضاً. واستشهد لصحّة ما ذكره بما رواه «ابن عساكر» أنّ السيدة زينب الكبرىٰ قدمت مصر وماتت بها، وأنّ دفينة الشام هذه هي الوسطى، ولا صحّة لما يزعمه أهل دمشق. فاستنسخت منها بعض ما أهمّني الوقوف عليه، ثم رددتها بالتالي.

وبعد فترة قصيرة من الزمن أرسل إليّ صاحبي هذا رسالةً عثر عليها في حلب عند بعض أصدقاء له هناك، عنوانها: «أخبار الزينبات للعبيدلي النسّابة» وذكر لي: إنّك تجد ـ إن شاء الله تعالى ـ في هذه الرسالة أُنشودتك الضالّة؛ ولذا فقد سمحت لك باستنساخها، فلمّا تصفّحتها تلمّحت منها ترجمة السيدة زينب الكبرىٰ بنت علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه، وإذا بي أجد في آخر الترجمة: أنّ السيدة زينب قدمت مصر بعد مصرع أخيها بيسير من الزمن، وماتت بها، ودُفنت بموضع يقال له: الحمراء القصوىٰ حيث بساتين الزهرىٰ...

فنسخت الكتاب ورددته لصاحبي شاكراً له مسعاه، ونظراً لأهمّية هذا الكتاب، استصوبت أن أدرجه هنا بنصّه حرفياً، إذ لايوجد نظيره في سائر دور الكتب علىٰ ماوصل إليه بحثي، وإذ هو الحجر الأول الأساسي الذي قضىٰ على هذا الخلاف القائم بين جمهرة المؤرّخين من قرون عديدة.

فهذه الرسالة مع صغر حجمها هي نفسها الحجّة على من كان يستبعد دخول السيدة إلى مصر، ووفاتها بها، ودفن جثمانها الشريف في هذا الموضع، علىٰ أنّ المؤلّف ﷺ عرف عن الخطّة بهذا التعريف المذكور بحسب ما كان يعرف به في عصره بين أهل مصر، واستطلعنا التعريف عنه قديماً وحديثاً من الخطط المصرية، وممّا كتبه لي الأستاذ صاحب العزّة مصطفى بك منير أدهم السكرتير العام لمصلحة

التنظيم المصرية، أمتع الله بأنفاسه، وسيأتي بيان ذلك مفصّلاً في محلّه.

وهذه الرسالة المشار إليها، والتي أدرجناها في كتابنا هذا، نقلناها عن الأصل المرسل لنا من السيد المذكور، كُتبت بتاريخ سنة ١٠٧٦هـ، ومخطوط بخطّ مَن يدعىٰ الحاج محمد البلتاجي الطائفي المجاور بالحرم الشريف النبوي، ومنقول عن أصل مؤرّخ بتاريخ سنة ٤٨٣هـ مخطوط بخطّ السيد محمد الحسيني الواسطي الأصل، المتوطّن حيدر آباد.

وإنّي لأغتبط سروراً بتناولي هذه الوثيقة التاريخية التي أسعدني بتناولها التوفيق، كما أنّي أشكر كلّ من تفضّلوا عليّ بمديد المساعدة من أهل الفضل والسداد، وفّقنا الله جميعاً إلى خدمة العلم والدين.



أخبار الزينبات

للعلّامة النسّابة الجليل

أبي الحسن يحيى العبيدلي المتوفّىٰ سنة ٢٨٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

حدثنا محمد بن سليمان، قال: حدثني أبو طالب جعفر النقيب، قال: أخبرنا الشيخ أبو الفتح السلماني، قال: حدثني الشريف أبو محمد الحسن والشريف مهنّا بن سبيع القرشي، قالا: حدثنا محمد بن يحيى بن الحسن، قال: أملى عليَّ أبي وأنا أكتب: بحمد الله وثنائه نستفتح أبواب رحمته، وبالصلاة والتسليم على نبيّه الكريم نستمنح الفضل، ونستوهب القرب يوم القرب من حضرته.

وبعد، فهذه رسالة جمعت في طيّها أخبار الزينبات من آل البيت، والصحابيات اللاتي[1] عرفن بإشارة بعض المنتمين إلى جنابنا لقصدٍ له في ذلك.

فمن الزينبات:

* زينب بنت النبي ﷺ

أمّها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزّىٰ بن قصيّ، وكانت أكبر بناته ﷺ،

---

١. في نسخة: اللاتي وقفنا علىٰ أخبارهنّ. كذا بالأصل.

زوّجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزّىٰ بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ قبل النبوّة، وكانت أول من تزوّج من بنات رسول الله ﷺ، وأُم أبي العاص هالة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزّىٰ. وولدت زينب لأبي العاص علياً وأُمامة، فتوفّي علي وهو صغير، وبقيت أُمامة فتزوّجها علي بن أبي طالب بعد موت فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

حدثنا أبو عبدالله التميمي، قال: نا نعيم، عن جمال، عن يحيى التمّار، عن سفيان الثوري، عن أبي عبدالحق بن عاصم، عن زرارة، عن علي ﷺ.

وحدثني أبي، عن أبيه، عن جدّه الحسين بن علي، عن علي بن الحسين، عن علي ﷺ، قالا: إنّ زينب بنت رسول الله ﷺ كانت تحت أبي العاص بن الربيع، وهاجرت مع أبيها.

وبالسند إلى عامر الشعبي، عن عائشة رضي الله عنها: أنّ أبا العاص كان في من شهد بدراً مع المشركين، فأسره عبدالله بن جبير بن النعمان الأنصاري[١]، فلمّا بعث أهل مكة في فداء أُساراهم، قدم في فداء أبي العاص أخوه عمرو بن الربيع، وبعثت معه زينب بنت رسول الله ﷺ ـ وهي يومئذٍ بمكّة ـ بقلادةٍ لها كانت لخديجة بنت خويلد من جزع ظفار ـ اسم لجبل باليمن ـ وكانت خديجة بنت خويلد أدخلتها بتلك القلادة على أبي العاص حين بنىٰ بها، فبعثت بها في فداء زوجها، فلمّا رأىٰ رسول الله ﷺ القلادة عرفها ورقّ لها، وذكر خديجة وترحّم عليها، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا إليها متاعها فعلتم» قالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوا أبا العاص بن الربيع، وردّوا علىٰ زينب قلادتها، وأخذ النبي ﷺ على أبي العاص أن يخلّي سبيلها إليه، فوعده ذلك، ففعل.

حدثني موسى بن عبدالله، قال: حدثني محمد بن مسعدة، عن أبيه، عن جدّه، عن

---

١. والذي في سيرة ابن هشام: أنّ الذي أسره خرّاش بن الصمّة أحد بني حرام... إلخ مصحّحه.

عمرو بن حزم، قال: توفّيت زينب بنت رسول الله ﷺ في أول سنة ثمان من الهجرة.

وبالسند إلى عبدالله بن رافع، عن أبيه، عن جدّه، قال: كانت أُم أيمن ممّن غسّل زينب بنت رسول الله ﷺ.

وبالإسناد إلى أُم عطيّة قالت: لمّا غسّلنا زينب بنت رسول الله ﷺ ضفرنا شعرها ثلاثة قرون، ناصيتها وقرنيها، وألقيناه خلفها، وألقى إلينا رسول الله ﷺ حقوةً ـ أو قالت: حقواً ـ وقال: «أشعرنها هذا».

* زينب بنت جحش

ابن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، أمّها أُميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف.

أخبرنا الحسين بن جعفر، قال: حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: كانت زينب ممّن هاجر مع رسول الله ﷺ، وكانت امرأةً جميلةً، فخطبها رسول الله ﷺ على زيد بن حارثة، فقالت: يا رسول الله، لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش، قال: «فإنّي قد رضيته لك». فتزوّجها زيد بن حارثة.

حدثني جدّي بسنده إلى علي بن الحسين، عن أبيه، قال: جاء رسول الله ﷺ ببيت زيد بن حارثة يطلبه فلم يجده، فقامت إليه زينب بنت جحش، وقالت له: ليس هو هاهنا يا رسول الله، فادخل بأبي أنت وأمي، فأبىٰ رسول الله ﷺ أن يدخل وولّىٰ معلناً بالتسبيح، يقول: «سبحان لله العظيم، سبحان مصرِّف القلوب». فجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أنّ رسول الله ﷺ أتى منزله، فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد عرضت ذلك عليه فأبىٰ، قال: أفسمعت منه شيئاً؟ قالت: سمعته حين ولّىٰ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان مصرِّف القلوب».

فجاء زيد حتّى أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، بلغني أنّك جئت منزلي، فهلّا دخلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لعلّ زينب أعجبتك أفأُفارقها؟ فقال له

رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك». فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم، وكان يأتي إلى رسول الله ﷺ فيخبره، فيقول له: «أمسك عليك زوجك»، ففارقها زيد واعتزلها وحلّت. قال: فبينما رسول الله ﷺ جالس يتحدّث مع عائشة أخذته غشية، فسري وهو يتبسّم، ويقول: «مَن يذهب إلى زينب يبشّرها أنّ الله قد زوّجنيها في السماء» وتلا: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قالت عائشة: فأخذني ما قرب وما بعد لما يبلغنا من جمالها، وما هو أعظم من هذا مفاخرتها علينا بما صنع لها، زوّجها الله من السماء، فخرجت سلمىٰ خادمة رسول الله ﷺ فحدثتها بذلك، فأعطتها أوضاحاً عليها.

وبالإسناد المرفوع إلى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لمّا أُخبرت زينب بتزويج رسول الله ﷺ لها سجدت.

وعن محمد بن عبدالله بن جحش، قال: قالت زينب بنت جحش: لمّا جاءني الرسول بتزويج رسول الله ﷺ إيّاي جعلت لله عليّ صوم شهرين، فلمّا دخل عليَّ رسول الله ﷺ كنت لا أقدر أصومهما في حضر ولا سفر تصيبني فيه القرعة، فلمّا أصابتني في المقام صمتهما.

وعن ثابت بن أنس قال: نزلت في زينب بنت جحش: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فكانت لذلك تفتخر على نساء النبي ﷺ.

وعن عائشة قالت: كانت زينب بنت جحش امرأةً قصيرةً، صنَّاعة اليد، تدبغ وتخرز، وتتصدّق في سبيل الله.

وعن الشعبي قال: سأل النسوة رسول الله ﷺ: أيّنا أسرع بك لحوقاً؟ قال: «أطولكنّ يداً» فلمّا توفّيت زينب علمن أنّها كانت أطولهنّ يداً في الخير والصدقة.

ماتت زينب بنت جحش في خلافة عمر بن الخطاب، وصلّى عليها عمر، وقالوا له: من ينزل في قبرها؟ قال: من كان يدخل عليها في حياتها.

حدثني الزبير بن أبي بكر، عن محمد بن إبراهيم بن عبدالله، عن أبيه، قال: سئلت أُم عكاشة بنت محصن: كم بلغت زينب يوم توفِّيت؟ فأجابت: قدمنا المدينة للهجرة وهي بنت بضع وثلاثين سنة، وتوفِّيت سنة ٢٠.

* زينب بنت عقيل بن أبي طالب

أُمها أُم ولد، وكانت فيما رويناه أسنّ بنات عقيل، وأوفرهنّ عقلاً.

* زينب الكبرىٰ بنت علي بن أبي طالب

أُمها فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، ولدت في حياة جدّها ﷺ، وخرجت إلى عبدالله بن جعفر، فولدت له أولاداً ذكرناهم في كتاب النسب.

أخبرني أبو الحسن ابن جعفر الحجّة، قال: أخبرني عبّاد بن يعقوب، عن يحيى بن سالم، عن صالح بن أبي الأسود، عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن علي بن الحسين، قال: إنّي والله لجالس مع أبي الحسين عشيّة مقتله وأنا عليل، وهو يعالج ترساً له، وبين يديه «جون» مولىٰ أبي ذرّ، فسمعته يرتجز في خبائه ويقول:

يا دهر أُفٍّ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من طالب أو صاحبٍ قتيل ... والدهر لايقنع بالبديل
والأمر في ذلك للجليل ... وكلّ حي سالك السبيل

قال: أمّا أنا فسمعته ورددت عبرتي، وأمّا زينب عمّتي فسمعته دون النساء، فلزمها الرقّة والجزع، فخرجت حاسرةً تنادي: واثكلاه! واحزناه! ليت الموت أعدمني الحياة، يا حسيناه! يا سيّداه، يا حبيباه، يا بقية الماضين وثمال الباقين! بئست الحياة، اليوم مات جدّي وأُمي، وأبي وأخي، فسمعها الحسين، فقال لها: يا أُختاه! لايذهبنّ بحلمك الشيطان، والله يا أُختاه، لو تُرك القطا لنام، فقالت: ما أطول حزني، وما أشجى قلبي! ثم خرت مغشيّاً عليها، فلم يزل يناشدها ويواسيها حتّى احتملها وأدخلها الخباء.

حدثني إبراهيم بن محمد الحريري، قال: حدثني عبدالصمد بن حسّان السعدي، عن سفيان الثوري، عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن الحسن بن حسن، قال: لمّا حملنا إلى يزيد وكنّا بضعة عشر نفساً، أمر أن نسير إلى المدينة، فوصلناها في مستهلّ[١] وعلى المدينة عمرو بن سعيد الأشدق، فجاء عبدالملك بن الحارث السهمي فأخبره بقدومنا، فأمر أن ينادىٰ في أسواق المدينة: ألا إنّ زين العابدين وبني عمومته وعمّاته قد قدموا إليكم، فبرزت الرجال والنساء والصبيان، صارخات باكيات، وخرجت نساء بني هاشم حاسرات تنادي: واحسيناه، واحسيناه! فأقمنا ثلاثة أيام بلياليها ونساء بني هاشم وأهل المدينة مجتمعون حولنا.

حدثنا زهران بن مالك، قال: سمعت عبدالله بن عبدالرحمن العتبي، يقول: حدثني موسىٰ بن سلمة، عن الفضل بن سهل، عن علي بن موسىٰ، قال: أخبرني قاسم بن عبدالرازق وعلي بن أحمد الباهلي، قالا: أخبرنا مصعب بن عبدالله، قال: كانت زينب بنت علي وهي بالمدينة تألّب الناس على القيام بأخذ ثأر الحسين، فلمّا قام عبدالله بن الزبير بمكة، وحمل الناس على الأخذ بثأر الحسين، وخلع يزيد، بلغ ذلك أهل المدينة، فخطبت فيهم زينب وصارت تؤلّبهم على القيام للأخذ بالثأر، فبلغ ذلك عمرو بن سعيد، فكتب إلى يزيد يعلمه بالخبر، فكتب إليه أن فرّق بينها وبينهم، فأمر أن ينادىٰ عليها بالخروج من المدينة والإقامة حيث تشاء. فقالت: قد علم الله ما صار إلينا، قُتل خيّرنا، وانسقنا كما تُساق الأنعام، وحُملنا على الأقتاب، فوالله لاخرجنا وإن أُهريقت دماؤنا، فقالت لها زينب بنت عقيل: يا ابنة عماه! قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوّأ منها حيث نشاء، فطيبي نفساً، وقرّي عيناً، وسيجزي الله الظالمين، أتريدين بعد هذا هواناً؟ ارحلي إلى بلدٍ آمن، ثم اجتمع عليها نساء بني هاشم وتلطّفن معها في الكلام وواسينها.

---

١. كذا بالمخطوط، ويبدو أنّ بهذا الموضع سقطاً.

وبالإسناد المذكور مرفوعاً إلى عبيدالله بن أبي رافع، قال: سمعت محمداً أبا القاسم ابن علي يقول: لمّا قدمت زينب بنت علي من الشام إلى المدينة مع النساء والصبيان ثارت فتنةٌ بينها وبين عمرو بن سعيد الأشدق والي المدينة من قِبل يزيد، فكتب إلى يزيد يشير عليه بنقلها من المدينة، فكتب له بذلك، فجهّزها هي ومن أراد السفر معها من نساء بني هاشم إلى مصر، فقدمتها لأيامٍ بقيت من رجب.

حدثني أبي، عن أبيه، عن جدّي، عن محمد بن عبدالله، عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن الحسن بن الحسن، قال: لمّا خرجت عمّتي زينب من المدينة خرج معها من نساء بني هاشم: فاطمة ابنة عم الحسين، وأُختها سكينة.

وحدثني أبي، قال: روينا بالإسناد المرفوع إلى علي بن محمد بن عبدالله، قال: لمّا دخلت مصر في سنة ٤٥ سمعت عسامة المعافري، يقول: حدثني عبدالملك بن سعيد الأنصاري، قال: حدثني وهب بن سعيد الأوسي، عن عبدالله بن عبدالرحمن الأنصاري، قال: رأيت زينب بنت علي بمصر بعد قدومها بأيام، فوالله ما رأيت مثلها، وجهها كأنّه شقّة قمر!

وبالسند المرفوع إلى رقيّة بنت عقبة بن نافع الفهري، قالت: كنت في من استقبل زينب بنت علي لمّا قدمت مصر بعد المصيبة، فتقدّم إليها مسلمة بن مخلد وعبدالله بن الحارث وأبو عميرة المزني، فعزّاها مسلمة وبكىٰ، فبكت وبكى الحاضرون، وقالت: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ثم احتملها إلى داره بالحمراء، فأقامت بها أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، وتوفّيت وشهدتُ جنازتها، وصلّىٰ عليها مسلمة بن مخلد في جمعٍ بالجامع، ورجعوا بها فدفنوها بالحمراء بمخدعها من الدار بوصيّتها.

حدثني إسماعيل بن محمد البصري ـ عابد مصر ونزيلها ـ قال: حدثني حمزة المكفوف، قال: أخبرني الشريف أبو عبدالله القرشي، قال: سمعت هند بنت أبي رافع بن عبيدالله بن رقيّة بنت عقبة بن نافع الفهري، تقول: توفّيت زينب بنت علي عشية

يوم الأحد لخمسة عشر يوماً مضت من رجب سنة ٦٢ من الهجرة، وشهدتُ جنازتها، ودُفنت بمخدعها بدار مسلمة المستجدة بالحمراء القصوىٰ، حيث بساتين عبدالله بن عبدالرحمن بن عوف الزهري.

* زينب الوسطى بنت علي بن أبي طالب

أُمها وأُم إخوتها الحسن والحسين ومحسن وزينب الكبرىٰ ورقيّة: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

حدثنا موسىٰ بن عبدالرحمن، قال: حدثني موسى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جدّه، قال: ولدت زينب قبل وفاة النبي ﷺ، وسمّتها أُمها زينب، وكنّاها رسول الله ﷺ أُم كلثوم، ولمّا خطبها عمر بن الخطاب من أبيها، فوّض أمرها إلى العباس، فزوّجها عمر، فولدت له زيداً ورقيّة، فقُتل زيد في حربٍ كانت في بني عديّ ليلاً، وكان قد خرج للاصلاح بينهم، ضربه خالد بن أسلم مولىٰ عمر بن الخطاب في الظلام ولم يعرفه، فصُرع، وعاش أياماً ومات هو وأُمه في وقت واحد، ولم يعقّب، فلم يدر أيّهما مات قبل الآخر، فلمّا وضع للصلاة قدِّم زيد قبل أُمه ممّا يلي الإمام، وصلّىٰ عليهما عبدالله بن عمر بن الخطاب وسعيد بن العاص أمير الناس.

وعاشت رقيّة، وتزوّجت إبراهيم بن عبدالله النحام ابن أسد بن عبيد بن عولج بن عدي بن عمر بن الخطاب.

* زينب الصغرىٰ بنت علي بن أبي طالب

أُمها أُم ولد، تزوّجت ابن عمّها محمد بن عقيل، فولدت له القاسم وعبدالله وعبدالرحمن، أعقب منهم عبدالله، وماتت زينب بالمدينة.

❁ زينب بنت الحسن بن علي بن أبي طالب

خرجت إلى علي بن الحسين، فولدت له محمد بن علي الباقر وأخاه عبدالله.

حدثني محمد بن القاسم، قال: أول من اجتمعت له ولادة الفرعين من العلويّين: محمد الباقر وأخوه عبدالله، فإنّ أُمهما زينب بنت الحسن بن علي.

❁ زينب بنت علي زين العابدين ابن علي بن أبي طالب

حدثني عمي الحسين بإسناده، قال: إنّ علياً زين العابدين له زينب. قال: وماتت بالمدينة وأُمهما أُم ولد.

❁ زينب بنت عبدالله الكامل

ابن الحسن المثنّى ابن الحسن السبط، خرجت إلى علي العابد ابن الحسن المثلّث ابن الحسن المثنّى، وكان يقال لها: الزوج الصالح، وهي أُم الحسين بن علي صاحب فخّ، وأُمها هند بنت أبي عبيدة.

❁ زينب بنت خزيمة بن الحارث

ابن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة أُم المساكين، زوج رسول الله ﷺ، سمّيت بذلك في الجاهلية، وكانت عند الطُفيل بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبد مناف، فتزوّجها عبيدة بن الحارث فقُتل عنها يوم بدر.

حدثني أبي، عن أبيه، عن جدّه، قال: روينا عن محمد بن بشير، قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أُم المساكين، فجعلت أمرها إليه، فتزوّجها رسول الله ﷺ وأصدقها اثنتي عشرة أُوقية، فتزوّجها في رمضان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة، ومكثت عنده ثمانية أشهر.

وتوفّيت في آخر شهر ربيع الآخر على رأسٍ مضى ٣٩ شهراً من الهجرة، وصلّىٰ عليها رسول الله ﷺ، ودفنها بالبقيع.

* زينب بنت يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب

أُمها أُم ولد.

حدثني أبو جعفر الحسين، عن محمد بن يحيى العثماني، قال: كنت بمصر حين قدمت زينب بنت يحيى مع عمّتها نفيسة بنت الحسن، قال: سألتها: كم لك في خدمة عمّتك نفيسة؟ قالت: أربعين سنة.

ماتت زينب بنت يحيى بمصر، ولا عقب لها.

* زينب بنت عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

تزوّجها سليمان بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن جعفر الطيار ابن أبي طالب، فولدت له محمداً، وله عقب.

* زينب بنت عيسى الجون ابن عبدالله الكامل ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب

تزوّجها محمد بن جعفر الأمير، فولدت له عيسى وإبراهيم وداود وموسى، لهم أعقاب كثيرة.

* زينب بنت الحسن المثنّى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب

أُمها أُم ولد تُدعىٰ حميدة، تزوّجها الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، فولدت له القاسم ومحمداً ويحيى وأُم كلثوم وسلمة وبها كانت تكنّىٰ. وللقاسم عقب من ولديه: محمد وعبدالرحمن. ماتت زينب بنت الحسن المثنّىٰ بالمدينة سنة ١٦٠هـ.

* زينب بنت القاسم الطيب ابن محمد المأمون ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر

أُمها أُم الذرّية بنت موسى الكاظم، تُدعىٰ فاطمة، قدمت مصر هي وأبوها وجماعة من بني عمومتها على أحمد بن طولون.

* زينب بنت موسى الكاظم

حدثني جدي، قال: أحسب أنّ زينب بنت موسىٰ الكاظم هاجرت إلى مصر مع زوج أُختها القاسم بن محمد بن جعفر الصادق.

ورأيت بخطّ عمّي الحسين: كان في من هاجر إلى مصر، ومعه جماعة من الأشراف: القاسم الطيّب، وزينب بنت موسى الكاظم، وسمّىٰ آخرين.

* زينب بنت محمد الباقر ابن علي زين العابدين

تزوّجها ـ فيما رويناه ـ عبيدالله بن أبي القاسم محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وأُمها أُم ولد، ولا عقب لها. وأُم عبيدالله: خديجة ابنة علي بن الحسين.

* زينب بنت أحمد بن محمد بن عبدالله بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب

قال أبو القاسم بن الحنفية: ذكر لنا جعفر بن الحسن: أنّها دخلت مصر هي وأخ لها يدعىٰ محمداً في سنة ٢١٢ مائتين واثنتي عشرة، أو قال: وثلاث عشرة.

* زينب بنت القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب

أُمها أُم ولد، وأُم القاسم بن الحسن: أُم سلمة زينب بنت الحسين المثنّى ابن الحسن السبط. خرجت إلى عبدالله بن القاسم بن إسحاق بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، ولها عقب.

* زينب بنت عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح

خرجت إلى عبدالله بن عمر بعد وفاة أبيها، زوّجه إياها عمّها قدامة بن مظعون، فأرغبه المغيرة بن شعبة في الصداق، فكرهت الجارية النكاح وأعلمت رسول الله ﷺ، فردّ نكاحها، فنكحها المغيرة بن شعبة.

* زينب بن مظعون بن حبيب بن وهب أُخت عثمان بن مظعون

تزوّجها عمر بن الخطاب، فولدت له عبدالله بن عمر، وحفصة أُم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ.

* زينب بنت عمر بن الخطاب

أُمها أُم ولد تُدعىٰ فكيهة

روينا عن الزبير بن بكّار وغيره: تزوّج عمر فكيهة امرأةً من اليمن، فولدت له عبدالرحمن وزينب، وهي أصغر ولد عمر.

* زينب بنت صيفي بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عديّ بن غنم بن كعب بن مسلم

أُمها نائلة بنت قيس بن النعمان بن سنان. تزوّجها الحبّاب بن المنذر ابن الجموح، فولدت له خشرماً والمنذر، أسلمت زينب وبايعت رسول الله ﷺ.

* زينب بنت الحبّاب بن الحارث بن عمرو بن عوف بن مبذول من بني النجّار

تزوّجها قيس بن عمرو من بني ثعلبة ابن الحارث بن زيد، فولدت له سعيد بن قيس، وكانت ممّن بايع رسول الله ﷺ.

* زينب بنت أبي سلمة بن عبدالأسد بن هلال

مخزومية من بني مخزوم، أُمها أُم سلمة بنت أبي أُمية بن المغيرة، زوج رسول الله ﷺ. تزوّجها عبدالله بن زمّعة، فولدت له عبدالرحمن ويزيد ووهباً وأبا سلمة وكبيراً وأبا

عبيدة وقرينة وأُم كلثوم وأُم سلمة وكان اسمها برّة، فسمّاها رسول الله ﷺ زينب، روت عن أُمها، وعنها عروة بن الزبير، وكان أخاً لها من الرضاعة، وأرضعتها أسماء بنت أبي بكر. توفّيت بالمدينة ودُفنت بالبقيع وصلّىٰ عليها طارق أمير الناس وعبدالله بن عمرو، هي وأخواتها: عمرة ودرّة وسلمة، ربائب رسول الله ﷺ.

***زينب بنت المهاجر الأحمسية أُخت جابر بن المهاجر**

روى عنها عبدالله بن جابر.

*** زينب بنت يوسف بن الحكم بن أبي عقيل أُخت الحجّاج الثقفي**

زوّجها الحجّاج من ابن عمه الحكم بن أيوب، وولّاه البصرة.

*** زينب بنت نبيط بن جابر بن مالك بن زيد بن النجّار**

أُمها الفريعة بنت سعد بن زرارة، تزوّجها أنس بن مالك.

*** زينب بنت كعب بن عميرة**

روت عن الفريعة بنت مالك بن سنان، وهي أُخت أبي سعيد الخدري.

*** زينب امرأة قيس بن أبي حازم**

روت عن عائشة رضي الله عنها، وروىٰ عنها زوجها قيس بن أبي حازم.

*** زينب بنت الحارث**

أُخت أسماء بنت عميس لأُمها، وأُم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج رسول الله ﷺ.

* زينب بنت عمر بن أبي سلمة المخزومي

أم عمرو بن مروان بن الحكم؛ أبو حفص الأموي.

* زينب بنت الحارث بن خالد بن صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة

أمها زائفة بنت الحارث بن جبيلة، ولدت ببلاد الحبشة، وماتت بها.

* زينب بنت الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزّىٰ بن قصيّ

تزوّجها يعلىٰ بن منية بنت الحارث بن جابر من بني مازن بن منصور، ومنية أُمه وإليها نُسب، وأبوه أُمية بن أبي عبيدة من بني زيد بن مالك بن حنظلة.

وجاء يعلىٰ بابنه من زينب بنت الزبير، فدخل به على النبي ﷺ فقال: يارسول الله، بايعه على الهجرة، فقال: «لا هجرة بعد الفتح». ولمّا ماتت امرأته زينب وجد عليها وجداً شديداً، ورثاها بقوله:

بوجهك عن مسّ التراب مضنةٌ ... فلاتبعديني كلُّ حي سيذهب

تنكّرت الأبواب لمّا دخلتها ... وقالوا ألا قد بانت اليوم زينب

أأذهب قد خليت زينب طائعاً ... ونفسي معي لم ألقها حيث أذهب

وكان ليعلىٰ ابنٌ يقال له: عبدالله، وكان ينزل عليه إذا أتىٰ مكة، وكان علي بن أبي طالب يقول في يعلىٰ: «هو أنضى الناس» يعني: أكثرهم مالاً.

هذا ما أملاه عليّ والدي يحيىٰ بن الحسن أمير المدينة وابن أميرها رضي الله تعالى عنه وعن آبائه الطاهرين، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

ملحق (٢)

مالك الأشتر

مالك الأشتر[1]

قال فيه الإمام علي: «كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ»، وقضىٰ حياته لنصرة أهل البيت ﷺ. ولمّا كانت مصر كلّها موالية لأهل البيت ما عدا قرية «خربتا» ـومنها ثار المسلمون في وجه الظلم الأموي ـ ونظراً لأهمّيتها في العالم الإسلامي، كان الجيش المعادي للإمام علي يحاول بشتّىٰ الطرق أن لاتستمرّ فيها حكومة الإمام وولاته، وكان للإمام علي ﷺ فيها أربعة ولاة، هم كالآتي:

أولاً: محمد بن أبي حذيفة (اغتيل).

ثانياً: قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي (استدعاه الإمام علي ﷺ للمشاركة في حرب صفين).

ثالثاً: مالك الأشتر، الذي قُتل مسموماً، وكان آخرهم.

ولّى الإمام علي ﷺ مالك الأشتر مصر في عام ٣٧هـ، ولمّا أُخبر بذلك معاوية أرسل رسولاً إلى والي قلزم بأنّه سيعفيه عن الخراج ما دام حيّاً إذا تمكّن من اغتيال مالك، ولمّا نزل مالك القلزم أكرمه غاية الإكرام، ثم سقاه شربة عسل مات علىٰ أثرها، وأبلغ معاوية بذلك، فقال: كان لعلي يمينان: قُطع أحدهما بصفّين، والآخر في

---

١. مقتبس من كتاب الأستاذ محمد حسين الحسيني الجلالي: «مزارات أهل البيت وتاريخها» ط. مؤسسة الأعلمي، بيروت.

القلزم. يعني بالأول الصحابي عمار بن ياسر، وبالثاني مالك الأشتر رضي الله عنهما.

قال في صبح الأعشىٰ ج٣ ص٣١٩ ما نصّه: ثم وليها (مصر) عنه أمير المؤمنين علي عليه السلام مالك بن الحارث النخعي المعروف بالأشتر، في وسط سنة سبع وثلاثين، وكتب له عنه عهداً يأتي ذكره في الكلام على العهود، فسُمَّ ومات قبل دخوله إلى مصر، انتهى.

قال الجلالي: أورد العهد في ج١٠، ص١٢ وقد روى العهد بأسانيد متعدّدة،استوعبنا البحث حوله في مستند نهج البلاغة، فليراجع.

ولا يخفىٰ أنّ مراد المقريزي بقوله: مصر هو خصوص القاهرة وحدها، ولا يزال هو المتبادر اليوم عند المصريّين أنفسهم، ففي عام زيارتي لها (١٣٨٦هـ) كان المصريون يعنون بمصر خصوص القاهرة، على خلاف غير المصريّين فإنّهم يعنون بمصر دولة مصر.

وأمّا مرقد مالك، فقد عرفت أنّ المؤرّخين صرّحوا بأنّه نزل القلزم وتوفّي بها مسموماً، وقبره اليوم خارج القاهرة في منطقة تسمّى: القلج، وتبعد حوالي عشرة كيلومترات عن القاهرة، والقبر عامر مشيَّد، عليه قبّة عالية، وعلى القبر الشريف لوحة نصّها كالآتي:

تلك آثارنا تـدلّ عـلينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار

سيدنا مالك الأشتر النخعي هو مالك بن الحارث النخعي الكوفي، أحد الأبطال المشهورين من شيعة الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه، وكان جليل القدر، متقدّماً عند الخليفة وتابعيه، ورئيس قومه، وكان ممّن شهد واقعة الجمل وصفّين، ولّاه عمر بن الخطاب[١] صلى الله عليه وسلم علىٰ مصر بعد قيس بن سعد بن عبادة، فلمّا وصل إلى القلزم شرب شربة عسل فمات رحمة الله عليه رحمة واسعة، فقد مات سعيداً

---

١. كذا.

وعاش حميداً، وكانت وفاته سنة ٣٧ هجرية وحفظ الأثر الجليل.

قد أبدع وأودع هذه العلّامة عبدالرسول الشيرازي المقيم بمصر، أعانه الله وإيّانا لما يحبّ ويرضىٰ، وهو حسبنا ونعم الوكيل في سنة ١٣٤٣ هجرية، انتهىٰ.

ولنجعل هذا المزار ختام المسك لمزارات أهل البيت في القاهرة، عسىٰ أن يقيّض إليه بعض ذوي الهمّة في التتبّع والتحقيق عن سائرها، وخاصّةً بعض أهلها، فإنّ أهل البيت هم أدرىٰ بما في البيت.





ملحق (٣)

محمد بن أبي بكر رضي الله عنه

محمد بن أبي بكر[1]

هو ابن الخليفة الأول أبي بكر، وأُمه أسماء بنت عميس الخثعمية، تزوّجها جعفر بن أبي طالب، فلمّا مات تزوّجها أبو بكر، ولمّا مات تزوّجها الإمام علي، وقد ولّاه الإمام علي بن أبي طالب على مصر في رمضان عام ٣٧هـ. قال القلقشندي في قلائد الجمان ص١٤٣ ما نصّه: وكان من نسّاك قريش، وأُمه أسماء بنت عميس الخثعمية، ولّاه عثمان في خلافته مصر، ثم ولّاه له أيضاً علي في خلافته، بعد مرجعه من صفّين، فجرى بينه وبين عمرو بن العاص حرب، انتهت به الحال فيه، إلى أن هرب محمد بن أبي بكر، فيقال: إنّه وجد حماراً ميّتاً، فدخل في جوفه، فوجد فأُحرق فيه فمات، وقيل: بل قُتل ثم جُعل فيه، وأُحرق، وذلك في سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، انتهى.

وكان عمرو بن العاص من ولاة مصر الذين هربوا منها حين ثار المصريون ناقمين عليه، واتّصلوا بعثمان وجرى ما جرى.

فاتّصل بمعاوية واشترط عليه ولاية مصر، ولم ينفكّ من الدسائس حتّى دخلها على رأس جيوش الشام، واقتتلوا قتالاً شديداً، ولمّا أُسر محمد بن أبي بكر في

---

١. مقتبس عن كتاب «مزارات أهل البيت وتاريخها» ط. بيروت.

جمعٍ من أصحابه طلب الماء، فقال معاوية بن خديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرةً أبداً! إنّكم منعتم عثمان شرب الماء، والله لأقتلنّك حتّى يسقيك الله من الحميم الغسّاق.

فقال محمد بن أبي بكر: يا بن اليهودية النسّاجة، ليس ذلك إليك، إنّما ذلك إلى الله يسقي أولياءه، ويظمئ أعداءه أنت وأمثالك. أما والله لو كان سيفي بيدي لما بلغتم من هذا.

فقال ابن خديج: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك جوف حمار ثم أُحرقك بالنار!

فقال محمد بن أبي بكر: إن فعلت بي ذلك، فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله تعالى، وإنّي لأرجو أن يجعلها عليك وعلى أوليائك: معاوية وعمرو ناراً تلظّى، كلّما أُطفئت زادها الله سعيراً.

ثم قتله ابن خديج وألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار، كما في الكامل لابن الأثير: ج٣ ص١٨٠.

وقد دُفن رأس محمد بن أبي بكر في المكان المعروف اليوم بـ(جامع محمد الصغير) بشارع الوداع بمصر القديمة، تزوره العامة وتقرأ الفاتحة.

وقد جاء في وصف الجامع وصفاً دقيقاً في كتاب مساجد مصر للدكتورة سعاد ماهر، طُبع سنة ١٣٩٣هـ. وإليك نصّ كلامها بطوله: يقع هذا المسجد في مصر القديمة، بشارع باب الودائع، قريباً من الباب عن يسرة السالك نحو الشرق إلى باب الوداع، وبجوار قبر منهدم يعرف بالكردي، ويعرف الجامع باسم (محمد الصغير) كما كان يعرف باسم (زمام)، وذلك أنّه بعد مضيّ مدّة من قتله أتىٰ زمام مولىٰ محمد بن أبي بكر إلى الموضع الذي دُفن فيه، وحفر، فلم يجد سوى الرأس، فأخذه ومضىٰ به إلى المسجد المعروف اليوم بمسجد زمام، فدفنه فيه وبنىٰ عليه المسجد. ويقال إنّ الرأس مدفون في القبلة، وبه سمّي مسجد زمام.

وقيل: لمّا شقّ بعضُ أساس الدار التي كانت لمحمد بن أبي بكر وجد رمّة رأسٍ

قد ذهب فكّه الأسفل، فشاع في الناس أنّه رأس محمد بن أبي بكر، وتنادر الناس، ونزلوا الجدار وموضعه قبلة المسجد القديم، كما حفر محراب مسجد زمام، وطلب الرأس منه فلم يُوجد، وحفرت أيضاً الزاوية الشرقية من هذا المسجد والمحراب القديم المجاور له، والزاوية الغربية، فلم يجدوا شيئاً، علىٰ أنّه مهما قيل في وجود رأس محمد بن أبي بكر في المحراب أو في جدار بيته، فإنّه من الثابت أنّ مشهده موجود في مكان المسجد المعروف باسمه بمصر القديمة الآن، فقد جاء في الكواكب السيارة:أنّ أكثر قبور أهل مصر فيها الاختلاف، ولم يكن بمصر أصحّ من قبر مسلمة بن مخلد، ومشهد محمد بن أبي بكر الصدّيق، ومشهد زين العابدين، ومشهد عفّان، كذلك الأسعد النسّابة في تاريخه (مشاهد الرؤوس)، وذكر من بينها مشهد رأس محمد بن أبي بكر.

وقد أُعيد بناء المسجد في القرن التاسع الهجري سنة ٨٣٠هـ(١٤٢٦م) في عهد السلطان الأشرف برسباي، على يدي المعزّ تاج الدين الشوكلي الشامي والي القاهرة، وأُقيمت فيه صلاة الجمعة وباقي الأوقات، وعمل فيه السماعات، وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء عند أهل مصر. ثم جدِّد في العصر العثماني سنة ١٢٨٧هـ على يدي سعادة محمد باشا أمير، كما هو ثابت من اللوحة التي تعلو المدخل الرئيسي.

ويعتبر المسجد من الجوامع المعلّقة، إذ يصعد إليه بمجموعة من الدرجات، ويقع المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية المواجهة لحائط القبلة، ويتكوّن من عقد كبير مرتفع ذي ثلاثة فصوص، مليء تجويفه بمجموعة من الدلايات المنحوتة في الحجر، والمسجد من الداخل مغطّىً كلّه، وفي الركن الشمالي الغربي منه توجد غرفة الضريح التي ترجع عمارتها إلى العصر المملوكي، وهي عبارة عن مربّع تحيط به أربعة عقود، وكانت تعلوها قبّة سقطت هي والجزء العلوي من المئذنة إثر زلزال

أطاح بها. والسقف مغطّىً الآن بألواح خشبية، وتعلو المئذنة مدخل المسجد، وتتكوّن من ثلاث دورات: الأُولىٰ مربّعة، والثانية مثمّنة، وبكلّ وجـهة مـن أوجـه المـثمّن تجويف مخلّق، في جانبيه عمودان، وبه فتحة واحدة يتقدّمها شرفة للمؤذّن، ويفصل بين الدورة الثانية والثالثة شرفة خشبية. أمّا الدورة الثالثة فهي مجدّدة، وترجع إلى العصر العثماني، وهي تشبه المسلّة أو طرف قلم الرصاص، انتهىٰ.

الفهارس الفنّيّة

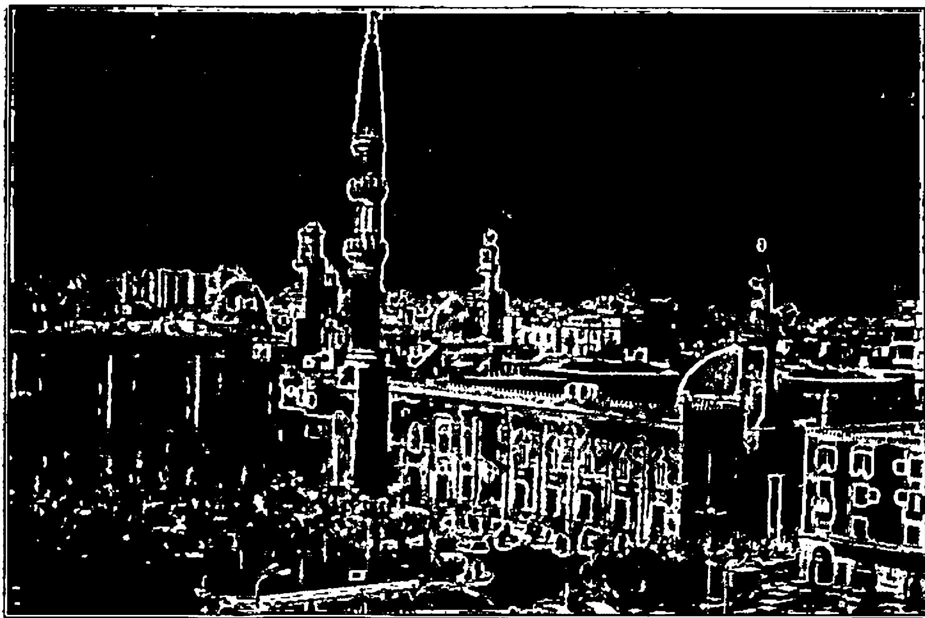
- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

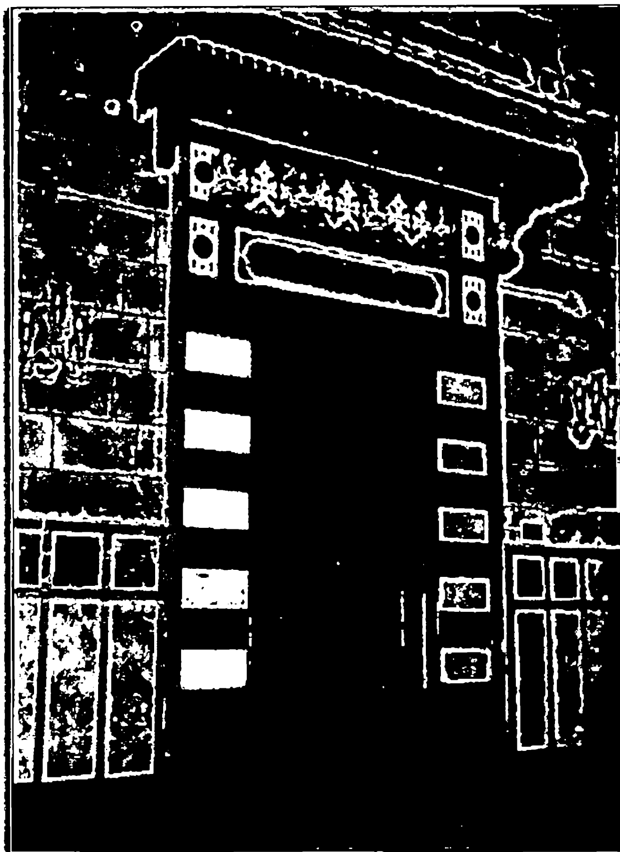
فهرس الأماكن



مسجد الإمام الحسين عليه السلام وتظهر إلى اليمين قبة المرقد



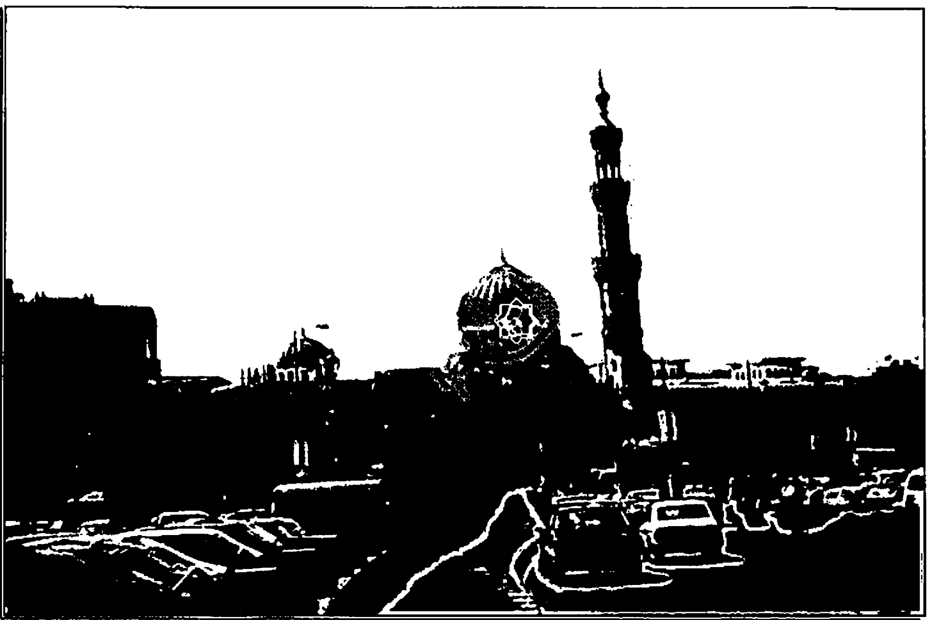
مسجد الإمام الحسين عليه السلام ليلاً



باب غرفة الآثار النبوية بمسجد الإمام الحسين عليه السلام



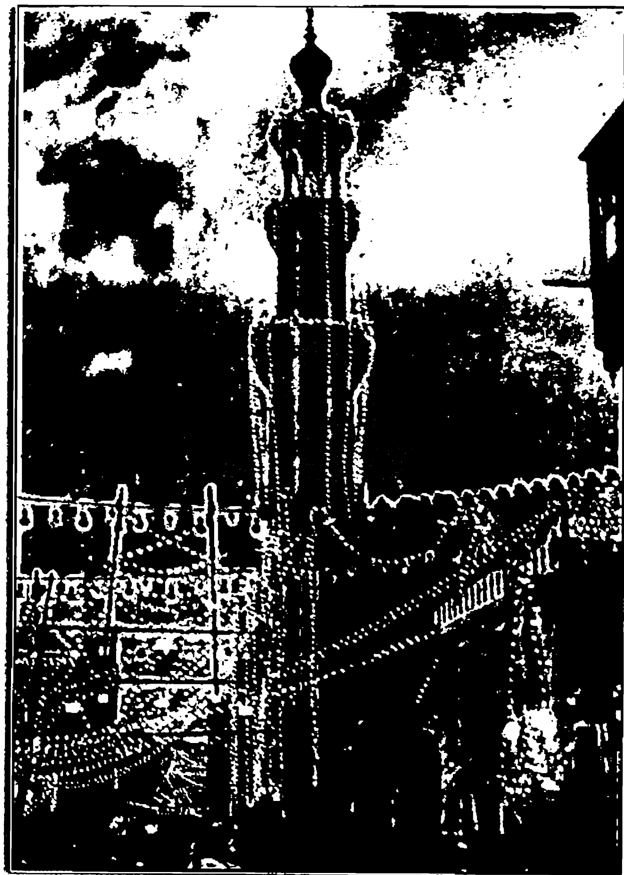
صفحة من مصحف الإمام علي بغرفة الآثار النبوية



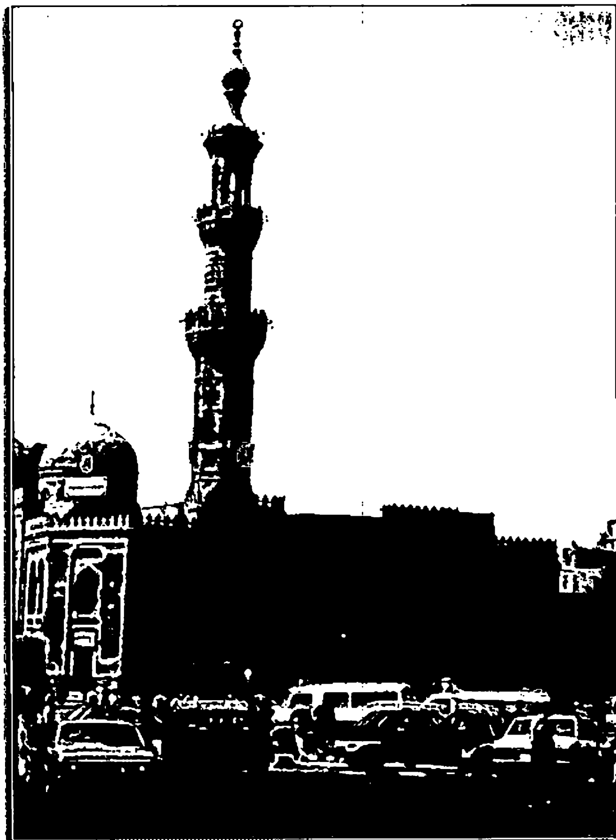
ميدان مسجد السيدة زينب



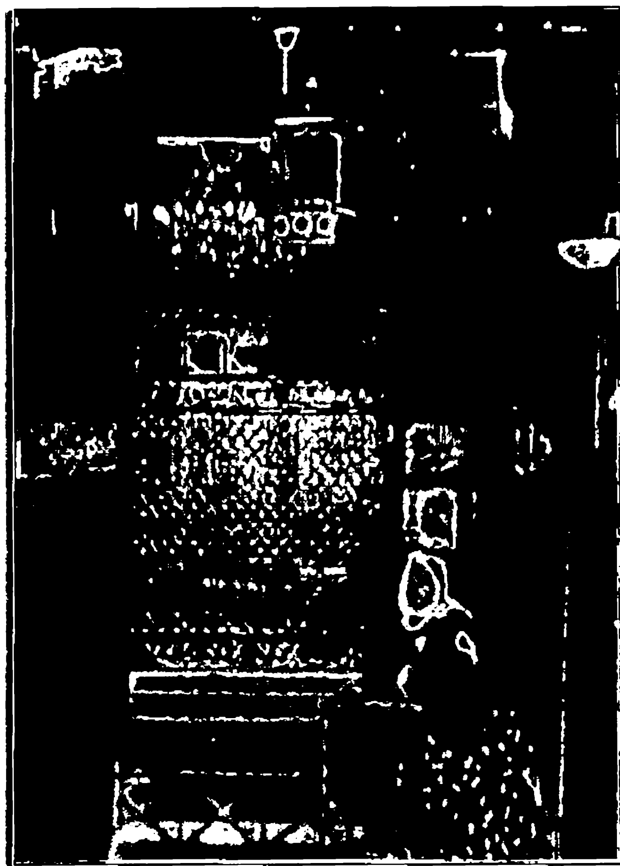
مسجد السيدة زينب في ليلة الاحتفال بمولدها



مسجد السيدة سكينة في ليلة الاحتفال بمولدها



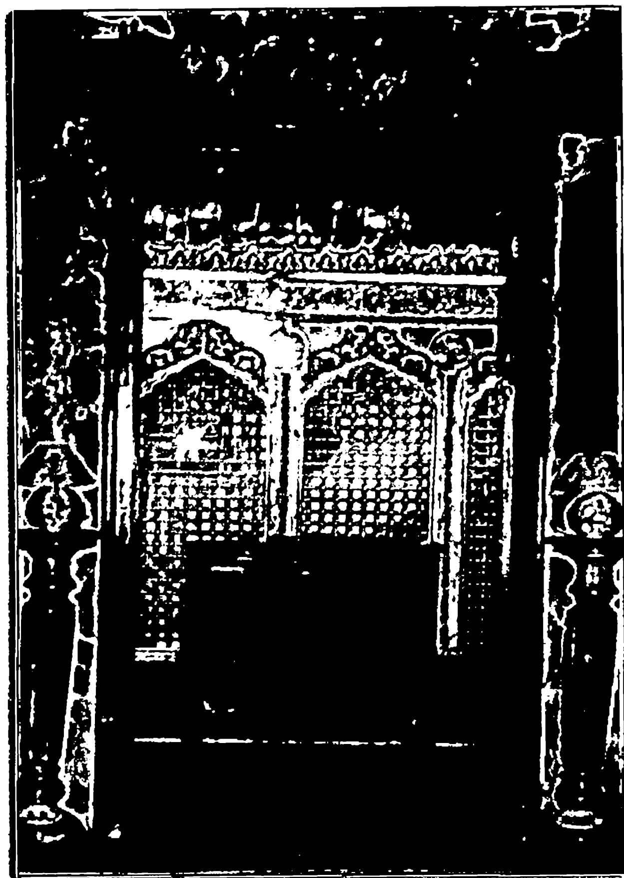
مسجد السيدة عائشة



مدخل مرقد السيدة عائشة



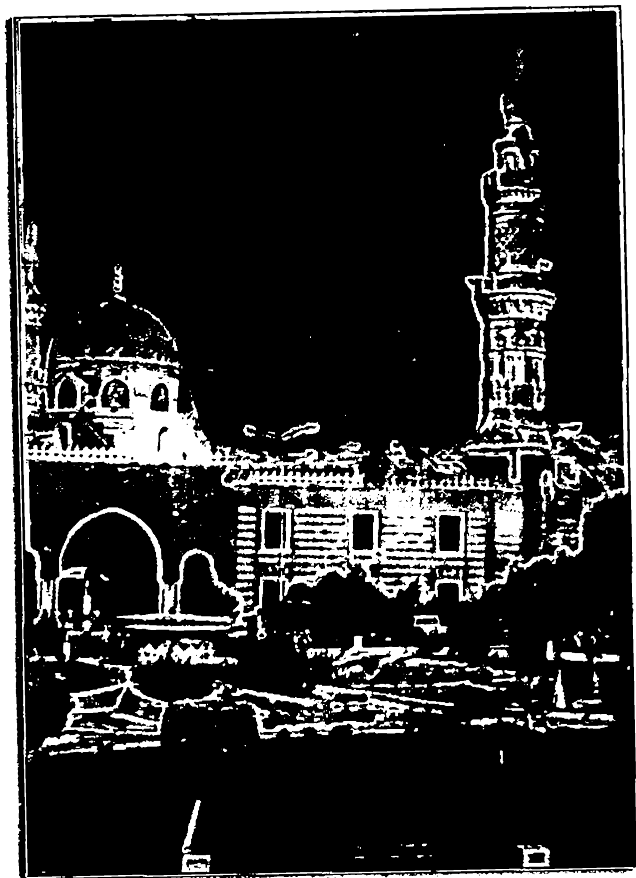
قبة مرقد السيدة رقية



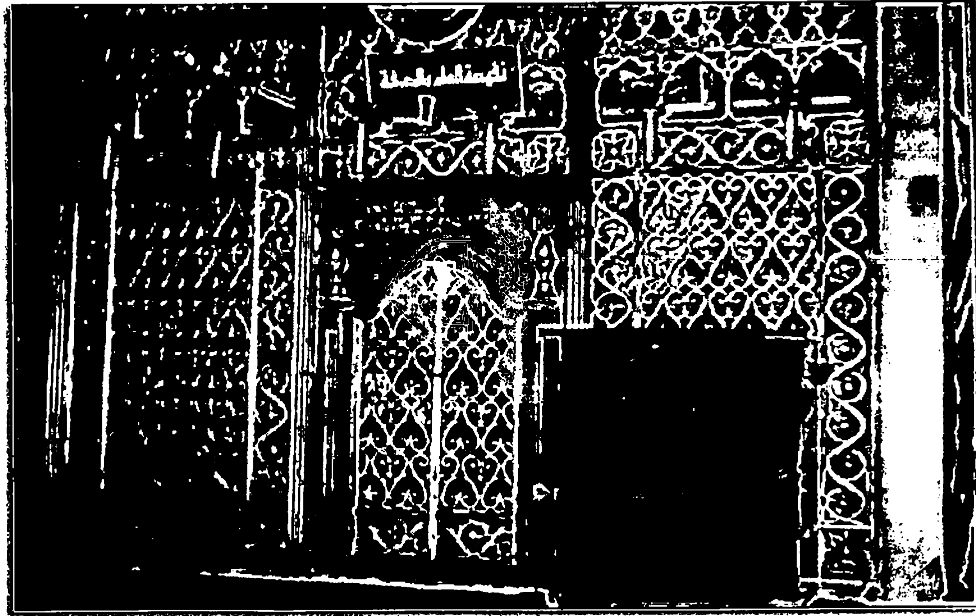
مدخل مرقد السيدة رقية



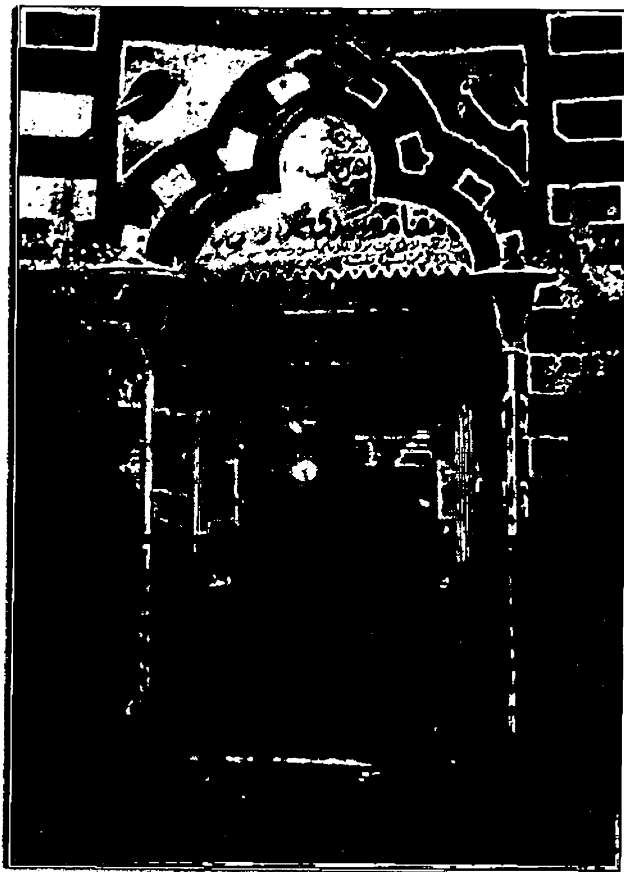
لوحة تحوي تاريخ السيدة رقية داخل مرقدها



مسجد السيدة نفيسة



مرقد السيدة النفيسة



مدخل مرقد عم السيدة نفيسة

مرقد علي بن جعفر الصادق عليه السلام